نادية هاشمي

اللؤلؤة التي كسرت محارتها

"قصةٌ كُتبت ببراعة وإتقان"
The Guardian

"مليء بالتراجيديا والانتصار"
Library Journal

ترجمة:
إيمان حرز الله

kalemat

اللؤلؤة التي كسرت محارتها
The Pearl that Broke Its Shell

نادية هاشمي

Nadia Hsahimi

ترجمة:

إيمان حرز الله

2020

kalemat

يتوسل البحر إلى اللؤلؤة
أن تتحرر من محارتها

من قصيدة «قُبلة نريدها»
جلال الدين الرومي

الفصل 1
رحيمة

وقفتْ شهلا عند باب بيتنا، المعدن المطلي بالأخضر الفاقع نال منه الصدأ عند حوافه، تمدّ عنقها. حين ظهرنا أنا وبارفن عند المنعطف، رأينا الارتياح في عينيها. لن نتأخر مجددًا.

نظرتْ بارفن إليّ فأسرعنا نمد خطانا. لا نركض لئلا نلفت النظر إلينا، بذلنا جهدنا لنسرع. تضرب أحذيتنا المطاطية أرض الطريق فتثير هبات غبار مسودّ. تحتك أطراف تنورتينا بكاحلينا. التصقت حبات العرق طرحتي بجبيني. لا بد أن طرحة بارفن كذلك أيضًا إذ لم تخلعها عن رأسها حتى الآن.

اللعنة عليهم، هذا خطؤهم هم! هؤلاء الصبية بابتساماتهم الوقحة وبناطيلهم القذرة! هذه ليست أول مرة يتسببون في تأخرنا..

مررنا بأبواب البيوت: أزرق، بنفسجي، قرمزي. بقع ألوان بين الجدران الطينية.

أشارتْ إلينا شهلا لنسرع، وهمستْ بعصبية: أسرعا!

تبعناها لاهثين ودخلنا. انصفق الباب المعدني بصوت عالٍ من خلفنا.

– بارفن! لماذا فعلتِ هذا؟

– آسفة، آسفة! لم أظن أن الصوت سيكون عاليًا هكذا.

أدارت شهلا عينيها في محجريهما، وكذلك فعلتُ. بارفن دائمًا تصفق الباب.

– ما الذي أخركما طويلاً هكذا؟ ألم تسيرا من خلف الفرن؟

– لم نستطع يا شهلا! كانوا يقفون هناك!
لقد مشينا في الطريق الطويلة حول السوق لنتجنب المرور جانب الفرن، حيث يتسكع الصبية، يقوّسون ظهورهم ويتفحصون بأعينهم غابة الكاكي التي كانت قريتنا. بالإضافة إلى لعب كرة القدم في الشوارع، كانت الرياضة الأساسية لصبية المدارس هي ملاحقة الفتيات. ينتظرون خروجنا من المدرسة، وما أن نخرج من الفناء حتى يندفع أحدهم بين السيارات والمارة ليسير خلف الفتاة التي أعجبته دون أن تدري. السير خلفها يؤكد زعمه: *هذه فتاتي*. السير خلفها يعلن أنه «*لا يوجد مكان سوى لظل واحد هنا*». كانت أختي شهلا ابنة الاثني عشر عامًا هي المغناطيس الذي جذب انتباهًا غير مرغوب فيه. يقصد الصبية بذلك الغزَل، لكنه يخيف الفتيات؛ لأن الآخرين يفترضون دائمًا أنهن هنّ من سعين للَفت النظر. مع ذلك، لم يكن لدى الصِّبية سبل أخرى لتسلية أنفسهم.
همستُ: شهلا، أين رحيلة؟
كان قلبي يدق بقوة ونحن نسير إلى الفناء الخلفي على أطراف أصابعنا.
– ذهبتْ إلى الجيران ببعض الطعام. طهتْ لهم مادر جان[1] باذنجان. توفي أحدٌ عندهم على ما أظن.
– توفي؟ انقبضت معدتي، لكنني واصلتُ سيري خلفها.
سألتْ بارفن بهمس عصبي: أين مادر جان؟
قالت شهلا وهي تستدير إلينا: تضع الرضيعة في الفراش،

(1) بالفارسية، مَادَر تعني «أم»، وجان «صيغة تحبُّب». (المترجمة).

لذلك فالأفضل أن تبقيا هادئتين وإلا ستعرف أنكما عدتما إلى البيت الآن.

تجمدتُ أنا وبارفن في مكانينا. جزعت شهلا حين رأت أعيننا تتسع. استدارت لتجد مادر جان تقف خلفها.. كانت قد خرجت من الباب الخلفي وتقف في الفناء الصغير المرصوف خلف منزلنا.

– أنا أعرف جيدًا متى عدتن إلى البيت، وأعرف أيضًا أي قدوة تمثلها لكما أختكما الكبرى. كانت تعقد ذراعيها كما تعقد نبرة صوتها. أطرقتْ شهلا برأسها بخجل. حاولتُ أنا وبارفن تجنب نظرةِ مادر جان الصارمة..

– أين كنتما؟

كم تمنيتُ أن أخبرها بالحقيقة!

إن صبيًا، محظوظًا بما يكفي ليمتلك دراجة، قد تتبع شهلا، مرّ بنا بدراجته ثم ظل يدور حولنا. لم تعره شهلا اهتمامًا. حين همستُ لها بأنه ينظر إليها، أسكتتني كأن الكلام سيجعل الأمر حقيقيًا. أبقت عينيها بعيدًا وحاولتْ أن تبدو غاضبة.

– بارفن، انتبهي!

قبل أن أجذبها بعيدًا عن طريقه، كانت العجلة الأمامية لدراجته قد مرت على علبة صفيح على الأرض، تأرجحت يمينًا ويسارًا، ثم انحرفت لتتجنب كلبًا ضالاً، ثم اتجهت نحونا مباشرة. رفع الولد حاجبيه وفتح فمه وهو يكافح لاستعادة توازنه. تفادى بارفن قبل أن ينقلب أمام سُلم محل بقالة.. قالت بارفن بدهشة وصوت مرتفع: آهٍ يا ربي، انظرا إليه! لقد خبط قدمه!

سألتْ شهلا: أتظنانه أصيب؟

يدها على فمها، كأنها لم ترَ منظرًا بهذا السوء من قبل.

- بارفن، تنورتك!

انتقلت عيناي من وجه شهلا القلِق إلى طرف تنورة بارفن الممزق. قطعت سلسلة الدراجة زيّها المدرسي، لقد كان ذلك زيها المدرسي الجديد. فراحت تبكي. كنا نعرف أنه لو أخبرت مادر جان أبانا بذلك، فسوف يُبقينا في المنزل ولن يسمح بذهابنا إلى المدرسة. حدث ذلك من قبل.

- لماذا تسكتن جميعًا فقط حين أسألكن عن شيء ما؟ أليس لديكن ما تقلنه؟ تعدن إلى البيت متأخرات وتبدون كمن كن يطاردن الكلاب في الشارع!

كانت شهلا قد تحدثت بالنيابة عنّا مرات كثيرة فبدتْ ساخطة، وبارفن مجرد حزمة أعصاب دائمًا، فلم يسعها سوى التململ. أما أنا فسمعتُ صوتي قبل أن أعرف ماذا سأقول.

- مادر جان، لم يكن ذلك خطأنا! كان ذاك الصبي صاحب الدراجة. وقد تجاهلناه، لكنه ظل يعود إلينا، حتى أني صحت. أخبرته أنه سيكون أحمق لو لم يكن يعرف الطريق إلى بيته.

أطلقتْ بارفن ضحكة رغمًا عنها، وسألتْ وهي تلتفت إلى شهلا: هل اقترب منكن؟

- لا يا مادر جان، أقصد، لقد كان خلفنا بأمتار قليلة. لم يقل شيئًا.

تنهدتْ مادر جان وفركت جبينها وقالت: حسنًا، ادخلن وابدأن العمل على فروضكن المدرسية. سنرى ماذا سيقول أبوكن بهذا الشأن.

صِحتُ: هل ستخبرينه؟

أجابت وهي تدفعني في ظهري بينما أمر إلى داخل البيت: بالطبع سأخبره، نحن لا نخفي شيئًا عن أبيكن!

بينما كنا نكتب بأقلامنا في دفاترنا، تهامسنا حول ما سيقوله بَادَر[1] جان حين يعود إلى البيت. كان لدى بارفن أفكار ما. اقترحتْ بحماس: لنخبر بَادَر أن مدرستنا عرفت هؤلاء الصبية وعاقبتهم بالفعل، وأنهم لن يزعجوننا مرة أخرى.

- بارفن، لن يجدي هذا، ماذا ستقولين لو سألت مادر جان خانم[2] بهدوري عن الأمر؟

شهلا، صوت العقل: حسنًا، لنخبره أن الفتى قد اعتذر وقال إنه لن يزعجنا مرة أخرى، أو أننا سنذهب إلى المدرسة من طريق أخرى.

- حسنًا بارفن، أخبريه أنتِ؛ لقد تعبت من الكلام معكما على أي حال.

قلتُ: لن تقول بارفن شيئًا، إنها تتحدث فقط حين لا يوجد أحد.

قالت بارفن عابسة: مضحك للغاية يا رحيمة. وأنتِ شجاعة جدًا، ألستِ كذلك؟ لنرَ شجاعتك إذن حين يعود بادَر جان إلى البيت.

بالطبع، لم أكن ابنة التاسعة الشجاعة حين جاء وقت مواجهة بادَر جان. احتفظتُ بأفكاري خلف شفتيّ المزمومتين، ما

---

(1) أب بالفارسية. (المترجمة).

(2) هانم أو سيدة بالفارسية، صيغة احترام. (المترجمة).

لم يمر دون مـلاحظة. في النهـاية، قـرر بادر جـان منعنا من الذهاب إلى المدرسة مرة أخرى.. توسّلنا إليه أن يدعنا نعود إلى المدرسة. جاءت إحدى مدرّسات بارفن، صديقة مادر جان منذ الطفولة، إلى البيت وحاولت مناقشته بالعقل. كان قد استسلم من قبل، لكن هذه المرة مختلفة. إنه يريدنا أن نذهب إلى المدرسة لكنه يكافح ليحدث هذا دون مشاكل.. كيف سيبدو أمام الجميع وصبية القرية يلاحقون فتياته؟! هذا عار.

كان يصيح: لو كان لديَّ ابن لم يكن ليحدث كل هذا! اللعنة! لماذا يمتلئ بيتي بالفتيات! ليس فتاة واحدة ولا اثنتين، بل خمس فتيات!

كـانت مـادر جان تشغل نفسـهـا بأعـمـال البيـت، وكتـفـاها ترزحان بثقل الخيبة.

مـزاجه أسـوأ هذه الأيام. أخبرتنا مادر جان أن نلتزم الهدوء والأدب. قالت إن أمورًا سيئة كثيرة جدًا قد حدثت لبادر جان جعلته غاضبًا، وأننا لو تحلينا جميعًا بأخلاق جيدة فسوف يعود إلى طبيعته سريعًا. مع ذلك كان يصعب تذكر متى لم يكن بادر جان غاضبًا ولا يصيح.

ببقائنا في البيت، توليت أنا مسؤولية شراء الاحتياجات. منع خروج أختيّ الأكبر منّي منذ كبرتا وصارتا لافتتين للنظر. أما أنا فكنت، حتى ذاك الحين، لا مرئية بالنسبة إلى الصبية فلستُ عرضة لخطرهم.

كنت كل يومين أدسّ النقود القليلة التي تعطيها لي مادر جان في الجيب الذي خيّطته لي في ثوبي لئلا تضيع. أركض في الشوارع الضيقة ثم أسير مدة ثلاثين دقيقة حتى أصل إلى السوق التي أحبها. تعج المتاجر بالحركة. تبدو النساء مختلفات الآن عمّا

كُنّ عليه منذ سنوات قليلة. ترتدي بعضهن البراقع الأفغانية الزرقاء الطويلة، الشادور، وترتدي أخريات تنورات طويلة وطرحًا متواضعة. يرتدي الرجال جميعًا مثل أبي، قمصان طويلة وبناطيل واسعة بألوان باهتة مثل محيطنا الطبيعي. ويرتدي الصبية الصغار قبعات مزخرفة بمرايا صغيرة وخيوط ذهبية. حين وصلت إلى هناك، كان حذائي مغبرًا، وضعت طرف طرحتي على فمي ككمامة ضد سحب الغبار التي تثيرها مئات العربات في تحركها. بدا كأن محيطنا الطبيعي الكاكي يذوب في هواء قريتنا.

بعد أسبوعين من تركنا المدرسة كان أصحاب المحلات يعرفونني. لا يوجد الكثير من الفتيات في التاسعة من عمرهن يسرن بعزم من محل إلى آخر. كنت قد رأيت والديَّ يفاصلان في الأسعار، ففكرت أن أقلدهما. فاصلتُ بائع الخبز حين طلب مني ضعف ما دفعته أمي من قبل، والبقال حين حاول إقناعي أن الدَّقيق الذي أريده مستورد ولذلك فسعره أغلى. أكدت له أن بإمكاني شراء الدقيق الفاخر نفسه من أغا ميرويس في نهاية الشارع وهَزَأت بالثمن الذي أخبرني به. جزّ على أسنانه ووضع الدقيق في الكيس، وهو يتمتم من بين أسنانه بكلمات لا ينبغي أن يسمعها الأطفال.

سُرّت مادر جان بمساعدتي إياها في التسوق. كانت مشغولة بما يكفي مع ستارة، التي كانت بالكاد تخطو خطواتها الأولى. تتركها مع بارفن فيما تقوم هي وشهلا بالتنظيف والكنس وتحضير العشاء. في فترات الظهيرة، تجعلنا نجلس إلى كراستنا وكتبنا وننجز فروضًا مدرسية تعطيها هي لنا.

بالنسبة إلى شهلا، كانت الأيام طويلة وصعبة. كانت تتوق

لرؤية صديقاتها والتحدث مع مدرساتها. كانت نقاط قوة شهلا حدسها وذكاءها. لم تكن الأفضل في صفها الدراسي، لكنها عادةً ما تفتن مدرساتها بما يكفي فقط لضمُّها إلى القائمة القصيرة لنجوم الطالبات. كانت متوسطة الجمال لكنها تعتني بمظهرها جيدًا. تقضي خمس دقائق على الأقل في تصفيف شعرها كل ليلة، لأن إحداهن أخبرتها أن هذا يطيل الشعر. كان وجهها من النوع الذي يدعوه الناس أنيسًا؛ ليس جميلاً ولا جديرًا بالتذكر، بل شخصيتها ما تجعلها تتألق. ينظر إليها الناس ولا يسعهم سوى الابتسام. مؤدبة ومهذبة، طالبة نجيبة. لديها طريقة في النظر إليك تشعرك بأنك مهم. كانت تجعل مادر جان فخورة بها أمام الصديقات والقريبات بكلامها كالكبار وسؤالها عن أحوال أفراد أسرهن.

كانت تقول: كيف حال فرزنه جان؟ لقد مر وقت طويل منذ أن رأيتها! أرجوكِ بلغيها سلامي.

فتومئ الجدات برؤوسهن استحسانًا، ويشدن بتربية مادر جان لفتاة مهذبة مثلها.

كانت بارفن مختلفة، مُدهشة. لم تكن عيناها بلون الطين البني كأعيننا جميعًا، بل بلون ما بين البندقي والرمادي يجعلك تنسى ما كنت ستقوله لها. تحيط خصلات شعرها المموج بوجهها ببريق طبيعي، كانت بلا شك أجمل فتاة في عائلتنا الكبيرة كلها، لكنها تفتقد المهارات الاجتماعية تمامًا. كانت في أثناء الزيارات تتكمش في ركن من الغرفة وتتشغل بطيّ وبسط مفرش الطاولة، أما إن استطاعت الهرب من الغرفة قبل دخول الضيوف فذلك أفضل بالنسبة إليها. لا شيء يريحها أكثر من تجنُّب تحية

الثلاث قبلات التقليدية. تظل إجاباتها مقتضبة وعيناها ثابتتين على أقرب مخرج طوال الوقت.

- بارفن، من فضلك، الخالة لايلومه تسألك سؤالاً، هل يمكنكِ أن تستديري من فضلك؟ إن تلك النباتات لا تحتاج إلى السقي الآن!

ما كانت تفتقر إليه بارفن في المهارات الاجتماعية كانت تعوضه إلى حد كبير بمهاراتها الفنية. كانت بارعة مع القلم الرصاص والورقة. يتحول الرصاص الأسود بين يديها إلى طاقة بصرية. وجوه مجعدة، كلب جريح، منزل متهدّم. كانت موهوبة بقدرة على أن تبيّن لك ما لا يمكنك رؤيته في المشهد نفسه الذي تراه معها. كانت ترسم أعمالاً فنية خلال دقائق في حين يستغرقها غسيل الصحون ساعات.

كانت مادر جان تقول: بارفن من عالم آخر، إنها مختلفة.

يجيبها بادَر جان: فيمَ سيُفيدها هذا؟ سيظل عليها البقاء في هذا العالم وشق طريقها فيه.

لكنه كان يحب رسومات بارفن ويحتفظ بكومة منها بجوار فراشه لينظر فيها من حين لآخر.

المشكلة الأخرى بشأن بارفن أنها وُلدت بساق سيئة. أخبر احدهم مادر جان أنها لا بد رقدت على جانبها كثيرًا في أثناء حملها. اتضح العيب حين بدأت بارفن تحبو، لقد استغرقت وقتًا طويلاً لتتعلم المشي، وظلت تعرج حتى هذا اليوم. أخذها بادر جان إلى الطبيب حين كانت في الخامسة أو السادسة، لكنهم قالوا إن الوقت قد تأخر جدًا.

أما أنا، لم أكره ترك المدرسة مثل أختيّ. ظني لأنه منحني

فرصة الخروج وحدي، من دون أختين أكبر مني لتوجِّهاني أو لتصرّا على الإمساك بيدي ونحن نعبر الشارع. أخيرًا، نلت حريتي، حتى بقدر أكبر منهما! كانت مادر جان تحتاج إلى المساعدة في شراء الاحتياجات من الخارج، بعد أن صار الاعتماد على بادر جان في أي شيء مستحيلاً مؤخرًا. كانت حين تطلب منه شراء أشياء في طريق عودته إلى البيت ينسى دائمًا، ويغضب منها لأنها ليس لديها خزين. ويغضب أكثر لو ذهبت إلى المحل بنفسها. كانت من حين لآخر تطلب من جيرانها شراء شيء أو اثنين لها، لكنها حاولت ألا تكرر ذلك كثيرًا؛ إذ تعرف بالفعل أنهم يتهامسون بشأن طريقة سير بادر جان في شارعنا الصغير، تتحرك يداه بعصبية كأنه يشرح شيئًا ما للطيور. تساءلتُ أنا وأختيَّ عن سلوكه هذا أيضًا، أخبرتنا مادر جان أن أبانا يتناول دواء خاصًا ولذلك يتصرف بشكل غريب أحيانًا. في المنزل، لم يكن لديَّ سوى التحدث عن مغامراتي في العالم الخارجي. كان ذلك يُزعج شهلا أكثر مما يزعج بارفن، القانعة بأقلامها وأوراقها.

– ظني أنني سأشتري غدًا بعض الحُمّص المحمَّص من السوق. لديَّ عملات قليلة. إن أردتِ، سأحضر لك بعضًا منه يا شهلا.

تنهّدتْ شهلا ونقلت ستارة من فخذ إلى أخرى. بدت كأم صغيرة مرهقة.. وقالت: دعكِ من هذا رحيمة، لا أريد شيئًا.. اذهبي واجلبي ما نحتاج إليه فقط. أنا واثقة بأنك تتسكعين في الخارج هناك، لا تستعجلين العودة إلى البيت، أنا متأكدة.

– أنا لا *أتسكع*. أنا أذهب لشراء ما تحتاج *إليه* مادر جان. لكن لا عليكِ. أراكِ فيما بعد.

ما كنت أريد إغاظة أختيّ بقدر ما أردت الاحتفال

بامتيازاتي الجديدة بالذهاب والعودة والتجول بين المحلات من دون إشرافهما. لو كنت أكثر كياسة قليلاً لوجدت طريقة أخرى للتعبير عن نفسي. لكن يبدو أن فمي الكبير هذا هو ما لفت انتباه خالة شايما لي. ربما كان لسماجتي فائدة في النهاية.

خالة شايما هي أخت أمي الكبرى. مادر جان الأقرب إليها من أي شخص آخر في عائلتها، لذلك كنا نراها كثيرًا. والأرجح أننا كنا سنخاف من مظهرها لولا أننا نشأنا حولها. وُلدت خالة شايما بعمود فقري ملتو يتمدد في ظهرها كثعبان. أمل والداها أن تجد عريسا قبل أن يتضح قوامها كثيرًا، لكن غُضَّ عنها الطرف مرات كثيرة. كانت العائلات تسأل عن أمي أو عن خالة زبه، الأخت الصغرى، أما خالة شايما فلم يردها أحد بظهرها المحدودب وكتفها المرفوعة.

فهمتْ خالة شايما في وقت مبكر من حياتها أنها لن تلفت نظر أحد؛ فقررت ألا تعنى بالمظاهر البتة. تركتْ حاجبيها ينموان، وكذلك شعيرات قليلة متفرقة في ذقنها، وظلت ترتدي الثوب الداكن نفسه يومًا بعد يوم. ركّزت جهدها بدلاً من ذلك على بنات وأبناء أختيها ورعاية والديها المسنين. كانت تهتم بكل شيء؛ تتأكد أن مستوانا الدراسي جيد في المدرسة، وأن لدينا ملابس مناسبة للشتاء، وأن شعورنا خالية من القمل. كانت طوق النجاة حين لا يستطيع والدانا فعل شيء لنا، وواحدة من القليلين الذين يمكنهم مواجهة بادر جان. لكن، لتعرفَ خالة شايما؛ يجب أن *تفهمها*. أعني *تفهمها* حقًا. فلو لم تكن متأكدًا من نواياها القلبية السليمة فقد تنفر من كلامها الخالي من المجاملات أو نقدها الحاد أو تضييقها عينيها بشك وهي تستمع إليك، لكنك

إن عرفت كيف كان يوجّه إليها الكلام طوال حياتها، من الأقارب والغرباء، فلن تندهش. كانت طيّبة معنا نحن الفتيات، وتأتي دائمًا بجيوب محمّلة بالحلوى. ما كان يُعلّق عليه بادر جان بلؤم أن جيوب الخالة شايما أحلى شيء فيها. وكنا نحن ننتظر خشخشة أغلفة الشكولاتة. كنت قد عُدت لتوي من السوق حين وصلتُ، وأمامي ما يكفي من الوقت لأحظى بنصيبي من الحلوى.

- شايما، صدقًا، أنتِ تدللين هؤلاء الفتيات! من أين تأتين بهذه الشكولاتة هذه الأيام! إنها ليست رخيصة!

ردّت عليها خالة شايما: لا تعطلي بيع حمار ليس حمارك.

هذا شيء آخر خاص بها. يستخدم الجميع تلك الأمثال الشعبية الأفغانية، أما هي فكانت بالكاد تتحدث من دونها. ما كان يجعل محادثاتها ملتوية مثل عمودها الفقري.

- دعكِ من هذا ولندعَ الفتيات يعدن إلى فروضهن المدرسية.

قالت شهلا: لقد أنجزناها يا خالة شايما جان، عملنا صباح اليوم كله لننهيها.

قالت عاقدة حاجبيها: الصباح كله! ألم تذهبن إلى المدرسة؟

قالت شهلا: لا يا خالة شايما. لم نعد نذهب إلى المدرسة الآن.

توسّعُ عينيها وتعرف جيدًا جدًا أنها تُلقي بمادر جان على خط النار: ماذا يعني هذا؟ رئيسة، لمَ الفتيات لسن في المدرسة؟!

بخشية رفعتْ مادر جان رأسها عن إبريق الشاي وقالت: اضطررنا إلى إبقائهن في البيت مجددًا.

- بحق الله، أي حجة سخيفة اختلقتماها هذه المرة لإبعادهن عن الدراسة؟ هل نبح عليهن كلب في الشارع؟

- لا يا شايما. أتظنين أنني لا أفضل عودتهن إلى الدراسة؟ الأمر هو أنهن يقابلن حمقى في الشوارع. أنتِ تعرفين كيف هم الصبية. وحسنًا، إن أبوهنّ لا يرضيه أن يخرجن ليلاحقهن صبية الجيران. أنا لا ألومه، حقًا. أنتِ تعرفين، لم يمر سوى عام واحد فقط منذ أن بدأت الفتيات السير في الشارع. ربما كان الوقت مبكرًا جدًا فقط.

- مبكرًا جدًا؟ وماذا لو كان متأخرًا جدًا؟! ماذا لو كان عليهن الذهاب إلى المدرسة كل هذا الوقت لكنهن لم يذهبن. تخيلي مدى تخلفهن وكمّ ما سيكون عليهن اللحاق به، هل ستبقيهن في المنزل ليمسحن الأرضيات؟ سيظل الحمقى في الشوارع دائمًا يقولون أشياء ويلقون نظرات. صدّقيني، إن أبقيتِ هؤلاء الفتيات بعيدًا عن هذا، فأنتِ لست بأفضل من طالبان الذين أغلقوا المدارس.

نظرتْ شهلا وبارفن إلى إحداهما الأخرى.

- ماذا بوسعي إذن؟ إن ابن عم عارف، حسيب، أخبره أن...

- حسيب؟ ذاك المخبول ذو الفم الأوسع من خزّان روسي؟ أتتخذين القرارات الخاصة بأطفالك بناءً على ما يقوله حسيب؟ اختاه، كنت أظن بك أفضل من هذا.

غمغمتْ مادر جان بإحباط وهي تفرك جبينها: ابقي إذن هنا حتى يعود عارف وأخبريه بنفسك بما تعتقدين أنتِ أن علينا فعله!

قالت خالة شايما ببرود: ومن قال إنني سأغادر؟

وضعت وسادة خلف ظهرها الملتوي واستندت إلى الحائط ترقبنا جميعًا. كان بادر جان يكره تدخلات خالة شايما، وكان صريحًا مثلها تمامًا في هذا الشأن.

- أنتَ أحمق إن ظننت أن الأفضل للفتيات البقاء في المنزل ليتعفنّ بدلاً من تعليمهن شيئًا ما في المدرسة.

قال بادَر جان بفكاهة: أنتِ لم تذهبي إلى المدرسة قط، وانظري كيف تبلين جيدًا.

- أنا أذكى منك بكثير يا صاحب مهندس.

ضربة تحت الحزام. كان بادر جان يرغب في دراسة الهندسة بعد إنهاء المدرسة العليا لكن مجموع درجاته لم يؤهله. حضر بدلاً من ذلك بعض المحاضرات العامة لفصل دراسي واحد ثم ترك الدراسة وبدأ العمل. لديه الآن محل لتصليح الأجهزة الإلكترونية، ومع أنه كان ماهرًا في عمله، لكنه ظل ساخطًا لأنه ليس مهندسًا، اللقب ذو المكانة الرفيعة بين الأفغان.

- اللعنة عليكِ، شايما! اخرجي من بيتي! إنهن بناتي ولا أحتاج إلى قعيدة لتخبرني ماذا أفعل بهن!

- حسنًا، لكن هذه القعيدة لديها فكرة قد تحل مشكلتك، حل يجعلك تحتفظ بكبريائك العالية ويجعل الفتيات يعدن إلى المدرسة.

- انسي. اخرجي فقط ولا تريني وجهك ثانية. رئيسة! أين طعامي بحق الجحيم؟

تدخلت مادر جان، تتوق لسماع ما لدى شايما: ما فكرتك يا شايما؟

كانت تحترم أختها حقًا، طوال الوقت. وكانت شايما على

حق أغلب الأحيان. أسرعتْ تعد طبق طعام وأتت به إلى بادر جان، الذي كان يحدق خارج النافذة بوجه خالٍ من التعبير الآن.

- رئيسة، أتذكرين القصة التي حكتها لنا جدتنا؟ أتذكرين بيبي شكيبه؟

- آه، هذه! نعم، لكن كيف سيساعد هذا الفتيات؟

- لقد صارت ما كانت تحتاج إليه عائلتها. صارت ما يحتاج إليه الملك.

ردّد بادر جان هازئًا: *الملك*. حكاياتك تزداد جنونًا كلما فتحتِ فمك القبيح.

تجاهلتْ خالة شايما ما قاله. سبق أن سمعتْ ما هو أسوأ بكثير.

- أتعتقدين حقًّا أنه سيفلح معنا نحن أيضًا؟

- إن الفتيات يحتجن إلى أخ.

نظرت مادر جان بعيدًا وتنهدت بأسى. ظل فشلها في إنجاب ولد جرحًا غائرًا منذ ولادة شهلا. لم تكن تتوقع ذِكر هذا الأمر أمام الجميع مجددًا الليلة. تحاشت النظر إلى بادر جان.

- أهذا ما جئتِ لتخبريني به؟ أننا نحتاج إلى ولد؟ ألا تظنين أنني أعرف هذا؟ لو كانت أختك زوجة أفضل، لربما كان لدي ابن الآن!

- كف عن التذمّر ودعني أنهي كلامي.

لكنها لم تنهِ كلامها، بل بدأته فقط. في تلك الليلة، بدأت خالة شايما تحكي قصة جدة جدتي، شكيبه، قصة لم نسمعها أنا وأخواتي من قبل قط. قصة غيرتني.

الفصل 2
شكيبه

شكيبه، *اسمك يعني هدية يا بنتي. لأنكِ هدية من الله*.

من كان يدري أن شكيبه ستنال نصيبًا من اسمها، ستصبح هدية تتداولها الأيدي. وُلدت شكيبه في مطلع القرن العشرين، في أفغانستان تحدق فيها كل من روسيا وبريطانيا بنظرات شهوانية. تعد كل منهما بحماية الحدود التي غزتها، كمتوحشين يعترفان بحب ضحيتهما.

كانت الحدود بين أفغانستان والهند تُرسم ثم يُعاد رسمها، كأن الأمر ليس سوى جرّة قلم. ينتمي الناس إلى بلد ثم ينتمون إلى آخر. تتغير الجنسيات كما تغير الرياح اتجاهاتها. بالنسبة إلى بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي، كانت أفغانستان الملعب لـ «مباراتهما الكبرى»، صراع القوى للسيطرة على آسيا المركزية. مع ذلك، كانت المباراة تصل إلى نهايتها ببطء، قاوم الأفغان الحكم الخارجي بشراسة. كانت الصدور تنتفخ بالفخر حين يتحدث الأفغان عن صمودهم، لكن أجزاء من أفغانستان أُخذت شيئًا فشيئًا، حتى انكمشت حدودها مثل سترة صوفية تُركت في المطر. فُقِدت مناطق في الشمال كسمرقند وبخارى لصالح الإمبراطورية الروسية. قُضِمتْ قطع في الجنوب وتناقصت الجبهة الغربية بمرور السنين.

هكذا تشبه شكيبه أفغانستان. تناوبت عليها، منذ الطفولة،

المآسي والأطماع حتى صارت مجرد شذرة مما كان يجب أن تكونه. لو كانت أجمل مما كانت، شيء ما تسر العين رؤيته، لربما مكّن ذلك أباها من تدبير زواج لائق لها حين حان الوقت. لربما جعل ذلك الناس ينظرون إليها بقدر ضئيل من العطف.. لكن قرية شكيبه لم تكن متسامحة. كانت تبعد عن كابول مسافة أسبوع، يفصلها عنها نهر وثلاثة جبال. فكان أغلب أهل القرية يقضون حياتهم كلها فيها، في الحقول الخضراء المحاطة بالجبال، يسيرون في الطرق القذرة التي تصل بين البيوت. كانت القرية واديًا، تربة سمراء يغذيها نهر قريب وقمم عالية تمنح شعورًا بالاحتواء والخصوصية. فيها عدد قليل من القبائل، عائلات ممتدة ترتبط ببعضها البعض على مدار الأجيال. أغلبهم اقارب، بطريقة ما أو بأخرى، والنميمة أحد سبل قتل الوقت.

كان والدا شكيبه ابني عمومة من الدرجة الثانية، دبّرت جدتهما زواجهما. كان كل جيل يقتطع جزءًا من أرض العائلة، ليبنوا عليه بيوتهم، في حال قرروا ترك بيت العائلة. كان أبو شكيبه، إسماعيل برداري، أصغر الأشقاء في البيت.. تزوج إخوانه الأكبر منه قبله وملؤوا البيت بزوجاتهم وأطفالهم. حين وجد إسماعيل أن لا مكان له ولعروسته شفيقة، رفع معوله وباشر العمل. كان محظوظًا مع ذلك؛ إذ ترك له والده الجزء ذا التربة الخصبة من الأرض ليضمن له حصة جيدة من المحصول. كان إسماعيل يعرف هذا لأنه يعمل أكثر من إخوته ولأن أباه يريد ضمان أقصى رعاية للأرض. ثمة الكثير من الأفواه لإطعامها، والمحصول الجيد يجلب دخلاً إضافيًا. لم يكن لدى إخوة إسماعيل حدسه الذي يتمتع به. كان موهوبًا في الزراعة. يعرف

جيداً درجات الحرارة المناسبة، وعدد مرات حرث التربة والقدر المناسب من الماء لريّ النباتات. كان أخوة إسماعيل يكرهونه لأنه الأثير لدى والدهم. ويتظاهرون أمامه بأنهم يفضلون العيش في بيت العائلة. في النهاية، أحاط إسماعيل بيته بجدار من الطين والحجارة من أجل الخصوصية، كأي بيت أفغاني محترم، وأحضر عروسه المتوترة إلى بيتهما الجديد، المحاط برقعة أرض صغيرة على حدود أرض إخوته. كانت حين تقف خارجه ترى أقارب زوجها يخرجون ويدخلون من بيت العائلة، وحين ترى النساء مقبلات نحوها، براقعهن بقع زرقاء في المحيط الكاكي، تدخل بيتها بسرعة وتختبئ، خجلة من بطنها المنتفخة بطفل. وجدها أقارب زوجها مملة وخجولةً، وبمرور الوقت قَلّ اهتمامهم بها وبأطفالها. كان النساء يتهدن بعمق حين تتحدثن معها، وتهمسن لزوجها حين لا تكون قريبة. لو كان والد شكيبه كمعظم الرجال الآخرين لربما أخذ بنصحهن وتزوج من أخرى. لكن إسماعيل برداري لم يكن كذلك، بل ظل مع زوجته رغم شعور والدته وأخواته نحوها.

كان شقيقا شكيبه، طارق ومؤنس، الرابط الوحيد الحقيقي بالعائلة. فيما تعتني شفيقة بشكيبه وشقيقتها الصغرى عقيلة، التي يدعونها أيضًا «بلبل» لصوتها المنغم الرقيق الذي يُذكّر إسماعيل بشدو بلابل القرية، كان طارق ومؤنس يروحان ويجيئان بين بيت أبيهما وبيت جدهما، ينقلان الملابس والخضروات والأخبار. كان جداهما يحبانهما، ولهما اعتبارهما كوريثين ذكرين. كانت والدة إسماعيل، بوبو شاهكل، تحب ترديد أن الولدين هما الشيء الجيد الوحيد الذي أتت به شفيقة. كانا

يسمعان تعليقات الكراهية عرضًا لكنهما عاقلين لئلا يشاركا كل ما يسمعانه. لم تلحظ شكيبه وعقيلة قلة اهتمام عائلة أبيهما بهما؛ إذ كانتا تقضيان أيامهما مع أمهما. قريبتين منها جدًا أحيانًا.

غيرت شكيبه الخرقاء ابنة العامين حياتها في لمح البصر. استيقظتْ من قيلولة نهارية مبكرة وذهبتْ تبحث عن والدتها. سمعت الأصوات المألوفة لإعداد الطعام في المطبخ فذهبتْ إليها. تعثرت قدمها الصغيرة في طرف ثوبها وحلّق ذراعها في الهواء لتسقط عليها طاسة زيت ساخن من على الموقد قبل أن تدركها أمها؛ كانت قد تأخرت. طار الزيت وأذاب النصف الأيسر من وجه شكيبه الملائكي الذي تحول إلى لحم متقرّح ومهترئ.

صرخت شفيقة وأغرقت وجه ابنتها بالماء البارد لكنها كانت قد تأخرت. استغرق الشفاء شهورًا، ظلت فيها شفيقة تنظف وجه ابنتها بلا كلل، بالمزيج الذي أعده لها صيدلي القرية. يزداد الألم وجلدها يناضل للتعافي. كادت الرغبة في حكّ وجهها تصيب شكيبه بالجنون؛ فاضطرت أمها إلى لف يديها بقماش، خاصة حين بدأتْ بالتقاط الجلد الميت المسودّ. كانت تتنابها الحمى مرارًا، حمى شديدة تجعل الرضيعة ترتجف وتتلوى، وشفيقة العاجزة عن فعل شيء سوى الدعاء لابنتها وهي جالسة بجوارها وجسدها يهتز إلى الأمام والخلف تتضرع إلى الله أن يلطف بها.

جاءت بوبو شاهكل لترى شكيبه حين سمعت بالحادث. انتظرت شفيقة بقلق أي نصيحة مفيدة قد تذكرها حماتها، لكن بوبو شاهكل لم يكن لديها شيء. رددت فقط قبل أن تغادر شيئًا

عن ضرورة أن تنتبه شفيقة إلى أطفالها بشكل أفضل، وشكرت الله لأن ذلك لم يحدث لأحد الولدين.

كانت نجاة شكيبه أقرب إلى المعجزة، هدية أخرى من الله. وبرغم شفاء وجهها لكنه لم يعد كما كان. انقسمت شكيبه منذ ذاك الحين إلى نصفين. حين تبتسم، يبتسم نصف وجهها فقط. حين تبكي، يبكي نصف وجهها فقط. مع ذلك كان التغيُّر الأسوأ في وجوه الناس. كان الناس حين يرون جانب وجهها الأيمن يبدؤون بالابتسام، لكنهم إذ يرون النصف الآخر، ما خلف أنفها، كانت وجوههم هي التي تتغير. تذكُّر ردود الفعل هذه شكيبه بأنها قبيحة، مخيفة. كان بعضهم يتراجعون إلى الخلف ويغطون أفواههم المفتوحة بأيديهم، وآخرون لديهم الجرأة ليميلوا، مُضيِّقين أعينهم، ليدققوا النظر. كان المارة وهم على الجانب الآخر من الشارع يتوقفون في سيرهم ويشيرون.

هناك، أرأيتها؟ ها هي الفتاة ذات النصف وجه. ألم أخبرك أن شكلها مخيف؟ الله وحده يعلم ماذا فعلوا ليستحقوا هذا.

حتى عماتها وأعمامها كانوا يهزون رؤوسهم ويطرقعون بألسنتهم كلما رأوها، كان حزنهم وصدمتهم يتجددان كلما رأوها. أطلق عليها أبناء عمومتها أسماء. وجه شولا؛ إذ يشبه جلدها الرز الناعم المتكتل *بابالو* أو الوحْش. كانت تكره هذا الاسم أكثر من أي اسم آخر؛ فقد كانت هي أيضًا تخاف من *البابالو*، المخلوق الذي يخيف أي طفل أفغاني ليلاً.

حاولت شفيقة إبعادها عن التعليقات والسخرية والتحديقات، لكنها تأخرت كثيرًا على إنقاذ تقدير شكيبه لذاتها، الأمر الذي لا يلتفت إليه الكثيرون في جميع الأحوال. كانت

تغطيها بالشادور حين ترى الناس يقتربون من بيتهم، أو في المناسبات القليلة لخروج الأسرة إلى القرية.

تذكري، إن شكيبه تعني هدية. أنتِ هديتنا يا بنتي. لا تدعي الآخرين يضايقونك.

كانت شكيبه تعرف أنها مشوهة بصورة مخيفة، وأنها محظوظة أيضًا لأن أفراد أسرتها يتقبلونها. في الصيف، كان الشادور ساخنًا وخانقًا لكنها تشعر بأمان أكثر عندما ترتديه. يحميها. لم تكن سعيدة تمامًا، لكنها راضية بالبقاء في البيت بعيدة عن الأنظار. بهذه الطريقة تمر أيامها بإساءات أقل. زاد ابتعاد والديها عن العائلة. وازداد السخط من تعالي شفيقة.

كان طارق ومؤنس نشيطين، وإن كان لا يفصل بينهما سوى عام واحد، إلا أنه يمكن اعتبارهما توءمين. حين بلغا الثامنة والتاسعة كانا يساعدان والدهما في عمل الحقل وشراء الاحتياجات من القرية. كانا في العادة يتجاهلان التعليقات التي يسمعانها عن «أختهما الملعونة» مع ذلك عُرِف عن طارق الرد على الإساءات من حين لآخر. ذات مرة، عاد مؤنس إلى البيت بكدمات متفرقة ومزاج مشتعل. كان قد فاض به الكيل من تعليقات صبية القرية عن أخته ذات النصف وجه. ذهب إسماعيل إلى بيت الولد للصلح مع والديه، لكنه لم يؤنب طارق ومؤنس قط لدفاعهما عن أختهما.

كانت عقيلة، المبتسمة دائمًا، تردد أغاني طفولية بصوتها الرقيق كشدو البلبل لترفه عن أمها وشكيبه وهما تقومان بعمل البيت. كن سعيدات وحدهن. لم يكن لديهن الكثير، لكن لديهن كل ما يحتجن إليه ولم يشعرن بالوحدة قط.

عام 1903 ضربت موجة كوليرا أفغانستان. ذوى الأطفال خلال ساعات وأسلموا الروح بين يدي أمهاتهم العاجزات. لم يكن أمام عائلة شكيبه سوى استخدام المياه الملوثة التي تمر بقريتهم. في البدء مؤنس، ثم الآخرون. جاء الوباء وانتشر سريعًا. كانت الرائحة لا تطاق. صُعِقت شكيبه؛ رأت وجوه إخوتها تزداد شحوبًا ونحولاً كل يوم. كانت عقيلة هادئة، انخفضت أغنياتها إلى نواح ناعم. وكانت شفيقة مذهولة، وإسماعيل يهز رأسه بهدوء. جاءت أخبار من بيت العائلة بموت طفلين من أبناء عمومة شكيبه.

انتظرت شكيبه ووالداها بدء تقلصات بطونهم هم. كانوا يعتنون بالآخرين بتوتر، يراقبون أحدهم الآخر في انتظار معرفة من منهم سيسقط مريضًا أولاً. رأت شكيبه أباها يضع ذراعيه حول كتفي زوجته وهي تهتز في صلواتها. كان جلد عقيلة يصفرّ، عينا طارق غائرتان. ومؤنس هادئ وساكن.

كانت في الثالثة عشرة من عمرها حين ساعدت أبويها في غسل وتكفين طارق ومؤنس وعقيلة، البلبل الشادي، بقماش أبيض، الزي التقليدي للموتى. بكت بصمت وهي تعرف أنها ستظل طوال حياتها تطاردها ذكرى مساعدة أبيها الباكي في حفر قبور أخويها اليافعين وعقيلة الرقيقة التي كانت في العاشرة من عمرها فقط. صارت شكيبه وأبواها من الناجين.

كانت تلك أول مرة منذ سنوات تزورهم العائلة. راقبت شكيبه أعمامها وزوجاتهم يأتون إلى بيتهم، يقدمون التعازي قبل أن يتجهوا إلى البيت التالي ليقدموا تعازيهم في الموتى الآخرين. كانوا بلا شك يشفقون على والدي شكيبه، ليس لأنهما فقدا أطفالهما الثلاثة بقدر ما كانت شفقتهما لأن الله لم يترك لهما

أحد الولدين بدلاً من الفتاة المشوهة. لحسن الحظ كانت شكيبه قد فقدت الحس حينذاك.

مات الآلاف ذاك العام. كانت مصيبة العائلة مجرد حلقة في سلسلة الوباء. بعد أسبوع من دفن أطفالها الثلاثة، بدأت شفيقة تهمس لنفسها حين لا ينظر إليها أحد. كانت تطلب من طارق مساعدتها في حمل دلاء الماء. تؤكد على مؤنس أن يأكل طعامه بكامله لينمو ويصير بطول أخيه. تتحرك أصابعها كأنها تضفّر شعر عقيلة.

ثم بدأت تجلس من دون فعل شيء، تنزع شعراتها من رأسها واحدة تلو الأخرى حتى ظهرت فروة رأسها، واختفى حاجباها وأهدابها. وحين لم يعد ثمة شيء لتنتزعه، بدأت بقرص جلد ذراعيها وساقيها. كانت تأكل طعامها لكنها تبصق القطع التي تنسى مضغها. صار همسها أعلى، وتظاهرت شكيبه وأبوها بأنهما لا يلاحظان. كانت أحيانًا تنصت ثم تقهقه بمرح غريب على البيت. صارت شكيبه أمّاً لأمها ببطء، تحرص على أن تحممها وتذكرها بأن تنام ليلاً.

بعد مرور سنة، في شهر القوس[1] الغائم نفسه، قررت أم شكيبه المضنية ألا تستيقظ من النوم. لم يندهش أحد لذلك..أمسك إسماعيل بيدي زوجته وفكر كم تعبوا جميعًا من كل هذا العذاب. ضغطتْ شكيبه خدّها بخد أمها ورأت عينيها خاليتين من حزنهما الزجاجي. لا بد أنها أسلمت روحها وهي

(1) شهر مارس بالتقويم الهجري الشمسي المعتمد في أفغانستان، والذي وضعه عمر الخيام. (المترجمة).

تنظر إلى بارئها. لا شيء آخر قد يمنحها تلك الهيئة الوادعة سريعًا هكذا.

تنهّد البيت بارتياح. حمّمت شكيبه أمها للمرة الأخيرة، غسلت رأسها الأصلع بحرص ولاحظت أنها قد نزعت شعر عانتها أيضًا. زالت آلامها، كان جثمانها خفيفًا بشكل مذهل.

في اليوم التالي خرجت شكيبه وأبوها إلى الحقل ليفتحا الأرض مجددًا. لم يعنيا بإخبار بقية العائلة. تلا أبوها بعض الذكر أعلى كومة التراب، ونظر أحدهما إلى الآخر، يتساءلان في نفسيهما مَن منهما سيلحق بالآخرين أولاً.

بقيت شكيبه وحدها مع أبيها. جاء إلى البيت أحد أبناء عمها ليُخبر عن زفاف سيُعقد قريبًا، وعاد إلى العائلة بأخبار الأرمل الجديد. حطّوا جميعًا على البيت كالصقور خلال أيام يقدمون التعازي، ولكن بعد إسداء النصح أولاً لوالد شكيبه بأنه لديه الآن الفرصة ليبدأ مرة أخرى مع زوجة جديدة. ذكروا أسماء عائلات قليلة في القرية لديها بنات في سن الزواج، أغلبهن أكبر من شكيبه بسنوات قليلة، لكنه كان منكسرًا ومنهكًا بشدة إلى حد أعجز عائلته عن تدبير زواج جديد له.

كبرت شكيبه من دون أن يكون لها سوى والدها وكلماته القليلة وعينيه الوحيدتين. كانت تعمل بجانبه ليلاً ونهارًا. تعمل ليسهل عليه نسيان أنها فتاة. بدأ يعدّها ابنًا، حتى أنه كان أحيانًا يناديها باسم أخيها رغمًا عنه. ثرثرت القرية بشأنهما: كيف لأب وابنته أن يعيشا وحدهما؟ حل الانتقاد محل التعاطف وبقي انعزال إسماعيل وشكيبه عن العالم الخارجي. لم ترد العائلة أي صلة بهما ولم تعتن القرية بالرجل الحزين وابنته، أو ابنه، الحزينة حتى أكثر منه.

بمرور السنوات، أقنع إسماعيل نفسه بأنه ظلٌّ. استطاع تحقيق ذلك بتجاهل كل شيء آخر. كان الوحيد الذي لا يرى وجه شكيبه المشوه ولم يلحظ أنها، كفتاة يافعة، قد تحتاج إلى بعض العناية من امرأة. كانت حين تنزف كل شهر، يتظاهر بأنه لا يشم رائحة قطع القماش المدنسة التي تخبئها مبللة خلف كومة أخشاب في بيتهما المكون من غرفتين. وكان حين يسمع بكاءها يعزو سيولة أنفها إلى نوبة برد.

كان يأخذ ابنته/ابنه معه لمساعدته في زراعة قطعة الأرض الصغيرة. وكانت هي تعمل في الأرض وتذبح الحيوانات وتقطعها كما يفعل أي ابن قوي البنيان لأبيه، ليسهل عليه مواصلة اعتقاده بأن الحياة قد ظلت دائمًا أبًا وابنه. أثبتت شكيبه قدرتها الجسدية، لم تخيب ظن أبيها في قدرتها على إدارة المزرعة، برزت عضلات ذراعيها وكتفيها.

مرت سنوات.. غدت ملامح شكيبه أقسى. صارت راحتا يديها وباطنا قدميها خشنة ومشققة. ازداد انحناء ظهر إسماعيل، ضعُف بصره وجسده. كانت تمر أيام تمتني فيها شكيبه بالحقل والبيت وحدها.

لو كانت شكيبه مثل أي فتاة أخرى لربما شعرت بالوحدة في تلك الحياة الانعزالية، لكن ظروفها كانت مختلفة. كانت دائمًا عرضة لمضايقات الأطفال ووالديهم أيضًا. كان مظهرها صادمًا اينما حلّت، ما عدا البيت.

لمن نزلت به المصائب مرة واثنتين أن يحزن مرارًا، إذ يسهل على القدَر معاودة الكرّة. نال الوهن تمامًا من والد شكيبه، صار صوته أكثر هشاشة، وأنفاسه أكثر قصرًا. رأته شكيبه ذات يوم،

من أعلى الجدار الطيني، يُمسك بصدره، يسير خطوتين ويسقط على الأرض والمنجل في قبضته.

كانت شكيبه في الثامنة عشرة من عمرها حينذاك، لكنها عرفت ماذا تفعل. سحبت جثمان أبيها إلى البيت بقطعة قماش كبيرة. تتوقف كل بضع خطوات لتعدّل قبضتها وتمسح الدموع التي تسيل على نصف وجهها الأيمن. ظل نصف وجهها الأيسر خاليًا من المشاعر.

أرقدَتِ الجثمان في غرفة المعيشة وجلستْ بجانبه، ظلت تكرر الآيات القرآنية الخمس التي حفظتها عن والديها حتى شروق الشمس. في الصباح بدأت الطقوس التي أجرتها عدة مرات خلال حياتها القصيرة. عرّت أباها، تحرص على ستر عورته بالقماش. كان ينبغي أن يغسّله رجل لكنها ليس لديها أحد لتذهب إليه. فضّلت أن يحل غضب الله على البيت على أن تطلب شيئًا من أقاربها الحقراء.. غسلته وأشاحت ببصرها بعيدًا وهي تصب الماء على عورته وتلفّ جسده المتخشب في الكفن، كما فعلت هي وأمها مع أختها. سحبته إلى الخارج وحفرت التربة مرة أخيرة لتستكمل دفن عائلتها كلها. عضّت على شفتيها وفكرت في أن تحفر قبرًا آخر لنفسها؛ إذ لا أحد سيفعل ذلك حين سيأتي أجلها. ردّدت، لا يسعها فعل شيء آخر، بعض الذكر، وراقبتْ أباها وهو يختفي تحت، يختفي مثل أختها، وأخويها وأمها.

عادت إلى البيت الخالي وجلست بصمت خائفة وغاضبة وهادئة..

كانت وحدها.

الفصل 3
رحيمة

– لن نكون أول من نفعل هذا، لقد حدث من قبل.

– أنتِ تسمعين إلى تلك المخبولة شايما وتلك القصة عن جدتك العزيزة.

– لم تكن جدتي. كانت...

– لا يعنيني. كل ما أعرفه أن كلام تلك المرأة يُصيبني بالصداع.

– عارف جان، ظني أنه قد يكون من الحكمة أن نفكر في هذا. لصالح الجميع.

– وماذا سنفيد منه؟ ألا ترين كل من فعله اضطروا جميعًا إلى العودة مجددًا خلال سنوات قليلة؟ الأمر لا يغير أي شيء.

– لكن يا عارف جان، سيكون بمقدورها مساعدتنا. سوف تذهب إلى السوق. وتسير بأختيها إلى المدرسة.

– افعلي ما تشائين، أنا خارج.

كنتُ أتنصتّ بانتباه من الرواق، على بعد أقدام قليلة من غرفة النوم التي نتشاركها جميعًا. المطبخ خلف غرفة المعيشة، أوان قليلة وموقد غاز. كان بيتنا فسيحًا بُني حين كانت عائلة أبي ميسورة الحال. الجدران الآن عارية ومتهالكة وتبدو مثل جدران جيراننا.

حين سمعتُ أبي يتحرك لينهض، ابتعدتُ سريعًا على

أطراف أصابعي بقدميّ الحافيتين على السجاد. حين تأكدتُ من مغادرته، عدتُ إلى غرفة المعيشة لأجد أمي غارقة في أفكارها.

- مادر جان؟

- نعم يا باجم[1]. ما الأمر؟

- عن ماذا كنتما تتحدثان أنتِ وأبي؟

نظرتْ إليَّ وعضت شفتها. قالتْ: اجلسي.

جلستُ أمامها وعقدتُ ساقيّ، أحرص على أن يغطي طرف تنورتي ركبتيّ وسمانتي.

- أتذكرين القصة التي حكتها لنا خالتك شايما تلك الليلة؟

- قصة جدة جدة جدة...

- أنتِ أسوأ من أبيكِ أحيانًا. نعم، تلك القصة. ظني أنه حان الوقت لنغير فيكِ شيئًا ما. ظني أنه من الأفضل أن نجعلك ابنًا لأبيكِ.

- ابن؟

- الأمر بسيط ويفعله الناس طوال الوقت يا رحيمة جان. فكري فقط كم سيسره هذا! وسيكون بوسعك فعل أشياء كثيرة للغاية ليس بإمكان أخواتك فعلها.

كانت تعرف كيف تُثير اهتمامي. أملتُ رأسي جانبًا أنتظرها لتواصل كلامها.

- سنغير ملابسك، ونمنحك اسمًا جديدًا. سيكون بوسعك الركض إلى المتجر في أي وقت نحتاج فيه إلى شيء. سيمكنك الذهاب إلى المدرسة دون قلق من مضايقات الصبية. سيمكنك اللعب. ما رأيك في هذا؟

---

(1) طفلتي أو طفلي، بالفارسية. (المترجمة).

رأيي أن هذا حلم! فكرت في أبناء الجيران: جميل، فهيم، بشير. اتسعت عيناي لفكرة أنني سأستطيع ركل الكرة في أنحاء الشارع كما يفعلون.

لم تكن أمي تفكر في صبية الشارع، بل في خزانة ملابسنا الخالية، في أبي ومدى تغيّره. كان أحيانًا يحالفه الحظ ويكسب مبلغًا من عمل غريب هنا أو هناك. من حين لآخر يعمل ذهنه بما يكفي ليمكنه العبث في محرك قديم وإعادته إلى الحياة. كانت مكاسبه القليلة تلك تُنفق كلها، بشكل ما أو بآخر، على أدويته وطعامنا وملبسنا. وكانت أمي كلما فكرت في هذا تُدرك بؤس موقفنا أكثر.

- تعالي معي، لا داعي لتأخير أي شيء، إن أباك يتناول... أدويته بقدر أكبر هذه الأيام. خالتك شايما معها حق؛ علينا أن نفعل شيئًا ما وإلا سنواجه مصائب.

كنا نحن الفتيات نخاف من المرض، نخشى إنْ مرضنا أن نتناول الدواء الذي يتناوله أبي. كان يجعله يفعل أشياء غريبة ويتصرف على نحو مضحك. يريد أن يرقد في البيت وينام فحسب. أحيانًا يقول أشياء غير مفهومة، ولم يكن يتذكر أي شيء نقوله البتة، وكان حاله يسوء حين لا يتناوله.

كان قد كسّر كل ما هو قابل للكسر في البيت تقريبًا. نجتِ الأطباق والأكواب فقط لأنه لم يتحمل مشقة سحبها من خزانتها. كان قد قذف بالفعل بكل ما في متناول يده نحو الحائط وهشمه: جرّة خزفية، طبق زجاجي كانت أمي قد تلقته كهدية.. هذه خسائر الحرب داخل رأس بادر جان.

قاتل بادر جان مع المجاهدين سنوات عديدة، أطلق النيران

على كتائب الروس التي تقصف قريتنا بصواريخها. حين فرّ السوفيت أخيرًا عائدين إلى بلدهم المنهار، كان ذلك عام 1989، عاد بادر جان إلى البيت يدعو الله أن تعود الحياة إلى طبيعتها، قليلون مَن يذكرون تلك الأوقات.

في ذلك العام، عاد إلى بيت أبويه اللذين بالكاد تعرفا على ولدهما الذي غادر البيت وهو في السابعة عشرة بسلاحه معلقًا على كتفه في سبيل الله والوطن. أسرعا في تدبير زواجه. كان حينها في الرابعة والعشرين من عمره، تأخّر كثيرًا، وظنا أن زوجة وأطفال سيعيدونه إلى طبيعته، لكنه، مثله مثل البلد بأسره، كان قد نسِي الوضع الطبيعي.

كانت مادر جان على أعتاب الثامنة عشرة حين زُفَّت إليه. يخيل إليَّ أنها كانت مرعوبة في ليلة زفافهما مثلما كنت في ليلة زفافي. أتساءل أحيانًا: لماذا لم تحذرني؟ وأفكر أن النساء لا يتحدثن عن هذه الأشياء.

فيما كان البلد يخطط لبدايات جديدة، كان أبواي كذلك أيضًا. جاءت أختي شهلا أولاً، تبعتها بارفن ثم أنا. ثم جاءت رحيلة وستارة. يفصل بين كل منا عام واحد فقط، كنا قريبات في السن لحد أن أمّنا فقط من كانت تستطيع التمييز بيننا ما أن بدأنا السير. لكن مادر جان، بإنجابها فتاة بعد الأخرى، لم تعد الزوجة التي كان بادر جان يتوقعها. كانت خيبة أمل جدتي أشد؛ كانت تفخر بإنجاب خمسة أبناء وبنتًا واحدة فقط.

انهار كل شيء في البيت، تمامًا مثلما حدث حين ترك الروس البلاد. وفيما يسدد المقاتلون الأفغان أسلحتهم وصواريخهم نحو بعضهم البعض، كان بادر جان يحاول الاستقرار

في حياته المنزلية. حاول العمل مع أبيه كنجّار، لكنه، إذ لم يتعلم شيئًا سوى التدمير، وجد صعوبة في البناء. كانت الأصوات العالية تثير توتره. حين نال منه اليأس عاد إلى الجنرال، عبد الخالق، الذي كان يحارب تحت قيادته.

الجنرالات هم أرستقراط أفغانستان الجدد. الولاء لرجل ذي نفوذ محلي يعني حياة أفضل. يعني وجود دخل من حيث لا تحتسب. لم يمر وقت طويل قبل أن يزيّت بادر جان سلاحه الآلي، يعلقه على كتفه ويذهب للقتال مجددًا، هذه المرة في سبيل عبد الخالق. كان يعود إلى البيت في مناسبات متكررة. حين عاد أول مرة ووجد مادر جان قد أنجبت بنتًا أخرى رغم كل شيء، أنا، عاد إلى ساحات القتال بغضب طازج.

بقيت مادر جان في بيت مليء بالفتيات وليس لديها سوى أقارب زوجها الساخطين. كنا نعيش في بيت من غرفتين، جزء من بيت العائلة. جمّعت الحرب العائلات معًا. قُتِل عمّين لي في القتال. ماتت زوجة عم آخر في أثناء ولادة طفلها السادس. ظل أطفاله في رعاية أمي وعماتي الأخريات حتى تزوج عمّي مجددًا خلال شهرين. كان لنا أن نشعر بعزوة العائلة الكبيرة. أن نعطف على بعضنا البعض. لكن كان ثمة سخط. كان ثمة غضب، كان ثمة حقد. كان ثمة، كما في بقية البلد، حرب أهلية.

كانت عائلة مادر جان على بُعد كيلومترات قليلة، لكنهم كمن على الجانب الآخر من جبال الهندوكوش كذلك. لقد منحوا ابنتهم لبادر جان ولا يريدون التدخل في علاقتها بعائلتها الجديدة. ما عدا أختها القعيدة، شايما، كانت الاستثناء.

لا تلقى الإعاقة تسامحًا في قريتنا؛ لذلك وطّدت خالة شايما

نفسها على مقاومة التعليقات والاستهزاء والتحديق. كانت أكبر في السن من بادر جان بعشر سنوات، وكانت تخبرنا بأشياء لا يقولها أحد غيرها. كانت تخبرنا عن الحرب، كيف سيطر الجنرالات على كل شيء واعتدوا بلا رحمة، حتى إنهم هاجموا النساء بطرق مشينة للغاية. في العادة كانت مادر جان تحاول إسكاتها بنظرات متوسلة. كنا صغيرات، رغم كل شيء، لكن خالة شايما لم تكن لتُهدئ من مخاوفنا الليلية. كانت تنسى أحيانًا أننا أطفال وتخبرنا بالكثير جدًا لحد أن نجلس بعيون متسعة خائفات من أبينا.

كان بادر جان، حين يعود إلى البيت، تتباين حالاته المزاجية ما بين سعيد وسليط، بلا مؤشرات لتوقع محدد في هذا النطاق أو متى سيظهر. كانت مادر جان وحيدة وترحب بزيارات أختها، حتى وإن ظلت حماتها تزعجها بشأنها. كانت جدتي تحرص على إخبار أبي بعدد زيارات خالة شايما بالضبط في أثناء غيابه، تطرقع بلسانها استنكارًا تحاول استفزازه. تلك طريقتها لتوضّح لمادر جان أنها هي صاحبة اليد العليا في بيتنا حتى وإن كان على مبعدة خمسين قدمًا من بيت العائلة.

كان الجميع يريدون السيطرة لكنها كانت أمرًا صعبًا. بدا أن الوحيد الذي يتمتع ببعض السيطرة بالفعل هو عبد الخالق، الجنرال. استطاع هو وقواته السيطرة على بلدتنا والبلدات المجاورة، بعد أن هزموا خصومهم. كنا شمال كابول ولم نر معارك منذ أربعة أعوام تقريبًا، لكن مما سمعناه، كانت كابول تحت الحصار. يهز الناس في بلدتنا رؤوسهم بيأس لسماع هذا، لكن بيوتنا كانت قد قُصِفت وتحولت إلى حطام بالفعل. حان دور المترفين في كابول ليشهدوا ما مر بنا.

كانت تلك أوقاتًا قبيحة. يمكنني أن أتخيل ما شهده أبي منذ كان مجرد صبي يافع. مثله مثل آخرين كثيرين، كان يُغيِّب وعيه عن مواجهة ذاك القبح بما تدعوه مادر جان «الدواء». كان يلف ذهنه بسحب الأفيون الذي يمده به عبد الخالق، الوقود الأساسي ليستطيع الرجال خوض الحروب بهذا القدر من الأسلحة على ظهورهم.

يئست مادر جان من أبينا لكنها لم يسعها سوى العناية بنا نحن الفتيات. جلبت لها خالة شايما دواء تناولته لئلا تنجب أطفالاً آخرين. لا أعرف ماذا كان، لكنه ظل فعالاً ستة أعوام. بعد ذلك حين شعرت مادر جان ببطنها ينتفخ مجددًا ظلت تدعو وتصلّي ونفّذت كل ما نصحت به خالة شايما. لكن لم يفلح شيء. من خوفها ويأسها أسمت أختنا الصغرى ستارة وظلت مرعوبة من اليوم الذي سيعود فيه بادر جان إلى البيت ليجدها قد اضافت فتاة أخرى إلى البيت رغم كل شيء.

ثم جاء طالبان. كانوا مجرّد عصبة في الحرب الأهلية لكنهم اكتسبوا قوة، وزحَف نظامهم إلى أنحاء البلاد. لم يؤثر الأمر علينا كثيرًا حتى مُنعنا من الذهاب إلى المدرسة. سُوِّدت النوافذ ومُنِعت الموسيقى. تنهدت مادر جان لكنها واصلت. نظامها اليومي لا تؤثر فيه القوانين الجديدة.

حين وصلت أنباء سقوط بلدتنا في قبضة طالبان، عاد عبد الخالق ورجاله للتصدي لهم والدفاع عن شرفه كجنرال. مرت أسابيع من الانفجارات، البكاء، الدفن، ثم عاد الرجال إلى بيوتهم منتصرين. بلدتنا عادت لنا مجددًا.

مكث بادر جان في البيت شهورًا قليلة. يقضي وقته مع إخوته، حاول مساعدة أبيه في إصلاح مشروع ما، وساعد حتى

بعض الجيران في بناء بيوتهم. سارت الأمور جيداً إلى يوم جاء فيه ولد صغير يطرق بابنا برسالة إلى بادر جان. في الصباح التالي، زيّت بادر جان سلاحه، ارتدى قبعته الصوفية وخرج إلى الحرب مجدداً.

كان يعود من حين لآخر، وكان تأرجُح حالاته المزاجية يسوء مع كل زيارة. كنا نراه يومين أو ثلاثة كل فترة، وكنا أطفالاً، كنا صغاراً للغاية لنفهم الغضب الذي يعود به إلى البيت. لم يعد الشخص نفسه أبداً. حتى بيبي جان، جدتي، كانت تبكي بعد زياراته وتقول إنها فقدت ابناً آخر في الحرب.

كان ابن عمي صدِّيق من حمل إلينا الأخبار. بعد أن سمعها من جدنا: أمريكا. هذا هو اسمها. جاؤوا وقصفوا طالبان. لديهم أكبر الأسلحة. أكبر الصواريخ! وجنودهم أقوياء جداً!

سألتْ شهلا: لماذا لم تأتِ أمريكا من قبل؟

كانت حينها في الثانية عشرة من عمرها تقريباً. حكيمة بما يكفي لتطرح أسئلة تجعلنا جميعاً ننظر إليها بإعجاب. كان صدّيق في العاشرة من عمره لكنه امتلك ثقة شاب عشريني بنفسه. كان أبوه قد قُتِل منذ سنوات ونشأ تحت رعاية جدي. كان الرجل في بيته.

– لأن طالبان فجّروا أمريكا، وهم الآن غاضبون ويردّون لهم الهجوم.

دخل جدنا الفناء وسمع محادثتنا.

– صدِّيق جان، بماذا تخبر أبناء عمك؟

– كنت أخبرهم عن أمريكا بوبا جان. إنهم يلقون بصواريخهم على طالبان!

قالت شهلا بتردد: بادر جان، هل دمرت طالبان بيوتًا كثيرة في أمريكا؟

- لا يا بنيتي. أحدهم شنّ هجوما على مبنى واحد فقط في أمريكا. وهم الآن غاضبون ويطاردونه هو وعُصبته.

- مبنى واحد فقط؟

- نعم.

صمتنا جميعًا. بدا أنها أخبار جيدة. لقد جاء بلد كبير وقوي لإنقاذنا! لدى شعبنا الآن حليف في الحرب ضد طالبان!

رأى بوبا جان في عيني شهلا شيئًا ما يُحيرها، وكان يعرف ما هو تحديدًا.. لماذا غضبت أمريكا بشدة من الهجوم على مبنى واحد فقط؟ لقد صار نصف بلدنا حطامًا على يد طالبان. كنا جميعًا نفكر في الشيء نفسه.. ليت أمريكا تغضب لما حدث لنا أيضًا.

الفصل 4
شكيبه

ظلت شكيبه تعمل في الحقل بكد كأن أباها ما زال معها، تُطعم الدجاج والحمار وتُصلح المحراث حين يعلَق بحجر في الأرض. كان البيت هادئًا، وكئيبًا. أحيانًا يضغط الصمت على أعصابها بشدة فتحاول كسره بعمل أي شيء في البيت، أو بالتحدث مع الطيور التي تحط على الجدار. شعرتْ في بعض الأيام بالرضا، سعيدة باكتفائها الذاتي تقريبًا. تمنّت أن تحب أمها الأزهار الصغيرة التي زرعتها على قبر عقيلة وهي تستمع إلى شدو بلابل القرية.

كانت بعض الأشياء صعبة. من دون أبيها معها، لم يكن لها اتصال بالقرية أو بمواردها. استخدمت زيت الطهي بحرص شديد، وكذلك تعاملتْ مع محصول الحقل لئلا تجوع. حفرتْ حوضًا صغيرًا بين البيت والجدار وزرعت بطاطس ليكون لديها مؤونة لشهور الشتاء التالي. قطفت الفول وأكلت منه قليلاً، لتترك الباقي حتى يجف لاستخدامه فيما بعد.

بدا أن وفاة أبيها قد عجّلت بحلول الشتاء، حسب شعورها المشوّه بالزمن. ليس لديها أسباب كثيرة لتعني بالشهر أو بالسنة. كانت الشمس تشرق وتغرب وشكيبه تواصل أعمالها، تتساءل من حين لآخر عما سيؤول إليه حالها. كم سيطول بقاؤها هكذا؟ فكرت أكثر من مرة في إنهاء حياتها. ذات مرة، ضغطت على

أنفها وأغلقت فمها. شعرت بصدرها يضيق شيئًا فشيئًا حتى تنفست أخيرًا وبقيت على قيد الحياة تسبّ ضعفها.

فكرت مرة أخرى في حفر قبرها، إلى جانب قبر والدها، والرقود فيه. قد يراها المَلَك جبريل فيُعيد لمّ شمل الأسرة. تساءلت، هل سترى أمها مرة أخرى؟ دعت الله، إن حدث ذلك، أن ترى الأم التي كانت تغني وهي تعد لهم الطعام، وليس الصلعاء ذات العينين الزجاجيتين التي دفنتها شكيبه.

جاء الشتاء، وعانت شكيبه وحدها، تقوتت بما تدبرت ادخاره في الخريف. كانت كلما تكبدت عناء خلع ملابسها للاستحمام تلاحظ بروز ضلوعها أكثر. استخدمت ثياب إخوتها للف عظامها ضد الأرض القاسية. ضعُفَت، تساقط شعرها وتقصف، وكانت لثتها تنزف حين تمضغ أي شيء لكنها بالكاد لاحظت مذاق الدم في فمها.

جاء الربيع وتطلعت شكيبه لدفء الشمس والمهام التي تأتي معه، لكن زائرًا آخر جاء مع الربيع، ومعه أول إنذار لشكيبه بأنها لن يُسمح لها بالعيش هكذا وقتًا طويلاً.

كانت تُطعِم الدجاج حين رأت ولدًا صغيرًا من بعيد، يُقبل نحوها من بيت جدها. لم تستطع تحديد من كان، لكنها دخلت البيت لترتدي الشادور. ظلت في الداخل تذرع الخطى روحة وجيئة، تختلس النظر من الباب من حين لآخر لتتأكد أنه مقبل نحوها. كان كذلك بالفعل وفيما يقترب، رأت شكيبه أنه لا يتجاوز السابعة أو الثامنة من عمره. اندهشت من وفرة صحته وتساءلت ماذا يأكل أبناء عمومتها في بيت العائلة. شعرت بالامتنان مجددًا لاختبائها تحت الشادور الأزرق.

صاح بصوت مرتفع حين اقترب بما يكفي: سلاااام! أنا حميد! عمي العزيز، أريد أن أتحدث معك!

حميد؟ مَن حميد؟! لم تتفاجأ شكيبه أنها لم تعرفه. الأرجح أن أبناء عمومة كثيرين قد وُلدوا منذ أن فقدت اتصالها بالعائلة.

تساءلت كيف تجيبه؛ هل تجيب أم تلتزم الصمت؟ ما الذي سيجعلهم أقل فضولاً؟

– سلاااام! أنا حميد! عمي...

قاطعته شكيبه: عمك ليس في البيت. لا يمكنه التحدث معك الآن.

لا إجابة. تساءلت إن كانوا قد حذروه بشأنها، تخيَّلت ما قالوه.. «*لكن كن حذرًا، إن لعمك ابنة، وحشًا، حقًا. النظر في وجهها مخيف، فلا تخاف كثيرًا. إنها مجنونة وقد تقول أشياء مجنونة*».

وضعتْ شكيبه أذنها على الحائط، تحاول أن تسمع إن كان حميد ما زال هناك أم سار مبتعدًا.

– من أنتِ؟

لم تعرف شكيبه كيف تجيب.

– أنا أقول من أنتِ؟

– أنا... أنا...

– أأنتِ ابنة عمي؟ هل أنتِ شكيبه؟

– نعم.

– أين عِمي؟ أنا أحمل إليه رسالة.

– إنه ليس هنا.

– أين هو إذن؟

هناك عند حافة الحقل. أترى تلك الشجرة؟ التي يجب أن تطرح تفاحًا لكنها لا تطرح شيئًا البتة؟ هو هناك. لقد مررت به لتوك، إنه هناك مع أمي وأختي وأخويّ. قل له ما شئت في طريق عودتك إلى البيت المليء بالطعام.

لكنها لم تقل ما كانت تفكر فيه. تبقى لديها قدرًا من صوابها رغم كل شيء.

– أنا اقول أين هو؟

– لقد خرج.

– متى سيعود؟

– لا أعرف.

– حسنًا، أخبريه أن بوبو شاهكل تريد رؤيته. تريده أن يأتي إلى البيت.

بوبو شاهكل جدة شكيبه لأبيها. لم ترَها شكيبه منذ أن أخذت الكوليرا أسرتها. جاءت بوبو شاهكل ذات مرة لتخبر ابنها بشأن فتاة في القرية، ابنة صديق. كانت تريده أن يأخذها ابنها زوجةً ثانية، ربما لتقنعه أيضًا بالعودة إلى مسكن العائلة بزوجته الثانية وإبقاء زوجته الأولى في بيتها. تذكرت شكيبه أمها وهي تستمع لذلك برأس مطرق، دون أن تقول شيئًا.

– أخبر بوبو شاهكل أن... أنه ليس هنا الآن.

كانت تقول الحقيقة.

– هل ستخبرينه ما قلته؟

– سأفعل.

سمعت خطواته تبتعد لكنها انتظرت ساعة كاملة قبل أن تتحرك من خلف الحائط، تحسبًا فقط. لم تكن أذكى الفتيات،

لكن حتى شكيبه عرفت أنها مسألة وقت فقط قبل أن ترسل جدتها برسالة أخرى.

مرت ثلاثة أشهر.

كانت شكيبه تربط المحراث بالحمار لتبدأ حرث التربة حين رأت رجلين يسيران نحو البيت. انطلقت إلى الداخل وسحبت الشادور بذعر. خفق قلبها وهي تنتظر اقترابهما. أبقت أذنها على الحائط من الداخل، تتسمع خطواتهما.

- يا إسماعيل! اخرج وتحدث معنا! إن أخويك هنا!

أخو أبيها؟ بوبو شاهكل تريده في أمر جاد. حاولت مذعورة التفكير في شيء معقول لقوله.

- أبي ليس في البيت!

- كفى هراء يا إسماعيل! نحن نعرف أنك هنا! هل تخاف الخروج من بيتك لهذه الدرجة؟ أخرج إلينا وإلا سندخل إليك لنعيد إليك بعض صوابك!

- أرجوكما، إن أبي ليس في البيت!

سمعت التوسل في صوتها. هل سيقتحمان المنزل؟ لن يبذلا جهداً كبيراً إن شاءا. سينفتح الباب لأقل لمسة منهما.

- اللعنة عليك يا إسماعيل! ماذا تفعل بالاختباء خلف ابنتك! تنحّي جانباً يا فتاة، سوف ندخل!

الفصل 5
رحيمة

أخذتني مادر جان خلف المنزل ومعها موس حلاقة بادر جان ومقص شعره. جلستُ مضطربة وأخواتي تراقبننا. جمعتُ شعري الطويل خلف رأسي في ذيل أرنب، رددت دعاءً وبدأت تقصه ببطء. بدت شهلا مذهولة، وبدت رحيلة مستمتعة، وراقبتْ بارفن للحظة قبل أن تركض إلى البيت لتجلب أقلامها وأوراقها. ظلت هناك ترسم بحماس وظهرها لي.

قصّتْ مادر جان شعري وسوّتْ أطرافه، ثنت أذنيّ إلى الأمام لتقص ما خلفهما. قصّتْ ناصية شعري حتى أصبحت قصيرة ومفرودة على جبيني. نظرتُ إلى الأرض حولي ورأيتُ الشعر في كل مكان. نفضتْ مادر الخصلات الساقطة من على كتفيّ، نفختْ في عنقي ومسحتْ ظهري. شعرتُ برأسي عاريًا، مكشوفًا. قهقهتُ بمرح عصبي. شهلا فقط من لاحظت الدمعة التي سقطت على خد مادر جان.

كانت الخطوة التالية ثيابي. طلبت مادر جان من زوجة عمي قميصًا وبنطالاً. كانا قد صغرا على ابن عمي، كما صغرا على أخيه الأكبر وابن عمي الآخر من قبله. أرسلتني إلى الداخل لأرتديهما ريثما تكنس هي وأخواتي شعري كفتاة من الفناء.

أزلقتُ إحدى قدميّ في البنطال ثم الأخرى. كان أضيق وأثقل من بنطالي الفضفاض الذي أرتديه تحت ثيابي. أحكمتُ ربط حزام الخصر وعقدته. ارتديت القميص من أعلى رأسي

وأدركت غياب شعري حين حاولت سحبه فلم أجده، مررت بيدي على خلفية رأسي، ألمس الأطراف القصيرة.

نظرتُ إلى الأسفل ورأيت ركبتيّ تبرزان من البنطال. عقدتُ ذراعيّ أمام صدري ورفعت رأسي، كما رأيت ابن عمي صديّق يفعل مرات كثيرة جدًا. ركلتُ بقدمي، أتظاهر بوجود كُرة أمامي.

أهذا كل شيء؟ هل صرت فتى بالفعل؟

فكرتُ في خالة شايما. تساءلت ماذا ستقول حين تراني هكذا. هل ستبتسم؟ أكانت تعني ذلك حقًا حين اقترحتْ تحويلي إلى فتى؟ أخبرتنا أن جدة جدتنا كانت تعمل في الحقل كفتى، وأنها كانت ابنًا لأبيها. انتظرتها أن تُكمل حكايتها، أن تصل إلى النقطة التي ستتحول فيها جدة جدتنا إلى فتى. قالت خالة شايما إنها ستعود وتخبرنا بالمزيد في يوم آخر. كرهت الانتظار.

سويتُ قميصي وعدت إليهن لأرى ماذا ستقول أمي.

قالت مادر جان: حسنًا! ألستَ فتى صغيرًا جميلاً!

حتى أنا ميزت التردّد العصبي في صوتها.

– أأنتِ متأكدة مادر جان؟ ألا أبدو غريبة؟

غطت شهلا فمها بيدها حين رأتني.

– يا إلهي! تبدين كالفتيان تمامًا! مادر جان، بالكاد يمكنك تمييز أنها هي!

أومأت مادر جان برأسها.

قالت رحيلة بحسد: لن تضطري إلى إزالة العُقَد من شعرك بعد الآن.

كانت إزالة العُقَد من شعورنا طقسًا صباحيًا مؤلمًا. وكان شعر رحيلة كتلة من أعشاش طيور ضئيلة تكافح مادر جان لتسريحها فيما تتلوى رحيلة وتصرخ.

قالت مادر جان بحنان: باجِم، من الآن فصاعدًا سنناديك رحيم بدلاً من رحيمة.

بدت عيناها أثقل مما يجب أن يكونا في سن الثلاثين.

– رحيم! علينا أن نناديها رحيم؟

– نعم، إنها الآن أخوكن رحيم.. انْسَيْنَ أختكن رحيمة ورحِّبن بأخيكن رحيم. هل يمكنكن ذلك يا فتيات؟ من المهم جدًا أن تتحدثن عن أخيكن رحيم فقط ولا تذكرن أبدًا أن لديكن أختًا أخرى.

– وفي حال نسينا شكلها حين كانت رحيمة، رسمتْ بارفن تلك الصورة لها.

ناولت رحيلة مادر جان الصورة التي رسمتها بارفن حين كانت مادرْ جان تقص شعري. كانت تشبهني بشكل لا يصدق، تشبهني سابقًا وأنا بشعري الطويل ونظرتي الساذجة. نظرتْ مادر جان إلى الرسم وتمتمتْ بشيء ما لم نفهمه، ثم طوت الورقة ووضعتها على المائدة.

سألتْ شهلا متشككة: أهذا هو كل شيء؟ هكذا فقط؟ هل هي ولد؟

قالت مادر جان بهدوء: هكذا فقط، هكذا يسير الأمر. سيفهم الناس. سوف ترين.

كانت تعرف أن أخواتي سيكنّ أصعب من قد يقتنع، أما الآخرون جميعًا؛ المدرسون، والعمات، والأعمام، والجيران، فسوف يتقبلون ابن أمي الجديد بلا صعوبة. لمَ أكن أول باشابوش[1]. كان ذلك تقليدًا شائعًا لدى العائلات التي لم تُرزق

---

(1) الفتاة التي ترتدي زي الصبيان كتقليد شائع في أفغانستان وباكستان، تلجأ له الأسر التي لا يوجد لديها أفراد ذكور. (المترجمة).

بولد. ما كان يُرعب مادر جان بالفعل هو يوم أن يضطروا إلى إعادتي فتاة مرة أخرى. لكن هذا لن يحين وقته إلا حين أبلغ، وما زال ذلك بعيدًا لسنوات.

قالت بارفن حين عادت إلى الفناء لترى ماذا حدث: عجيب!

- هكذا هو الأمر. صارت فتى.

قالت بارفن بهدوء: لا ليس بعد، ليست فتى بعد.

قالت رحيلة: ماذا تعنين؟

- عليها أن تسير تحت قوس قزح.

- قوس قزح؟

- ماذا تقولين؟

قالت مادر جان وهي تبتسم بوهن: بالله عليك يا بارفن، أنا لا أذكر أنني أخبرتك بتلك الأنشودة.. كيف تعرفينها حتى؟

رفعت بارفن كتفيها. لم ندهش. بارفن تنسى إن كانت قد تناولتْ فطورها أم لا، لكنها عادةً ما تعرف أشياء لا يتوقع أحد منها معرفتها.

سألتُ: عن ماذا تتحدثان مادر جان؟

أريد أن أعرف إن كانت بارفن على حق أم أن خيالها يقودها جيدًا اليوم.

- إنها تتحدث عن أنشودة قديمة. لا أعرف إن كنت أتذكر القصة كلها حتى، لكنها عن ما يحدث لو مررتِ من تحت قوس قزح.

سألتْ رحيلة: ماذا يحدث لو مررتُ من تحت قوس قزح؟

- تقول الأسطورة إن المرور من تحت قوس قزح يجعل الفتيات فتيانًا والفتيان فتيات.

- ماذا؟ هل هذا حقيقي؟ هل يمكن أن يحدث هذا حقًا؟

أربكني هذا. أنا لم أمر من تحت قوس قزح. حتى أنني لم أرَ

واحدًا من قبل. كيف سيفلح هذا التغيير إذن؟

- أخبرينا بالأنشودة، مادر جان. أنا أعرف أنك تذكرينها.

بدأت بارفن تشجعها: *شربنا بمرح*...

تنهدت مادر جان وذهبت إلى غرفة الجلوس. تبعناها. جلست واستندت بظهرها إلى الحائط ونظرت إلى السقف، تحاول تذكر التفاصيل. سقطت طرحتها على كتفيها. جلسنا حولها وانتظرنا بتحفز.

بدأتْ مادر: *أف سنه، سي سنه*...

قصة واحدة، ثلاثين قصة. ثم غنت الأنشودة:

شربنا بمرح ولعبنا في الحقول

أبهرتنا ألوان الأزرق والأخضر والزعفراني

الضباب حولنا

بيني وبينهم

تلمس الألوان ملكوت السماء

شببتُ أريد أن ألمس القوس،

امتزجت الألوان معًا

وانحنى القوس بشدة ليرحب بالأخ

نحن -الخدم المتواضعين- مررنا تحته بهدوء

قوس رستم[1] *يحول الفتاة إلى فتى، والفتى إلى فتاة*

حتى جف الهواء وترك اللعبة

وانقشع الضباب وفتح ذراعيه، وعادت الألوان إلى موضعها.

---

(1) ملك ومحارب وبطل شعبي إيراني من القرن السابع، سمى الإيرانيون قوس قزح باسمه حبًا وتمجيدًا له. (المترجمة).

الفصل 6
شكيبه

جلستْ شكيبه مستندة بظهرها إلى الحائط البارد. كان الوقت ليلاً والبيت هادئًا. تسمع الشخير من جميع الاتجاهات، بعضه أعلى من الآخر. ترى في الضوء الناعم للقمر القدور والأواني التي غسلتها وكدستها في الركن لتفسح مجالاً لبطانيتها. مثل أغلب الليالي، كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، بينما الآخرون جميعًا نائمون. كانت تلك الساعة من الليل التي تتساءل فيها ماذا كان بوسعها فعله على نحو مختلف.

دخل عمّاها إلى البيت ذاك اليوم، رفضا أن يعودا أدراجهما. الآن بعد أن عادت صلتها بجدتها، لا يمكنها لومهما على إصرارهما. لا أحد يرغب في عصيان أوامر بوبو شاهكل. كانت مخيفة بما يكفي وهي راضية.

لم يستغرق عمّاها وقتًا طويلاً ليدركا أن شيئًا ما قد حدث لأبيها. كانت رائحة البيت عفنًا ووحدة. كانت شكيبه قد توقفت عن كنسه وركنت قشور البطاطس في أحد الأركان، لم تعن بإخراجها من البيت. بعد فترة من الوقت لم تعد تلحظ الرائحة. لكن الأمر لم يقتصر على البيت فقط، كانت قد فقدت الاهتمام بنفسها أيضًا، لم تعن بغسل ثوبها، وقد ظلت أغلب الوقت في الشتاء متكورة تحت البطانية، تاركة روائحها الكريهة تتخمر. ذكّرها ضوء النهار والدفء بالاستحمام لكن الأمر استلزم

الاغتسال عدة مرات لإزالة ما صارت إليه. كان شعرها عشاً متشابكًا للقمل ويستلزم تسريحه شهورًا.. كانت نحيلة وشاحبة، للحظة اعتقد عمّاها أنهما ينظران إلى نفر من الجن. كيف لأحد حيّ أن يبدو هكذا؟

سألا عن أبيها، مسحا بعينيهما الغرفة وأدركا على الفور أنه ليس هناك. انكمشت شكيبه في ركن، تريد الاختباء منهما لكنها تخاف أن يقتربا منها. لم يريا عينيها، لكنهما شمّا خوفًا، عرقًا ودمًا. سألاها مجددًا، بصوت أعلى، وأكثر غضبًا.

حينها رحلت شكيبه. سمعت صرخة ورأت شبحًا أزرق يقفز من أعلى الجدار الذي يحميها من أنظار الآخرين، الجدار الذي بناه أبوها ليحرس أسرته. سمعت صرخة أخرى والشبح الأزرق يسقط على الأرض ثم تُمسِك به الأيدي، ادهشتها سهولة قبض أصابعهما على العظام. أراد الشبح أن يقاوم، أن يفر هاربًا، لكن الرجلين يقبضان على عظامه. أمسكا بها واستسلمتْ، تركتهما يلفانها ببطانيتها ويحملاها إلى بيت العائلة بالطريقة نفسها التي حملت بها أباها إلى قبره.

أطلقت شكيبه عويلاً وهي تمر بالشجرة التي ترقد أسفلها عائلتها ونادت عليهم. حاولت أن ترفع رأسها لترى كومات قبورهم.

مادر. بادر. طارق. مؤنس. بلبل.

لم ترَ عميها يتبادلان النظر، يدركان معًا أن الأسرة كلها ماتت، حتى أخيهما إسماعيل. لم ترهما شكيبه وكل منهما يعض على لسانه، يحبس دموعه ويتمتم أنه كان يجب أن يكون موجودًا لغسل جثمان أخيه ودفنه. كانت شكيبه الناجية الوحيدة،

الوحيدة التي لم يرغب أحد في نجاتها. تساءلا منذ متى والفتاة تعيش وحدها؟ وهزا رأسيهما إزاء هذا العار. فتاة، وحدها! أي عارٍ سيجلبه هذا للعائلة إن علم به أحد في القرية!

أرقداها في فناء البيت وذهبا ليخبرا بوبو شاهكل. خلال دقائق، كانت المرأة العجوز قد هرعت لتقف أعلى شكيبه، تنظر إليها بعينين غشتهما المياه البيضاء، تدقق النظر في الحفيدة غير المرغوب فيها.

- أخبرا زوجتيكما أن تحمماها. حذراهما أن وجهها قد يقلب معدتيهما. وأخبراهما أن يطعماها. سيكون علينا أن نتعامل مع هذا المخلوق الآن إن أردنا حفظ ماء وجوهنا أمام أهل القرية. ليعاقبها الرب على إبعاد أبيها عنا، ابني! لم تخبرنا حتى حين غادر العالم! ستدفع ثمن هذا.

كانت بوبو شاهكل عند كلمتها. كانت قد تولت زعامة العائلة بسعادة منذ مات زوجها قبل عامين. تترأس كِنّاتها بعصاتها التي تسير بها، رغم سلامة ساقيها من أي إصابة. كانت قد اكتسبت حق السير برأس مرفوع لأنها أنجبت لزوجها ستة أبناء وبنتين. وقد حان دورها الآن لتتحكم في القطيع بنفس القبضة الحديدية التي عانت منها.

تركتْ شكيبه نفسها لزوجات أعمامها ليخلعن عنها ملابسها ويحممنها. وجدت الاستسلام أسهل كثيرًا من المقاومة. كانت زوجة عمها الأصغر هي من أوكل إليها المهمة العسيرة لطرد الشبح الذي صارت إليه شكيبه. جُلِبت دلاء الماء. جُزّ شعرها، كان من المستحيل إنقاذه. سَبَبْن عندما شممن الروائح النتنة المنبعثة من كل تجويف في جسدها، والتي أزكمت أنوفهن. وضعن

طعامًا في فمها؛ حركت إحداهن فكها لتذكّرها بالمضغ.

خلال أيام قليلة، عاد ذهن شكيبه إلى جسدها. بدأت تسمع ما يقوله الآخرون، وتدرك أن بطنها لا يؤلمها من الجوع. امتدت أصابعها تتحسس طرحة تغطي الأطراف الخشنة لشعرها المجزوز.

فكرت: *لا بد أنني أبدو كأحد أبناء عمي.*

جلدها ملتهب من تحميمها بقسوة. أزلن عنه طبقة من الوسخ بمنشفة خشنة للغاية مرروها على جلدها الضعيف. ثمة قشور على بعض الندوب، بينما ظلت مناطق أخرى حمراء وملتهبة. جسدها هزيل للغاية لتلتئم الجروح الثانوية. في الليل، تنام على بطانية في المطبخ الضيق، تخبط قدمها في الأواني طوال الوقت وتوقظها. وفي الصباح، ينقلونها إلى واحدة من غرف البيت الكثيرة بعيدًا عن طريق زوجات الأعمام وهن يعددن الإفطار.

لقد تعبتُ من حملها. نادي حميدة لمساعدتك. إن ظهري يؤلمني.

أنتِ تقولين هذا كل صباح! ظهرك، ظهرك. ليس من فعل شيء هنا بالطبع. ماذا يفعل بكِ زوجك؟ أخبريه أن يهدأ قليلاً.

قهقهت.

أغلقي فمك وارفعي ذراعيها. أغ. أنا دائخة بما يكفي اليوم. لا أطيق النظر إلى وجهها.

حسنًا، لكننا سنضعها في غرفتك. ما زالت رائحتها في غرفتي منذ أمس ولا يمكنني تحملها.

تركتهن شكيبه ينقلنها هنا وهناك وتهيننها. على الأقل لم

تطلبن منها المشاركة في هذا الوجود. لكن هذا لم يكن ليستمر؛ فقد كان لدى بوبو شاهكل خطط أخرى لها.

كان مطبخ بيت العائلة صغيرًا حيث تشارك الكنات جميعًا في إعداد الطعام. توجد غرفة عائلية واحدة حيث يجلس الجميع خلال اليوم، وحيث يلعب الأطفال ويتشارك الجميع الوجبات. حول المطبخ وغرفة الجلوس أربع أو خمس غرف أخرى، تخص كل منها أحد أبناء بوبو شاهكل. تنام كل أسرة مجتمعة في غرفة واحدة. بوبو شاهكل فقط من لديها غرفة خاصة بها.

كانت شكيبه ترقد على جانبها في غرفة أحد أعمامها حين شعرت بشكل مبهم بوخزة عصا بوبو شاهكل في فخذها.

- انهضي أيتها الوقحة! كفي هراءك هذا. لقد ظللتِ نائمة لأكثر من أسبوع. لن تفلتي بهذا السلوك في هذا البيت. الله وحده يعلم أي جنون ورثتِه عن أمك.

جفلتْ شكيبه. من الأعراض الجانبية لتعافيها أن عاد جسدها يشعر بالألم. وخزة العصا مرة أخرى في ساقها. اعتدلتْ وحاولتْ دفع نفسها لتنهض بعيدًا عن جدتها. كان رأسها مثقلاً بقدر كبير جدًا من النوم.

- وقحة وكسولة! تمامًا مثل أمك!

لا مفر من هذه المرأة. جلستْ شكيبه وتدبرت أن تنظر لأعلى إلى جدتها.

- حسنًا، أليس لديك شيء لتقوليه؟ وقحة وجاحدة. لقد حممناكِ وأطعمناكِ وأنتِ ليس بإمكانك سوى الجلوس هكذا والتحديق فيّ كبلهاء؟

بدأت شكيبه بخجل: سلام...

- اجلسي معتدلة وانتبهي إلى قدميكِ. مع أنك لا تعرفين، لكنك فتاة ويجب أن تجلسي كالفتيات.

دفعت بوبو شاهكل عصاها في ذراع حفيدتها. تراجعت شكيبه وفردتْ ظهرها ما أمكنها. مالت بوبو شاهكل تقترب منها. رأت شكيبه تجاعيد وجهها العميقة، وصفار عينيها.

- أريدك أن تخبريني ماذا حدث لابني.

كان كل مقطع من كلماتها مؤكدًا بقدر لا بأس به من رذاذ اللعاب.

ابنك؟ ابنك؟ فكرت شكيبه. فجأة، صفا ذهنها واتضح لها كل شيء. *ابنكِ هذا كان أبي. متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟ متى كانت آخر مرة فكرتِ في إرسال بعض الطعام له؟ بعض الزيت؟ كنتِ ترينه في الحقل. كنت ترين الألم في حركاته.* هل *فكرت في إرسال شيئًا له حينها؟ كان كل ما يعنيكِ أن يتزوج بأخرى لإنقاذ اسم العائلة.*

قالت شكيبه: «لقد كان أبي» وتركت الباقي مضمرًا.

- أبوكِ؟ وهل نفعه هذا بشيء؟ كان بإمكانه عيش حياة لائقة. كان بإمكانه الزواج بأخرى لتعتني به وتنجب منه أبناء يزيدوننا عددًا ويعملون في أرضنا، لكنكِ بذلت كل ما في وسعك لإبقائه بعيدًا، وحبيسًا مع وحش مثلك لئلا يقترب أحد منكِ أو منه! في الأول أمك، ثم أنتِ! أنتِ قتلتِ ابني!

نكزت بعصاها في عظام صدر شكيبه.. أين هو؟ ماذا فعلتِ به؟

- إنه مع أمي. مع أخويّ وأختي. إنهم جميعًا هناك معًا، في انتظاري.

اشتعلت بوبو شاهكل غضبًا من رد شكيبه. شكّها في محله، لقد دُفن ابنها دون علمها. تورّمت عيناها بالغضب. قالت بهسيس: في انتظارك هه؟ ليعجِّل الرب بساعتك.

فكرتْ شكيبه: *ليته فقط يفعل ذلك.*

- زارمينه! تعالي وخذي تلك الفتاة! لتساعدك في عمل البيت. حان الوقت لتبدأ عملها بلقمتها هنا. لقد تسببت في أحزان كفاية وعليها أن تبدأ التكفير عن ذلك.

كانت زارمينه زوجة عم شكيبه الأكبر. تمتلك قوة بغل، ووجهه أيضًا. خمّنت شكيبه أنها هي من دعكت جلدها حتى التهب. دخلت زارمينه الغرفة، تمسح يديها في قطعة قماش.

- أه، أخيرًا سنكف عن خدمتها! حان الوقت. الكسالى لا يفيدون الله. انهضي واذهبي إلى المطبخ. يمكنك البدء بتقشير البطاطس. لدينا الكثير لفعله.

كانت تلك بداية مرحلة جديدة في حياة شكيبه. لم يكن العمل الشاق أمرًا غريبًا عليها، الكنس والمسح والجَرّ. كان يوكل إليها أسوأ المهام في البيت، وكانت تتقبلها بلا نقاش. أرادتها بوبو شاهكل أن تدفع ثمن موت أبيها. كانت توضّح هذا كل يوم، تنادي باسمه أحيانًا وتطرقع بلسانها.

حتى إنها كانت تعول وتعدد على وفاته.

- لقد مات صغيرًا للغاية. كيف يُحزن أمه عليه هكذا؟ كيف حدث لنا هذا؟ ألا نصلي؟ ألا نطيع الله؟ آه يا بنيّ العزيز! كيف حدث هذا لك؟

تجلس كنّاتها إلى جانبها، تتوسلن إليها أن تكون قوية وتخبرنها أن الله سيرعاه بدلاً من عائلته. يتملقنها وتحذّرنها من

أن يُمرضها كل هذا الحزن، لكنّ بكاءها الخالي من الدموع كان ينطفئ بالسهولة نفسها التي يبدأ بها. تواصل شكيبه كنس البساط، دون أن تعني برفع بصرها.

ماذا حدث لكِ؟ إنهم يدعونك ِوجه شولا. هل وضعتِ شولا على وجهك؟

يسأل أبناء عمومتها السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا. تجاهلتهم شكيبه معظم الوقت. أحيانًا يجيب آخرون نيابة عنها: *لم تسمع كلام أمها وهذا ما حدث لها. أفهمت ما قلته؟ الأفضل لك أن تسمع كلامي إذًا، وإلا سيتحول وجهك إلى وجه قبيح مثلها!*

صارت شكيبه أداة مفيدة للتربية في البيت.. «*انظر إلى ما فعلته! نظف هذا وإلا ستنام بجوار شكيبه الليلة!*»

لم تكن هناك نهاية لهذا.. «*لقد غضب الله على شكيبه واخذ منها أباها وأمها. الآن اذهب لتتوضأ للصلاة وإلا سيغضب عليك مثلها*.»

الفصل 7
رحيمة

أبقتني مادر جان في المنزل أسبوعين، أرادتني أن أعتاد على فكرة كوني فتى قبل أن تدعني أختبر المياه خارج بيتنا. كانت تُصحّح شقيقاتي حين ينادينني «رحيمة» وتقوم بالفعل نفسه مع أبناء عمومتي الصغار الذين لم يروا *باشابوش* من قبل قط. ركض هؤلاء إلى بيوتهم لينقلوا الأخبار إلى أمهاتهم اللاتي ابتسمن بسخرية. أنجبت كل منهن لزوجها ولدين على الأقل لحمل اسم العائلة. لم يكنّ في حاجة لجعل بناتهن *باشابوش*، لكن مادر جان تجاهلت نظراتهن وواصلت عملها. كرهت بيبي جان أن يضطر أحد في عائلتها إلى اللجوء لتقليد *الباشابوش*.

قالت أمي: نحن بحاجة إلى فتى في البيت، يا خالة جان.

- هممف. الأفضل أن تنجبي واحدًا كما فعلن الأخريات.

عضت مادر جان على لسانها للمرة الألف.

بدا أن بادر جان بالكاد يلاحظ التغيير. كان قد غاب عدة أيام وعاد إلى البيت مرهقًا. جلس في غرفة المعيشة وفتح ظرفًا فيه حبوب صغيرة. فتّتها بين أصابعه ووضع المسحوق في ورقة سيجارة لفّها وأشعل أحد طرفيها ومجّها بعمق. تلوى دخان ثقيل حلو المذاق حول وجهه ولفّ رأسه. جئت أنا وأخواتي من الخارج لنراه جالسًا هناك. توقفنا وقلنا مرحبًا، رؤوسنا مطرقة.

نظر إلينا وسحب نفسًا عميقًا. دقق النظر من خلال

الدخان وهو يلاحظ شيئًا مختلفًا في فتياته الثلاث.

– لقد فعلتِها إذن. كان هذا كل ما قاله عن الأمر.

كانت خالة شايما الصوت المريح الذي أرادت مادر جان سماعه.

– رئيسة، أبوسعك فعل غير هذا؟ زوجك غائب عن الوعي نصف الوقت ولا يساعدك في شيء. لا يمكنك إرسال الفتيات إلى المدرسة ولا إلى السوق حتى لأنك تخافين عليهن. أهل زوجك مشغولون بالتحدث عن بعضهم البعض عن مساعدتك في أي شيء. هذا هو الحل الوحيد أمامك. بالإضافة إلى ذلك فهو الأفضل لها، سوف ترين. ماذا بوسع الفتيات في هذا العالم رغم كل شيء؟ سيقدّر رحيم ما فعلته له.

– لكن أهل زوجي، أنا...

– انسيهم! من لا يعرف قيمة التفاحة لا يعرف قيمة البستان. لن ترضيهم أبدًا. كلما فهمت هذا بسرعة سارت حياتك نحو الأفضل.

كان خروجي الأول كفتى مثيرًا للغاية. كان عليَّ الذهاب إلى السوق لشراء زيت ودقيق. أعطتني مادر جان نقودًا ورقية قليلة بعصبية، وراقبتني وأنا أمشي في الشارع. برزت وجوه أخواتي من خلف تنورتها على كلا الجانبين ليلقين نظرة. ظللت أنظر خلفي من أعلى كتفي، ولوحت لمادر جان بمرح، أحاول بث الثقة فيهنا جميعًا بأنني سأنجح في هذا.

المحلات على جانبي الشارع، أوانٍ نحاسية، ملابس أطفال، اجولة أرز وبقوليات. أعلام ملونة معلّقة على الأبواب الأمامية. محلات ذات طابقين وشرفات في الطابق العلوي يجلس عليها

رجال يراقبون الداخل والخارج عند جيرانهم. لا يمشي الرجال بأدنى قدر من الاستعجال في حين تسير النساء بهمّة وحذر.

دخلت أول محل أعرفه. سألتُ، مبقية كتفيّ مفرودتين: أغا صاحب، بكم كيلو الدقيق؟

لم أستطع النظر إلى الرجل في عينيه فظللت أنقل بصري بين العلب الصفيح المرصوصة على الرف خلفه.

قال، بالكاد رافعًا بصره: خمسون ألف أفغاني.

كان كيلو الدقيق بأربعين أفغاني منذ وقت ليس طويلاً جدًا. لكن النقود لم يكن لها قيمة، وكان الجميع لديهم حقائب ملأى بها.

عضضت شفتي. هذا ضعف ما سمعته يخبر به أمي من قبل، وقد شكت حينها من مبالغته أيضًا. لم أندهش. سبق أن جئت إلى هذا الرجل مرتين حين كانت أمي ترسل بي إلى السوق على كره منها واستطعتُ مفاصلته إلى نصف المبلغ الذي طلبه.

- هذا كثير للغاية يا أغا صاحب. ولا حتى الملك يمكنه دفع هذا. ماذا عن ستة آلاف أفغاني؟

- أتظنني أبله أيها الفتى الصغير؟

انتفخ صدري لسماعه يناديني فتى.

- لا سيدي، لكنني أعرف أن أغا كريم لديه دقيق مخفّض أيضًا وأسعاره أقل بكثير. لا أريد أن أسير طوال الطريق إلى محله لكن...

- عشرة آلاف أفغاني. هذا هو.

- أغا صاحب، أنا لا أريد سوى كيلو واحد. ثمانية آلاف أفغاني هو كل ما سأدفعه.

تأفف وصاح: أنت تضيع وقتي يا فتى.

لكنني عـرفت أنه ليس لديه شيء ليفـعله. كـان حين دخلت المحل يلتقط القذارة من تحت أظافره.

- سـأدفع لك اثني عـشـر ألف أفغـاني، لكنني سآخـذ كيلو دقيق وكيلو زيت معه.

- وكيلو زيت؟ هل أنت...

قلتُ: أنا لست أحمق يا أغا صاحب.

اجبرتُ نفسي على النظر في عينيه، كما ينبغي لفتى. سكتَ محاذاة وزمّ شـفـتيـه. ضـاقت عـيناه وهو يلقي عليّ نظرة جيـدة. شـعرت بنفـسي أنكمش تحت تحـديقـه. ربما بالغت في الأمـر قليلاً.

أطلق فجأة قهقهة عالية.

قال بغـمـزة: أنت حـمـار ذكي صـغـيـر. ألست كـذلك؟ ابن من انت على أي حال؟

ارتخت كتفاي. لقد رأى *الباشابوش*، وكان الأمر، مثلما قالت مادر جان، سيفهم الناس.

- ابن عـارف. من على الجـانب الآخـر من الحـقـول، بعـد مجرى السيل.

- أحسنت يا بني. هيـا خـذ دقيـقك وزيتك واهرب من هنا قبل ان أعود إلى صوابي.

عددت النقود بسرعة، أخذت غنيمتي وأسرعت في العودة الى البيت لأُريها لمادر جان. تحول سيري إلى ركض حين تذكرت انه ليس عليَّ التحلّي بالحشمة والرزانة. اختبرت رجلاً عجوزاً مررتُ به، نظرتُ إليه مباشرة، قابلتُ عينيه المحدقتين ورأيت لا مبالاته بنظرتي المباشرة. أسـرعتُ في ركضي فرِحة. لم يرمقني

أحد بنظرة ثانية. شعرتُ ساقاي بالحرية، أركض في الشوارع دون أن تحتك تنورتي بركبتي ودون خوف من النظرات الزاجرة. كنت رجلاً صغيرًا، وكان طبيعي أن أركض في الشوارع.

ابتسمت مادر جان لرؤيتي ألهث وأبتسم. وضعتُ المشتريات أمامها وأريتها بفخر النقودَ التي عُدت بها إلى البيت.

قالت: حسنًا، حسنًا. يبدو أن ابني يفاصل أفضل من أمه!

بدأتُ أفهم حاجة مادر جان إلى فتى في البيت. كانت المهام المعينة التي تتركها لأبي لا تُنجَز لشهور، يمكنها الآن أن تطلبها مني أنا.

حين عادت أختي بنعل حذائها المطاطي مفكوكًا كالفم المفتوح، أخذته إلى الرجل العجوز في آخر شارعنا. كان يمكنه، بيده ذات الثلاثة أصابع فقط، إصلاح أي حذاء على أي حال. كنت أشتري الخبز من الفرن وأطارد الكلاب الضالة في الشارع في أثناء عودتي. كان أبي يعود إلى البيت، بعينين حمراوين صغيرتين، ويضحك حين يراني. قال: باجم، قل لأختك أن تعد لي كوبًا من الشاي. وقل لها أن تعدّ لي شيئًا آكله أيضًا.

وعبث بيده في شعري وهو يمر بي بكسل إلى ركنه في غرفة المعيشة، حيث تمدّد على الأرض، ووضع رأسه على وسادة. ارتبكتُ للحظة. لماذا لم يطلب مني أنا إعداد الشاي والطعام؟ لكنني أدركت السبب فجأة وأنا أدخل المطبخ. رأيت رحيلة أولاً.

– هيي، رحيلة، بادر جان يريد شايًا وشيئًا ليأكله. إنه في غرفة المعيشة.

– إذن؟ لماذا لا تعدّ أنت الطبق له؟ أنت تعرف أنه يوجد بعض *القورمه كچالو* في الإناء.

– لم يطلبه مني *أنا* . قال لي أن أخبر أختي. هذا *أنتِ*. على أي حال، أنا خارج. لا تستغرقي اليوم بطوله. يبدو أنه يتضوّر جوعًا .

حذّرتها بمرح. رمقتني بنظرة بعينيها البندقيتين واستدارت لتسخّن إناء يخنة البطاطس لأبينا . كانت حانقة وكان جزء مني يعرف أنني أتصرف بسخافة لكنني كنت أخبَر شيئًا جديدًا تمامًا عليَّ وكنت أريد الاستمتاع به. تجاهلتُ ظل الشعور بالذنب وخرجتُ لأرى إن كان الكلب الضال قد عاد للعبة المطاردة مرة أخرى.

بعد ذلك بشهر، عادت الدراسة، وصرت قلقة مجددًا . همسَت لي مادر جان شعري وحدثتني بحرص: ستكون مع الفتيان هذا العام. انتبه لمدرسك ولدراستك فقط.

قالت تحذرني، تحاول أن تجعل حديثها القصير يبدو طبيعيًا : تذكر أن ابن عمك منير سيكون معك في الفصل أيضًا . لا احد، لا المدرس ولا التلاميذ، لا أحد سيسألك عن... عن أي شيء. تذكر أن أبيك قد قرر أن يرسلك أنت فقط إلى المدرسة هذا العام. أنت فتى و... و... انتبه لكلام مدرسك.

سيكون الأمر مختلفًا، فهمت هذا . نجحت خطة خالة شايما في نطاق بيت العائلة ورحلاتي إلى السوق، لكن المدرسة ستضع هذه التمثيلية محل الاختبار، شعرتُ بخوف أمي. كانت أختاي غاضبتين؛ إذ قرر بادر جان أن عليهما البقاء في المنزل رغم استطاعتي الآن مرافقتهما إلى المدرسة.

سرنا أنا ومنير إلى المدرسة معًا . لم يكن أذكى أبناء عمومتي، وكنت نادرًا ما أراه؛ إذ كانت والدته تُبقي أطفالها بعيدًا

عنّا جميعًا. ربما كان ذلك لصالحي. كان في حاجة لإخباره أنني ابن عمه رحيم مرة واحدة فقط وقد ظللت كذلك دائمًا لتتمحى من ذهنه أي ذكرى لرحيمة. أطلقتُ تنهيدة راحة؛ إذ كنت قلقة بشأن تخليه عني.

قلتُ: سلام، معلم صاحب.

تمتم المدرس برد التحية، وظل يومئ برأسه لدى دخول كل طالب. مسحتُ راحتيّ الرطبتين في بنطالي. شعرتُ بعينيّ المدرس الفضوليتين على قفاي لكن ربما كان ذلك خيالي فقط. مسحتُ الغرفة بعينيّ وظللت بالقرب من ظهر منير، لاحظت أن لا أحد من الفتيان يبدو منزعجًا مني. أبقيت رأسي مطرقًا ونحن نسير إلى مؤخرة الفصل حيث جلستُ أنا ومنير وثلاثة فتيان آخرون على دكة طويلة.

– إن معلم صاحب صارم جدًا. العام الماضي منح أربعة أولاد درجات سيئة لأن أظفارهم لم تكن نظيفة.

همسَ آخر: حقًا؟ الأفضل لك أن تُبقي أصابعك خارج أنفك هذا العام إذن!

أمر المعلم: يا أولاد، اجلسوا بظهور مفرودة، وانتبهوا.

كان رجلاً بدينًا، رأسه الأصلع اللامع يحفه شعر رمادي مثل الشعر القليل في شاربه المهذّب بعناية.

– ستبدؤون بكتابة أسمائكم، ثم سنرى ماذا تعلمتم العام الماضي، أو إن كنتم قد تعلمتم شيئًا من الأساس.

أدركتُ سريعًا أن المدرسين صارمون كالمدرسات، لم تكن غرفة الدرس مختلفة كثيرًا فيما عدا المزيد من الهمس والنظرات على نحو لم أرَه في غرفة درس الفتيات قط. كتبتُ

اسمي بحرص، وراقبتُ من زاوية عيني منيرًا يكافح لكتابة اسمه. كانت حروفه متشابكة بارتباك وتوجد نقطة إضافية جعلت كلمة منير «متير». فكّرت أن أصحّح له لكن المدرس نظر نحوي قبل حتى أن أبدأ الهمس. جال في الغرفة ونظر في أسماء الجميع، يهز رأسه للبعض ويتمتم للبعض الآخر. بدا أنه رضي عن مستوى عدد قليل جدًا.

نظرَ من أعلى كتفي فسمعتُ صفير الهواء عبر فتحتي أنفه، ألقى كرشه بظله على ورقتي. لم يعلق على اسمي، ما يعني فقط أنه لم يُحبَط بشدة. لكن دفتر منير، مع ذلك، جعله يزوم.

سأله: ما اسمك؟

قال منير وهو ينظر لأعلى إلى المدرس بسرعة: مممنير. ثم عاد ينظر لأسفل.

قال المدرس بأداء مسرحي: منير، إن عدت إلى هذا الفصل غدًا وارتكبت خطأ واحدًا في اسمك، سأعيدك لتكرر واجبات العام الماضي. مفهوم؟

همس منير: نعم، معلم صاحب.

كنت أشعر بسخونة وجهه. أدركت أن الفتية لا يتعلمون بقدر أكبر مما تتعلمه الفتيات.

بعد الدراسة، كان الفتية يهتمون بالخروج وركل الكرة في الأنحاء أكثر من التساؤل عمَّن أكون أو من أين جئت. سرنا أنا ومنير إلى البيت مع ولدين اسماهما أشرف وعبد الله. كانا أبناء جيران يقطنون على بعد نصف كيلو متر من بيت عائلتنا. كانت تلك أول مرة أقابلهما مع أنهما يعرفان منير وأبناء عمومتي الآخرين.

سأل أشرف: ما اسمك مرة أخرى؟

كان الأقصر وله شعر بني فاتح وعينان مستديرتان. كان جميلاً لحد أن تساءلت إن كان مثلي، فتاة تحت هذا البنطال.

- اسمي رحيم.

أضاف منير: نعم، اسمه رحيم، إنه ابن عمي.

كانت تحذيرات المدرس قد أرعبته لكنه الآن بعد أن خرجنا أصبح يتنفس بسهولة.

- عبد الله، هل رأيت رحيم من قبل قط؟

هز عبد الله رأسه. كان شعره داكنًا، نحيلاً وأكثر هدوءًا من جاره.

- لا، هل تجيد كرة القدم يا رحيم؟

رمقتُه بنظرة جانبية سريعة ورفعتُ كتفيّ.

قال منير بتوكيد: آه، إنه جيد في كرة القدم حقًا، أراهنك أن بإمكانه التغلب عليك.

فاجأني رده. نظرتُ إليه، أتساءل إن كان يحاول الإيقاع بي.

قال عبد الله عابسًا: حقًّا؟ حسنًا، ليس عليه التغلب عليَّ بل الأفضل أن يفوز على سعيد جواد وأصدقائه. إنهم في الغالب يلعبون في الشارع إن أردتم أن نلحق بهم.

- نعم، لنذهب!

أسرع منير في سيره نحو الشارع الجانبي المؤدي إلى الملعب المرتجل في أرض بعيدة عن منزلنا. كانت الأرض عمليًا شارعًا جانبيًا مهجورًا، أضيق من أن تمر به سيارة. اعتاد الصبية اللقاء هناك للعب مباريات كرة القدم.

- منير، ألا تظن أن علينا...

قال عبد الله: هيا يا رحيم. لوقت قصير فقط! سنمرح.
ودفعني في كتفي برفق.
أعتقد أنني لم أكن سيئة. كان الشيء الوحيد الذي أعرفه هو الركض. لحسن الحظ ركضتُ على نحو جيد حتى أنهم لم يلاحظوا أن قدمي لم تلمس الكرة قط أو أنني لم أصرخ ليمرروها لي قط. ظللتُ أركض في الشارع من أوله لآخره، يحتك كتفي بالجدار الطيني للزقاق. أنتظر ظهور أبي أو أمي في اي لحظة ليسحباني إلى البيت بغضب.. أحببتُ الشعور بالهواء على وجهي. الشعور بساقيّ حرتين وأنا أحاول اللحاق بالآخرين، أحاول مسابقتهم والتقدم عليهم. ذراعايّ تتدليان إلى جانبيّ بحرية.
- مِن هنا! مررها من هنا!
- لا تدعه يمر! صُدّه!
اقتربت من الكرة. كانت هناك ست أقدام تركلها، أو تحاول ركلها في اتجاهات مختلفة. حشرت قدمي في المعترك، شعرت بجلد الكرة في باطن قدمي. ركلتها، أرسلتها في الهواء في اتجاه عبد الله. أوقف عبد الله الكرة بكعبه وركلها نحو المرمى المقابل. كان يركض.
شعرت بإثارة وأنا أركض خلفه. أحببت كوني فردًا في فريق. احببت الغبار وهو يهب من تحت قدميّ.
أحببت كوني فتى.

الفصل 8
شكيبه

سرعان ما صار أغلب عمل البيت على عاتق شكيبه. وجدنها زوجات أعمامها، حين تعافت، قادرة على إنجاز حتى المهام التي تتطلب قوة امرأتين معًا. كان بإمكانها حمل ثلاث دلاء من الماء، بدلاً من اثنين فقط. وكذلك وضع الحطب في الموقد. كنّ يتهامسن بسعادة بعيدًا عن سمع بوبو شاهكل. لا يردن أن يبدون كسولات أمام الأم الكبيرة.

إن لديها قوة رجل لكنها تقوم بأعمال امرأة. أليست أفضل مساعدة في البيت؟ الآن نعرف كيف تفكر بوبو شاهكل!

سمعتْ شكيبه تعليقاتهن لكن العمل كان شيئًا في طبيعتها. كان الغروب يأتي على نحو أسرع حين تنشغل في شيء، بغض النظر عن مشقة العمل. كان ظهرها يؤلمها في نهاية كل يوم لكنها لم تدع ذلك يبدو على وجهها. لم ترغب في منحهن شعورًا بالرضا لأنهن أرهقنها. ولم ترغب في تلقي عَلْقة لعجزها عن تأدية عملها. في هذا البيت، توجد عصي كثيرة لتعليمها أنه لا تسامح مع الكسل.

كانت خالة زارمينه، زوجة كاكا فريدون، الأسوأ. كانت تضرب شكيبه بيدها بقوة تثير التعجب رغم شكواها المستمرة من تقدمها في السن على القيام بأعمال المنزل المرهقة. كانت عصبية، وبدا أنها تتمرن على لعب دور بوبو شاهكل حين سيقرر

الله أخذ المرأة الثكلى أخيرًا. كانت بوبو شاهكل تدرك هذا ولم تكن تصدق تملق زارمينه الزائف، لكنها كانت تتسامح معه، وتُبقيها عند حدودها بتوبيخها أمام الآخرين من حين لآخر.

كانت خالة سامينا الأكثر اعتدالاً إلى حد بعيد. كانت زوجة أصغر الأبناء الأحياء، كاكا زلماي. استغرقت شكيبه أسبوعًا لتدرك أن سامينا لا توبخها أو تضربها إلا في وجود الزوجات الأخريات. حين رفعت يدها لتضربها ذات مرة، انكمشت شكيبه. لكن بلا داعي، أدركَتْ. لم تكن سامينا تضربها بأقسى مما يتطلبه الأمر لإبعاد ذبابة.

لا تريد أن تبدو ضعيفة، فكرت شكيبه. لكنني الآن أعرف أنها كذلك.

ظلت شكيبه على انطوائها، تنجز مهامها وتتجنب النظر إلى احد. لم تكن تبذل جهدًا للحوار مع أحد رغم كونها أفضل موضوع للنقاش في البيت. كان الصيف قد انتهى منذ أسابيع قليلة حين جاءتها بوبو شاهكل وهي تمسح الأرض. يقف بجوارها كاكا فريدون، بذراعيه المعقودتين.

شدّت شكيبه طرحتها لتداري وجهها بحركة غريزية وأدارتْ كتفيها لتواجه الحائط.

- شكيبه، حين تنتهين من مسح الأرض، ستذهبين لمساعدة أعمامك في الحصاد. أنا متأكدة أنكِ ستقدرين فرصة شمّ الهواء المنعش في الخارج ويبدو أن لديكِ خبرة بهذا النوع من العمل.

- لكنني ما زال عليَّ أن أعد الـ...

- أسرعي في إعداده إذن واخرجي. لقد حان الوقت

لتساعدي في زرع الطعام الذي سمّن وجهك هكذا.

لوى كاكا فريدون فمه موافقًا. هذا كله تفكيره هو. كان قد راقب أرض إسماعيل تجني محصولاً يظنه أغلب الآخرون مستحيلاً مع أمطار الموسم السابق القليلة. خطر له أن ابنة أو ابن أخيه قد ورثت عنه موهبته في الزراعة. لماذا لا يستخدمها؟ يوجد الكثير من النساء للقيام بعمل البيت على كل حال. وافقت بوبو شاهكل على الفور. العشيرة في حاجة إلى محصول جيد. توجد أفواه كثيرة لإطعامها ولأول مرة منذ أعوام كانت ديونهم تزداد.

أومأتْ شكيبه برأسها، تعلم أن مهامها الجديدة لن تعفيها من مهامها الحالية. سيزداد العمل اليومي. أزعجتْ تلك الترتيبات الجديدة خالة زارمينه بالأخص لكنها لم تجرؤ على مخالفة أوامر بوبو شاهكل.

- يوجد الكثير من العمل في البيت! لقد نسيت بوبو شاهكل ماذا يعني الطبخ والتنظيف. لقد تركتُ كومة ملابس تحتاج إلى خياطة ورتق لشكيبه شولا، لكنْ ظني أنها ستنتظر إن كان عليها أن تعمل في الحقل خلال النهار. الأفضل أن تستيقظ مبكرًا إن كانت ستُعدّ الغداء أيضًا.

سرعان ما اعتمدت العائلة لقبها. في أفغانستان يُعرّف الناس بإعاقتهم. كان هناك آخرون كثيرون في القرية يحملون مثل تلك الألقاب. مريم إي لانج، *العرجاء منذ طفولتها*. صبور *إي ياك دستا، الذي وُلِد بيدٍ واحدة. وإن لم تسمع كلام أبيك، ستسقط منك يدك مثلما سقطت يده. هكذا كانت الأمهات تحذرن أبناءهن*. جوشان *إي سيا*، أو الأسود، لبشرته السمراء.

بشير إي كور، الأعمى، الذي فقد بصره كله تقريبًا في العقد الثالث من عمره ويكره ضحك الأطفال عليه وهو يتعثر في مشيه، ويعرف أن أباءهم يشاركونهم الحمحمة أيضًا كلما اصطدم بحائط.

جفّفتْ شكيبه الأرض بسرعة وأحكمتْ ربط طرحتها تحت ذقنها. ذهبتْ إلى الخارج ووجدت عمّيها يجلسان، يستندان إلى الحائط الخارجي ويشربان الشاي الذي أحضره لهما ابن عمها حميد. استدارتْ شكيبه لتقيّم التقدم الذي أحرزاه.

من هذا الجانب من البيت تمكنها رؤية بيتها، بدا صغيرًا مقارنة ببيت العائلة.

هذا ما يرونه حين ينظرون إلينا.

لاحظتْ وجود أدوات جديدة في الحقل وأن أدوات أبيها قد نُقلت إلى جانب من الأرض. أُخلِي البيت. ترقد كومة متاعهم خارج الحائط الذي بناه أبوها.

إنهم يأخذون بيتنا. إنهم يريدون أرضنا.

أدركتْ شكيبه فجأة لماذا كانت بوبو شاهكل تستدعي أصغر أبنائها كثيرًا. كان أباها يزرع الأرض الأكثر خصوبة لدى العائلة. كانوا يريدون حصة أكبر من التي كان أبوها يرسلها إليهم من المحصول من حين لآخر. كانوا يريدون المحصول كله. لم يعد أحد في طريقهم الآن. كانوا يأخذون بيتها وأرضها. لقد ظنت أنها لن تشعر بشيء لكن جوفها كان يغلي. لم يفكر فيها أحد حين ألقوا بمحتويات المنزل خارجًا كالقمامة. المتاع القليل المتبقي من أمها وأبيها وإخوتها، مُلقى جانبًا لإفساح المجال لأشياء جديدة. هل سينتقل أحد للعيش في بيتها؟ أدركتْ أن جزءًا منها

ما زال يأمل في العودة إلى هذا البيت، أن تعيش فيه مستقلة كما كانت من قبل. لكن هذا، بالطبع، لن يحدث أبدًا. وجدتْ شكيبه خاوية ومشت إلى داخل الحقل. يوجد الكثير ليُحصد. كانت أوراق البصل صفراء وطويلة وبدا -من منظره- أنه جف منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا. فكرت: *لماذا لم يقطفوا هذا البصل؟ ومالت لتدقق النظر.*

- هيي فريدون! انظر ماذا تفعل! أخبرها ألا تلمس البصل! إنه لم ينضج بعد! هذه المعتوهة ستُفسد المحصول!

كان هذا كاكا شِراكا، الأكثر نحافة وكسلاً من بين الإخوة.

تفتّتت الأوراق بين أطراف أصابع شكيبه. مدّت يديها إلى الجذر ونزعت الثمرة من التربة.

فات الأوان تقريبًا. أوشكتْ أن تتعفن. لا عجب أن طعامنا له هذا المذاق. الله وحده يعلم ماذا يفعلون ببقية المحاصيل.

سار كاكا فريدون إليها ونظر إلى البصلات الثلاث التي انتزعتها من التربة بالفعل. لم تستدر شكيبه لتنظر إليه. تمتم بشيء ما ثم سار مبتعدًا.

صاح شراكا: ألم تقل شيئًا لها؟

أجابه فريدون: كفى، لقد نضج.

نظر شراكا إلى أخيه الأكبر وسكت. عاد الرجلان إلى الحقل يغمغمان بتعليمات لأحدهما الآخر. بقيا على مسافة من شكيبه لكنهما كانا يراقبانها من زاوية عينيهما. كانت تتحرك ببطء بين صفوف النباتات، تمرر أصابعها الخشنة بين السيقان وتشد بالقدر المناسب فقط من القوة لنزع الثمرة من الأرض. تتوقف فقط لتعدل طرحتها.

حين انتهت من مربع واحد من الأرض كانت الشمس على وشك الغروب وكان عليها الإسراع لإعداد العشاء. عادتْ إلى المطبخ واستاءت، لكنها لم تندهش، من رؤية أن لا شيء قد أُعدّ لوجبة المساء. أشعلتْ الموقد سريعًا ووضعتْ عليه إناءً فيه ماء ليغلي. مرّت بها خالة زارمينه ودققت النظر في الغرفة المعتمة.

– آه، هذا أنتِ! كنت على وشك إعداد بعض الأرز للعشاء لكنني أرى أنكِ هنا الآن. سأترك الأمر لكِ إذن. أرجو فقط أن تغسلي يديك أولاً؛ إنهما قذرتان.

انتظرتْ شكيبه حتى غادرت زارمينه ثم أطلقتْ تنهيدة عميقة. تمنّت لو كانت قد ماتت على الأرض الباردة في بيتها، قبل أن يجداها عمّاها.

كانت صلاة الجمعة قد انتهت للتو حين عاد أعمامها من المسجد الصغير في البلدة.

زعق كاكا فريدون فجأة: اذهبوا إلى الخارج يا أطفال، نحن نريد أن نتحدث مع جدتكم.

راقبتْ شكيبه أبناء عمومتها يركضون خارج غرفة الجلوس الرئيسة. نظر إليها كاكا شراكا وبدا أنه يفكر في شيء ما، ثم تبع أخويه إلى غرفة الجلوس.

تظاهرتْ شكيبه بالعودة إلى المطبخ بكومة الملابس التي أخذتها من على حبل الغسيل. توقفتْ قبل وصولها إلى المطبخ، وجلستْ على الأرض لتطوي الملابس. من هنا، يمكنها سماع بعض ما يقوله أعمامها..

– علينا تسوية هذا الدين. عزيز الله يفقد صبره معنا. يقول إنه انتظر كثيرًا بما يكفي.

- ممم. ماذا طلب تحديداً؟

- حين تحدثت معه في القرية منذ أسبوعين أخبرني أنه يريد تزويج ابنه. يريد إحدى فتيات عائلتنا.

- أهذا ما قاله؟

- زلماي، إن بناتك في السن المناسبة. ربما واحدة منهن. الكبرى. إنها في الثامنة، أليس كذلك؟

صوت كاكا فريدون لا تخطئه الأذن.

- ابنة شراكا في السن نفسها. وابنتك أيضًا في سن ابن عزيز الله. ستكون زوجة جيدة وسنسوي ديوننا معه أيضًا.

- لدى فريدون بنات أكثر منا. الصواب أن نعطيه إحداهن...

- لا أعتقد أن علينا تزويج إحدى الفتيات.

ساد الصمت فيما ينتظر أبناء بوبو شاهكل أن توضح لهم.

- سنعرض عليه شكيبه.

أنا لست إحدى الفتيات.

- شكيبه شولا؟ هل تمزحين؟ سيلقي على وجهها نظرة واحدة ويعود إلينا ركضًا ليطالبنا بضعف الدين! إن عرضنا عليه شكيبه سيعدّها إهانة، بلا شك!

أغمضتْ شكيبه عينيها وأسندت رأسها على الحائط.

شكيبه تعني هدية. أنتِ هدية يا بنيتي! هدية جميلة لي من الله.

- زلمايِ، أريدك أن تتحدث مع عزيز الله وأن تخبره أن ابنه ما زال صغيرًا. وأنه هو وابنه أمامهما عمر مديد لترتيب زواج مناسب بمشيئة الله. أخبره أن الأفضل لهما الآن أن يحظيا

بشخص ما لمساعدة زوجته في أعمال البيت. أخبره أن الزوجة السعيدة تتجب المزيد من الأبناء. ثم اعرض عليه شكيبه.

- لكن ماذا إن رفض؟

- لن يرفض. تأكد فقط من إخباره أنها قوية. وأن لديها ظهر شاب ويمكنها تدبير شؤون البيت. إنها طباخة معقولة وهادئة، بعد أن روّضناها. أخبره أنه من الخير أن يأوي يتيمًا في بيته وأن الله سيكافئه على هذا خيرًا. ستكون مثل زوجة ثانية من دون ثمن.

- وماذا عن العمل الذي تقوم به هنا؟ من سيقوم به؟

صاحت بوبو شاهكل: نفس النساء الكسولات اللاتي كن يقمن به قبل مجيئها إلى هنا! لقد فسدت زوجاتكن. لقد اعتدن الخمول وشرب الشاي وإيلام أذنيّ بثرثرتهن. سيكون من الأفضل لهن النهوض ثانية على أقدامهن. هذا بيت وليس القصر الملكي.

غمغم الإخوة. هل سيقبل عزيز الله هذا العرض حقًا؟ تساءلوا. الأفضل أن يجربوا بدلاً من الجدل حول مَن من الفتيات سيتم تزويجها له.

- لا تخبروا زوجاتكم بشيء الآن. لا داعي لإثارة نبش الدجاجات الآن. دعونا نناقش الأمر مع عزيز الله أولاً.

نهضت شكيبه عن الأرض وأسرعت إلى المطبخ قبل خروج أعمامها. لم يسعها سوى أن تحمد الله لأن أبويها لم يعيشا ليسمعا تلك المحادثة. شعرتْ بدمعة تتجمع في عينها اليمنى.

هذه هي مشكلة الهدايا مادر جان. يتخلون عنها دائمًا.

الفصل 9
شكيبه

قبل عزيز الله بالعرض. جمعت شكيبه شولا ثوبيها معًا في حقيبة؛ لم يكن وداع جدتها لها احتفاليًا: لا تفعلي شيئًا يجلب لنا العار.

مع ذلك فعلتْ شكيبه شيئًا لم تتخيل قط أنه بإمكانها. رفعتِ الشادور عن وجهها وبصقت عند قدمي جدتها المعروقتين. استقرت كتلة اللعاب على عصاها.

- كان أبي محقًا في هروبه منكِ.

وقفتْ بوبو شاهكل مشدوهة وشكيبه تستدير وتسير نحو عمها، الذي سيرافقها إلى بيت عزيز الله.

كانت تعرف أنها آتية لكنها لم تكترث.

كانت تعرف أيضًا أن خالة زارمينه تراقبهما، وتبتسم.

هوَت عصا بوبو شاهكل على كتفيها مرتين قبل أن يرفع كاكا زلماي يده ليوقف انتقام أمه.

- كفى يا مادر جان، لن أستطيع أخذ هذا الوحش إلى عزيز الله مُقعَدًا. إن وجهها بما يكفي من السوء. لو رآها تعرج سيعيدها إلينا بالتأكيد. دعي الله يعاقبها على جحودها.

أبقتْ شكيبه كتفيها عاليتين ولم تتعثّر. لم تكن تعرف ماذا ي انتظارها لكنها عرفت أنها لن تعود إلى هذا البيت. لقد أغلقت هذا الباب بكل تأكيد.

- أيتـهـا الملعـونة! إن الله من حكمـتـه أن علّم على وجـهكِ ليحذرنا منكِ! أنتِ وحش من الداخل! جاحدة، مثل أمك الدنيئة تمامًا! ألم تعرفي لماذا ماتت عائلتك كلها مدفونة تحت الأرض؟ إنه أنتِ! أنتِ الملعونة! شعرتْ شكيبه بشيء ما يتصاعد بداخلها. استدارت ببطء ورفعت الشادور مجددًا وقالت: نعم، أنا كذلك! لوت فمها وأشارت بإصبع إلى جدتها: والله شهيد عليَّ، أنا ألعنك، يا جدتي! ستطارد شياطيني أحلامك، لتتحطم عظامك وأنتِ تسيرين، ولتكن آخر أنفاسك مؤلمة ودامية!

شهقتْ بوبو شاهكل. رأتْ شكيبه الخوف في عينيها. حدقتِ الجدة في وجه حفيدتها المنذر وتراجعت خطوة إلى الخلف بعصبية.

صفع كاكا زلماي جانب وجه شكيبه الأيسر بظهر يده القوي. حتى الأعصاب الميتة في وجهها آلمتها من صفعته.. فكرت شكيبه وهي تحاول حفظ توازنها: بارع، *لن تترك علامة هناك*.

أحكم قبضته على ذراعها وسحبها بعيدًا عن البيت.

- نحن ذاهبان يا مادر جان، سأعود بعد أن أتخلص من هذا الوحش. يا سامينا، ساعدي أمي في العودة إلى الداخل!

لم تجد شكيبه صعوبة في اللحاق بخطوات عمها السريعة. ظلت خلفه بخطوتين تُعيد المشهد في ذهنها مرارًا وتكرارًا. هل فعلَت ذلك حقًا؟ هل قالت ذلك بالفعل؟

ارتسمت ابتسامة واسعة تحت *الشادور*.

مشيا مسافة الأربعة كيلومترات إلى بيت عزيز الله في صمت. ينظر كاكا زلماي خلفه من حين لآخر ويتمتم بشيء ما لا تميزه شكيبه. مرّا بالقرية التي لم ترَها شكيبه منذ طفولتها.

بدت المحلات مثلما كانت على نحو ما أو آخر وزاد المارة، النسوة في البراقع الزرقاء يسرن خلف رجال ببناطيل فضفاضة وقمصان طويلة.

فيما يبتعدان عن أرض العائلة، تساءلت شكيبه إن كانت قد فعلت الصواب. ماذا لو صارت وحيدة مجدداً؟ ماذا ستفعل؟ لكنها عرفت. ستفعل ما كانت تنوي فعله منذ شهور.

قررت شكيبه: *سأجد طريقة للعودة إلى أرضي ودفن نفسي مع عائلتي.*

كان بيت عزيز الله أكبر من بيت بوبو شاهكل. وحين اكتشفت أن عزيز الله وزوجته وأطفالهم الأربعة هم فقط من يعيشون فيه اندهشت. كان عزيز الله قد ورث البيت عن أبيه الذي كان من ميسوري الحال إلى حد ما. اليوم، يكسب عزيز الله عيشه من التجارة. كان يشتري ويبيع أي شيء له أي قيمة لأي شخص. كان يتاجر ويقرض المال حين يقتضي الأمر. كان يعرف جميع أهل القرية، والأهم من هذا، أن الجميع كانوا يعرفونه. وكانت عائلته على صلة جيدة بأخوين في الخدمة العسكرية.

فتح عزيز الله البوابة الخارجية بنفسه. تصافح الرجلان بالأيدي وتبادلا المجاملات. وقفتْ شكيبه خلف عمها مباشرة، تشعر أنها لا مرئية.

كان عزيز الله رجلاً متين البنيان يبدو في العقد الثالث من عمره. يرتدي قبعة بنية من جلد الحمل بفراء كثيف تستقر بشكل مريح على رأسه. كانت عيناه داكنتين ولحيته كثة لكنها مهذبة بشكل جيد. بدا نظيف الملبس واليدين.

فكرت شكيبه: *إنه لا يبدو كعامل.*

– تفضّل أرجوك، زلماي جان. اشرب معي كوبًا من الشاي.

قبل كاكا زلماي الدعوة وتبع عزيز الله إلى فنائه. وقفتْ شكيبه خلفه، لا تعرف ماذا تفعل، حتى رأتْ عمها يسدد لها نظرة. دخلت إلى بيتها الجديد. توجه الرجلان إلى غرفة المعيشة لكن شكيبه رأت أنه من الأفضل أن تبقى في الخارج. وقفتْ وظهرها إلى الحائط، بدأ كتفاها يؤلمانها الآن من ضرب عصا بوبو شاهكل. الابتسامة الواسعة خلف الشادور مرة أخرى. مرت عشرون دقيقةٍ تقريبًا قبل أن يستدعيها عمّها إلى غرفة المعيشة.

– هذه شكيبه، عزيز الله جان. سترى أنها، كما أخبرتك، معتادة على العمل الشاق. وستثبت لك فائدتها في بيتك بالتأكيد. أنا واثق بأن زوجتك ستسعد بها.

– زلماي جان، لقد عشنا في هذه القرية سنوات كثيرة وشكيبه شولا ليست سرّاً، لقد سمعتُ عن حادثة وجهها قبل أن يخبرني بها أخوك، لكنني أريد أن أرى بعيني ما سأدخله إلى بيتي. أتأذن لابنة أخيك بكشف وجهها؟

نظر كاكا زلماي إلى شكيبه وأومأ لها برأسه. تحذرها عيناه من العصيان. أخذتْ شكيبه نفسًا عميقًا، رفعت الشادور، واستعدّت.

جاء رد فعله ببطء. في البدء رأى جانب وجهها الأيمن، وجنة عالية، بشرة نضرة بلون قشرة البيضة، حدقة داكنة وحاجب مقوس بشكل طبيعي. كان الوحش الخفيّ نصف جميل.

أدارتْ شكيبه وجهها، صار جانبه الأيسر مرئيًا. تحركت ببطء، عن عمد، تتوقع رد الفعل. خطر لها فجأة أن عزيز الله

قد يُعيدها إلى بيت جدتها. حبست أنفاسها، لا تعرف ماذا تتمنى.

عقد عزيز الله حاجبيه.

- مؤثر. حسنًا، لا يهم. لا علاقة لوجهها بما نريده منها. ليس مهمًا؟

- ليس لديها أمراض أخرى؟ هل تتحدث؟

- لا يا عزيز الله جان. فيما عدا وجهها، هي بصحة جيدة. وتتحدث، لكن ليس بقدر ما يزعجك. سوف تكون إضافة هادئة إلى بيتك.

مسّد عزيز الله لحيته. استغرق دقيقة في التفكير ثم اتخذ قراره النهائي.

- سوف تفي بالغرض.

- أنا سعيد جدًا لأنك تنظر إلى الأمور هكذا، عزيز الله جان. أنت شخص متفتّح الذهن حقًا، أطال الله في عمرك.

- وعمرك أيضًا يا صديقي.

- سأذهب أنا إذن. أنا واثق بأن هذا يُسوي ديون عائلتي معك. وأمي ترسل خالص تحياتها إلى زوجتك أيضًا.

تحدث كاكا زلماي بأدب شديد، لدرجة أن شكيبه لم تصدق أنه قريبها.

- هذا يسوي الدين طالما أبلت تلك الفتاة جيدًا كما قلت إنها ستفعل.

وقد فعلَتْ. في الغالب لخوفها من أن يعيدونها إلى بيت بوبو شاهكل. رغم كل شيء، أدركتْ شكيبه سريعًا أنها في حال أفضل في بيت عزيز الله. استدعى عزيز الله زوجته، مارجان، إلى

غرفة الجلوس بعد أن غادر زلماي.

- هذه شكيبه. عرِّفيها بعمل المنزل المعتاد لتبدأ عملها. إن عائلتها تشيد بقدرتها على تنظيف المنزل وإنجاز حتى المهام الثقيلة. لنرَ ماذا ستفعل.

نظرتْ مارجان إلى شكيبه بحذر، اختلجَ وجهها حين وقعت عيناها على وجهها. كانت امرأة طيبة القلب وأشفقتْ على شكيبه على الفور.

قالت مذهولة وهي تمسح يديها المغبّرتين بالدّقيق بتنورتها: يا الله، أيتها الفتاة العزيزة! يا للمصيبة!

لكنها استعادت هدوءها بسرعة: حسنًا، دعيني أريكِ المنزل. لقد كنتُ أعجن للخبيز، لكنني انتهيت الآن. اتبعيني.

كانت مارجان في أواخر العشرينات تقريبًا. خمّنت شكيبه انها لا بد رُزقت بطفلها الأول وهي في سنها. قالت تشير إلى باب إلى اليسار: هذه غرفة نومنا. وهذه منطقة المطبخ.

دخلت شكيبه ونظرت حولها.

- بحق الله، انظري إلى فخذيكِ، كيف ستدفعين بطفل من بينهما؟

كان خصر مارجان عريضًا، ربما ظل يزداد بوصات قليلة مع كل إضافة جديدة إلى أسرتها.

لكن عبارتها فاجأت شكيبه. لم يذكر أحد قط إمكانية أن تحمل أطفالاً، ولا حتى بالإشارة. شعرتْ بحرارة تتدفق في جانب وجهها الأيمن وأطرقتْ برأسها.

- آه، أنتِ تخجلين! هذا رائع! حسنًا، لنبدأ العمل. يوجد الكثير لفعله ونحن نقف هنا نثرثر.

عدّدت مارجان المهام المطلوبة في المنزل، لكنها تحدثت من دون نبرة التعالي التي كانت عائلة شكيبه تتحدث بها. أدركتْ شكيبه، رغم حقيقة أنها جاءت إلى هنا كخادمة، أن بيت عزيز الله سيكون مريحًا لها. منعت نفسها قبل أن ترتسم على وجهها ابتسامة كاملة.

لدى عزيز الله ومارجان أربعة أطفال. قابلت شكيبه الصغرى أولا؛ مانيجه، طفلة ابنة عامين بشعر داكن وناعم ومموج يؤطر خديها الورديين. كانت عيناها مخضبتين بكحل ثقيل جعل بياضهما يتألق. تعلقت مانيجه بأمها، تتشبث أصابعها الضئيلة بتنورتها وهي تحدق في الوجه الجديد بحذر. رأتْ شكيبه نفسها وعقيلة يفعلان الشيء نفسه مع أمها. جلست شكيبه ومارجان لينهيا بسط العجين في أشكال بيضاوية طويلة، سيأخذانها إلى الفرن فيما بعد لتصير خبزًا طازجًا.

اندفع الطفل الأكبر، فريد، في العاشرة من عمره، إلى المطبخ وسرق قطعة عجين قبل أن تستطيع مارجان توبيخه. وقبل أن يلمح وجه شكيبه. حاولتْ شكيبه تخيّل أيٍ من بنات عمها كانت ستُزوَّج له ما لم يعرضوها هي كخادمة بدلاً من ذلك. من الصعب التخمين.

ثم جاء حارس، في الثامنة من عمره، ثم جواد، في السابعة. كانا مستعجلين ليلحقا بأخيهم الأكبر وبالكاد لاحظا وجود شخص آخر يعمل مع أمهم في المطبخ. كانا فتيين نشيطين يتجمدان في حضور أبيهما. لكنهما، ما أن يغادر عزيز الله المنزل يبدأان في العراك والمشاجرة، يتكاتلان ضد أخيهم الأكبر الأقوى.

بدا أن الأطفال يعتمدون موقف والديهم من وجهها المشوَّه.

بعد المفاجأة الأولى، وبعض الأسئلة الجريئة بدا أنهم لم يعودوا يلاحظونه.

في بحر أسبوعين، شعرتْ شكيبه أنها في بيتها مع أسرة عزيز الله. كان الفتية يذكرونها بأخويها، طارق ومؤنس. وكان لمانيجا شعر عقيلة الداكن المموج نفسه. لكن هذا الشبه تسبب لها في سعادة أكثر من الألم. بدا كأنها تعيش مع أخوتها بعد البعث.

لقد أسديتِ لي صنيعًا يا جدتي. الشيء الوحيد الجيد الذي فعلتِه لي.

تمامًا مثلما اعتادت في بيت بوبو شاهكل، سرعان ما صارت هي المسؤولة عن معظم عمل البيت وحدها. كانت تشغل نفسها بغسيل الملابس، ومسح الأرضيات، وجلب الماء من البئر، وإعداد الوجبات، تمامًا مثلما كانت تفعل في الماضي. بيد أن كل هذا هنا أسهل كثيرًا، إذ لم يكن يوجد سوى ستة أشخاص فقط للعناية بهم. كانت تدرك أن مارجان راضية عن عملها بأكثر مما تريد أن يبدو عليها. لم يُعِرها عزيز الله اهتمامًا، ما دامت زوجته لا تشكو من خادمتها الجديدة.

لكن حين كانت الأسرة كلها تأوي للنوم، ويستقر الإيقاع الليلي للبيت، كانت تتمدد مستيقظة، تعي أنها ستظل غريبة إلى الأبد. لقد خبرت الانتقال والتغيير من قبل، وفي كل مرة، كانت تتأقلم. اعتادت على فكرة كونها ليست جزءًا من أي بيت حقًا، ليست فردًا من أي أسرة حقًا. إنها بين تلك الجدران فقط ما دامت تنظفها حتى تُدمي يديها. لأنها «هدية»، والهدايا تُمنَح وتُقبَل بسهولة.

الفصل 10
رحيمة

أخبرتنا خالة شايما كيف تأقلمتْ بيبي شكيبه مع التغييرات التي حدثت في حياتها. عليَّ أنا الآن أن أتأقلم مع التغيير الذي حدث في حياتي. كان عليَّ أن أتعلم التفاعل مع الصبية. كان لعب كرة القدم والركض معهم جنبًا إلى جنب وملامسة الأكتاف أو المرافق شيئًا ما، أما التحدث معهم في أثناء سيرنا إلى البيت من المدرسة فكان شيئًا آخر تمامًا... والتحدث معهم في أثناء سيرنا إلى البيت من المدرسة شيئًا آخر تمامًا. كان عبد الله وأشرف يربتان على ظهري، حتى إن أحدهما علق ذراعه أحيانًا على قفاي، علامة على الصداقة. كنت أبتسم بسلاسة، وأحاول ألا يبدو عليَّ ارتباكي الذي أشعر به. كنت غريزيًا لأجفل وأتراجع، لأركض بعيدًا ولا أنظر في عينيه مرة أخرى.

كانت أمي ترفع حاجبها إن عدت إلى البيت قبل منير. تسألني وهي تمسح يديها بمنشفة: لماذا عدت إلى البيت مبكرًا هكذا؟

قلتُ بشكل مبهم وأنا أقضم قطعة خبز: لأنني...

- رحيم!

- آسف، أنا جوعان!

عضتِ مادر جان لسانها وواصلت تقطيع البطاطس إلى رقائق مستديرة بشبح ابتسامة على وجهها.

- اسمع، رحيم جان. عليك أن تكون في الخارج مع الصبية،

نلعب. هذا ما يفعله الفتيان، أتفهم ما أقوله لك؟

ما زالت مادر جان تتحدث بمواراة حين يتعلق الأمر بتحولي من فتاة إلى فتى. ظني أنها كانت تخشى أن تكف عن تصديق التمثيلية لو تحدثتْ عنها بشكل مباشر.

– نعم، مادر جان، لكنني أحيانًا فقط لا أريد أن أفعل ذلك. إنهم... إنهم يدفعون أحدهم الآخر كثيرًا.

– ادفعهم أنت أيضًا في المقابل.

فاجأتني نصيحتها، لكن تعبيرات وجهها أخبرتني أنها جادة. لم يكن التواصل البدني مسموحًا بين الفتية والفتيات، لكن ها هي أمي تخبرني بالعكس تمامًا. هكذا قررتُ أن أستجمع قواي.

كان بادر جان قد ظل في البيت لثلاثة أيام والجميع على حافة الانهيار. يُثير كل صوت وكل رائحة حنقه فتبدأ سلسلة من الألفاظ النابية وقليل من الصفعات إن استطاع الحركة. كان يجلس في غرفة الجلوس معظم اليوم يدخن سجائره. تصيب الرائحة رؤوسنا بالدوار، فكانت مادر جان تجعلنا نقضي أغلب الوقت في الفناء. لفّت ستارة في بطانية وأعطتها لشهلا ريثما نعد الطعام بنفسها. كان أعمامي يأتون أحيانًا ليجلسوا معه، يدخنون ويتحدثون عن الحرب، عن الجيران وطالبان، لكن أحدًا منهم لم يكن يدخن بقدر ما يدخن بادر جان.

سألتْ رحيلة ذات يوم: في رأيك كيف كنا سنعيش لو كان كاكا جمال هو والدنا؟

كانت هي وشهلا تجمعان الملابس من على الحبل. توقفتْ شهلا مأخوذة.

– رحيلة!

- ماذا؟

- كيف تقولين شيئًا كهذا؟

كنت أستمع لكنني أركز عيناي على الكريات الرخامية أمامي. طرقعتُ بأصبعي وراقبت كرية تدفع بالأخرى بعيدًا إلى اليسار. نفختُ بغضب. كان تسديد أشرف أفضل من تسديدي بكثير.

كان عبد الله قد قال سابقًا: *ركّز على أين تريد توجيهها فحسب، أنت تنظر إلى الكرية التي أمامك فقط. يجب أن تنظر إلى الهدف.*

تجمّدت حين أمسك بيدي وأراني كيف أُوجّه أصابعي، ضغط على خنصري لأسفل لئلا يعيقه. كان مجرد فتى وأنا مجرد فتاة، لكنني كنت ما زلت أتساءل: ماذا ستقول أمي إن رأتنا؟! أكان ذلك لا بأس به أيضًا؟

كان عبد الله محقًا. ما أن بدأت أنظر في الاتجاه الذي أريد توجيه الكرية فيه، صار تسديدي أفضل. اصطدمت الكريات ببعضها البعض وتدحرجت خارج الدائرة. قد يمكنني الفوز على عبد الله اليوم. حسنًا، ربما ليس عبد الله بل أشرف بالتأكيد. كان تسديدي يتحسّن.

- إنه مجرد سؤال، شهلا. لا يجب أن يزعجك هكذا!

نظرت إليها شهلا موبِّخة: إنه ليس مجرد سؤال. لو كان بالفعل مجرد سؤال، أود أن أسمعك تسألينه أمام بادر جان. على كل حال، كاكا جمال يبدو كالمجنون دائمًا. حتى وهو يضحك، هل لاحظت كيف يتحرك حاجباه؟

أمالت رأسها جانبًا وعقدت حاجبيها نحو رحيلة التي انفجرت بالضحك.

تدخلت بارفن: لا يمكنك أن تطلبي أبًا آخر.
هدأت قهقهة رحيلة وهي تلتفت إلى بارفن لتسمع رأيها.
- قد يضيّع هذا كل شيء.
جلستُ. تخشّب جانبي الأيسر من البقاء في وضع واحد.
سألتها: عن ماذا تتحدثين بارفن؟
- لا يمكننا جعل كاكا جمال أبينا دون أن تتغير أشياء كثيرة.
هذا يعني أن تصير خالة روهكل أمنا وصبور ومنير أخوينا.
كانت بارفن الابنة المفضلة لدى بادر جان، إن كان ثمة شيء كهذا. ربما كان قد غضب بما يكفي حين وُلِدت، لدرجة أن كونها فتاة لم يؤلمه كما تألم حين وُلِدت أختاها. لكن الأهم من هذا، أن شيئًا ما في مزاجها ورسمها كان يهدئه. ربما لذلك كانت الأكثر تسامحًا معه من بيننا. أو ربما كان العكس.
حذرتنا شهلا: في جميع الأحوال، الأفضل أن تتوقفن قبل أن يسمعكن أحد.
بدأت ستارة بالبكاء والتقلب في بطانيتها. رفعتها شهلا على كتفها بخبرة. كانت على أعتاب سن الرشد، لم يعد جسدها تكوينًا خنثويًا. بدا أن رحيلة، على غرابة هذا، تسبقها بخطوتين. بدأت مادر جان إلباسها حمالة الصدر منذ عام ونصف حين بدأ صدرها يبرز من ثوبها بلا رابط.
جرّبتُ حمالة صدرها ذات مرة. من باب الفضول فقط. كانت قد نسيتها في غرفة الغسيل مجددًا. صفعتها مادر جان مرة لقلة حشمتها هذه. مع ذلك، ظلت تنسى ارتداءها. وضعتها أمامي وحاولت أن أفهم تركيب الشرائط. وضعت ذراعيّ في الحلقتين وحاولت ربطها من الخلف، مددتُ ذراعي خلفي

على نحو غريب، لا أرى المشبك. بعد دقائق قليلة استسلمت ونظرت إلى قماش الحمالة يتدلى فضفاضًا على صدري.

أدخلت صدري في الحمالة لأرى إن كانت تلائمني، لكنني أدركت أنني لا أريد أن يحدث هذا. أريد بدلاً من ذلك أن أجلس على الأرض، أعقد ساقيّ وأستريح، فيما تتحول أخواتي إلى نساء.

في وقت لاحق من تلك الليلة، ذهبتُ لأفتح الباب حين سمعنا الطرق. كان بادر جان راقدا في غرفة المعيشة. يقعقع شخيره العالي في صدره. كان صوت شخيره يعلو بشدة أحيانًا لحد أن تمهقه رحيلة وتمتد يد شهلا غريزيّاً إلى فم أختها لتكتم ضحكها. كانت بارفن تهز رأسها غير راضية عن سلوك أختها. ومادر جان ترمقهما بنظرة تحذير، فتتسع عينا شهلا إعلانًا لبراءتها.

كان عند الباب الخارجي رجل. عرفتُ أنه أحد أصدقاء أبي. بشرته مشققة، لها ملمس جدراننا الجصية.

- سلام كاكا جان.

قال ببساطة: اذهب وناد أباك.

أومأتُ برأسي وعدت ركضًا إلى البيت، أخذتُ نفسًا عميقًا قبل أن ألكز كتف بادر جان. ناديته، بصوت أعلى وأعلى قبل أن ينكسر إيقاع شخيره ويمد يديه ليفرك عينيه الحمراوين.

- ما خطبك بحق الجحيم؟

- عذرًا بادر جان. كاكا جان عند البوابة.

بدأت عيناه تركزان. جلس وحك أنفه.

- حسنًا، *باجم*. اذهب وأحضر لي صندلي.

كنتُ ابنه ومسموحًا لي بإيقاظه في الأمور المهمة. رأيتُ حاجبي شهلا يرتفعان. لاحظتْ هي الأخرى الفارق.

ذهب [illegible] إلى [illegible] جلست بعيدًا عن
البوابة حيث يتحدثان، وبعيدًا عن نظر الرجل.

– لقد استدعى عبد الخالق الجميع. سنلتقي في الصباح ثم ننطلق. إنهم يقصفون المنطقة شمالنا ويبدو أنهم سيحتلون موضعًا ما إن لم نتصدَّ لهم. الكلام كثير. يُقال إن الأمريكان سيرسلون إلينا بعض الأسلحة أو شيئًا ما.

سأل بادر جان: الأمريكان؟ كيف تعرف هذا؟

يستند بظهره إلى البوابة. رفض ضيفه قبول دعوته دخول البيت.

– قابل عبد الخالق أحد رجالهم الأسبوع الماضي. إنهم يريدون إخراج هؤلاء من المنطقة. ما زالوا يبحثون عن العرب. أيًا كان السبب، على الأقل سيساعدوننا.

– متى سنرحل؟

– عند الشروق. سنلتقي عند الصخرة في الطريق الشرقية.

رحل بادر جان لشهرين تلك المرة لكنها كانت مختلفة بالنسبة إليّ. شعرت بالفخر لأن أبي يقاتل في صف عملاق مثل امريكا. لم يكن جدي واثقًا بأنها فكرة جيدة. بدا متشككًا أكثر في الأمريكان، لكنني لم أعرف السبب.

كانت خالة شايما تجلس في غرفة معيشتنا حين عدت إلى البيت تلك الظهيرة. رأيتها مرة واحدة فقط منذ تحولي، قبل بدء الدراسة.

قالتْ تؤكد على اسمي الجديد: ها أنت ذا! لقد هرمت وأنا انتظرك، رحيم جان.

– سلام، خالة شايما!

كنتُ سعيدة لرؤيتها لكنني قلقة مما ستقوله عن تقدمي.

- تعال واجلس إلى جانبي وقل لي بالتفصيل ماذا كانت تفعل. من الواضح أن أمك فشلت في إعادة أخواتك إلى المدرسة، رغم أن الغرض من خطتنا كان إرضاء الجميع، حتى أبيك المخبول».

ورمقت مادر جان بنظرة من زاوية عينيها. تنهدت مادر جان ونقلت ستارة لترضعها من ثديها الأيسر. بدا أنها ملت بالفعل من هذا الحديث.

- كنت في المدرسة، وقد منحني معلم صاحب درجات جيدة، أليس كذلك مادر جان؟

أردت إرضاء خالة شايما، خاصة أنها هي من أكسبتني تلك الحريات الجديدة.

- بلى، إنه يبلي جيداً في المدرسة.

ابتسامة صغيرة. كانت شهلا وبارفن تجلسان في غرفة الجلوس، تتحرك أصابعهما بخمول بين حبوب العدس لإزالة الحصى منها. أنجزت شهلا ضعف ما أنجزته بارفن التي شكلت بأكوام الحبوب تكوينات مختلفة. كانت رحيلة مصابة بدور برد وتنام في الغرفة المجاورة.

- حسناً، أنا آسفة لأنني لم آتِ لأطمئن عليكم جميعًا في وقت مبكر. لم تكن صحتي بحال جيدة جداً. أكره حين يعيقني هذا عن فعل ما أريده.

سألت شهلا بأدب: أتشعرين بتحسن الآن خالة جان؟

- نعم، باجم، لكن إلى متى؟ عظامي منهَكة وتؤلمني وكان الغبار ممرضًا جدًا الشهر الماضي لحد أن كل نفس كان يبدأ بنوبة سعال. كنت أسعل بقوة أشعر معها أن أحشائي ستخرج من جسدي!

هذا أسلوب خالة شايما في شرح الأمور.

- على كل حال، كفانا حديثًا عن كبار السن. أنت تعرف أن اخواتك لسن محظوظات مثلك.

- شايما، لقد قلت لك، ما أن تستقر الأمور سأعيد الفتيات إلى المدرسة.

- تستقر؟ تستقر أين؟ أتعنين في هذا البيت أم في البلد بأسره؟ ومتى في ظنك سيحدث هذا؟ لأنني على حد ما أتذكر انّ هؤلاء الفتيات قد عِشن تحت القصف عمرهن كله! بحق الله، انا لا أتذكر يومًا واحدًا فقط لم يكن فيه هذا البلد في الحرب.

- أعرف هذا، شايما جان، لكنك لا تفهمين موقفي. إن كان ابوهن يمنعهن من...

- ليفعل أبوهن ما يشاء.

- شايما!

تجمدت شهلا وبارفن. كان ذلك أكثر مما توقعنا، حتى من الة شايما.

- أنت تدافعين عنه بحمية! افتحي عينيك يا رئيسة! ألا ترين ماذا يكون؟

صاحتْ مادر جان، بصوت مرتفع لم نسمعه منها من قبل: انه زوجي! وعليكِ أن تفهمي هذا! أرجوكِ! ألا تظنين أنني أعرف افضل من أي شخص آخر ماذا يكون وما لا يكون؟ ماذا بوسعي ان افعل؟

- زوجك أحمق. لهذا أقلق على هؤلاء الفتيات من وجودهن معه. اجلس معنا وستكون واحدًا منا. اجلس مع إبريق شاي وتضحى أسود.

- شايما أرجوكِ!

تنهدت خالة شايما وتركت الأمر.

- حسنًا، لا بأس إذن، رئيسة. لكن لهذا أظل آتي إلى هنا وألح من أجل مصلحة الفتيات، على أحد أن يتصدى له.

- ومَن أفضل مِن...

قالت خالة شايما برضا: هذا صحيح

ثم عادت تلتفت إليَّ. واصلت شهلا وبارفن عملهما وإنما بإيقاع أبطأ، لم يقلقهما صياح مادر جان.

- أخبرني إذن. هل تأقلمت جيدًا؟ لا مشاكل مع الفتيان؟

- لا، لا مشاكل يا خالة جان. كنت ألعب كرة القدم، وكنت أفضل من ابن عمي منيز، على ما أظن.

- ولم يقل لك أحد أي شيء؟

- لا يا خالة جان.

- جيد. وماذا تفعل لمساعدة أمك؟

- يذهب إلى السوق، إنه يشتري بأسعار أفضل مني أنا.

- لا تنسي يا مادر جان أنني أعمل مع أغا باركزاي وأنه يعطيني نقودًا قليلة!

- كنت على وشك قول هذا يا رحيم. أنت تعرفين أغا باراكزاي، لديه هذا المحل الصغير في القرية. حسنًا، كان في حاجة إلى بعض المساعدة وقد طلبت من رحيم أن يمر به ليساعده في العمل. أغا باراكزاي بالكاد يمكنه أن يرى الآن.

- أنت فتى تعمل! هذا جديد!

صفقتْ خالة شايما بيديها.

- نعم، أسير في كل مكان دون أن ينظر أحد إليَّ. يمكنني فعل أي شيء! حتى إنني رأيت صديق أبي، عبد الخالق، في الأمس.

تخشبت مادر جان ونظرت إليَّ وقالت: رأيت من؟
كررت، بهدوء أكثر: عبد الخالق.
بدت خالة شايما منزعجة بقدر ما كانت أمي. تساءلت إن نتُ قد فعلت شيئًا ما خطأ.
- هل قال شيئًا لك؟
- ليس كثيرًا. اشترى لي وجبة خفيفة وأخبرني أنني أبلي حيدًا.
نظرت مادر جان مرة أخرى نحو خالة شايما التي هزت رأسها.
- رئيسة، هذا ليس رجلاً تربطي به أطفالك. ولا حتى رحيم!
- ابق بعيدًا عن هذا الرجل يا رحيم، هل تفهمني؟
حذرتني مادر جان بعينين واسعتين وجادتين. أومأتُ براسي. ململت أختاي في الصمت الذي تلا ذلك. سألتها بارفن: خالة شايما، هل يمكنك إخبارنا بالمزيد عن بيبي شكيبه؟
- بيبي شكيبه؟ آه، تردن سماع المزيد؟ حسنًا، لنرَ إن كنت اذكر اين توقفت...
مالت خالة شايما إلى الخلف وأغمضت عينيها لتخبرنا بالمزيد من القصة، لكننا سمعنا الباب ينفتح. كانت جدتي نادرًا ما تأتي لزيارتنا، لكن بادر جان ظل غائبًا مدة شهرين وقد شعرتْ بضرورة الاطمئنان علينا، خاصة حين رأت خالة شايما وهي تدخل من البوابة. كانت خالة شايما تعامل جدتي بقدر من الاحترام، وبعيدا تمامًا عن الود. وجدتي، على الجانب الآخر، لم تشعر بأي التزام بمراعاة أي شيء مع خالتي.
صاحتْ وهي تدخل: سلام.

هبت أمي ناهضة، أيقظت ستارة التي كانت على وشك النوم. عدلت ثوبها من أعلى وسارت إلى الباب لترحب بحماتها.

تحركت خالة شايما على مهلها لكنها دفعت بنفسها إلى أعلى لترحب بحماة أختها.

- سلام، خالة جان. كيف صحتك؟ جيدة، كما أرجو.

بدت صادقة تقريبًا. قبّلتُ أنا وأخواتي يدها. جلستْ على الأرض قبالة أمي، وأحضرت شهلا لها كوب شاي من المطبخ.

- أنتِ هنا مجددًا، شايما جان! إنه عطف منك أن تأتي مرة أخرى سريعًا هكذا.

تقصد أنتِ تأتين كثيرًا جدًا. لم تقل خالة شايما شيئًا.

- ألم يصلك شيء من عارف جان؟ أي خبر عن موعد عودته؟

هزت مادر جان رأسها: لا يا خالة جان. لا شيء البتة. أدعوِ الله أن يعودوا سريعًا.

- على كل حال، لقد تحدثتُ مع مرسال جان وقد وافقتْ عائلتها على تزويج ابنتها لعبيّد.

كان عبيّد شقيق أبي. كانت تلك أخبارًا جديدة.

- عبيد جان؟ آه، لم أكن أعرف...

- نعم. لذلك سوف نستعد لوصولها. سنعقد النكاح خلال شهرين تقريبًا، إن شاء الله. سيعود هذا بالخير علينا. زوجة ثانية ستنجب له المزيد من الأطفال وتزداد عائلتنا.

قالت مادر جان بهدوء: إن لديهما خمسة أطفال، *نام إي خودا*[1].

---

(1) ما شاء الله. (المترجمة).

- نعم، لكن لديهما ولدين فقط. الأولاد نعمة، وعبيّد يريد المزيد من الأولاد. الأفضل أن تتجب المزيد بدلاً من محاولة تغيير ما لديك. على كل حال، لقد أخبرتك. قد تستدعيكِ فاتيما لمساعدتها في تحضير مكان لزوجته الجديدة. هذه أخبار سعيدة وعلينا أن نشارك فيها جميعًا.

- بالطبع، خالة جان. إنها أخبار رائعة.

كان صوت مادر جان هادئًا. راقبتْ خالة شايما حوارهما بعينين مُضيَّقتين.

قالت جدتي وهي تومئ براسها: نأمل أن نحظى بالمزيد منها.

ثم نهضتْ وسارتْ إلى الباب.

- على كل حال، هذا كل شيء الآن. شايما جان بلغي سلامي للأسرة، من فضلك، ظني أنك ستغادرين سريعًا، لقد تأخر الوقت بالفعل.

- هذا كرم بالغ منكِ خالة جان. أنتِ تشعرينني بترحيب شديد يجعل من الصعب عليَّ أن أغادر.

رأيتُ كتفي جدتي يتشنجان قبل أن تغادر ثم النظرة التي تبادلاتها خالة شايما ومادر جان بعد ذلك. هزت خالة شايما رأسها. هذه أخبار سيئة لبيتنا.

- هيا يا فتيات، سأحكي لكن عن بيبي شكيبه. سأخبركن بمدى سهولة انتقال النساء من مكان إلى آخر، من بيت إلى آخر. ما يحدث مرة، يحدث مرتين ثم مرة ثالثة...

الفصل 11
شكيبه

جلس عـزيـز الله في غـرفـة الجلوس مع أخـيه حـافظ الله. يوجد معهما رجلان آخران أيضًا لكن شكيبه لم تعرف اسميهما ولم ترَهمـا من قـبل قط. كـانا يرتديان عـمـامـتين بيـضـاوين وقمـيصـين وبنطالين بلون أزرق باهت. يرتدي حـافظ الله سـترة بنية بلا أكمام على قميصه، تتدلى من جيبها مسبحته.

أعلن حـارس: شكيبه، بادر جان يريد الطعام خلال عشرين دقيقة، يقول إنهم سيغادرون سريعًا لذلك يجب أن تُسرعي.

أومأت شكيبه برأسها بعصبية، تعرف أن الأرز لن يكون قد طُهي تمامًا خلال هذا الوقت. أضافت المزيد من الزيت في القِدر، على أمل أن يساعد الدهن الزائد في تليين حبات الأرز.

مال حارس أعلى كتفها وحاول خطف قطعة لحم من إناء اللحم بجانبها. امتدت يدها اليمنى غريزيًا وضربته على معصمه.

- أنت تعـرف أفـضل مني حـارس، ليس قـبل أن يأكل الضيوف.

كانت نبرتها هادئة لكنها حاسمة. حارس المفضل لديها من بين الأطفال. أحيانًا يجلس معها حين يمل من أخويه، ولم تكن هي تمانعَ صحبته، بالعكس، كانت تستمتع بثرثرته وحكاياته عن مدرّسه.

توسل إليها: قطعة واحدة فقط!

- إن أخذت قطعة سيريد أخواك هما أيضًا حين يريانك تلعق أصابعك.
- لا، أعدك! لن أخبرهما! سألعق أصابعي هنا قبل أن أخرج!
كان بارعًا في التفاوض.
- حسنًا إذن. لكن قطعة واحدة فقط...
خطف القطعة الأكبر قبل أن تنهي شكيبه جملتها.
- حارس!
عبس، خداه ممتلئان بلحم الضأن. كم هي محظوظة لعيشها في بيت يسعهم فيه أكل لحم الضأن! تنهّدت شكيبه وتظاهرت بالانزعاج.
سألتْ: عن ماذا يتحدثون في الداخل هناك على كل حال؟
- ألا تعرفين؟ إن الملك قادم!
سألتْ شكيبه: الملك؟ أي ملك؟
- أي ملك! الملك حبيب الله، بالطبع!
- آه.
لم يكن لديها أدنى فكرة عمّن يكون الملك حبيب الله. مرت سنوات طويلة جدًا منذ أن أبدى أبوها اهتمامًا بأي شيء خلف جدرانهم.
- هل سيأتي إلى هنا؟
- هنا؟ هل أنتِ مجنونة شكيبه؟ بل سيأتي إلى منزل كاكا حافظ الله.
كان شقيق عزيز الله قد تدبّر تأمين مكانة لنفسه كصديق للأسرة الملكية. كان يخدم كمراقِب للمنطقة ويقدم تقاريره للسلطات في كابول، العاصمة. ظل لسنوات يخدم كمفوّض

مخلص ويسافر كثيرًا إلى القصر لمقابلة مستشاري الملك. كان يأمل من وراء ذلك أن يصير مالك[1] إقليمهم. اللقب الذي يأتي معه قدر لا بأس به من النفوذ، لذلك كان غالبًا ما يولِم ويغدق بالمجاملات على أي شخص له نفوذ.

لم يكن عزيز الله يطبق تلك العلاقات المتغطرسة لكنه يستمتع بالفعل بفوائد مكانة شقيقه الاستراتيجية. كان أهل القرية يحترمون عزيز الله مراعاة لحافظ الله. هكذا كان النفوذ يتقاطر من الأسرة الملكية إلى أقل البيوت شأنًا في الأرياف.

لم يكن لدى شكيبه أدنى علم بالشؤون الديبلوماسية، لكنها هي أيضًا انبهرت بتوقعات زيارة الملك المحلية. تخيلت الخيل والثياب الملكية، والحراس على الجانبين.

عدّلت طرحتها وصبت أكواب شاي ساخن على أمل أن تؤجل شهيتهم لدقائق أخرى قليلة. حملتِ الصينية إلى غرفة الجلوس وأبقتْ رأسها مطرقًا، حذرة ما أمكنها.

- إنه شرف عظيم، هذه هي الفرصة التي كنت أنتظرها. الحمد لله، لقد دعوت الكثيرين ورتبت وليمة كبيرة ليلتها. سنقدم قربانًا، سنذبح الماعز على شرف الملك. لن أبخل بشيء.

- كيف ستدفع مقابل كل هذا؟ كم عدد من سيأتون معه؟ بالطبع لن يكون أقل من دزينة من الأفواه المتغطرسة لإطعامها!

- لكل شيء ثمن، لكنها فرصة لا يمكنني تفويتها. لقد ظل شريف الله مالك هذا الإقليم وقتًا طويلاً بما يكفي. من حسن الحظ حقًا أنه سافر لحضور جنازة ابن عمه.

---

(1) منصب يشبه العمدة. (المترجمة).

قال عزيز الله ضاحكًا: من حسن حظك أنت! وليس ابن عمه!

- ما عليك من ابن عمه يا أخي العزيز. الأمر أن هذه فرصة عائلتنا للتقدم خطوة إلى الأمام. كان هذا ما أراد أبي رؤيته، ليرحمه الله ويُحسن إليه. إن صرت مالكًا، سنسيطر على الإقليم بأكمله! تخيل الحياة التي سنعيشها.

- سوف تصير مالكًا ممتازًا، بالتأكيد. ومما سمعته، العديد من القرى لا تحبذ طرق شريف الله.

- إن الرجل بلا صوت. لولا المحاصيل التي تنتجها أراضينا كل موسم لنسيت المملكة أمر إقليمنا تمامًا. لم يفعل شريف الله شيئًا لنا! حتى حين تنازَع أغا سوبراني وأغا حميدي على الأرض المجاورة للنهر، كانت فكرته الحمقاء أن يتقاسماها بينهما بالنصف.

استمعت شكيبه وهي تجمع أكواب الشاي الفارغة وتقرّب طبق المكسّرات من الرجال.

- الآن، لا سوبراني ولا حميدي يكنّا له أي احترام. هما الاثنان ساخطان عليه بنفس القدر. كان عليه منح الأرض لحميدي. كان زعمه معقولاً ولعائلته نفوذ أكبر من عائلة سوبراني. كان من الأفضل له كسب نفوذه وترك الغضب لسوبراني وحده!

منطق معقول جدًا. تسلّلت شكيبه خارج الغرفة بهدوء. اعتادت على حوارات حافظ الله الصاخبة وكانت تجدها مسلية على نحو ما، لكنها مع ذلك كانت ممتنة لأن الله لم يضعها في رعايته هوَ؛ فقد كانت واثقة بأنه قاس في البيت.

ما أن خرجتْ من الغرفة، سمعتْ نبرة حافظ الله تتغير. توقفتْ ومالت بأذنها نحو غرفة الجلوس.

- وكيف تسير الأمور مع المساعدة الجديدة؟ هل تقوم شكيبه إي شولا بعمل المنزل جيدًا؟

أجاب عزيز الله: جيد بما يكفي، لا تشكو مارجان بشأنها كثيرًا.

- لا بد أن عائلتها قد ارتاحت للتخلص من عبئها. لقد سمعت أن قلب بوبو شاهكل تمزّق لوفاة ابنها. لم تتحمل وجود ابنته في بيتها لأنها تذكّرها بابنها الميت دائمًا.

- لقد سمعتَ أكثر مني لأن الفتاة لا تتحدث عنهم. إنها بالكاد تتحدث بالفعل. إنها عاقلة بما يكفي.

قال حافظ الله مازحًا وهو يلطم فخذه بيده بقوة: على الأقل لا تقلق زوجتك من اتخاذك لها زوجة ثانية!

- لا، إنها ليست للزواج. إنها عفيّة وتقوم بأعمال الرجال. أحيانًا ننسى أنها فتاة حقًا. إن قوتها تدهشني. رأيتها منذ أيام قليلة تحمل ثلاث دلاء ماء وتسير في خط مستقيم، بلا أدنى جهد. أخبرني أعمامها أنها كانت تعمل في الأرض مع أبيها.

قال حافظ الله: أكثر فائدة من البغل، جيد. ماذا حدث لأبيها؟ أذكر أنني التقيته بعد وقت قصير من وفاة أطفاله في موجة الكوليرا. بدا في حال فظيعة. كان رجلاً حساسًا للغاية.

- أخبرني أخوه أنه لم يكن في حال جيدة في الشهور القليلة الأخيرة. أغا فريدون، قال إنه حين تحدث معه أخبره أنه يعرف أن نهايته قد اقتربت، وقد رتب الأمر لتعيش ابنته مع بوبو شاهكل ووزّع أرضه وأدواته وحيواناته على إخوته.

اتسعت عينا شكيبه.. *كذب! لم يقل أبي شيئًا من هذا!*

لم يرَ أبوها إخوته منذ وفاة أمها. تساءلتْ: أكانت تلك

القصة فكرة كاكا فريدون أم بوبو شاهكل. إنهم يقفزون لالتقاط أي فتات تركها أبوها خلفه.

هذه أرضي. تركها جدي لأبي. لم يرغب أبي في أي صلة له بعائلته. أنا مالكة هذه الأرض.

تساءلتْ شكيبه أين قد تكون حجة الأرض. الوثيقة الموقّعة من جدها، لأبيها، وعدد من الأقارب البعيدين وأحد كبار القرية لإتمام العقد. بالطبع بحث عنها أعمامها وهم يلقون بمحتويات البيت إلى الخارج.

- شكيبة؟ ماذا تفعلين هنا؟

اهتزت أكواب الشاي بين يديها المرتعشتين. كانت مارجان قد جاءت من خلفها وهي شاردة. اندهشت لرؤيتها متجمدة على بعد أقدام قليلة من غرفة الجلوس.

- أنا فقط... شاي...

غمغمتْ وأسرعت إلى المطبخ. طأطأتْ رأسها لتخفي الألم في عينيها.

ملأت رائحة الثوم والكمون الغرفة. تشارك عزيز الله وأخوه وجبتهما، قطّعا لقمًا من الخبز الأسمر وغرفا بها الأرز واللحم. تساءلتْ شكيبه: هل سيتركان شيئًا لبقية الأسرة أم لا. كان اللحم صعب المنال، حتى في هذا البيت، وبدا أن الرجال سيأتون على خزين الأسبوع في جلسة واحدة.

بدأ ذهنها يتساءل وهي تجفف القدور. ماذا سيحدث لو حاولت المطالبة بالأرض؟ أضحكتها الفكرة تقريبًا. تخيل هذا. شابة صغيرة تطالب بأرض أبيها، لتنتزعها من بين مخالب أعمامها الجشعين. حاولت تخيل أن تأخذ الحجة إلى القاضي

المحلي. ماذا سيقول؟ الأرجح أنه سيطردها إلى الخارج. سيقول إنها مجنونة. حتى إنه قد يُعيدها إلى عائلتها.

لكن ماذا لو لم يفعل؟ ماذا لو استمع إليها؟ وافقها؟ قد يقر بحقها في أرض أبيها.

كانت مارجان في المطبخ معها. تُنقّي الأرز من الحصوات الصغيرة.

قالتْ شكيبه بهدوء: خانُم مارجان؟

– نعم؟

توقفت مارجان ورفعت بصرها. شكيبه نادرًا ما تتحدث، هذا واضح بالتأكيد.

– ماذا يحدث لفتاة حين يكون لدى أبيها... حين يكون لديه أرض... إن لم يكن...

زمّت مارجان شفتيها وأمالتْ رأسها. تشعر بالسؤال المدفون بداخل شكيبه.

– شكيبه جان، أنت تسألين سؤالاً غير منطقي. أرض أبيكِ ستعود إلى عائلته، بعد موت أخويكِ، رحمهما الله.

كانت إجابة مارجان صريحة لكن واقعية، بغض النظر عمّا قد تقوله القوانين. منح وضوحها شكيبه الثقة لتتحدث بصراحة.

– لكن ماذا عني؟ ألست وريثة شرعية للأرض؟ أنا ابنته أيضًا!

– أنتِ ابنته. لستِ ابنه. نعم، تقول القوانين أن للنساء نصيبًا من الإرث الذي يرثه الرجال لكن الحقيقة أن النساء لا يطالبن بالأرض. أعمامك، إخوة أبيك، سيأخذونها بلا شك.

أطلقتْ شكيبه تنهيدة يائسة.

– بنيتي العزيزة، هذا سخف شديد. ماذا في ظنك ستفعلين

بقطعة أرض؟ بادئ ذي بدء أنت تعيشين هنا الآن. هذا هو بيتك. ثانيًا، أنتِ لست متزوجة، وليس بوسع امرأة أن تعيش على قطعة أرض وحدها! هذا سخف.

لقد عشت وحدي على تلك الأرض شهورًا. لم يكن سخفًا. كان بيتي.

لكن مارجان لم تكن تعرف شيئًا عن الوقت الذي قضته شكيبه وحيدة. لم تجرؤ شكيبه على ذكر تفاصيل، كانت تعرف أنه شيء لا يجوز قوله. لا داعي لمنح القرية وقودًا للنميمة.

سألتْ: لكن إن كنتُ ابنًا؟

لا ترغب في ترك الأمر تمامًا.

- إن كنتِ ابنًا، لكنت ورثتِ الأرض. لكنكِ لستِ كذلك، ولا يمكنك أن تصبحي كذلك، وأنتِ الآن جزء من هذا البيت. أنتِ تسألين أسئلة لن يأتي من ورائها سوى الغضب. كفى!

أرادتْ مارجان أن تضع نهاية للنقاش. سيغضب زوجها إن سمعهما. إن كانت هذه نوعية الأفكار التي تخطر في بالها فمارجان ممتنّة لأن شكيبه لا تتحدث كثيرًا.

لكنني كنت دائمًا ابنة وابنًا لأبي. لم يكن يتعامل معي كفتاة. كنت أفعل ما يفعله الابن دائمًا. أنا لن أتزوج أبدًا، فما الفارق إذن؟ ماذا فيَّ يجعلني فتاة؟

جزّت شكيبه على أسنانها.

لقد عشت وحدي. لست في حاجة إلى أحد.

كانت أسرة عزيز الله تعاملها بعطف لكنها لم تكن مرتاحة. شعرت بحنقها يتجدد على عائلتها.

لا يمكنني العيش هكذا إلى الأبد. يجب أن أجد طريقة لصنع حياتي أنا.

الفصل 12
رحيمة

كثيرًا ما فاتتني الفرصة للاستماع إلى قصة بيبي شكيبه. بدا أنها قد عزمت على صنع حياتها الخاصة، وبدا أنني قررتُ أنا الأخرى اكتشاف حياتي الخاصة.

أتساءل إلى متى كنت سأواصل كفتي لو لم ترنا أمي ذاك اليوم. أغلب الفتيات *الباشابوش* يعُدن إلى وضعهن الطبيعي كفتيات ما أن تأتيهن دورتهن الشهرية، لكن مادر جان جعلتني أواصل بعدها، أنزف لكنني أبدو كفتى. حذّرتها جدتي من هذا الخطأ. «الشهر القادم»، كانت أمي تعدها كل مرة. لكنني كنت مفيدة للغاية لها، لأخواتي، للأسرة بأكملها. لم تتحمل الاستغناء عمّن ينجز لها ما لا ينجزه أبي. وكنت سعيدة بمواصلة لعب كرة القدم وتمارين التايكوندو مع عبد الله والصبيان.

لم يكن لدينا فلفل حار في البيت، وكان بادر جان يحب طعامه حارًا. ذاك الفلفل غيّر كل شيء بالنسبة إليَّ.

كنت أنا وعبد الله وأشرف ومنير نمشي في شارعنا الصغير. كانوا يسيرون معنا ثم يواصلون إلى بيتيهما، الأصغر من بيتنا لكنهما من الداخل فقيران مثله. لم يكنِ الناس في قريتنا يتضورون جوعًا، لكننا كنا جميعًا نفكر مرتين قبل أن نلقي بفتات لكلب ضال. ظل الأمر كذلك عدة سنوات. كنا في بعض الأيام نسير بكسل. وفي أيام أخرى نسير بحيوية ونتسابق للوصول إلى علبة الصفيح،

إلى المرأة العجوز، إلى البيت ذي الباب الأزرق.

كنت أنا وعبد الله قريبين في دائرة أصدقائنا. كان لدينا شيء ما مختلفًا، شيء ما زيادة قليلاً. كان يضع ذراعه حول كتفي، يميل عليَّ ويغيظ أشرف. كنت باشابوش، لكن الأمر قد طال كثيرًا، كضيف طالت إقامته.

كان أشرف من بدأ الأمر. رفع قدمه لأعلى في الهواء لكنها لم تصل لأعلى كما كان يظن. أخبرناه أنه لا يستطيع رفعها إلى مستوى خصرنا لكنه كان متأكدًا من أنه رآها تصل عند وجوهنا. هز منير رأسه؛ كان قد تعب من تمرُّن أشرف عليه طوال الوقت.

كنا مهووسين بالفنون القتالية. بعد أن رأينا مجلات بصور لمقاتلين في أوضاع مختلفة، أقدامهم أعلى من رؤوسهم، أذرعهم ممدودة للأمام. أردنا أن نكون مثلهم، كنا نقلب صفحات المجلة ونقلد أوضاعهم.

كنا قد تقاتلنا بهذه الطريقة من قبل. جميعنا. كنا نمرح ولا نفكر في شيء كثيرًا. وكنت قد بدأتُ ألف قطعة قماش ضيقة على برعمي صدري. لم أكن أريد أن يلاحظهما الصبية أو يعلقوا عليهما. كان محرجًا بما يكفي أن صوتي لم يتغير كما تغيرت أصواتهم. كنت احيانًا أعود إلى المنزل بكدمات. ذات مرة، التوى كاحلي تحتي وأنا أحاول تجنب ركلة من أشرف. لمدة أسبوع، ظللت أعرج في سيري من البيت إلى المدرسة والعكس. أخبرتُ مادر جان أنني تعثرت بصخرة، لأنني عرفت أنه ليس بإمكاني إخبارها الحقيقة.

لكنّ الأمر كان يستحق من أجل تلك اللحظة التي أكون فيها مع عبد الله، ولو احتجَزَني رغما عني، وكنتُ أنا في الغالب من يبدأ الشجار لأنني كنتُ أحبّ نتيجته.

هذا ما كنا نفعله حين خرجت مادر جان من بيت الجيران بحفنة من الفلفل الحار في يدها اليمنى وطرف برقعها الأزرق في يدها اليسرى. لم يكن الأمر ليسير على نحو أسوأ من هذا. كان قد عرقلني ففقدت توازني وسقطت أرضًا. نظرتُ لأعلى ورأيت ابتسامة عبد الله الوسيم، المنتصر مرة أخرى.

- رحيم!

سمعتُ صوت أمي، حادًّا ومذعورًا. رأيت من زاوية عيني ثوبها السماوي الباهت، فشعرتُ بمعدتي تهوي من مكانها.

لا بد أن عبد الله قد رأى النظرة على وجهي. إذ هبّ ينهض على قدميه ونظر إلى أمي. أكّد وجهها أن ثمة شيئًا ما خاطئًا للغاية. مد يده لي ليساعدني على النهوض.

غمغمتُ ونهضتُ أقف: لا بأس.

نفضت التراب عن بنطالي وحاولتُ تجنّب نظرة أمي الاتهامية.

صاح عبد الله يحييها: سلام خالة جان.

تذكر أشرف ومنير آدابهما وألقيا التحية هما الآخران.

استدارتْ مادر جان بحدة وسارت إلى بوابتنا الأمامية.

- ماذا حدث؟ إن أمك تبدو منزعجة.

- آه، لا شيء. إنها تغضب لأنني أعود إلى البيت بملابسي متسخة دائمًا، المزيد من الغسيل، أنت تعرف».

بدا عبد الله متشككًا. يعرف وجه الأم الغاضب ويشعر بشيء ما خلف كل هذا.

لم أرغبَ في العودة إلى البيت. كنت أعرف أن مادر جان غاضبة لكن الأمر سيسوء لو أجّلت مواجهتها.

لم أستطع النظر إلى عبد الله، كنت أشعر بالدم يتدفق في

وجهي بالفعل. كانت أمي قد رأت شيئًا مختلفًا عمّا رآه الجميع. لقد رأت ابنتها مثبَّتة أسفل فتى في الشارع. مشاهد قليلة يمكن اعتبارها مشينة أكثر من هذا.

سمعتُ خشخشة تحت قدمي ورأيت الفلفل الحار، سحقه صندلي عند بوابتنا الأمامية. حيث ألقت به مادر جان. جمعتُ ما أمكنني جمعه من على الأرض ودخلتُ.

صحتُ: مادر جان، سأذهب لأغتسل قبل أن آكل.

كنت أراها تقف في المطبخ وأردت أن أجس النبض قبل أن انظر في عينيها مباشرة.

- مادر جان؟

- ممم.

صوتي خجل ومذبذب: مادر جان، ماذا تفعلين؟

- أعد الطعام. اذهب وأنجز فروضك الآن بعد أن أحرجت نفسك في الشارع.

ها هو الأمر. شعرت براحة طفيفة لسماعها تقوله. يمكنني الآن البدء في الدفاع عن نفسي.

- مادر جان، لقد كنا نلعب فقط.

رفعتْ عينيها عن الإناء الذي كانت تقلّبه. عيناها ضيقتان وشفتاها مزمومتان.

- رحيم، أنت تعرف أن ما حدث خطأ. أو على الأقل كنت أظنك كذلك. لقد طال هذا الأمر كثيرًا.

- مادر جان، أنا...

- لا أريد سماع كلمة أخرى منك. سأتحدث معك فيما بعد. الآن عليَّ أن أعد عشاء أبيك وإلا ستحل بي مصيبة أخرى.

انسحبتُ إلى الغرفة الأخرى وعملت على فروضي المدرسية لفترة قبل أن أقرر أن أرى إن كان أغا باراكزاي يحتاج إلى مساعدة خلال فترة الظهيرة. لم أرغب في الوجود في المنزل فيما يتخمّر غضب مادر جان. شغلني أغا باراكزاي حتى المساء وعدت إلى البيت لأجد مادر جان لم تدخر لي أي طعام.

رأتني أنظر إلى الأواني الخالية.

- يوجد القليل من الحساء المتبقي. يمكنك تناوله مع بعض الخبز.

- لكن مادر جان، هذا الحساء ليس فيه سوى الماء والبصل. ألم يتبق لحم؟

- أنهيناه كله. ربما في المرة القادمة سيتبقى لك شيء.

قرقرتْ معدتي بألم، شعرت فجأة بغضب شديد.

- كان بإمكانكم ترك شيء ليْ! أهكذا تعاملونني؟ أترغبين في تجويعي؟

همستْ بحدة: لست متأكدة مما تجوع إليه تحديدًا!

حينها دخل بادر جان. فرك عينيه. سأل: لماذا كل هذا الصياح؟ ماذا يحدث باجم؟

نظرت إلى أمي وتحدثتُ دون تفكير: لم تدخر لي قطعة لحم واحدة. تريدني أن أتناول حساء بصل وخبزا! كنت أعمل في محل أغا باراكزاي وحين أعود إلى البيت لا أجد طعامًا لي!

ألقيتُ بأجري على الطاولة ليراه جيدًا. طارت الورقات النقدية في الهواء وانتشرت بشكل مسرحي.

- رئيسة! هل هذا حقيقي؟ ألا يوجد شيء ليأكله ابني؟

غمغمتْ مادر جان: ابنك... ابنك...

تبحث عن سبب معقول لعقابها لي. لم تستطع إخبار بادر جان بما حدث بالفعل لأنها تعرف أنه قد يُلقي بي في النار. لكنها كانت سريعة البديهة بما يكفي أو داهية بما يكفي لتختلق قصة أخرى وليدة اللحظة.

رأيتُ غضبه يتصاعد وتمنّيت فورًا لو لم أقل ما قلت. رأيتُ وجهه يحمرّ غضبًا. رأيته يميل بوجهه وكتفاه ترتفعان. ثم بدأ يلوّح بذراعيه بغضب.

- إن ابني جوعان! انظري إلى النقود التي أتى بها إلى البيت! ومع هذا لا يمكنك إيجاد طعام لائق له؟ أيٌّ أم أنتِ؟

صفعها على وجهها بظهر يده. ترنّحتْ إثر الصفعة. هوتْ معدتي.

- بادر!

زعق وهو يضرب ثانيةً: أعدي له شيئًا ليأكله وإلا ستجوعين أنتِ مدة شهر!

سالت قطرة دم من شفتي أمي. غطتْ وجهها بيديها واستدارت عنه. ارتعشتُ حين نظر إليَّ. رأيت من زاوية عيني شهلا ورحيلة تختلسان النظر من آخر الرواق.

- اذهب يا بني إلى جدتك واطلب منها إعداد شيء لك لتأكله، واحرص أن تخبرها بما فعلته أمك. لن يدهشها هذا مع ذلك.

أومأتُ ونظرت إلى أمي خطفًا، شعرتُ بالامتنان لأنها لم تكن تنظر إليَّ.

فكّرتُ تلك الليلة في بيبي شكيبه. كنت أحب مقارنة نفسي بها، الشعور بكوني جريئة وقوية وشريفة مثلها، لكنني في لحظات الصدق مع نفسي كنت أعرف أنني لست كذلك.

الفصل 13
شكيبه

نضجت الفكرة في رأس شكيبه بعض الوقت قبل أن تفكر في بدء تنفيذها بالفعل. كان من شأن محادثتها مع مارجان أن تجعلها تترك الأمر لكنها لم تفعل. كل ما التقطته من المحادثة أنه، رسميًا، لديها الحق بالمطالبة بجزء من أرض أبيها على الأقل.

رقدتْ مستيقظة كل ليلة تفكر في الحجة. مجرد ورقة عليها عدد من التوقيعات، لكن قيمتها أكبر من هذا بكثير. أين يمكن لأبيها أن يكون قد خبأها؟ أغمضتْ عينيها وتخيلت نفسها في البيت. سمعتْ صوت إغلاق مزلاج البوابة. قعقعة المعدن. تخيلت رُكن أبيها، بطانيته المنبسطة على استعداد لتلك الليالي الباردة. رأتْ كرسي الطبخ الخاص بأمها، وملابس أخيها مطوية ومكدّسة على رف.

لا بد أنها في كتبه. فكرتْ شكيبه؛ إذ كانت الوحيدة التي تهتم بالبيت، كانت تعرف كل بوصة فيه جيدًا. تذكّرت الرف الذي تركته دون تلميع منذ وفاة أمها. كان أبوها قد جمع ثلاثة أو أربعة كتب على مدار سنوات وكان يحتفظ بها على ذلك الرف.

حين أدركتْ شكيبه الأمر، ضربت نفسها تقريبًا لأن الأمر كان واضحًا جدًا.

لكن كيف سنعرف بادر جان؟

كافة الأجوبة في القرآن باجم.

كان أبوها قد علمهم كلهم القراءة، بداية بالقرآن، ثم بالكتب الأخرى لديه. كانت تتبع بنظرها أصبعه الخشن وهو يمر على الكلمات. وكان أخواها من حين لآخر يجلبان صحيفة من مغامراتهما في القرية، فكانوا يتناوبون الدور في الانكباب على صفحاتها والتمرن على فهم معنى الكلمات والعبارات. كان ذلك صعبًا، لكن بادر جان كان صبورًا معهم ويدعهم يخطئون، ينظر من أعلى أكتافهم حين يتلعثمون ويربط المقاطع ببعضها البعض.

إنها في القرآن، أدركتْ شكيبه. هل يُحتمل أن أعمامها لم يجدوها بعد؟ محتمل. المحتمل أيضًا أن هؤلاء الحمقى لم يعنوا بالبحث عنها. بالطبع لم يساورهم أدنى شك في أن تفكر شكيبه حتى في المطالبة بالأرض.

ما يعني أن شكيبه كانت تفكر في العودة إلى بيتها، وهذه ليست بخطوة صغيرة.

وماذا لو وجدت الحجة؟ ماذا ستفعل بها؟ لم تتوقع أن تعرضها على أعمامها وتناقش الأمر معهم بهدوء. لا، بل يجب عليها تقديمها إلى مسؤول رسمي، القاضي المحلي، وهكذا يمكنها رفع قضيتها.

كانت تعرف من نقاشات عزيز الله وأخوه أن نزاعًا كهذا يجب أن يفصل فيه مسؤول رسمي، ما يعني المزيد من التعقيدات في خطط شكيبه. كيف قد تجد هذا الشخص؟

وكيف ستذهب إلى كل تلك الأماكن؟ عليها أن تخرج من البيت ليوم كامل. تساءلتْ شكيبه إن كانت مارجان ستسمح لها بالخروج من البيت وحدها. بعد محادثتهما، كان من الصعب التفكير في دعم مارجان لفكرتها. يجب أن تفكر في شيء ما.

بعد ذلك بيومين، اقتربتْ شكيبه من مارجان التي كانت تشغل بالإبرة سترة لحارس. تمرنت على السؤال في ذهنها وهي تتحنح.

قالتْ، تحاول أن يبدو صوتها ثابتًا: سلام، خانم مارجان.

ردت مارجان:سلام شكيبه.

وبالكاد رفعت عينيها عن خيطها الذي ظلت تعقده وتفرده وتعقده ثانية مرارًا وتكرارًا.

- خانم مارجان، أريد أن أطلب منكِ شيئًا.

- ما الأمر شكيبه؟

- كنت أتساءل إن كان بإمكاني زيارة عائلتي مدة يوم. إن العيد خلال أسبوع وأعرف أن أمامنا هنا عملاً كثيرًا، لذلك فكرت أنه ربما هذا الأسبوع؟

طوت يديها خلفها لوقف نفسها عن فركهما معًا.

توقفت مارجان عن شغل الإبرة ووضعته في حجرها. بدتْ حائرة.

- عائلتك؟ فتاتي العزيزة، لم يسأل عنكِ أحد من عائلتك منذ أن جئتِ إلى هنا! كنت أظنك لا تحملين لهم أي عاطفة! والآن تريدين أن تزوريهم؟

قالت، تحاول جاهدة أن يبدو صوتها صادقًا: آه، لقد افتقدتهم بالفعل، لكنني لم أرغب في الإعلان عن هذا في أيامي الأولى هنا.

- والآن؟

- حسنًا، الآن، لقد ظللت هنا عدة أشهر ومع العطلات القادمة... أريد أن أزور جدتي، احترامًا.

تساءلتْ شكيبه إن كان الله العليم بكل شيء يضحك الآن أم غاضبًا عليها ويلعنها لكذبها.

تنهدتْ مارجان بعمق وضغطت بأصابعها على جبينها: جدتك...

استعدّت شكيبه. بينما قالت مارجان تعدد المهام: لدينا الكثير لفعله للتحضير للعيد. علينا خبز بعض الكعك، وسيكون علينا إعداد ولائم كثيرة، وعلينا تنظيف البيت جيدًا... لكن ظني أنه من الصواب أن تزوري بوبو شاهكل. إنها جدتك رغم كل شيء. سأتحدث مع عزيز الله وأعرض عليه طلبك.

حاولتْ شكيبه ألا تبتسم. أطرقت برأسها امتنانًا. قالت: شكرا لكِ خانم مارجان، سأقدر لكِ هذا حقًا.

من حين لآخر كانت شكيبه تدرك بأسف كم هي ساذجة. كان اليوم التالي أحد تلك المرات.

دخلتْ مارجان إلى المطبخ حيث تجلس شكيبه على الأرض، بكومة بطاطس أمامها. توقفتْ عن تقشير البطاطس حين سمعت اسمها يُنادى عليه.

- شكيبه، عزيز الله موافق...

نظرت مارجان إلى شكيبه وتجمدت. لطمت بيديها على فخذيها وضيّقت عينيها. تابعت: هيي، يا فتاة! ما خطبك؟

- هه؟ ما الأمر خانم مارجان؟

نظرت شكيبه إلى كومة البطاطس أمامها تتساءل ما الذي يزعج سيدتها هكذا.

قالت مارجان مشيرة إلى ساقي شكيبه المنفرجتين: أهكذا تجلس فتاة؟

استدارت شكيبه لتنظر إلى جلستها. كانت مستندة على الحائط بظهرها. ركبتاها منثيتان، وكومة البطاطس في الوادي المنبسط لتنورتها بين ساقيها.

- بالله عليك، تحلي ببعض الحشمة! اعتدلي قبل أن يراكِ الأطفال! ألم يعلمك أحد كيف تجلسين؟

نهضتْ شكيبه وعدلت تنورتها، حشرت قدميها أسفلها ونظرت إلى خانم مارجان منتظرة استحسانها.

- هذا أفضل. لقد سمعت أنك كنت ابنًا لأبيكِ لكنني لم أظن أن يصل الأمر إلى هذا الحد.

- نعم، خانم مارجان.

شعرتْ شكيبه بنصف وجهها يحمرّ.

- الآن، ماذا كنت أقول؟ نعم. عزيز الله موافق على أن تزوري جدتك في العطلة. سترافقينه يوم الجمعة القادم إلى القرية لصلاة الجمعة.

سيأخذها عزيز الله إلى هناك؟

- خانوم مارجان، شكرا لكِ، لكنني لا أريد أن أزعج زوجك. يمكنني الذهاب وحدي دون أن أتعبه معي.

نظرت إليها مارجان غير مصدقة. لم تكف شكيبه عن إدهاشها قط. كانت الفتاة ماهرة ومفيدة في البيت لكنها حين يتعلق الأمر بالمنطق السليم فإنها لا تفقه شيئًا البتة.

- أتتوقعين أن تذهبي لتتجولي وحدك في القرية؟ هل فقدتِ صوابك؟

ظلت شكيبه صامتة. ذهنها مشغول جدًا.

- سيأخذك، كما طلبتِ، ويصحبك لزيارة عائلتك، رغم أن

أعمامك غالبًا سيأتون إلى هنا في العطلات، لكن عزيز الله سيصحبك في العودة من هناك. لا تتوقعي أن تتجولي في القرية وحدك كالكلب الضال!

كانت شكيبه قد فعلت أشياء كثيرة جداً وحدها حين كانت تعيش مع أبيها وقبل أن يتحكم فيها أعمامها. لم يخطر في بالها أن يصحبها أحد. ضاق صدرها ذعرًا. لم تكن تتوقع هذا.

– أنا... أنا لا أريد أن أزعج...

– حسنًا، لو كنت لا تريدين إزعاجه فلماذا طلبت هذا من البداية؟

خرجت مارجان من المطبخ متأففة. كانت أسئلة شكيبه الغريبة تثير أعصابها أحيانًا.

تركتْ شكيبه تتساءل. قد تخبر مارجان أنها لم تعد راغبة في الذهاب. قد يبدو الأمر غريبًا لكنه سيفلح. أو يمكنها حين تصل إلى هناك أن تستأذن لجلب بعض أشيائها من بيت أبيها. لكن ماذا عن أخذ الحجة إلى *المالك*، المسؤول الرسمي؟

في يوم آخر ربما. لكن حتى ولو سنحتْ لها الفرصة في يوم آخر، سيكون عليها الذهاب برفقة أحد أيضاً. وليس لديها أدنى فكرة عن أين ستجد *المالك*.

سيكون عليها التفكير في هذا الأمر ملياً. *لنعبر الجسر حين نصل إليه*، فكرتْ.

جاء يوم الجمعة، واستجمعت شكيبه شجاعتها. سيتطلب الأمر قوتها كلها لمواجهة عائلتها مرة أخرى، خاصة جدتها. لكن هذا هو أملها الوحيد في العثور على الحجة.

أخبرتها مارجان أن تستعد في الصباح؛ إذ لن ينتظرها

عـزيـز الله. أومـأ عـزيـز الله برضـا حين رآها في انتظاره عند الباب الخارجي. ترتدي *الشادور* ورأسها مطرق. قالت بهدوء: سلام.

- لنذهب.

فتح الباب وتقدمها.

لم يتحدثا في طريقهما إلى المسجد. سارتْ شكيبه خلفه بخطوات قليلة لكنها انتبهت جيدًا للطريق. حاولت تذكر كل شيء في الطريق إلى هناك. كانت الشوارع واسعة ومتربة مع أنها مصطفة بأشجار طويلة على جوانبها. تناثرت عدة بيوت هناك وهناك على الجانبين، يفصلها عن بعضها البعض قرابة فدانين. البيوت كلها تقريبًا محاطة بجدران طينية بارتفاع ستة أقدام، للحفاظ على الخصوصية. رأتْ شكيبه أحواض النباتات في الأفنية وميزت البطاطس والجزر والبصل على الرغم من المسافة الكبيرة. كان الطقس جافًا والنباتات تعاني، ما يعني أن العائلات كانت تعاني أيضًا.

يتشكل مركز القرية من مسجد وثلاثة محلات وفرن. كانت واجهات المحلات متواضعة ذات نوافذ عرض زجاجية باهتة ولافتات مكتوبة بخط اليد. لم يكن الفرن محلاً بمعنى الكلمة. كان الخباز يجلس مستندًا بظهره على حائط أحد المحلات ويسحب أرغفة العيش الذهبية الساخنة من فرن تندوري المدفون في الأرض. أسالت لعابها رائحة الخبز الساخن الخارج من الحفرة المفتوحة في الأرض. وقفتِ امرأتان في انتظار أرغفتهما. تذكرت شكيبه سيرها في هذه المنطقة حين اصطحبها عمها إلى بيت عزيز الله لتسوية ديون العائلة معه.

شكيبه، *الهدية*، فكرت بألم.

أخذها عزيز الله ماراً بالمسجد إلى بيت صغير على مبعدة ربع كيلومتر. طرق البوابة الأمامية.

قال ويده على صدره: سلام، فايز الله جان.

- أغا عزيز الله، تسعدني رؤيتك! أأنت ذاهب إلى صلاة الجمعة؟

- بالطبع. لكنني أريد أن أطلب منك صنيعًا. هذه خادمتي، سآخذها لزيارة عائلتها بعد الصلاة، فهل سيزعج زوجتك إن بقيت معها في البيت حتى انتهاء الصلاة؟ لا أستطيع تركها في الشارع.

- آه، بالطبع! سمعت أنك أخذت حفيدة بوبو شاهكل، تلك التي بنصف وجه. دعها تبقى في الفناء. ليست فكرة جيدة أن نترك فتاة وحدها في السوق.

أُشير لشكيبه على كرسي يطل على المرحاض الخارجي. أراحتْ رأسها على الحائط. كانت رائحة المرحاض طاغية لكنها لم تجرؤ على تحريك نفسها في جلستها لئلا تزعج سيدة البيت اللا مرئية.

لم تقابل زوجة الرجل ولا أطفاله من قبل لكنها كانت تسمع أصواتهم في الداخل، يصرخون، يضحكون، يركضون.

أصوات أسرة.

يمكنني المغادرة الآن، فكرتْ شكيبه. *ماذا لو فتحت الباب وغادرت فحسب؟ يمكنني الوصول إلى بيتنا من هنا. قد أبحث عن الحجة وأعود قبل حتى انتهاء الصلاة.*

لكن عزيز الله قد يعود ولا يجدها، أو قد تلاحظ سيدة

البيت اختفاء الشادور من الفناء وتخبره. ثم ماذا؟ خافتْ شكيبه من إثارة غضب عزيز الله في الغالب لخوفها الشديد من أن يعيدها إلى بيت بوبو شاهكل. لا شيء أسوأ من هذا قد يحدث. لا شيء يمكنها التفكير فيه على الأقل.

عاد عزيز الله وشكر أخاه على السماح لشكيبه بالبقاء قليلاً. أومأ لشكيبه وانطلقا إلى الطريق المتربة مجددًا، يتوجهان هذه المرة إلى بيت بوبو شاهكل. حين وصلا، فتح حميد لهما البوابة.

صاح حميد: سلام!

- سلام باجم. أين أبوك؟ أعمامك؟ لم أرهم في صلاة الجمعة. ألم يذهبوا؟

- لا، صاحب. لم يذهبوا وليتك سمعت ما قالته لهم بوبو شاهكل لكسلهم الشديد.

لم يكن حميد ليلتزم الصمت في أي شيء أبدًا.

قهقه عزيز الله.

- حسنًا، ليغفر الله لهم حتى وإن لم تفعل بوبو شاهكل. أخبرهم أن عمك عزيز الله وابنة عمك جاءا للزيارة.

قادهما حميد الله في الفناء وركض ليعلن عن وصولهما بصوت أعلى من الأذان.

- بوبو جاااااااان! باااااااادر! كاكا عزيز الله أعاد شكيبها!!!!!

ذُعرت شكيبه والتفتت تنظر إلى عزيز الله. هل أحضرها للزيارة حقًا أم كان يعيدها إلى هذا البيت؟ هل شكّت مارجان منها؟ لطريقة جلوسها؟ لأسئلتها الغريبة؟ لتعرّق راحتي يديها. كادت تختنق داخل الشادور.

كان عزيز الله مهتماً بأجمة ورود. يتفحص البتلات وبدا أنه لم يلحظ ما قاله حميد.

ظهر كاكا فريدون عند عتبة الباب. بدا قلقًا.

- أغا عزيز الله! مرحبًا! تسعدني رؤيتك.

مدّ كاكا فريدون ذراعيه بترحيب. تعانق الرجلان وتبادلا قبلات الخدين المعتادة.

- كيف حالك؟ وحال أسرتك؟

- الجميع بخير، شكرًا لك، وأنت؟ هل صحة بوبو شاهكل بحال جيدة كما أتمنى؟

قال مازحًا ورمق شكيبه بنظرة غاضبة: أه، الآلام المعتادة من السن وشقاوة الأطفال.

يظنني فعلت شيئًا ما خطأ. ويتوق إلى معاقبتي بالفعل.

- إنها بركة لعائلتك أن يمد الله في عمرها هكذا. ما زلت حزينًا على أمي، ليرحمها الله، وقد مرّ على وفاتها عامان بالفعل.

ردّد فريدون: ليرحمها الله ويدخلها جناته، تفضل بالدخول، اشرب معنا كوبًا من الشاي.

ساراً نحو البيت ووقفت شكيبه على بعد أمتار قليلة خلفهما. تشعر أنها غريبة على المكان وتنقل وزنها من قدم لأخرى. كانت في فناء عائلتها لكنها ظلت مرتدية الشادور. تفضّل غطاءه لها في الوقت الراهن.

- عزيز الله جان، لم نرك منذ وقت طويل. عسى كل شيء بخير في البيت.

كانت عبارة فريدون بمثابة السؤال أكثر. كان يحاول تخمين السبب وراء الزيارة.

- نعم، نعم، إن كل شيء بخير. وماذا عنك؟ كيف حال الأسرة؟ والمزرعة؟ هل محصولكم جيد هذا العام؟

- بقدر المتوقع بعد الأمطار القليلة. السماء الجافة لا تساعد لكننا نأمل أن نجني ما يكفي للعيش به.

- سمعت شكاوى مثيلة من آخرين في أنحاء البلدة. وأين بوبو شاهكل؟ هل تستريح؟

قال فريدون: ذهبتْ لترقد قليلاً بعد الصلاة، هل تريد التحدث معها؟

مجددًا، بدا قلقًا.

جاءا كاكا زلماي وكاكا شراكا. انعكس تعبير وجه أخيهما على وجهيهما. وقف عزيز الله وتعانق الرجال وتبادلوا مجاملات قليلة.

تظاهر أعمامها بعدم رؤيتها، كعادتهم. عرفتْ شكيبه أن عليها الدخول من الباب الخلفي لتجد النساء لكنها لم ترغب في هذا كثيرًا.

قال عزيز الله: أرادتْ شكيبه أن تزور العائلة، العيد الأسبوع المقبل. وقد افتقدتِ الجميع بشدة وأرادتْ أن تَراكم، خاصة بوبو شاهكل.

لم يستطع أعمامها إخفاء دهشتهم. بعد برهة، أومأ كاكا فريدون برأسه بجفاء.

- آه، فهمت. لستُ مندهشًا. إن جميع أحفاد بوبو شاهكل يحبونها كثيرًا.

يظنني نادمة على ما فعلته. إنه أغبى حتى من زوجته.

قال فريدون: ستستيقظ جدتها بعد قليل وستدهشها رؤيتها بكل تأكيد.

زمّت شكيبه شفتيها بيأس.
قال فريدون بمرح: حسنًا، بعد أن قطعتْ كل هذه المسافة. لندخل ونشرب معًا كوب شاي، يا صديقي العزيز. ستسعد بوبو شاهكل بقضاء بعض الوقت مع حفيدتها العزيزة بكل تأكيد!
تبادل زلماي وشراكا ابتسامة خبيثة.
شعرتْ شكيبه أنها دمية، يلهو بها أعمامها. ماذا بوسعها غير هذا؟ كانت تريد الخروج من هذا البيت بكل جوارحها. لكنها مخاطرة، إن رآها عزيز الله قد يعيدها إلى أهلها.
أطاعتْ ساقاها وسارتْ ببطء إلى الباب الخلفي للبيت. مرّت بابن الخالة سامينا، أشرف، يحمل صينية أكواب شاي يتصاعد منها البخار وطبق زبيب ومكسرات. صلصلتِ الأكواب في الصينية من أعصابه المرتعشة.
دخلتْ شكيبه إلى الردهة وتوقفتْ. هل عليها أن تذهب إلى جدتها حقًا؟ هل سيبحثون عنها؟ رفعت الشادور وتركته يسقط عن رأسها.
ظهرتْ خالة سامينا في الرواق. كانت نحيلة، أصغر نسيباتها حجمًا.
قالت بهدوء: سلام يا شكيبه، إنها تعرف أنك هنا. وهي في انتظارك.
أجابتها شكيبه: سلام.
- شكيبه...
استدارتْ شكيبه لتنظر إلى خالتها التي كانت تحك جبينها. تقدمت سامينا عدة خطوات نحو شكيبه وأخفضتْ صوتها قائلة: لا تذهبي... إنها عجوز حمقاء. فقط لا تمنحيها سببًا. ليس

لديها طريقة أخرى لتسلية نفسها.

أومأتْ شكيبه، شعرت بغصة مفاجئة في حلقها. كان صوت سامينا رقيقًا، نبرة نادرًا ما خوطبت بها شكيبه. شعرت فجأة بالفجوة الواسعة التي تركتها أمها.

- شكرا لكِ، خالة سامينا.

أغمضتْ سامينا عينيها وأومأت برأسها بدراية قبل أن تعود بسرعة لعملها في المطبخ.

سارتْ شكيبه أمتارًا قليلة أخرى نحو غرفة بوبو شاهكل. رأت من خلال الستارة الشفافة جدتها تجلس على كرسي وتمسك بعصاتها. ذقنها ترتاح على يدها.

إنها تعرف أنني هنا. ليس لديّ خيار آخر الآن.

أزاحتْ شكيبه الستارة جانبًا وواجهتْ نظرة جدتها الجامدة.

- حسنًا، حسنًا، انظروا من قرر إزعاجنا مجددًا.

قررتْ شكيبه أن تعمل بنصيحة سامينا وألا تثير حنق العجوز.

- سلام.

قالت بوبو شاهكل بسخرية: سلاااام، أيتها الفتاة الغبية. كيف تجرئين على المجيء إلى هنا؟ كيف تجرئين على وضع قدمك في هذا البيت؟

استجمعتْ شكيبه شجاعتها. لقد تحمّلت ما هو أسوأ. كل ما عليها أن تمنع نفسها من الرد عليها فقط.

أنتِ تريدين الوصول إلى البيت والبحث عن الحجة. لا تنسي لماذا جئتِ إلى هنا، لا تدعي العجوز تُشتت تركيزك.

- عيد مبارك، بوبو جان.

أجابتِ الجدة: كأنه كان ينقصني رؤية هذا الوجه.

وأشاحت ببصرها بامتعاض. تابعت: لا عيد لمخلوق وقح مثلك، لقد تطاولتِ على جدتك التي آوتك حتى بعد أن سلبتِني ابني.

تحركت قدماها الواهنتان، يدفعها الغضب.

- كان أبي رجلاً حكيمًا يقرر لنفسه.

رأتْ شكيبه العصا قادمة لكنها لم تجفل تقريبًا.

هوتْ عصا بوبو شاهكل على كتفها.

وهنت عمّا كانت عليه منذ شهور قليلة، أدركتْ شكيبه.

- بوبو جان، كيف حال صحتك؟ تبدين واهنة قليلاً، لا قدّر الله.

ضربة ثانية. تحاول الضرب بقوة أكبر.

- أيتها الوحش! اخرجي من بيتي!

قالت شكيبه: كما تحبين.

ثم استدارت وخرجتْ ورأسها مرفوع. لم تقل شيئًا، ولم يكن لشيء أن يثير حنق بوبو شاهكل أكثر من هذا. توقفتْ عند المطبخ. تساءلتْ إن كانت خالة سامينا قد سمعت محادثتهما.

- بنيتي العزيزة، شيء ما بشأنك يثير جنون هذه العجوز. *لقد سمعت.*

- خالة سامينا، أريد أن آتي بأشياء قليلة من بيت أبي. لن استغرق وقتًا طويلاً.

نظرتْ شكيبه نحو غرفة الجلوس. كانت تسمع الرجال يضحكون.

هزت سامينا رأسها.

- افعلي ما تشائين، أنتِ لست طفلة. لكن افهمي أن الكثيرين يريدون تكديرك. وأن بإمكانك تسهيل الأمر على نفسك قليلاً.

أومأتْ شكيبه برأسها، تتساءل أي منهما الأكثر سذاجة من الأخرى. قالتْ: لن أستغرق وقتًا طويلاً.

غطت رأسها بالشادور وخرجت من الباب الخلفي.

عبرت الحقل سريعًا، تنظر من أعلى كتفها خطفًا كل ثلاثين ثانية تقريبًا لترى إن كان أحد قادمًا خلفها. بعد قرابة عشرين مترًا، أسرعت خطوها قليلاً، آملة ألا تلفت انتباه أحد. بدا بيت أبيها أصغر مما تتذكره. شعرتْ بتسارع دقات قلبها وهي تقترب من البوابة الصدئة.

للحظة، رأت أباها يقف في الخارج، وجهه للسماء وهو يمسح العرق عن جبينه بظهر يده. سمعت أمها تنادي على أخويها. رأت وجه عقيلة البلبل الشادي في النافذة الأمامية، تراقب أباهم يعمل في الحقل.

لا بد أن ثمة كلمة تصف ما شعرتْ به، كيف ارتجفت معدتها داخلها تحفزًا لزيارة مكان تفتقده بشدة، لتكون مع أشخاص يحبونها بقدر ما تحبهم. كان شعورًا بدأ حلوًا وانتهى مريرًا، حين أدركتْ أنها تقف على أطلال تلك الأوقات الرائعة، التي انتهت سريعًا.

لم يكن أحد قد أقام في البيت بعد لكنه بدا كأن أحدهم يحاول إصلاحه. سُدّت الشقوق في الجدران بالطين. أصلح أحدهم الطاولة المكسورة في الخارج بلوح جديد. في الداخل، اختفى الكرسيان الكبيران وكذلك البطاطين القليلة التي كانت

قد تركتها هنا وهناك لتوحي بأن أبويها وإخوتها ما زالوا ينامون في البيت معها.

تساءلت شكيبه من منهم نظر إلى البيت كالطير المفترس لكنها نحت الفكرة جانبًا الآن. كانت تريد العثور على المصحف. لم يلمس أحد كتب أبيها. ما زالت على الرف المائل أعلى مكان رقوده. نظرتْ من النافذة إلى الخارج، تتوقع أن تسمع أصوات أعمامها الغاضبة.. حبستْ دموعها واستخدمت كرسيًّاً صغيرًا للوصول إلى الرف. امتدت أصابعها إلى حافة الرف تتحسس دون أن تنظر.. هذا هو.

جذبت طرف القماش وانزلق المجلد نحوها. أمسكته بيديها الاثنتين وهبطت من على الكرسي. كان المصحف ملفوفًا بقماش مردي خفيف مطرز بخيوط فضية. ديسمُل أمها، أو قماش الزفاف. مسحتْ شكيبه التراب عن المصحف وقبّلته، مرت به على عينها اليمنى ثم اليسرى كما علّماها والداها.

لماذا نحتفظ بالقرآن في الأعلى هناك مادر جان؟ من الصعب جدًا الوصول إليه هناك!

لأنه لا شيء أعلى من القرآن. هكذا نبدي احترامنا لكلام الله.

حلّت شكيبه لفة القماش وفتحت الصفحة الأولى.

طارق. مؤنس. شكيبه. عقيلة.

كتب بادر جان بالقلم الرصاص إلى جانب كل اسم شهر وعام ميلاده.

قلبت شكيبه الصفحات، زواياها بالية. انفتح المصحف على السورة الثانية. ميزت الآية التي كان يرددها أبوها دائمًا. مرت

بأصبعها على الخط العربي وسمعت صوته.

هذا يعني أننا نحب أشياء كثيرة في الدنيا كثيرًا، لكن المزيد في انتظارنا في الجنة.

سقطت ورقة في يديها. ورقة برشمان مصفرة بعمودين من التوقيعات المزخرفة. ميزت اسم جدها. إنها الحجة!

احتدّتْ حواسها الآن بعد أن وجدت ما جاءت تبحث عنه. نظرت حولها سريعًا وأعادتْ دس الحجة بين صفحات المصحف. حان وقت عودتها إلى البيت الآن قبل أن يثير غيابها الغضب. لفّتِ القرآن مرة أخرى بقماش أمها ودسته بسرعة تحت ثوبها.

فكرت: *أستغفر الله*.

فيما تخرج من البوابة الأمامية الصدئة رأت عمها شراكا يقف خارج بيت العائلة.

فكرت: كسول. وهي تنظر إلىٰ عمها. كان الآخرون ليأتوا خلفي بأنفسهم.

قابلها شراكا عند الباب. سألها بنبرة صارمة: ماذا كنتِ تفعلين في ذلك البيت؟

قالت وهي تمر به سريعًا: كنت أصلي.

عادتْ إلى غرفة الجلوس، تأمل أن يكون عزيز الله مستعداً للمغادرة.

رشف عزيز الله رشفة أخيرة من كوبه: أين كنتِ؟ قالت بوبو شاهكل أنكِ زرتها زيارة جيدة لكنها قصيرة، علينا أن نذهب الآن. لقد أضعنا ما يكفي من وقتكم.

قال زلماي بود وهو ينظر إلى شكيبه بشك: الوقت معك لا يضيع.

أومأ شراكا برأسه موافقًا. لم يكن مثل أخويه في المجاملات الاجتماعية.

- هذا كرم منكم. بلغوا سلامي لبقية الأسرة. أراكم في المسجد في صلاة العيد الأسبوع القادم.

- نعم، بالطبع سنذهب.

- بالطبع.

سارت شكيبه خلف عزيز الله عبر الفناء ثم إلى الشارع. راقبهما أعمامها يغادران، يغمغم أحدهم للآخر: *إنهم يمثلون جيدًا*. فكّرت، تعرف أنهم يتساءلون عن سبب عودتها إلى بيت العائلة.

الفصل 14
رحيمة

- بالطبع ضربها مجددًا! لماذا أخبرته بهذا؟ أنت تعرفه!

كانت شهلا تطوي الملابس في الفناء، تحرك عينيها بين الملابس وستارة، التي كانت ترسم دوائر في التراب بحجر.

- لم أكن أقصد حدوث هذا، كنت فقط... كنت أقصد فقط...

- حسنًا، يجب أن تفكر قبل أن تقول شيئًا ما. هذا الصباح لم تستطع رفع ذراعها حتى. يعلم الله ماذا فعل بها.

عضضت شفتي. كنت قد ذهبت إلى بيت جدتي كما أمرني أبي. كنت آمل أن يترك مادر جان لشأنها لكنه لم يفعل. لم يكن غضبه المسمم ليزول وحده أبدًا، ليس دون دوائه. كنت أريد أن تسكت شهلا عن إخباري بمدى سوء ما فعل بأمنا، لكنني أردت أن أسمع، أردت أن أعرف ماذا حدث.

- لقد أفسدت الأمر كله. أنت لا تفكر. أنت مشغول للغاية بكونك ولدًا لدرجة أنك نسيت ما قد يحدث لفتاة. علينا جميعًا الآن أن ندفع ثمن أخطائك الأنانية.

- ليس للأمر علاقة بكن. لقد كان غاضبًا من مادر جان، كُفي عن القلق على نفسك إذن.

كانت شهلا تكافح لكبح دموعها.

- أتظن أن الأمر كله يتعلق بمادر جان؟ أتظن أن الأمر

يتوقف عندها؟ حسنًا، هذا ليس صحيحًا. ما تفعله يؤثر علينا جميعًا.

– عن ماذا تتحدثين؟

– أنت تعرف ماذا نحن جميعًا؟ نحن جميعًا دختار *ها جوان*، فتيات شابات. أنا، وبارفن. وحتى أنت يا رحيم، حتى أنتِ.

كانت شهلا غاضبة. لم أرَها غاضبة هكذا من قبل قط. نظرتُ ستارة لأعلى، شعرتُ بالتوتر.

– لقد ضربها مرة أخرى. أنا وبارفن كنا مرعوبتين فلم ننظر لكننا سمعنا. ظل يزعق ويصيح كيف أنها لم تكتفِ بكونها زوجة خائبة، وهي الآن أم خائبة أيضًا.

تذكرتُ وجهها وهي منكمشة تحته. كان وجهه محمرًا بالغضب، وعيناه جاحظتان.

– لا بد أنها سقطت على الأرض. كتفها يؤلمها بشدة. لا أعرف. حاولتْ تهدئته لكنه كان... حسنًا، أنت تعرف كيف يكون، ثم قالت له شيئًا جعله يتوقف.

سألتُ بهدوء: ماذا قالت؟

– قالت إنها كانت تعتني بنا جميعًا. إنه بيت مليء بدختار *ها جوان* وأن الأمر ليس سهلاً. فهدأ فجأة. ثم بدأ يروح ويجيء، يقول إن بيته مليء بالشابات وأن هذا ليس صوابًا.

– ما الذي ليس صوابًا؟

– ألا تعرف ما يقوله الناس؟ يقولون إنه ليس من الصواب ترك *الدختار ها جوان* في بيتك.

توجست من المنحى السيئ الذي تتخذه الأمور.

– ماذا عليك أن تفعل بهن إذًا؟

- مــاذا تظن أن عليك فــعله؟ عليك أن تتــخلص منهن بتزويجهنّ. هذا ما يجول في رأسه الآن. كل هذا لأنك لا تعرف ماذا تفعل بنفسك. لقد ظننت أن لا أحد يهتم بما تفعله ما دامت ترتدي بنطالاً وتلف قطعة قماش حول صدرك كل صباح. لكنك لست طفلاً الآن. الناس لن يتظاهروا بعد الآن. أنتِ مثلي أنا وبارفن.

- أتظنينه سيزوجنا؟

- لا أعرف فيما يفكر! لقد ترك البيت بعد هذا ولم يعد حتى الآن. يعلم الله أين هو.

جاءت بارفن من البيت بكومة ملابس أخرى وبدأت تعلق الملاءات على الحبل. تشب لتصل إلى الحبل بصعوبة. ألقت أغلب الملاءات على الحبل وشدت أطرافها من أسفل. همّت شهلا بالنهوض لمساعدتها، ثم عدلت، قررت ألا تنهض. حين انتهتْ بارفن، نظرتْ لأعلى إلى السماء، وضعت يديها على عينيها لتقيهما من أشعة الشمس، وغمغمتْ بشيء ما بصوت خفيض.

تذكرتُ محادثة كنت قد سمعتها عرضًا ذات مرة. ظنّت خالة شايما وأمي أنَّ لا أحد مستيقظ، لكنني كنت أجد صعوبة في النوم.

- لهذا يجب أن تذهب الفتيات إلى المدرسة رئيسة. وإلا لن يكون لديهن شيئًا. انظري إلي وفكري فيما قد يحدث لبارفن.

- أعرف، أعرف. أنا أيضًا قلقة بشأنها أكثر من الأخريات.

- عليكِ هذا. لقد فاتني القطار رغم كل ما فعَلته أمي. جميع من تحدَّثَت معهم، كل صلواتها ودعواتها. وانظري إليَّ،

عجوز وحيدة. ليس لي أطفال. أفكر أحياناً أن غياب زوجك الدائم ضارة نافعة لي، هذا الحمار. على الأقل يمنحني الفرصة للمجيء وقضاء الوقت مع فتياتك.

- إنهن يحببن وجودك هنا يا شايما. يتقن إلى حكاياتك. انتِ قريبتهم المفضلة.

- إنهن فتيات صالحات. لكن كوني واقعية. قبل أن تلاحظي، سيكون عليك التفكير في أمر الأزواج بجدية. فيما عدا بارفن. ستكونين محظوظة إن جاء أحد لطلب يدها.

- إنها فتاة جميلة.

- حقاً؟ لست أم القنفذ ظهر صغيرها فقالت: مخمل! أنتِ أمها. بارفن عرجاء. هذا ما هي عليه. يشهد الله أنني أحبها بقدر ما تحبينها لكن هذا ما سيدعوها به الناس وعليك أن تكوني صادقة مع نفسك لإدراكه. تماماً مثلما أنا شايما *إي كوب*. ظللت دائماً شايما الحدباء. ذهابها إلى المدرسة يمنحها شيئاً ما على الأقل. على الأقل سيمكنها الإمساك بكتاب وقراءته. على الأقل سيكون لديها الفرصة لمعرفة شيء ما غير تلك الجدران الأربعة ورائحة أفيون أبيها.

- ستكون زوجة صالحة. وأماً صالحة. إنها طفلة موهوبة. طريقة رسمها، كأن الله يرشد يديها. أحياناً أظن أنها ما زالت تتحدث مع الملائكة، مثلما كانت وهي رضيعة.

- لا يحتاج الرجال إلى البنات *الموهوبات*. يجب أن تعرفي هذا.

لم أستطع تخيل بارفن زوجة مثلما لم أستطع تخيل أي منا. سقطتُ في النوم بعد ذلك. حلمتُ بمئات الفتيات بطرح خضراء،

يتسلقن الجبال شمال قريتنا، خيط زمردي في مسار إلى القمة، من حيث تلقي الواحدة تلو الأخرى بنفسها على الجانب الآخر، تمتد أذرعهن كأجنحة تعرف جيدًا كيف تُحلّق.

في بيت مكون من ثلاث غرف، لم أتوقع تفادي أمي وقتًا طويلاً. رأيت شفتها المتورمة ووجهها الطويل، وتمنيت أن ترى الندم في وجهي.

- مادر جان... أنا... أنا آسف، مادر جان.

- لا بأس باجم. إنه خطئي مثلما هو خطؤك. انظري إلى ما فعلته بكِ. كان عليَّ أن أوقف كل هذا منذ وقت طويل.

- لكنني لا أريد أن...

- ستتغير الأمور سريعًا، أنا متأكدة. أخشى أن الأمر قد خرج من يدي الآن. سنرى ما سيأتي به القدر، ماذا يخبئ الله لنا. إن أباكِ يتصرف بتهوّر وهمس جدتك في أذنيه لا يفيدنا بشيء.

سألتها بعصبية: ماذا تظنينه سيفعل؟

كنت أشعر بارتياح لأنها لم تكن غاضبة عليَّ. رقدتُ على جنبها، أختي الرضيعة بجانبها. قاومتُ رغبتي في التكوّر بجانبهما.

قالت، بصوت منهَك ومهزوم: الرجال مخلوقات لا يمكن التنبؤ بأفعالها، الله وحده يعلم ماذا سيفعل.

الفصل 15
شكيبه

واجهت شكيبه مشكلة جديدة. أرادت أن تأخذ الحجة إلى المالك المحلي لكنها لم تعرف إن كان عزيز الله سيسمح لها بهذا أم لا. ربما سيسمح لها. الرجال مخلوقات لا يمكن التنبؤ بأفعالها رغم كل شيء.

قررتْ ألا تطلب إذن عزيز الله، لكن هذا يعني أن تصل بنفسها إلى مالك البلدة. كانت قد سمعتِ اسمه في المحادثات بين عزيز الله وأخيه حافظ الله، لكنها ليس لديها أدنى فكرة عن مكانه. ثم ستأتي مشكلة الوصول إليه. ما العذر الذي قد تختلقه للخروج هذه المرة؟

سألتْ مارجان: كيف كانت زيارتك لعائلتك؟

أجابتها شكيبه: كانت زيارة سعيدة.

يداها مغمورتان حتى المرفقين في ماء ساخن برغوة صابون، تغسل ملابس الأطفال.

- وكيف حال بوبو شاهكل؟ أهي بصحة جيدة؟

قالت شكيبه: نعم.

فكرت: *لسوء الحظ.*

- وبقية العائلة؟ هل رأيتِ الجميع؟ جميع أعمامك؟

- رأيت كاكا زلماي، شراكا، وفريدون. عماي الآخران ما زالا في الجيش.

وقفت مارجان أمامها. إصبعها على شفتيها فيما تفكر في شيء ما. تفادت شكيبه النظر إليها عن عمد.

- أتعرفين، لقد قابلت زارمينه جان، زوجة عمك، في الحمّام الأسبوع الماضي. أخبرتني أنها اندهشت لأنك أردت زيارة عائلتك بمناسبة العيد.

انقبضت عضلات رقبة شكيبه.

- قالت أنكِ لم تتأقلمي جيداً في بيت بوبو شاهكل بعد وفاة أبيكِ.

خالة زارمينه؟ فيمَ تفكرين؟

- هل كنتِ غاضبة لأنهم أرسلوكِ إلى هنا؟

هزت شكيبه رأسها.

- حسناً، آمل ألا تكوني غاضبة. كان ذلك اتفاقاً وافق عليه الجميع لذلك أتمنى ألا تسلكي السلوك نفسه هنا في هذا البيت.

شعرتْ شكيبه بنار تشتعل في معدتها. غصّت وقالت: هذا البيت مختلف.

- جيد. اعلمي فقط أننا لا نتسامح مع السلوك السيئ. لن أدع أطفالي يتعلمون... تلك الأشياء!

أومأت شكيبه برأسها.

لكن مارجان لم تكن مرتاحة. ربما قالت خالة زارمينه شيئاً ما أكثر من ذلك.

أعدت شكيبه عشاءً للأسرة وتناولت طعامها في المطبخ بهدوء. كانت تحب سماع صخب الأطفال. سمعت بين الضجيج مارجان تخبر عزيز الله أن لديها شيئاً ما تريد مناقشته معه فيما بعد.

عرفتْ شكيبه أنه بخصوصها.

في الليل، سمعت تأوهات مارجان وعرفت أن عزيز الله يأخذ زوجته. كان ذلك شيئًا ما عرفته وهي في بيت جدتها. من حيث كانت ترقد في المطبخ كان بإمكانها سماع الغمغمات واللهاث نفسه عبر الجدران وكانت ترى كاكا زلماي يخرج من غرفته منتعشًا بينما تتحاشى سامينا نظرة شكيبه وتشغل نفسها بأطفالها. كان النساء يمزحن بشأن هذا كثيرًا حين لا يكون الأطفال في الجوار لكنهن لم يكنّ يلحظن وجود شكيبه.

– لقد ظللت تعملين على هذه السترة لأكثر من أسبوع يا زارمينه! متى ستنهينها؟

– هذا ما أسمعك تقولينه لزوجك في منتصف الليل يا نرجس!

يضحكن، وتلطم واحدة منهن ظهر الأخرى. كانت شكيبه تستمع مفتونة بلحظات الصداقة الحميمية النادرة بين النساء.

قهقهت نرجس وردّت على الفور بلا تردد: إن المرأة لا ترى ما وراء صدرها الكبير لتعرف ماذا يحدث في الأسفل.

ضحكت مجددًا. نظرت سامينا إلى شكيبه وبدت غير مرتاحة لوجودها في الغرفة. لاحظت زارمينه ورفعت كوب الشاي.

– لم أكن لأقلق بشأنها، عزيزتي سامينا. تذكري، لقد كانت ابن أبيها لذلك سيفيدها كثيرًا أن تعرف أمورًا من النساء. تخيلي لو كنتِ لا تعلمين شيئًا عن ماذا ينتظرك ليلة زفافك! دعيها تتعلم.

طرقعت سامينا بلسانها.

- العلم بهذا الأمر يجعله أسوأ فقط.
فكرت شكيبه في عبارتها هذه كثيرًا. ما السيئ في الأمر؟ أيًا كان، فقد كانت النسوة تجعلنه يبدو فظيعًا لكنه قابل للتسامح معه. كن يضحكن بشأنه، رغم كل شيء.
لم يكن سماع تنهدات وشهقات مارجان الناعمة يدهشها. كان هذا ما بين الزوج وزوجته وما يجعل المرأة تحمل أطفالاً. كانت شكيبه تفهم هذا القدر من الأمر على الأقل.
بعد لحظات قليلة، هدأتِ الغمغمة واستطاعتْ شكيبه سماع المحادثة. ضغطت أذنها على الحائط.
- وأخبرتك زارمينه أنها فعلت هذا؟
- نعم، هذا ما قالته. والآن أعرف لماذا كانت بوبو شاهكل تتوق لعقد هذا الاتفاق. لم تكن تريد الفتاة في بيتها.
- أنا لم أثق قط بهؤلاء الرجال. خاصة فريدون. إنهم يظنون العالم ملكهم، ولا أحد منهم يصل لرُبع ما كان عليه أبوهم. أمهم على حق أن تظل تراقبهم جيدًا.
- لكن ماذا ستفعل بشكيبه شولا؟ حقًا، إنها تقوم بعملها في البيت جيدًا جدًا لكنني أخشى أن تنقلب علينا كما فعلتْ مع جدتها. ماذا لو هددت بإنزال اللعنة على أسرتنا أيضًا؟
إنزال لعنة على الأسرة؟
- ممم، مثير.
- وقالت زارمينه إن الفتاة رغم أنها كانت تقوم بأعمالها كفتى، إلا أنه لديها روح امرأة متوحشة. نحن لسنا بحاجة إلى الفضائح والشائعات.
- وماذا في رأيك يجب أن نفعل؟

- ظني أن عليك إعادتها.

- إعادتها؟

- نعم! لمصلحة جميع من في البيت هنا. أعدها وأخبر أعمامها أنهم سيكون عليهم تسوية ديونهم بطريقة أخرى. لا يمكننا إبقاؤها.

- فهمت.

كانت حكمة من مارجان أن تتحدث في الأمر الآن، وعزيز الله مجهد ومسترخ.

- لكن علينا ألاّ نخبرهم بسبب إعادتنا إياها. لقد نبّهتني زارمينه بشكل خاص أن أحتفظ بالأمر كله سرًا.

- أراهن أنها قالت ذلك.

ساد صمت. شعرت شكيبه بالغدر، لكنها تساءلتْ بعد ذلك لماذا تندهش من اتهامات زوجة عمها.

ماذا تريد؟ أتريد زارمينه إعادتي إلى البيت؟ لماذا؟

- سيكون فقدان مساعدتها في البيت فظيعًا لكن شعوري نحوها لم يعد جيدًا، لا يمكنني محو كلمات زارمينه من رأسي.

فكرت شكيبه في سلوك مارجان العصبي خلال اليومين الماضيين وكادت تضحك.

للحظة، أعجبتها فكرة أن تكون تهديدًا مريعًا إلى هذه الدرجة.

قال عزيز الله: إن أعدتها، سيتسبب هذا في شقاق بين العائلتين ولن يكون هذا جيدًا. من منظر أرضهم، أتوقع أن يطرقوا بابنا قريبًا لاقتراض النقود مجددًا. لا أحد منهم يعرف شيئًا عن الزراعة، لكنني لدي فكرة أخرى.

- ما هي؟
- فكري أنتِ في الأطفال وعمل المنزل. ألم أقل لكِ إنني سأتولى الأمر؟

انغلقت نافذة فرصة مارجان سريعًا. كان ضيق خلق عزيز الله يعاوده. قال: دعيني أتحدث مع حافظ الله في هذا الأمر، سنتخلص من الفتاة إن كانت تزعجك. وفي الوقت نفسه سوف نرسخ وضعنا في هذا الإقليم. ثمة تغييرات قادمة وحافظ الله لديه آمال كبيرة.

أبقت شكيبه عينيها وأذنيها مفتوحين في الأيام القليلة التالية، تبحث عن أي علامة على ما يخطط له عزيز الله. كان خارج البيت معظم الوقت. مع حافظ الله بلا شك يناقشان خطته الغامضة. ازداد خوفها شيئًا فشيئًا.

لا تسامُح مع النساء اللاتي يجلبن فضائح أو مشاكل لبيوتهن. حتى فتاة ساذجة مثل شكيبه تعرف هذا. بدأت شكيبه تخاف على حياتها، فحاولت تسوية موقفها مع مارجان، وقالت بهدوء:

- خانوم مارجان.

كانت مارجان ترتق الجوارب. جفلت لسماعها صوت شكيبه.

- أنا... عذرًا! لم أكن أقصد مفاجأتك! كنت سأعد العشاء.

وضعت مارجان يدها على صدرها وهزت رأسها: آه، شكيبه! لماذا تتسللين هكذا؟ اذهبي لتعدي العشاء. سيعود عزيز الله من الخارج جائعًا.

ترددتْ شكيبه للحظة قبل أن تجرؤ على السؤال: خانوم مارجان؟ أيمكنني أن أسألك سؤالاً؟

رفعتْ مارجان بصرها تنتظر.

- متى... متى تحدثتِ مع خالة زارمينه؟ بم أخبرتك؟ أقصد، عني؟

عادت مارجان إلى جواربها ونظرت لأعلى إلى شكيبه من زاوية عينها.

- فيم يهم هذا؟
- أريد أن أعرف.
- قالت إنك تجادلين.
- أجادل؟ أجادل من؟
- ألا تعرفين؟
- أنا لم أجادل أحدًا منهم هناك. كنت أقوم بكل ما يأمرونني به.
- حسنًا، يبدو أنك تجادلين الآن، أليس كذلك؟

أجابت بإصرار: لا.

كانت تدافع عن نفسها حتى آخر رمق. تابعت: أنا لا أجادل! لكن أيًا كان ما قالته عني ليس حقيقيًا!

- شكيبه! أخفضي صوتك! انسي ما قالوه. اهتمي فقط بعمل البيت.

شعرتْ شكيبه بالعجز. انسحبت إلى المطبخ لإعداد العشاء، ساخطة وناقمة وعليها أن تخفي سخطها ونقمتها.

بعد ذلك بيومين عاد عزيز الله إلى البيت مع أخيه. جلسا في غرفة المعيشة وتناولا غداءً من الأرز والباذنجان. أسرعتْ شكيبه تبحث عن أعذار لتتجول في جوار باب غرفة المعيشة، تتوق لسماع محادثتهما.

- سيسافر ثلاثون شخصًا تقريبًا، لقد طلبت من زوجتي إعداد البيت. لن ندخر شيئًا.

- سيسعهم بيتك جيدًا، يا شقيقي. أفضل مما سيسعهم بيتنا المتواضع. ألديك طعام كافٍ لتلك الليلة؟

- نعم، لقد استدعيت كل أحبابي في البلدة وسنعد وليمة سيتحدث عنها الجميع حتى الملك نفسه! سيكلفني هذا أكثر مما توقعت لكنها فرصة عظيمة. لكلٍّ منا، لا تنسَ هذا.

كان حافظ الله مفعمًا بالثقة.

قال عزيز الله: سأكون هناك بالطبع، وسوف نفعل كل ما بوسعنا، لكنني لدي شيء ما أريد تقديمه للملك.

قال حافظ الله، وهو يلوك الطعام في فمه: وما هو؟

- أريد أن أقدم خادمة هدية للملك حبيب الله.

بدأ قلب شكيبه يدق بقوة.

- خادمة؟ أي خادمة؟

قال عزيز الله ضاحكًا: ليس لديَّ الكثيرات لأختار منهن.

- أتقصد شكيبه إي شولا؟

- نعم، هذه هي.

- آه، لا أعرف إن كان قرارك صائبًا. أخي، أتظن أنه من الحكمة حقًا تقديم شيء معيوبٍ هكذا للملك؟ قد يغضبه هذا، أنت تعرف.

- إنها عاملة جيدة وسوف تخدم في القصر جيدًا. ألا توجد طريقة لجعلها تبدو هدية لطيفة؟

«شكيبه، *الهدية*». شعرتْ بتفاهتها وهوانها حين سمعت وصفها بذلك. مجددًا.

- حسنًا، دعني أفكر في الأمر. الأمر ممكن، على ما أظن. أعني، إنه لن يضطر إلى رؤية وجهها... وقد نفيد من وجود الفتاة في القصر رغم كل شيء. الآن تذكرت أمرًا، لقد تحدثت لتوي مع الجنرال. جنرال هومايون أنت تعرفه، أليس كذلك؟

- بلى، ذاك الأحمق الجشع عديم الفائدة. ماذا كنت تفعل معه؟

- إنه أحمق جشع لكنه في الغالب سينال ترقية، لذلك احذر حين تتحدث عنه. الأفضل أن يكون هذا الأحمق صديقًا من أن يكون عدوًا. لقد أخبرني أن عليه تعيين أفراد لحراسة حريم الملك حبيب الله. الملك لا يثق بحرس رجال ليحرسوا نساءه وقد جمع مجموعة من النساء اللائي رُبّين كالرجال. بهذه الطريقة لن يقلق على نسائه من نظرات الحرس.

- آه، حل رائع! أقول لك، يا أخي، هذه الفتاة مؤهلة جيدًا لهذا الدور. إنها تسير وتتنفس كالرجال، زوجتي تخبرني بهذا.

أعلن حافظ الله: سوف نرتب الأمر إذن، سوف أتحدث مع الجنرال لنبلّغ الحاشية بالهدية قبل أن نقدمها للملك حبيب الله. إنها زيارة تاريخية إلى بلدتنا، وسوف تضع علامة لنفسك. توقع أن يعود عليك هذا بالكثير، كما أتمنى.

سمعتْ شكيبه ما يكفي. عادت إلى المطبخ، بساقين هشّتين، ورأسها يدور.

«*الملك؟ القصر؟*» كلمات غريبة عليها.. شكيبه، ذات النصف وجه. الفتاة/الصبي التي تسير كرجل. أدركت شكيبه أنها لم تكن يومًا شيئًا كاملاً.

الفصل 16
رحيمة

كانت خالة شايما تحب تشويقنا. كنت أتساءل عما سيحدث لبيبي شكيبه تقريبًا بقدر ما كنت أتساءل عما سيحدث لنا نحن. بدا أننا جميعًا كنا على وشك مغادرة بيوتنا.

قضى بادر جان المزيد من الوقت خارج البيت خلال الأسابيع التالية. كان حين يعود يصيح بالمزيد من الأوامر والتوبيخ. حتى غناء بارفن الناعم، الذي كان عادة ما يستمتع به سرًا، صار يستفزه. حاولت مادر جان استرضاءه بالوجبات في أوقاتها والبيت الهادئ، لكنه كان دائمًا ما يجد سببًا أو آخر للانفجار.

قضيتُ أنا المزيد من الوقت في محل أغا باراكزاي للابتعاد عن الصبية دون الاضطرار إلى تفسير ما يحدث.. كنت قلقة من أن تعيدني أمي فتاة مرة أخرى، وكنت أتساءل كيف سيكون رد فعل عبد الله وأشرف. كرهتُ أن أبتعد عنهما، عبد الله غالبًا، لكنني كنت أخاف الوجود معهما.

ظللتُ مستيقظة في الليل، أفكر في عبد الله وأتذكر يوم أن رأتنا مادر جان نلعب. حتى لحظة نداداتها اسمي، كان الأمر مثيرًا. أشعرِ بوخزة حين أتذكر وجه عبد الله أعلى وجهي، يداه تُثبّتان معصميّ في الأرض، وابتسامته.. كنتُ أحمرّ خجلاً في الظلام.

حاولتُ أن أعوض مادر جان عمّا فعلته. أن أشتت انتباه بادر جان عنها حتى وإن جعله هذا يصيح فيّ أنا. رغم إعفائي من عمل المنزل حين صرت *باشابوش*، كنت أساعدها كلما رأيتها تقشر البطاطس أو تغسل الملابس أو تنفض التراب عن السجاجيد.

لم توجّه شهلا لي أكثر من عدة كلمات كل يوم. كانت ما زالت غاضبة وتستشعر من مزاج مادر جان أن النكد يختمر. كانت هادئة في حضرة بادر جان، تُقدم له الشاي أو الطعام وتغادر الغرفة قبل أن يلحظ أنها إحدى تلك الفتيات اللائي يُبقيهن في بيته وقتًا طويلاً.

زارتنا جدتي مرات كثيرة. كانت سعيدة بموجة النكد في بيتنا وأرادت أن تشهدها بنفسها. حاولت مادر جان التزام الأدب ما أمكنها.

- أخبري ابني أنني أريد التحدث معه حين يعود إلى البيت، تأكدي أن يأتي ليراني.

- بالطبع، عن ماذا تريدين التحدث معه؟

- هل هذا شأنك؟ فقط أخبريه بما قلته.

كانت مادر جان تعرف. ربما سيفكر زوجها في الأمر باهتمام أكبر هذه المرة ليأتي بزوجة جديدة إلى البيت.

استرقتُ السمع حين ذهب بادر جان إلى أمه، تظاهرتُ أنني ألعب بالكرة في الفناء، وظللتُ أركلها لأبعد شيئًا فشيئًا ببطء حتى صرتُ خارج غرفة المعيشة في بيت جدتي مباشرة. سمعتُ صوتها الأجش مرتفعًا وواضحًا. كان صوت أبي، الذي يغمغم أحيانًا، ما يصعب سماعه.

- باجم، لقد حان الوقت، لقد منحتها فرصًا كثيرة لتنجب لك فتى وقد فشلتْ. الآن، دعنا نأتي لك بزوجة ثانية ليمكنك أخيرًا المساهمة في امتداد هذه العائلة.

- وأين سأضعها؟ لدينا غرفة واحدة فقط لجميع الفتيات. لا توجد نقود لبناء مكان آخر خلف بيتنا أو لشراء شيء آخر في البلدة. يمكنني إيجاد زوجة أخرى بسهولة. ما يصعب نيله هو المكان والنقود.

- ماذا عن عبد الخالق؟ ألم يعدك بمساعدتك وقت الحاجة؟

هزّ باذر جان رأسه.

- إن الرجال ينقصهم أسلحة وإمدادات. لا يوجد مال كاف من أجل الاحتياجات الأساسية.

- بشْشت. بحق الجحيم لا توجد نقود. لقد سمعتُ بما يفعله. سمعتُ من الناس في البلدة عن خيوله وزوجاته وجميع أطفاله. إن لديه نقودًا كثيرة!

- مادر! انتبهي لما تقولين! إنه رجل ذو نفوذ، لا تشتركي فِي أي حوار واسع حوله. أتفهمينني؟

قالت منزعجة من ابنها الذي يحاول إسكاتها: لست أنا من بدأت. إنه يثير الكثير من النميمة. هذا ما أحاول إخبارك به.

- على كل حال، سأجري بعض التغييرات في البيت قريبًا وستتيسر الحال قليلاً. لقد حان الوقت لأستريح من بعض هؤلاء الفتيات.

- وكيفِ تتوقع أن تفعل هذا؟!

- فقط راقبي رئيسة في غيابي وسأجد طريقة لتولي بقية الأمور.

كانتا على حق، شهلا ومادر جان. بادر جان ينوي تحريك الأمور في بيتنا.

بعد ذلك بأحد عشر يومًا، ظهر عبد الخالق في بيتنا مع سبعة رجال آخرين. جاؤوا في سيارتين رياضيتين سوداوين، تثير إطاراتهما سحب الغبار في الشارع. رأى عبد الله السيارة وعرفها على الفور. معظم أهل قريتنا ينتقلون سيرًا على الأقدام.

كان ابن عمي منير من فتح البوابة الأمامية وأشار إلى بيتنا. ولا حتى أبي كان يتوقعه. راقب منير وهو يقف مشدوهًا فيما يعبر عبد الخالق ورجاله بوابتنا.. اثنان منهم يعلقان أسلحة سوداء على كتفيهما. كان عبد الخالق رجلاً بدينًا يبدو في أواخر الأربعين، من الخطوط حول عينيه والشعر الرمادي في ذقنه. يرتدي عمامة بيضاء وقميصًا طويلاً بلون بيج على بنطال فضفاض. يبرز من جيب سترته الرمادية هوائي هاتف، علامة أخرى على تفرّده. كان أول من استخدم الهاتف المحمول في بلدتنا. القليل من كان لديهم هاتف من الأساس.

عادة ما يستقبل أحد رجال البيت الضيوفَ عند البوابة الأمامية للترحيب بهم. لا يدخل الناس إلى الفناء من دون إذن أبدًا؛ إذ قد تكون إحدى نساء البيت في الفناء برأس حاسر. لكنه كان إما غباء منير أو حضور عبد الخالق الذي غيّر المجرى المعتاد للأمور. كان هو ورجاله في الفناء، يُقيّمون حاله بأعينهم. نظرتُ إليهم وتعرفتُ على عبد الخالق. انطلقتُ إلى الداخل لأخبر أمي وأرسل أبي إلى الخارج ليقابل صديقه.

– بادر جان، عبد الخالق هنا، مع الكثيرين.

اعـتـدل أبي في جلسـتـه وألقى بجـريدته جـانبًـا: عن مـاذا تتحدث؟ أين؟

- في الخارج. في الفناء. مع سبعة رجال آخرين. وأسلحة.

عقد حـاجبيه. هبّ ناهضًا بأسـرع من عادته. قال: اطلب من أمك أن تعد شيئًا ما للضيوف.

وخرج لمقابلة قائده.

سـمـعـتـا مـادر جان وهـي تقف في المطبخ وتبدو منزعـجـة. نظرتُ إلى باب غرفة نومنا حيث كانتا شهلا ورحيلة تضعا ستارة في الفـراش. كانت بارفن تقشـر البـصل عند قدمي مـادر جان. كـانت الوحيـدة التي لا تدمع عـيناها ولا تتـحـرقـان حين تقـشـر البصل.

تنبأت بارفن دون أن ترفع بصرها: سيحـتاجون إلى أكثر من الشاي.

نظرتْ مـادر جان إليـها كـأنها انتـبهت للنبوءة في عـبارتها. عضّت شفتها وأخذت بعض الأكواب.

أمرتني بعصبية: خذ هذه إليهم. رحيم جان.

أخذتُ الصينيـة وأمسكتـها بيـديّ جيدًا لئـلا ترتعش. شعرتُ بأنظـارهم تتصـبّ عليَّ حين دخلت الغـرفـة، توقـفتْ مـحـادثتـهم فجأة. كان الرجال قد انتشـروا. يجلس عبد الخالق مستندًا على وسـادة قبـالة أبي، تعـبث أصـابعـه بمسـبحـة بهـدوء وهو يميل إلى الخلف. على كلا جـانبيه رجلان من كبار السن، بشـعـر رمادي في لحيـتهـمـا أكثـر من الأسود. جلس الرجـلان المسلحـان أقـرب إلى البـاب. لم أنظر إلى وجـهـيـهـمـا وحـاولتُ أيضـاً ألا أنظر إلى سـلاحيـهـمـا. ركعتُ على ركبـتي وأنا أضع كـوبًا أمـام كل واحـد،

وخرجت من الغرفة بأسرع ما أمكنني لأستمع من الرواق. كانت مادر جان هناك للغرض نفسه.

- عارف جان، لقد جئت اليوم لأناقش معك مسألة مهمة تتعلق بالشرف، لذلك جئت معي بأخوي الكبيرين وبعض رجال عائلتي الذين تعرفهم. أنا واثق بأنك تعرف ابني عمومتي وأبي وعمي. لقد قاتلت معي عدة سنوات وأنا أحترمك لهذا. حقًا، كلنا نعرف أهمية مراعاة العادات والتقاليد.

- تشرفني زيارتك، صاحب، وأنا فخور بالقتال تحت قيادتك. لقد قمنا بأعمال عظيمة لشعبنا بفضلك أنت.

لم أسمع بادر جان يخاطب أحدًا بهذه الطريقة من قبل. كان عبد الخالق يُفقده ثقته بنفسه.

- ويشرفني وجود عائلتك في بيتي المتواضع. عميّ العزيزين، أقدر لكما السفر هذه المسافة لزيارتنا.

أومأ الرجلان لترحيب أبي. تنحنح أبو عبد الخالق وبدأ يتحدث. صوته خشن ولديه لدغة خفيفة.

- إن ابني يتحدث جيدًا عنك، وبالطبع لعائلتك احترامها في هذه البلدة. لقد عرفتُ أباك سنوات كثيرة، عارف جان. إنه رجل طيب. لهذا أثق بأننا سنسوي هذا الأمر جيدًا. كما تعرف، إن ابني رجل يفخر بالتزامه بدينه كمسلم. وأحد التزاماتنا أمام الله تكوين الأسر وإعالة النساء والأطفال.

شعرتُ بدقات قلبي تتسارع. وقفتْ مادر جان خلفي، إحدى يداها على كتفي والأخرى على فمها، كأنها تحاول كتم صرخة.

خَفَتَ صوت أبي، لا يعرف ماذا يقول.

- بالطبع، عمي العزيز...

بدأ عبد الخالق يتحدث: حين جئتني مؤخرًا تتحدث عن همومك. أنك لديك شابات في بيتك وليس لديك ما يكفي من المال لإعالتهن. ظللت أفكر في موقفك وها أنا ذا جئت إليك بحل.

نظر أبو عبد الخالق إليه. قالت عيناه: دعني *أنا أتحدث*.

– علينا أن نهتم بمصلحة الجميع. في هذه الحال، لديك شابة يريد ابني تشريفها بأخذها زوجة. إن عائلتنا كبيرة ولها احترامها كما تعرف. ستكون ابنتك بخير بانضمامها لنا وسيكون النسب بيننا سببًا للاحتفال. وبالطبع، ستستطيع بذلك إعالة عائلتك أيضًا.

– ابنتي؟

– نعم. إن فكرت في الأمر قليلاً، أنا واثق بأنك سترى أنه الخيار الأفضل.

– لكن ابنتي الكبرى...

– نحن لسنا هنا من أجل ابنتك الكبرى يا عارف جان. أنا أتحدث عن ابنتك الوسطى، *الباشابوش*. لقد عبّر ابني عن اهتمامه بها.

– *الباشابوش*...

– نعم، ولا تندهش؛ لقد أبقيتها باشابوش لما يتجاوز المقبول. لقد خرجت عن العُرف.

استدرتُ ونظرتُ إلى أمي، وجهي شاحب. كان أبي صامتًا. أعرف أنه يتساءل في نفسه كيف عرف عبد الخالق بشأني، لكن الكلام ينتشر بطريقته. تذكرتُ يوم قابلت عبد الخالق في السوق، طريقة نظره لي وابتسامه وإيمائِه برأسه حين مال عليه

الرجل الذي بجواره وهمس له بشيء في أذنه.

ضغطتْ أصابع أمي وهي تحيطني بذراعيها. كانت تهز راسها، تتمنى أن يرفض زوجها وتدعو الله ليمكنه فعل هذا دون ان يُزعج الرجل أو يزعج أسلحته.

- مع كل احترامي لك سيدي... الأمر فقط أنها... حسنًا، إنها *باشابوش*... لكنني لديَّ ابنتان أخريان أكبر منها. وكما قلت، علينا مراعاة العادات والتقاليد، لا يمكننا تزويج الفتيات الصغيرات حتى تتزوج الكبيرة... أنا فقط لا أظن أن...

طالتْ فترة الصمت قبل أن يبدأ أبو عبد الخالق الكلام مجددًا ببطء وتؤدة.

- معك حق، سيكون من غير اللائق تزويج ابنتك الوسطى قبل أختيها.

للحظة استطعتُ التنفس مرة أخرى. لكنها كانت لحظة فقط.

- لكن هذا الأمر سهل ترتيبه. أبناء عمي هنا، عبد الشريف وأخوه عبد الحيدر. إنهما يبحثان عن زوجتين أيضًا. وهما رجلان قويان وعفيّان، وسوف يعولان ابنتيك جيدًا، اللتين صارتا الآن شابتين، ولا يجب إبقاؤهن في البيت. دع هؤلاء الرجال يشرفان بيتك ويهوّنان عليك حمولك.

- عبد الخالق، عميّ العزيزين، أنتم تعرفون أنني أحترمكم كثيرًا جدًا لكن... لكن هذه مسألة... حسنًا، إن عليَّ أن أستشير عائلتي أولاً، مراعاة للعادات والتقاليد كما قلتم. لا يمكنني اتخاذ مثل هذه القرارات دون حضور أبي وكبار عائلتي أيضًا.

أومأ أبو عبد الخالق برأسه متفهمًا.

– معقول، تلك ليست مشكلة. سوف نعود خلال أسبوع. ونرجو منك أن ترتب وجود أبيك وكيارك لنقابلهم.

قد يبدو ما قاله كطلب، لكن بادر جان كان يعرف أنه أمر أكثر منه طلب. وأنهم لن يقبلوا الرفض.

ما أن خرج آخر الرجال من الغرفة، هرعتْ مادر جان إلى أبي.

– عارف، ماذا ستفعل؟ الفتيات صغيرات للغاية!

– ما سأفعله ليس من شأنك! إنهن فتياتي وسأفعل ما في صالحهن. أنتِ لا تستطيعين فعل شيء لهن.

– عارف، أرجوك، إن رحيم في الثالثة عشرة من عمره فقط!

– والرجل محق! لا يجب أن تظل *باشابوش* لوقت أطول من هذا! إنها شابة ومن العار أن تخرج إلى الشوارع وتعمل مع أغا باراكزاي في سنها هذه. أنتِ لم تفكري في حشمتها، أليس كذلك؟ أتعرفين كيف يؤثر هذا على اسم عائلتي؟

عضت مادر جان على شفتها. ليت أبي يعرف...

– هل لديك مخرج آخر لهذه الأسرة؟ ليس لدينا نقود، رئيسة! أنتِ لا تفكرين سوى في نفسك. وقد رأيتِ ما يحدث حين تبقى الفتيات في بيوت آبائهن وقتًا طويلاً. الناس يتحدثون عنهن، فضيحة، أو الأسوأ! ماذا ستفعلين لو جاءت عصابة وأخذت فتياتك بالقوة؟ هذا الرجل، هذه العائلة، يمكنها إعالة فتياتك! يمكنها منحهن حياة كريمة!

بحثت مادر جان عن رد تجيبه به، لكن أغلب ما يقوله زوجها حقيقي. كانت بالكاد تستطيع إطعامنا بما يُعيلنا به. لم

يكن إخوان بادر جان بحال أفضل، بالإضافة إلى أرملتين وأطفالهما.

- أستطيع أن أطلب من شايما أختي أن تكون هنا حين يعودون. يمكنها مناقشتهم.

- خانوم، لو تجرأتْ أختك الوقحة على وضع قدمها في هذا البيت ذلك اليوم، أقسم أنني سأقطع لسانها وأرسلها بحدبتها لتتدحرج في الشارع!

ارتعشتْ مادر جان لسماعه يتحدث عن خالة شايما بهذه الطريقة.

- إن عبد الخالق رجل ذو نفوذ وبإمكانه تحسين أمور عائلتنا كثيرًا. هذه مسألة سأناقش فيها أبي. يجب أن تهتمي فقط بإصلاح ما أفسدتِه. حان الوقت لإلغاء رحيم.

لم يسعها قول شيء آخر له. كان خائفًا من عبد الخالق، ومما سمعناه، كان هو من زرع الفكرة في ذهنه. تذكرتُ ما أخبرتني به شهلا عن شجارهما.

أدركتُ: *إنه يريد هذا، أبونا يريد التخلص منا بتزويجنا*.

سرتْ رعشة باردة في ظهري. أدركتُ ما كانت أمي تعرفه أيضًا. يستطيع الرجال أن يفعلوا ما يشاؤون بالنساء. لا شيء سيُوقف أبي عما كان ينويه.

الفصل 17
شكيبه

كان الملك حبيب الله قد تولّى الحكم عام 1901، حين أتمت شكيبه أحد عشر عاما. كان ذلك قبل عامين من انتشار وباء الكوليرا الذي أخذ عائلتها ونصف القرية. هذا هو كل ما تعرفه عن الرجل. كانت فتاة قروية لا تعرف شيئًا عن القصر أو الحياة في العاصمة كابول.

ذُعِرت شكيبه حين سمعت خطة حافظ الله الذكية بشأنها. لا يوجد سبب للتفكير في أن الحياة في القصر ستكون أفضل شيء بالنسبة إليها. كلما زاد نفوذ الناس، زاد الضرر الذي يُمكنهم إلحاقه بها. جلستْ شكيبه ليلاً تعض شفتيها، تتأكد بأصابعها من وجود الحجة أسفل بطانيتها.

يجب أن أصل إلى المالك، هذه فرصتي الوحيدة.

لم تكن تعرف متى ستكون زيارة الملك لكنها عرفت أنها وشيكة. ليس لديها شيء لتخسره. كان لديها خطة.

دسّت شكيبه الحجة في ثوبها وتسللت خارج غرفتها مع أول ضوء للفجر. صوت الأذان يدعو الناس إلى الصلاة. تذكرت الطريق من بيت عزيز الله إلى مركز القرية. هناك عدة محلات، وبالتأكيد سَيستطيع أحد هناك أن يصف لها الطريق إلى بيت المالك.

سمِعتْ شخير عزيز الله وهي تمر بغرفة نومهم. لحسن

الحظ، كان نادرًا ما يستيقظ لصلاة الفجر، زاعمًا أن بوسعه أداديتها في وقت لاحق حتى الظهيرة. كان الأطفال ما زالوا نائمين.

وضعتِ الشادور على رأسها ودفعتِ البوابة الثقيلة تفتحها ببطء. خرجتْ من الفناء. توقفتْ للحظة، تنتظر سماع صوت خطوات خلفها. حين لم تسمع شيئًا، أخذت نفسًا عميقًا، ردّدت دعاء قصيرًا وانطلقتْ في الطريق المتربة الصغيرة. سارت مسرعة، تحاول ألا تنظر خلفها إلى البيت لئلا تثير الشكوك. لكن لم يكن أحد في الخارج بعد، وحتى الحماران اللذان يقفان خارجًا لم يجفلا لرؤيتها.

أغا شريف الله، المالك. كانت تأمل أن تجد في القرية أحدًا يستطيع أو يرحب بوصف طريق بيته لها. تدربت على هذا آلاف المرات في ذهنها. تساءلتْ ماذا كانت أمها ستقول عن خطتها هذه.

كانت السماء قد أشرقت حين وصلتْ إلى مركز القرية، مرّت بأسرة من خمسة أفراد، الأم وأطفالها يسيرون خلف الأب، في طريقهم لزيارة أقاربهم غالبًا. نظروا إليها بدهشة من الجانب الآخر للطريق لكنهم لم يقولوا شيئًا. تنفست الصعداء حين اختفوا عن نظرها أخيرًا.

بعد ذلك بدقائق قليلة، خرج رجلان من أحد البيوت وسارا أمامها. نظرا خلفهما إليها وقال أحدهما شيئًا للآخر. أطرقتْ بكتفيه رأسها وأبطأت سيرها، تريد أن تطيل المسافة بينها وبينهما. أشار أصغرهما إليها وهز رأسه. أومأ الأكبر برأسه وحرك مسبحته بين أصابعه بسرعة. صاح الأخير: خانوم، من أنتِ؟

أبقتْ شكيبه رأسها مطرقًا وأبطأت خطوها أكثر.

- خانوم، إلى أين تذهبين وحدك؟ من أنتِ؟

فكرتْ في أن تسألهما ما إن كانا يعرفان أين بيت مالك صاحب. توقفتْ، تخاف الاقتراب منهما أكثر. وبّخها الرجل خانوم، هذا خطأ فادح! أيًا من تكونين، ليس من الصواب أن تسيري وحدك في الخارج، من أي عائلة أنتِ؟

شعرتْ شكيبه بلسانها يتحرر، قالت بصوت مرتعش: أنا من بيت أغا عزيز الله.

صاح الرجل: أغا عزيز الله؟ لكنكِ لست خانوم مارجان. من أنتِ؟

قالت كاذبة: خانوم مارجان مريضة، أرسلوني لشراء الدواء لها.

- أرسلوكِ لشراء الدواء؟ حسنًا، هذا سخف شديد.

التفت الرجل الأصغر لرفيقه قائلاً: إن أغا عزيز الله صديقي لكنني لا أعرف كيف يفكر.

قال وهو يهز رأسه: هذا غريب حقًا.

ثم اتخذ قراره: اتبعينا إلى البلدة. سوف أتحدث مع عزيز الله لاحقًا.

أومأتْ وسارت خلفهما قرابة خمسة أمتار، تضاعف ذعرها الآن. لا شك أن مارجان الآن قد اكتشفتْ غيابها وربما أخبرتْ عزيز الله. هل سيتحرك للبحث عنها؟ يبدو أن هذا الرجل يصدق ما قالته، لكنه سيخبر عزيز الله بالتأكيد. ومع أن عزيز الله لديه خطته للتخلص منها بالفعل، لكنه سيفعل ما هو أسوأ بكثير إن أغضبته أو جلبت عليه العار.

قـاداهـا إلى صـاحب العطارة في القـرية، الذي يلعب دور مباني القرية أيضًا. دخلتْ خلف الرجل الأكبر.

- سلام فايز الله جان.

- وعليكم السلام، منير جان. كيف حالك؟

إنه منير من سيخبر عزيز الله بالأمر إذن.

تبادلا التحيـة قبل أن يشيـر منيـر إليهـا قائلاً: لقـد أرسل عزيز الله هذه الفتاة لشراء دواء لزوجته. وجدتها تسير وحدها في الشارع. هل تصدق هذا؟ ظني أن الرجل قد فقد صوابه.

هزّ فايز الله رأسه.

- لا شك أن زيارة الملك حبيب الله تشتت عقله. ستكون بعد يومين فقط وأنا متأكد أن أخاه حافظ الله قد جعله يدور حول نفسه.

بعد يومين من الآن؟

- مم تشكو زوجته؟

ظلت شكيبـه تومئ برأسهـا إيجـابًا أو نفيًا بـلا تفكيـر وهو يردد بعض الأعـراض. غادرتْ بقـارورة صغيـرة من مـزيج أعشـاب وسجل فايز الله ثمنها في دفتره.

أدركتْ فجأة: *سوف يقتلني عزيز الله*. لقد تجاوزَتِ الحد شهرًا.

لم يكن من داعٍ لوقف خطتـهـا الآن، قـالت وهي تقف خـارج المحل: عذرًا صاحبُ، عليَّ أن آخذ ورقة إلى مالك صاحب.

- ماذا؟ أي ورقة؟

- أخبروني أن أخبر مالك صاحب فقط.

بدا الرجل الأصغر ساخطًا. قال: بادر، هذا سخف!

وافقه أبوه: هو كذلك بالفعل!

انتظرت شكيبه متوترة. لكنهما أشارا إليها نحو بيت مالك صاحب، الذي كان، كما دعتِ الله، قريبًا من مركز القرية. كانا قد ضجرا منها وقررا أن يتركاها تذهب وحدها، إنه شأن عزير الله وليهتم به بنفسه.

فتح لها ولد صغير البوابة فطلبتْ منه شكيبه أن تتحدث مع مالك صاحب. رمقها الولد بنظرة فضولية قبل أن يركض عائدًا إلى البيت. بعد ذلك بدقيقة. ظهر رجل بلحية رمادية عند الباب مندهشًا. نظر إليها من خلف الباب الموارب.

– أرجوك، حضرة مالك صاحب. لقد جئت إليك في مسأله مهمة للغاية.

– أنتِ؟ من أنتِ وماذا تفعلين هنا؟ أليس معكِ أحد؟

– لا، صاحب، لكنني لدي ورقة يجب أن أريها لك.

– من أنتِ؟ من زوجكِ؟

– ليس لدي زوج.

– من أبوكِ؟

يفتح الباب بالكامل، لا يريد دعوة الفتاة الغريبة الطويله لدخول فنائه.

– صاحب، هذه الورقة من أبي. اسمه إسماعيل برداري.

– إسماعيل؟ إسماعيل برداري؟

– نعم، سيدي.

– هل اِنتِ ابنته؟ أنتِ التي...

– نعم، هذه أنا. أرجوك، صاحب، لدي حجة أرض أبي.

خرج الأمر كله في نفس واحد. ثم سمعت اسمها.

– شكيبه!

ميزت صوت عزيز الله يأتي من بعيد. التفتت لتراه يسير بسرعة نحو بيت مالك صاحب. فتح مالك صاحب الباب على وسعه. استدارت إليه شكيبه وتحدثت بسرعة. كان عزيز الله على مبعدة مئة متر. خرجت كلماتها سريعة وصاخبة.

– أرجوك، صاحب، لديّ حجة أرض أبي وأنا طفلته الوحيدة الباقية. أريد حقي في إرث أبي. إن الأرض أرضي وأعمامي سيأخذونها عنوة.

اتسعت عينا مالك. صاح: ماذا تريدين؟! عزيز الله جان، أطال الله عمرك.

لم تأمل شكيبه في الكثير منه حين سمعت نبرته الغاضبة. سحبت الورقة من تحت الشادور.

– إنها أرضي، وهذا حقي. أرجوك، صاحب، انظر فقط إلى الحجة وسترى...

أخذ مالك صاحب الورقة من يدها ونظر فيها سريعًا. ثم عاد ينظر إلى عزيز الله الذي يقترب بسرعة.

– أرجوك مالك صاحب، ليس لدي شيء آخر. ليس لدي احد آخر. هذه الأرض هي...

ضربة على جانب رأسها. ترّنحت.

– اللعنة عليك يا فتاة!

ضربة ثانية أسقطتها أرضًا.

رقدت على جنبها، متكورة. ارتفعت يداها غريزيا لتحمي رأسها في الشادور. نظرت إلى مالك صاحب. كان يهز رأسه.

– عزيز الله جان، ما خطب تلك الفتاة؟

صرخ وهو يشير إلى شكيبه: مالك صاحب. إن إخوة برداري اللعينين هؤلاء قد أعطوني هذه الفتاة كتسوية لديونهم معي، ولم أُخدَع هكذا في حياتي من قبل!

- لقد أطعمناها وآويناها وانظر كيف ترد لنا الجميل!

ركلة في خاصرتها جعلتها تتألم. تابع: ماذا تفعلين؟ أي فتاة تلك التي تتسلل وتخرج من البيت؟ ألا تخجلين؟

- ما هذا الكلام عن الحجة؟

- أي حجة؟

أوضح له مالك: هذه الفتاة هنا للمطالبة بأرض أبيها.

- للمطالبة بماذا؟ ألا توجد نهاية لحماقاتها تلك؟

استدار إلى شكيبه وركلها في جانبها مرة أخرى.

أغضبها الألم.

- أنا هنا فقط للمطالبة بحقي! أنا ابنة أبي وهذه الأرض لي! لم يكن أبي ليفضل إخوته عليَّ أبدًا! لم يفعل قط!

صاح عزيز الله، رافعًا ذراعيه لأعلى بغضب: أنتم عائلة من الحمقى!

تنهد مالك تنهيدة ثقيلة وطرقع بلسانه. قال وهو يمزق الورقة: يا فتاة، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن العرف.

الفصل 18
رحيمة

لم يفقد العرف أهميته بين زمن بيبي شكيبه وزمننا الآن.

ظل بيتنا متوترًا طوال الأسبوع، يدا مادر جان ترتعشان دائمًا. كانت تُسقِط الملاعق والطعام وهي شاردة الذهن ومهمومة. لاحظتها تراقبني وأخواتي. هزت شهلا رأسها وعلقت بارفن بعبارات جعلت مادر جان تجهش بالبكاء.

«الحمائم تبدو حزينة اليوم. كأن أصحابها جميعًا قد رحلوا وليس لديها الآن أحد ليؤنسها». رفعتْ نظرها عن ورقتها. كانت قد رسمت خمس حَمَامات، كل منهما تحلق في اتجاه مختلف.

ألقت أمي نظرة على الرسم، غطت فمها بيدها وذهبت لتتحدث مع بادر جان. سمعنا صياحًا وصوت تكسُّر زجاج. عادتْ إلينا، شفتاها ترتعشان وفي يدها جاروف مليء بكسرات الزجاج.

تحدث أبي مع جدنا وأعمامي ودعاهم إلى البيت. جاء كاكا حسيب، جمال وفريد مع بوبا جان. بدوا واجمين. تساءلتُ ماذا اخبرهم بادر جان.

كما اتفقوا، عادت عائلة عبد الخالق ذات ظهيرة. أرسلت أنا وأخواتي أختنا الصغرى ستارة لتنظر من النافذة وتخبرنا ماذا ترى.

قالت: *ناس كثيرون*.

عادت مادر جان إلى الغرفة معنا. النقاش لرجال العائلة. وقفتْ عند الباب ومدت عنقها لتسمع عبر الرواق. كانت قد حاولت التحدث مع أبي عدة مرات دون جدوى. ما كان ليسمعها.

قال أبو عبد الخالق لبوبا جان: شكرا لك يا أغا صاحب لمجيئك اليوم مع أبنائك لمناقشة هذه المسألة المهمة؛ إن عائلتنا تأخذ هذا الأمر بجدية شديدة وقد جئنا بأطيب النوايا، هذه مسألة شرف ونسب. لقد ظللنا نعرفكم منذ زمن طويل، لقد ولد آباؤنا ودفنوا في الأرض نفسها، نحن أقارب تقريبًا.

أجابه بوبا جان ببساطة: لقد ظللت أكن احترامًا كبيرًا لعائلتك دائمًا.

لم يكن للمتقدمين للزواج أن يتحدثوا.

- لذلك جئنا إلى هذا البيت. نحن نرى أن حفيدتك ستكون زوجة جيدة جدًا لابننا عبد الخالق، الذي تحترمه هذه القرية وتقدّره لدفاعه عن شعبنا وبيوتنا لسنوات.

- إن ناسنا مدينون له بالعرفان؛ لقد أثبت شجاعة عظيمة.

- أنت توافق إذن على تزويجه حفيدتك.

قال بوبا جان ببطء: حسنًا.

كانت عينا أبي عليه، تطالباه بالالتزام بما اتفقا عليه من قبل.

- مع كامل احترامي يا أغا خالق... نحن قلقون... ظني أن ابني، عارف، قد أخبرك بهذا الأسبوع الماضي. ما أفهمه أنك تتحدث عن رحيم. نحن نوافق على أنه... أنها ظلت *باشابوش* وقتًا طويلاً جدًا وينبغي أن تعود إلى ما خلقها الله عليه. لكن، ما زال هناك أختاها الكبيرتان قبلها وأنت تعرف أن العُرف...

- هذا مفهوم وقد ناقشنا بالفعل أمر حفيدتيك الأخريين. لدينا هنا ابني أخي، عبد الشريف وعبد الحيدر. كل منهما سيشرفه الزواج من واحدة. لتقوية أواصر الصلة بين العائلتين حتى.

«مممم»، غمغم بوبا جان يفكر في العرض. نظر إلى ابنه الأكبر فريد الذي رفع حاجبيه. تنحنح أبي وقال: إن ابنتي الثانية، ربما لا تعرفون هذا، لكنها ولدت بساق غير سليمة. إنها عرجاء...

- لا يهم. لن تكون الزوجة الأولى على كل حال. لقد رأيت نساء عرجاوات يحملن أطفالا. يجب أن تكون سعيدًا إذن في هذه الحال. ربما لن تستطيع تزويجها بشكل آخر.

- نعم، ربما...

تزويج ثلاث فتيات مرة واحدة سيكون عبئًا كبيرا أُزيح عن كاهلي أبي المثقلين. فيما يلهو ذهنه بالفكرة، تحدث عمي فريد: عبد الخالق جان، صاحب، إن عروضك هذه تشرفنا، لكن... لكن عائلتي لديها تقاليد أيضًا. لا أريد إهانتك لكننا توارثناها منذ اجيال...

- أنا أحترم التقاليد، ما هي؟

في صوته انزعاج. صبره ينفد مع عائلتي، بعد أن اضطر إلى زيارتها ثانية. لقد تزوج زوجته الأخيرة بجهد أقل من هذا بكثير.

- حسنًا، من تقاليد عائلتي أن تطلب مهرًا كبيرًا لفتياتها وانا محرج من ذكر مسألة النقود مع رجل مثلك، لكنه شيء لا يمكنني صرف النظر عنه. هذا يعود لأجيال وإن لم نفعل كما فعل أسلافنا...

لا بد أن أبي كان عصبيًا. كان أمر المهر هو النقطة الشائكة التي ناقشها هو وإخوته.

عـرفت من وجـه أمي أن عـمي يكذب. كـانت تحـاول أن تستقرئ عبر الحائط إن كان عبد الخالق يصدقه.

- ما هو؟

- عذرًا

- ما هو المهر؟

قال أخيرًا: إنه، كما قلت، أنا محرج لمناقشة هذا لكنه غال بالفعل. إنه... إنه عشرة آلاف أفغاني.

فوجئت أنا وأمي بشـدة من المبلغ. لم نسمع هذا الرقم الضخم من قبل قط!

قال: عشرة آلاف أفغاني؟ فهمت.

استدار إلى أحد الرجال يعلق سلاحه على كتفه. قال له ببساطة: غفور...

نهض غفور من على الأرض وخرج من الغرفة. ساد الصمت الغرفة حتى عاد. كان عبد الخالق قد ملَّ المجاملات.

عاد غفور ووضع كيسًا أسود كبيرًا عند قدمي أبي. قال عبد الخالق ببساطة: هذا يغطي الأمر، لديك هنا الكثير ليغطي مهر فتياتك الثلاث. وبالطبع، كعائلة، سوف نمنحكم بعض محاصيل الأرض الشمالية. ربما كان هذا الأمر يهمكم.

عرفت أن عيني أبي قد جحظتا للوعد بالأفيون. هزّت أمي رأسها. مال فريد ليمسك بالكيس وينظر فيه. نظر إلى أبي وجدي بعينين واسعتين سعيدتين. رأى أبو عبد الخالق تعبير وجهه. لقد اشتراهم.

- الآن علينا فقط أن نرتب لموعد النكاح للزيجات الثلاث. أليس كذلك؟

- أنا... أظن أن... عبد الخالق، صاحب، ماذا عن زفاف؟ احتفال؟

في العادة يتم ترتيب شيء ما: ضيوف، طعام، موسيقى.

- لا أظن أنه ضروري حقًا. أنا وابنا عمي، كل منا عقد زفافًا من قبل. الأهم من أي شيء هو إتمام الزواج على يد المُلا. لهذا سأحضر صديقي حاج صاحب.

لوح بيده نحو الكيس مضيفًا: الآن بعد أن سوينا تلك المسألة، أنا واثق بأنكم توافقون على أن النكاح هو أهم شيء.

صمت أبي وجدي وأعمامي. شعرت أنا وأمي بمعدتينا تهويان. نعرف أنهم لن يقاوموا عرض عبد الخالق، نقود أكثر مما رأته عائلتي في حياتها والوعد بمدد ثابت من الأفيون. غطيت وجهي بيدي واستندت برأسي على الحائط.

حررت نفسي من أصابع مادر جان وتركتها تقف هناك، جامدة. ثلاث فتيات. لم يحمِني تحويلي إلى فتى البتة، بل في الحقيقة هو ما وضعني أمام أعين زعيم الحرب هذا الذي جاء لطلب يدي للزواج. بالكاد يافعة، وسأزوَّج لهذا المقاتل رماديّ الشعر صاحب كيس النقود ورجال مسلحين يطيعون أوامره.

نظرت أخواتي إليَّ، يبكين بالفعل. همست شهلا: ما الأمر؟ ماذا يحدث في الخارج؟

أجهشتُ بالبكاء: الأمر فظيع، شهلا! أنا آسفة جدًا، أنا آسفة جدًا جدًا! هذا أمر بشع!

- ما الأمر؟ ماذا يقولون؟

- إنه... إنه كما قلت تمامًا... إنهم كثيرون جدًا... وقد أعطوا بادر نقودًا كثيرة جدًا...

لم أستطع تكوين الكلمات. مع ذلك فهمت شهلا. رأيتُ عينيها تتسعان وشفتيها تتشنجان قبل أن تدير ظهرها لي. كانت غاضبة. قالتْ: ليكن الله في عوننا.

فكرتُ في عبد الله وتساءلت ماذا سيظن باختفائي المفاجئ. تمنيت لو كنت في تلك اللحظة أطارد معه الكلاب الضالة أو نركل الكرة في الشوارع. تساءلت ماذا سيقول لو عرف أنني سأتزوج.

تلك الليلة، حلمت بعبد الخالق. جاء إليَّ، أشار إليَّ من أعلى بعصا في يده وهو يضحك، كان يسحبني من ذراعي، كان قويًا ولم يسعني الفكاك منه، كانت الشوارع خالية لكنني فيما أمر بالبوابات كانت تتفتح واحدة بعد الأخرى: أمي، خالة شايما، شهلا، بيبي شكيبه، عبد الله. يقف كل منهم عند عتبة باب ويشاهدني أسير، يهزون رؤوسهم.

وجوههم حزينة. صرختُ: لماذا لا تساعدونني؟ ألا ترون ما يحدث؟ أرجوكم، الا يمكنكم فعل شيء؟ مادر جان! خالة شايما! بيبي جان! أنا آسفة، شهلا، أنا آسفة!

صاح كل منهم بدوره: لقد اختار الله لكِ هذا القدر، إنه قدرك، رحيم.

الفصل 19
رحيمة

كان عبد الخالق رجلاً ماهرًا، رجل ماهر معه أسلحة كثيرة، يعرف من أين تؤكل الكتف. ما كان أبي قد رأى نقودًا بهذا القدر في حياته وكان ليفضل الأفيون على الطعام حتى ولو لم يكن قد تناول طعامًا أيامًا عديدة. وما كانت فائدة فتياته على أي حال؟

كنا صغيرات لكننا لسنا صغيرات جدًا. كانت شهلا في الخامسة عشرة من عمرها، وبارفن في الرابعة عشرة، وأنا في الثالثة عشرة. كنا كبراعم زهور بالكاد بدأت تتفتح. حان وقت أخذنا من بيتنا، مثل بيبي شكيبه تمامًا.

جاء أبي إلى غرفتنا وأمر أمي أن تعد *الشيرني*، الحلوى التقليدية التي ينبغي تقديمها للضيوف لإعلان موافقة عائلتنا على الزواج. لم يكن لدينا شيء، لذلك أعطته أمي صحنًا صغيرًا من السكر، مبللاً بالدموع، أخذه ووضعه أمام أبو عبد الخالق. عانق الرجال أحدهم الآخر بالتهاني. تجمّعنا نحن الفتيات حول أمنا، تنظر إحدانا للأخريات بحثًا عن الراحة.

سارت الترتيبات بسرعة. كان عبد الشريف رجلاً ذا مظهر قاس في ثلاثينياته، وأخوه عبد الحيدر، أصغر منه بسنوات تقريبًا. لعبد الشريف زوجة أخرى في البيت لكنه كان سعيدًا بالزواج مرة أخرى، خاصة وقد تحمل ابن عمه نفقات الزواج. أما عبد الحيدر فلديه زوجتان. ستكون بارفن زوجته الثالثة.

عودوا بعد أسبوعين لعقد النكاح، قال بادر جان للضيوف وعيناه تروحان وتجيئان بينهم وبين الكيس الأسود على الأرض.

كانت شهلا غاضبة للغاية لحد أنها لم تتحدث معي لأربعة أيام.

حاولت التحدث معها لكنها لم تنظر إليَّ.

– لماذا أغضبتِ بادر إلى هذا الحد؟ أنا لا أريد الذهاب مع هذا الرجل! ولا بارفن! لقد كنا راضيتين! اتركيني وحدي. اذهبي والعبي مع عبد الله الآن!

تجمدت من الدهشة. أختي محقة، رغم كل شيء. لقد دفعت بنا في هذا الموقف دون أن أفكر في أي شخص آخر. أردت السماح لي بمصارعة عبد الله، والسير إلى المدرسة معه والشعور بذراعه حول كتفي. كان كل هذا صنيعي.

– أنا آسفة يا شهلا. أنا آسفة حقًا! لم أقصد أن يحدث أي من هذا! أرجوكِ صدقيني!

مسحت شهلا خديها وأفرغت أنفها.

راقبتنا بارفن بفم مزموم بشدة، قالتْ بهدوء: «واحدة وراء الأخرى، حلقت الطيور بعيدًا».

نظرتُ إليها، دست ساقها اليسرى أسفلها ومدّت اليمنى أمامها. تساءلتُ كيف سيعاملها زوجها كزوجة عرجاء. رأيتُ في عيني شهلا أنها تفكر في الشيء نفسه.

لامتني شهلا. لو لم أثر حنق بادر جان ذاك اليوم، لم يكن هو وأمي ليتشاجرا، ولم يكن ليزوجنا لعائلة عبد الخالق.

تساءلت إن كان ذلك قد أحدث فارقًا. إن كان اختلاف واحد

صغير في تسلسل الأحداث يمكنه تغيير مساراتنا ومصائرنا. لو لم أترك عبد الله، عبد الله الرائع القوي، يثبّتني على الأرض في الشارع فترانا أمي، لم نكن لنتشاجر أنا وهي. كنت سأتناول العشاء مع عائلتي. كان أبي ليواصل تدخين القدر القليل من أفيونه ولم يكن ليفكر في الشكوى لعبد الخالق وإخباره برغبته في تزويج فتياته.

ربما كنت سأظل فتى، أركض مع عبد الله، أصنع وجوهًا سخيفة خلف ظهر المعلم صاحب وأترك أبي يعبث بشعري حين أمر به، كأنه يريدني حوله.

لكن هذا ليس قدري.

الأمر كله بيد الله يا بنيتي. الله لديه خطة لكِ. سيُصيبك نصيبك رغم كل شيء.

تساءلتُ إن كان الله لا يريد لنا أن نختار *نصيبنا*.

وأبي يقف على كتفها، أعدّت أمي على كره منها ثلاث سلال من الشرنيه. غطت قطعة من السكر على شكل قرطاس مليء بالحلوى من محل أغا باراكزاي بقطعة قماش تولّ اشترتها من نقود المهر. قطّعت شرائط من أفضل ثوب لديها وأطرت الحواف بشريطة تلقتها كهدية. ثلاثة مربعات ضخمة، واحد لكل سلة. كانت تلك ديسمُلاتنا، مهمة بقدر الحلوى. أومأ أبي استحسانًا. تجنبت أمي النظر إليه. نظرتُ إليهما وتساءلت إن كان هذا هو ما ينتظر كلاً منا مع أزواجنا، أم أن الأمر قد يكون أكثر شبهًا بكاكا جمال الذي يبدو أنه لا يرفع صوته قط وزوجته تبتسم أكثر من أي امرأة أخرى في عائلتنا.

تساءلتُ لماذا كانا مختلفين.

كان بادر بالكاد يلاحظ ما يحدث في البيت. لم يلحظ حتى أن مادر تنام معنا في غرفتنا، بدلاً من النوم بجانبه. كان مشغولاً بعدّ النقود وتدخين الأفيون مرتين يوميًا على الأقل. وفّى عبد الخالق بوعده وكان أبي يستمتع بما عاد عليه من الصفقة.

– لقد أحضرت دجاجة يا رئيسة. احرصي على أن ترسلي بعضًا منها لأمي، وليس العظم فقط، إذا سمحتِ! وإن كان اللحم جافًا وقاسيًا مثل المرة السابقة فلن يكون أمامكِ غد.

لم تكن أمي قد تناولت أكثر من لقيمات قليلة منذ أن غادر العرسان، وبدت عيناها مثقلتين. كانت محترمة مع أبي، تخشى إثارة غضبه والمخاطرة بفقدان ابنتها الصغرى أيضًا.

في هذه الأثناء، كان على مادر جان أن تصلح ما أفسدته فيّ. منحتني أحد أثواب بارفن وشادورًا لتغطية شعري الصبياني. أعادت بناطيلي وقمصاني لزوجة عمي ليستخدمها أولادها.

– أنتِ رحيمة. أنتِ فتاة وعليكِ أن تتذكري أن تتصرفي كفتاة. انتبهي جيدًا كيف تسيرين وكيف تجلسين. لا تنظري إلى الناس، إلى الرجال في أعينهم، وأبقي صوتك منخفضًا.

بدت كأنها تريد قول المزيد لكنها سكتت، تهدّج صوتها.

نظر إليَّ أبي كأنه يرى شخصًا لا يعرفه. لم أعد ابنه بعد الآن. كنت شخصًا يفضل تجنّبه. لن أظل مسؤوليته وقتًا طويلاً على كل حال.

ظللت أتقرب من شهلا، أقدم لها الطعام وأساعدها في حصتها من العمل. كنتُ نادمة على ما حدث وأردتُ أن أخبرها كم كنتُ آسفة لأنني دفعتُ بها إلى بيت عبد الشريف. أخبرتها

بكل هذا وهي ساهمة بعينيها بعيدًا عني. لكنها كانت طيبة للغاية لتظل غاضبة وقتًا طويلاً، ولم يكن أمامنا وقت طويل.
- ربما سيمكننا رؤية إحدانا الأخرى. أعني، إنهم جميعًا من عائلة واحدة. ربما سيكون الأمر مثل هنا وسيمكننا رؤية بعضنا يوميًا، أنتِ وأنا وبارفن.
- أتمنى هذا يا شهلا.
بدت عيناها المستديرتان عميقتين. أدركت فجأة شدة شبهها بأمي، وشعرت برغبة في الجلوس إلى جانبها. شعرت أفضل حين لمس كتفي كتفها.
- شهلا؟
- مم؟
سألت بصوت خفيض لئلا تسمعانا مادر وبارفن: أتظنين... اتظنين الأمر سيكون مريعًا؟
نظرتْ شهلا إليَّ ثم إلى الأرض. لم تجب.
جاءت خالة شايما لزيارتنا. سمعت الأقاويل في البلدة بأن عبد الخالق وعائلته قد زاروا عائلتنا مرتين. فهمت أن أبي يخطط لشيء. اشتعلت غضبًا حين أخبرتها مادر جان، بكت، على فتياتها الثلاث اللائي سيتزوجن الأسبوع المقبل.
- لقد فعلها حقًا. لقد حظي الحمار بصفقة جيدة جدًا، أنا متأكدة.
- ماذا كنت سأفعل يا شايما بغرفة مليئة برجال كبار السن؟ وهو أبوهن. كيف كنت سأوقف أي شيء؟
قالت خالة شايما وهي تهز رأسها: الرجل ملِكٌ على ذقنه فقط، هل حاولت التحدث معه؟

نظرتْ مادر جان إلى أختها فقط. أومأت خالة شايما برأسها بتفهم.

- مجلس حمير. هذا ما اجتمع عندك هنا. انظري فقط إلى الفتيات!

- شايما! ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ من الواضح أن هذا نصيبهن الذي قدره الله...

- آه، اللعنة على النصيب! إن النصيب هو الشماعة التي يعلقون عليها أخطاءهم.

تساءلتُ إن كانت خالة شايما محقة.

صاحت مادر جان منهكة: بمعرفتك الكبيرة هذه أخبريني ماذا كان يمكنني فعله!

- كنت سأصر على حضوري. وكنت سأخبر عائلة عبد الخالق أن الفتيات لا يزلن صغيرات على الزواج!

- كان هذا ليفيد كثيرًا. أنتِ تعرفين مع من تتعاملين. إنه ليس فلاحًا من الشارع. إنه عبد الخالق خان، زعيم الحرب. كان حرسه الشخصي يجلسون في غرفة جلوسنا بأسلحتهم. وعارف وافق على كل شيء. أتظنين أنهم كانوا سيسمعون لما سأقوله حقًا؟

- أنتِ والدتهن.

قالت مادر جان، بحزن: وهذا هو كل شيء.

هدأ صوتها. أنا واثقة بأنها ما كانت تظن أن أيًّا منا تسمعهما.

- يوجد شيء واحد فقط أفكر أن بوسعي فعله.

- ما هو؟

اخفضتْ مادر جان بصرها وصوتها.

- حدوث وفاة في العائلة سيلغي إتمام أي زواج مدة عام على الأقل.

- وفاة؟ رئيسة، عن ماذا تتحدثين؟

- الأمر يحدث طوال الوقت، شايما. لقد سمعنا قصصا كثيرة. أتذكرين منزهه التي كانت تعيش في الجانب الآخر من القرية؟

- رئيسة، لقد فقدتِ عقلكِ! فكري فقط فيما تقولين! اتظنين أن إشعالك النار في نفسك سيحل أية مشاكل؟ أتظنين ان اليتيمات أفضل حالاً من المتزوجات؟ وماذا عن الصغيرات؟ ماذا تظنين سيفعلن من دون أمهن؟ بربك، انظري إلى نسيباتك! لديك أرملتان في البيت وإخوة زوجك يطمعون فيهما بالفعل.

علا صوت دقات قلبي، كنت متأكدة أنهما يسمعانه.

- أنا فقط لا أعرف ماذا أفعل غير هذا يا شايما!

- عليكِ أن تجدي طريقة لرفضهم. لجعل عارف يرفضهم.

- القول أسهل من الفعل، شايما. لماذا لا تأتين إلى النكاح؟ وأحضري فمك الكبير وسأرى ماذا ستفعلين حينها.

- سآتي، رئيسة. لا تظني أنني لن آتي.

بدت مادر جان مرهقة. استندت برأسها على الحائط وأغمضت عينيها. تزداد الهالتان حولهما سوادًا كل ليلة.

تجمّعنا حول خالة شايما. تنهدت وهزت رأسها.

- فتياتي، سأحكي لكن المزيد عن بيبي شكيبه. بقدر كرهي لهذا لكن قصتها هي قصتكن، ظني أننا جميعًا نحمل ماضي اسلافنا فينا. أين توقفنا؟

الفصل 20
شكيبه

مرّ يومان قبل أن تستطع شكيبه الوقوف. كانت شفتاها متورمتين ومجروحتين. كدمات عديدة في ساقيها وظهرها وكل نفَس يؤلم ضلوعها في مواضع متفرقة.

لم تكن أرض أبيها من نصيبها. بل بدلاً من ذلك، جرّها عزيز الله في طريق العودة إلى البيت وأبرحها ضربًا مدة ساعة. كان كلما أبطأ في ضربه، يصيح ويزعق بكلام عن العار الذي ألحقته به، ثم يشتعل غضبه مجددًا ويلقي بها يمينًا ويسارًا مع كل لكمة.

راقبتْ مارجان من الباب، تهز رأسها وتضع يديها على عينيها، وحين لم تستطع تحمل المزيد استدارت وابتعدت. لم تلحظها شكيبه. شرد ذهنها بعيدًا منذ وقت طويل.

كانت مارجان تأتي إليها ثلاث مرات يوميّاً بشاي وخبز. ترفع شكيبه وتطعمها قطرات الشاي بلقيمات خبز مبلل. دهنت لها ظهرها وشفتها المجروحة بمرهم أيضًا. ظلت تغمغم مرارًا وتكرارًا: فتاة غبية. حذرتك ألا تثيري هذه الأمور. انظري إلى ما فعلته بنفسك الآن.

تمنت شكيبه لو كان عزيز الله قد قتلها. تساءلتْ لماذا لم يفعل.

لم تره، لكنها كانت تسمع صوته. كان مزاجه عصبيّاً والأطفال يتجنبونه. لكن مارجان لم يمكنها ذلك.

- احرصي على أن تنهض وتستعد اليوم. لا أعذار.
- إنها ضعيفة لكنني سأرى ماذا يمكنها أن...
- ضعيفة؟ وماذا كانت تفعل وحدها في شوارع القرية وهي ضعيفة، تتبع منير وابنه في الأنحاء؟ لماذا وجدتُها عند باب بيت المالك؟ إنها كاذبة والأفضل أن نسرع في التخلص منها. لا أعذار. ينبغي تجهيزها اليوم!

سمعتْ شكيبه الحوار وبدأ الموقف يتضح لها. اليوم هو يوم زيارة الملك حبيب الله لحافظ الله. اليوم هو اليوم الذي ستُمنح فيه كهدية مجددًا.

غادر عزيز الله مبكرًا في الصباح وظلت مارجان تتأفف مدة ساعة قبل أن تذهب إلى شكيبه.

- هيا. حان وقت الاغتسال.

كانت شكيبه ضعف حجمها طولاً وعرضًا حين رفعتها لتقف على قدميها. قادتها مارجان إلى الحمام وتركتها تنزلق على الأرض.

- أيتها الفتاة الغبية، لقد أتعبتني! يعلم الله أنك لن تستمري في القصر بخدعك تلك.

قالت شكيبه بلا انفعال: لقد أردت حقي فقط. لو كنتِ مكاني لكنت فعلتِ الأمر نفسه.

- لا، لم أكن لأفعل هذا! أتظنين أنك الوحيدة التي حُرمت من إرثها في الأرض؟ لقد قسّم إخواني الأرض على أنفسهم دون منحي بوصة واحدة. هكذا هي الأمور! لكِ أن تقبلي أو تموتي. الأمر بهذه البساطة.

- سأموت إذن.

- ربما، لكن ليس اليوم. الآن اخلعي ملابسك لتستحمي جيدًا.

عاد عزيز الله في المساء بمزاج أفضل.

- يا له من يوم! تفوّق حافظ الله على نفسه! لم أر طعامًا بهذا القدر من قبل. حتى إنني قابلت بعض مستشاري الملك. أناس جيدون بقدر هائل من النفوذ. أعتقد أن هذه الزيارة ستعود بثروة جيدة على عائلتنا وبلدتنا. لقد وضعنا أنفسنا تحت أنف الملك حبيب الله وبالتأكيد سوف يتذكر كرم الضيافة الذي لاقاه هنا.

- هل تحدثت مع الملك أيضًا؟

- بالطبع تحدثت! ما هذا السؤال؟ إنه رجل حكيم، رأيت هذا فورًا. لكنهم سيغادرون في الصباح وأظن أن علينا تقديم الفتاة الليلة، على العشاء، ليرى الجميع أي هدية نقدمها للملك! سنقوم بعلامتنا فيما يقوم حافظ الله بعلامته. أحضري الفتاة! لا أريد أن أجلس هنا وأثرثر معكِ الآن. أريد أن أعود قبل العشاء.

قالت مارجان: الفتاة مستعدة.

وذهبت لإحضارها. وجدت شكيبه تجلس مستندة على الحائط البارد، ساقاها منعقدتان أسفلها.

- انهضي، شكيبه، لقد حان الوقت.

نظرت شكيبه إلى مارجان ببرود. بعد لحظة، نهضتْ، تتجاهل الألم في ضلوعها. قادتها مارجان وهي تسندها من مرفقها إلى غرفة الجلوس. توقفتْ في الرواق.

- شكيبه، استمعي لي. أنتِ فتاة بلا أب ولا أم، ولا إخوة ولا أعمام ليعتنوا بكِ. أخفضي رأسك من السماء واعرفي مكانك في هذا العالم.

- ليس لي مكان في هذا العالم يا خانم مارجان.

شعرت مارجان ببرودة تسري في ظهرها. كانت كلمات شكيبه باردة، حازمة. تساءلتْ إن كانت الفتاة نصف المجنونة تلك قد جُنّت تمامًا في النهاية. ترددتْ تحذيرات زارمينه في ذهنها فقررت أن تسكت تمامًا... إن كانت شكيبه على وشك الدخول في نوبة فهي لا ترغب في إثارة غضبها.

كان عزيز الله يقف عند باب الفناء، يرتدي سترة بلا أكمام بلونيّ الأخضر والأزرق أعلى قميصه. كان وجهه وصوته صارمين.

- إن كان لدى هذه الفتاة أدنى قدر من العقل، فلن تتسبب لي في أي مشاكل الليلة. وإن تجرأتْ وسارتْ بأقل قدر من عرج، ساقطع ساقيها الاثنتين.

وصل التحذير. عضّت مارجان على شفتها وناولت شكيبه الشادور. ارتدته شكيبه على رأسها وسارت خلف سيدها بخطوات حاسمة.

تزداد آلام كدماتها مع كل خطوة. لكنها تحتفظ بالمسافة بينهما مع ذلك، لا تريد المخاطرة بالمزيد من العقاب. خلال عشرين دقيقة، كانا يقتربان من بيت يقف خارجه أحصنة ورجال مسلحون. كانت الخيل عالية ومتينة، تهز ذيولها على الجانبين بعفوية. لكن ما لفت نظر شكيبه كان ما خلف الخيل. لأول مرة في حياتها رأت شكيبه عربة خيل. أربع عجلات كبيرة، مقاعد مكسوة، وزخارف جميلة على الجانبين.

أدركتْ: *الملك*.

دخلا من البوابة الخارجية وسارا في فناء ضعف حجم فناء

عزيز الله تقريبًا. لم تستطع شكيبه منع نفسها من النظر حولها. كان هناك دكك وأجمات عديدة لورود بنفسجية رائعة. يصلها ضحك الرجال بصوت عال من غرفة الجلوس.

سارتْ إلى الباب الخلفي لتدخل إلى منطقة المطبخ.

- قفي خارجًا، في الخلف. قفي باحترامك وإلا سأجعل الجنود في الخارج يقوّمونك.

عاد عزيز الله إلى غرفة الجلوس وانضم للجمع. أغمضت شكيبه عينيها وحاولت التقاط مقتطفات من محادثتهم. تلبدت السماء قبل أن تسمع شيئًا يخصها بالفعل..

- سنغادر في الصباح لنعود إلى كابول. الطريق أمامنا طويلة لكننا نأمل الوصول قبل حلول المساء.

- أمير صاحب، لقد شرفتنا أنت وجنرالاتك المبجلون بزيارتكم قريتنا المتواضعة. نحن نأمل في الكثير من تلك الزيارات في المستقبل.

- بعد إتمام مشروع الطرق، سيغدو السفر أسهل. نحن نتوقع أن تزداد مشاركة قريتكم في المشروعات الزراعية التي بدأناها. لدى أمير صاحب فريق جديد من المهندسين يدرسون الموقف الحالي.

- نحن في خدمتكم إن أردتم أي مساعدة. لقد وُلدت وتربيت في هذه القرية، كذلك أخي العزيز عزيز الله. أصولنا هنا يحترمها الجميع ويمكننا الخدمة كمفوضيكم في أي شيء قد تحتاجون إليه.

- لقد أوضحت هذا يا حافظ الله صاحب. أقدر لك مشاعرك.

كان صوته خشنًا وميزت شكيبه فيه بعض التعب.

- أرجو هذا، جنرال صاحب. أرجو أن تقبل هدية أخي إلى أمير صاحب. إنها شيء بسيط.

- نعم، لقد ذكر هذا من قبل. ستركب الخادمة مع حاشيتنا في الصباح لتؤخذ إلى القصر.

- رائع. رجاء يا جنرال صاحب تناول بعض الحلوى، الرحلة غدا ستكون طويلة وسوف تحتاج إلى قوتك...

جاءت زوجة حافظ الله ووجدت شكيبه متكومة على دكة. كانت امرأة صغيرة الحجم، وجهها مخطط بالقلق والإنهاك. بالنظر إليها، تعرف أنها قامت بمعظم الاستعدادات لزيارة الملك. طرقعتْ بلسانها بدهشة.

- يا الله يا رحيم. اتبعيني يا فتاة، سأريكِ أين ستنامين حتى تغادري في الصباح.

منحتْ شكيبه ركنًا صغيرًا في غرفة مظلمة. رأت كيانين صغيرين متكومين ويتنفسان بهدوء. لقد كانتا بنتي حافظ الله، لكن شكيبه لم تقابلهما من قبل. مع أول ساعة في الصباح، جاءت سيدة البيت لتوقظها. هبّت شكيبه تنهض حين شعرتْ بلمسة اليد على كتفها.

- استيقظي، الرجال يغادرون.

ركزتْ شكيبه. سمعت أصوات الخيل، وثرثرة الرجال خارج البيت.

نهضتْ، تأكدت من وجود المصحف في طيات ثيابها وسارت إلى الخارج لتؤخذ إلى بيت جديد.

الفصل 21
رحيمة

لم يكن بيتنا الصغير يسع عائلة عبد الخالق. أرادوا أن يعقدوا النكاحات الثلاثة في الوقت نفسه وأحضروا معهم أم عبد الخالق، امرأة عجوز شيباء بشفتين ملتويتين لأسفل وعينين ضيقتين. تحتاج إلى عصا سير لكنها ترفض استخدامها، وتفضّل بدلاً من ذلك الاستناد على ساعد إحدى كناتها. أحضروا أيضًا الحاج صاحب، المُلاّ. ندّ عن خالة شايما ضحكة هازئة عند ذكر اسمه.

قالت خالة شايما، التي لن يصفها أحد بالملاك القادم من الجنة أبدًا: حاج صاحب؟ إن كان هو حاج فأنا *باري*[1]!

«الحاج» لقب يكتسبه كل من زار بيت الله في مكة. كان حاج صاحب، حسبما قالت خالة شايما، قد أنعم على نفسه باللقب بعد أن زار ضريحًا ما شمال بلدتنا، لكنه إذ كان صديقًا عزيزًا لعبد الخالق لم يعارضه أحد في زعمه. كان الرجلان يثرثران بود في الخارج.

أبقت شهلا رأسها مطرقًا وتوسلتْ لأمي الباكية ألا تتركها. كان جسد أمي يرتعش، وانحبس صوتها في حلقها المطبق. كانت شهلا أكثر من ابنتها. كانت أفضل صديقاتها. كانتا تتشاركان عمل المنزل ورعاية الأطفال وكل أفكارهما.

---

(1) بالفارسية، تعني جنية أو ساحرة. (المترجمة).

أمّا بالنسبة إلى بارفن، ابنتها المميزة؛ فقد صدق جزء من مادر جان نبوءة خالة شايما بأن لا أحد سيريدها زوجة؛ لذلك كانت أحيانًا تشعر بالارتياح لأن ابنتها المغنية الرسامة ستظل معها دائمًا.

وأنا كنت مساعدة مادر جان، باشابوشها الشجاع المشاغب. أعرف أنها كانت تتساءل إن كانت قد فعلت الصواب. لو كنت أقل حكمة، لكنت أخبرتها أنه كان أفضل ما حدث لي، كنت أخبرتها أنني أتمنى لو كنت قد ظللت باشابوش إلى الأبد.

كانت العائلة هنا لتأخذ معها الشقيقات الثلاث العرائس. كنا نستمع لما تقوله خالة شايما.

بدأ الحاج صاحب بالدعاء. حتى مادر جان رفعت راحتي يديها متكورتين وأحنت رأسها لتدعو معه. كنت متأكدة تقريبًا أن كل شخص يدعو بأشياء مختلفة.. تساءلت كيف سيقضي الله كل حاجاتهم؟!

- دعونا نبدأ بالدعاء. بسم الله الرحمن الرحيم...

ردد كل من في الغرفة وراءه. تلا حاج صاحب، الملا، دعاء الزواج.

- *يا مسبب الأسابِ، يا مُفتّح الأبواب يا من إذا دُعي اجاب.*

سمعنا خالة شايما تقاطعه: *يا مسبب الأسباب، يا مُفتّح الأبواب يا من إذ دُعي أجاب.*

تلت ذلك فترة من الصمت. سكت كل من في الغرفة.

- خانم، هل لديك سببًا لمقاطعة حاج صاحب؟

- نعم، لديّ. ملا صاحب يردد الدعاء خطأ. إنها يا مسبب «الأسباب» وليس «الأساب». أنا واثقة بأنه سيحب تصحيح هذا الخطأ الفادح، أليس كذلك حاج صاحب؟

تتحنح الملا وحاول أن يواصل من حيث توقف. فكر كثيرًا لكنه ردد الكلمات مثلما فعل من قبل، بالخطأ نفسه.

- *يا مسبب الأساب، يا مفتح الأبواب، يا من إذا دُعي أجاب.*

صححت له خالة شايما مجددا: الأسباب، ملا صاحب.

صوتها كأنها مُدرِّسة غاضبة. لا يمكن تجاهله.

خشيتُ أن ينفّذ بادر جان تهديده بقطع لسانها. خِفتُ عليها بشدة.

قالت بوبو جان: شايما جان، أرجوك احترمي حضرة الملا هنا قليلاً.

قالت خالة شايما بصوت عال: أنا أحترمه كثيرًا، وأحترم الدعاء مثلما أنا متأكدة أنكم جميعًا تفعلون. ما الذي قد يحدث لنا إن تلونا الدعاء خطأ؟

مرة أخرى. تنهد الملا وتتحنح: *يا مسبب الأسباب، يا مفتّح الأبواب، يا من إذا دُعي أجاب*...

قاطعته خالة شايما بصوت عالٍ: هذا أفضل.

سمعتُ الرضا في صوتها.

سمعنا الرجال يبدؤون عقد النكاح في الغرفة المجاورة. كان بادر جان يردد اسمه بالكامل، واسم أبيه، واسم جده لكتابتها في عقد الزواج.

حاولتْ بارفن أن تبدو قوية حين رأت منظر مادر جان. وضعتْ خالة شايما، حليفتنا الوحيدة في النكاح، نفسها في موقع استراتيجي بين جدي وأم عبد الخالق. لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل بحضورها. تأفف بادر جان بيأس لكنه رأى أن الأفضل ألا يثير ضجة أمام الضيوف.

تحدثتْ مادر جان معنا بهدوء. كونّا دائرة ضيقة حولها في الغرفة المجاورة.

- فتياتي، لقد دعوت الله ألا يأتي هذا اليوم سريعًا هكذا، لكنه جاء، وأخشى أنه لا يوجد شيء بوسعي أو بوسع خالة شايما فعله لوقف هذا. ظني أن هذا قدركن. الآن لم يكن لدي متسع من الوقت لتحضيركن، لكنكن شابات.

تابعت، بالكاد تصدق ما تقوله: سيتوقع أزواجكن منكن أشياء. كزوجات، عليكن واجبات نحو أزواجكن. لن تكون سهلة في البداية... لكن مع مرور الوقت ستتعلمن كيف... كيف تتسامحن مع تلك الأشياء التي خلقها الله لنا.

حين بدأت مادر جان تبكي. بكينا نحن أيضًا. لم أرد معرفة من ماذا كانت تتحدث. بدت كما لو كانت أشياء رهيبة.

- أرجوكن لا تبكين يا فتيات. هذه الأشياء جزء من الحياة، تتزوج الفتيات ثم يصرن جزءًا من عائلة أخرى. هكذا هو الأمر في العالم. تمامًا مثلما جئت أنا إلى بيت أبيكن.

سألت بارفن: هل يمكنني العودة أحيانًا، مادر جان؟

زفرت مادر جان ببطء، حلقها متورم ومختنق.

- سيريدك زوجك في البيت لكنني أتمنى أن يكون له قلب طيب ويأتي بكِ إلى هنا من حين لآخر لتزوري أمك وأختيك.

كان هذا كل ما استطاعت أن تعد به. جلسنا أنا وبارفن كل منا إلى أحد جانبي أمي، يداها تمسدان شعرينا. وضعت يدي على ركبتها. ركعت شهلا أمامنا، رأسها يستريح في حجر مادر جان. رحيلة وستارة يراقبانا بعصبية، كانت رحيلة تفهم أن شيئًا ما على وشك أن يحدث.

- الآن، فتياتي، يوجد شيء واحد آخر.

- سوف يكون هناك زوجات أخريات لتتعاملن معهن. عاملنهن جيدًا وسأدعو الله أن يعطفن عليكن. إن النساء الكبيرات في السن يحسدن الشابات الصغيرات، لذلك احرصن من قدر الثقة التي قد تمنحنها لهن. احرصن على أن تعتنين بأنفسكن جيدًا. كُلن واستحممن، وصلين فروضكن وساعدن أزواجكن، وحماتكن. إنهم هم من عليكن إرضاؤهم.

صاح صوت من الغرفة المجاورة: أحضروا الفتاة الكبرى! زوجها، عبد الشريف، في انتظارها. ليبارك الله خطوهما معا كزوج وزوجة. تهانينا للعائلتين.

صاح أبي بصوت خالٍ من الاحتفال: شهلا!

مسحتْ شهلا الدموعَ عن وجهها وأسدلت الشادور على رأسها بشجاعة. قبّلت وجه أمي ويديها قبل أن تستدير لنا، أختيها. عانقتُ أختي بقوة وشعرتُ بأنفاسها في أذني.

«شهلا...» كان كل ما استطعت قوله.

بعد ذلك جاء دور بارفن. بدؤوا مجددًا، عقد جديد. من أجل العرف والتقاليد، كرروا كل الأسئلة نفسها، سجلوا كل الأسماء نفسها.

قاطعتْ خالة شايما مجددًا: أغا صاحب، لقد منح الله ابنة أختي ساقًا عرجاء وأنا أخبرك أفضل من أي شخص آخر أنه ليس من السهل العيش بتلك الإعاقة. لقد كان من مصلحة تلك الفتاة الفضلى أن تذهب إلى المدرسة بعضَ الوقت، لتتعلم كيف تتدبر أمر إعاقتها، قبل أن تصير زوجة.

تراجع والد عبد الخالق مأخوذًا من هذا الاعتراض المفاجئ، مثله مثل جميع من في الغرفة.

- لقد ناقشنا هذا وأعتقد أن ابن أخي كان أكثر من كريم ليمنح هذه الفتاة الفرصة لتكون زوجة رجل محترم. لن تُعالج المدرسة ساقها العرجاء، كما لم تُصلح ظهرك الأحدب. لنواصل.

واصلوا عقد النكاح.

- أحضروا الفتاة! ليبارك الله النكاح وعبد الخالق الذي جعله ممكنًا. أطال الله في عمرك، عبد الحيدر، لموافقتك على أخذ زوجة على سنة الله ورسوله الحبيب -عليه الصلاة والسلام- وزوجة عاجزة هكذا، أنت رجل عظيم حقًا، عبد الحيدر. يا له من خير لعائلتك يا عارف جان.

قبّلت مادر جان جبين بارفن ووقفت ببطء، كأن الأرض تشدها إلى الأسفل. وقفتْ بارفن وفردتْ ساقها اليسرى بشدة ما أمكنها. همست مادر جان لها بأشياء تكره أن تقولها.

- بارفن جان، بنيتي الجميلة، تذكري أن تقومي بعمل المنزل في بيتك الجديد، قد لا يكون لديك الوقت للرسم، وغني بهدوء لنفسك فقط. سيقولون لكِ أشياء، مثلما كان الآخرون يفعلون دائمًا، عن ساقك، لكن لا تعيريهم اهتمامًا يا بنيتي.

أمر الملا: أغا صاحب، أنت تطيل انتظار هذا الرجل. أحضر له عروسته الجديدة من فضلك.

- أحضروها!

كان صوت أبي باردًا وعاليًا وهو يحاول فرض سيطرته. تلكؤ مادر جان يجعله صغيرًا أمام الملا وعائلة عبد الخالق، وكأن تصرفات خالة شايما لم تكن كافية.

- أرجوكِ، يا بنيتي الجميلة. تذكري ما قلته لك. ليرعاك الله الآن.

همستْ وهي تمسح دموع بارفن ثم تمسح دموعها. عدّلت لها شادورها وربطته بإحكام تحت ذقنها قبل أن تُديرها وتتركها تسير في الرواق ثم إلى غرفة الجلوس حيث ستكون زوجة رجل في سن أبي.

جلستُ في الغرفة مع رحيلة وستارة. سمعت بارفن تحاول إخفاء عرجها، ترفع قدمها اليسرى لئلا تجرها طويلاً على الأرض كما تفعل عادةً. كان أبناء عمومتنا دائمًا ما يغيظونها، وكذلك أطفال الجيران. حتى في تلك الشهور القليلة التي ذهبت فيها إلى المدرسة، كانت قريناتها في غرفة الدرس يسخرن من طريقة مشيها، كذلك عبّرت المدرسة عن شكها في أنها قد تتعلم أي شيء، وكأن السير والقراءة مرتبطان. لن يعاملوها جيدًا، كنا نعرف. تمزقت قلوبنا لها.

سألت ستارة: رحيم، أين تذهب بارفن؟

نظرتُ إلى شقيقتي الصغرى. ما زالت تناديني باسم *الباشابوش*.

ذكّرتها رحيلة وعيناها الخاليتان مثبتتان على الباب: إنها رحيمة.

كأنها تتوقع أن تعود بارفن مجددًا.

سألت ستارة مجددًا: رحيمة، أين تذهب بارفن؟

- إنها.. إنها ستعيش مع عائلة جديدة».

لم أستطع ذكر كلمات مثل «زواج» أو «زوج» في جملة عن أختي. بدا الأمر غريبًا عليها، كطفلة صغيرة تنتعل حذاء أمها.

كنتُ أعرف أن أمي تراقب بارفن من خلف الباب. خفتت أصواتهم وهم يخرجون من الباب. نظرتُ من النافذة لأرى أختي

مرة أخيرة. بسبب عرجها، كانت أقصر من أي فتاة أخرى في الرابعة عشرة من عمرها وبدت بنصف حجم زوجها الجديد. ارتعشت حين فكرت في وجودها وحدها معه.

سألتْ ستارة: ومتى ستعود؟

نظرتُ إلى أختي بلا تعبير. عادت مادر جان، مُنهارة. كنت التالية. لم تنجح خالة شايما في إنقاذ أختيّ من عائلة عبد الخالق. أعرف أنني لم يكن لي أن آمل في أي تحسُّن لكنني كنت امل.

أتمنى لو كنت حاولت التماسُك مثل شهلا أو بارفن حتى، ولو من أجل أمي على الأقل. كان لا بد أن أفعل شيئًا؛ فقد ظللت فتى عدة سنوات رغم كل شيء. الفتيان يدافعون عن أنفسهم و عن عائلتهم. كنت أكثر من مجرد فتاة. فكرت. *كنت باشابوش!* كنت أتمرن على فنون القتال مع أصدقائي في الشارع. لم يكن عليَّ أن أستسلم كما فعلت أختيّ.

كان على أبي انتزاعي من حضن أمي وأنا أصرخ. سقط الشادور عن رأسي وكشف شعري الصبياني السخيف. راقبتْ عائلة عبد الخالق الأمر بضيق. لم يسر الأمر جيدًا. غرز أبي اصابعه في ذراعي. عرفت من الكدمات التي رأيتها فيما بعد فقط.

حاولتُ سحب ذراعيّ بعيدًا، ركلت بقدميّ، لويت جسدي انملص. لم يكن الأمر مثل لعب القتال مع الأولاد. كان أبي أقوى من عبد الله.

كان كل ما فعلته أن أحرجت أبي. أجهشتْ أمي بالبكاء، يداها متكورتان في قبضتين عاجزتين. هزت خالة شايما رأسها

وصاحت بأن هذا، كل هذا، خطأ. لم تتوقف حتى صفعها أبي على وجهها. ترنحت للخلف. نظر إليها الضيوف، يشعرون أنها تستحقه. استعاد أبي اعتباره في أعينهم.

لم تغير مقاومتي شيئًا. جعلت الأمر أصعب على أمي فحسب. وعلى خالة شايما.

سلمني أبي بيده إلى زوجي الجديد. حدّقت حماتي فيّ بعينين مستنكرتين. سيكون عليها فعل الكثير لتقويمي.

وعبد الخالق، زوجي الجديد، ابتسم لرؤيتي أتلوى تحت قبضة أبي. كأنه يحب ما يراه.

كان ذلك زفافي.

الفصل 22
شكيبه

- الأهم فالمهم. أنتِ في حاجة إلى الاستحمام.

وقفتْ شكيبه أمام امرأة ضخمة بشعر داكن حليق. بدت في عشرينياتها. ترتدي بنطالاً منفوخًا وحذاءً برقبة عالية وقميصًا بأزرار مغلقة. لولا صوتها لظنت شكيبه أنها رجل. كما العادة، كانت شكيبه حائرة، وقد ظلت كذلك منذ أن لاحت كابول امامها.

لم تتخيل قط وجود مكان كهذا. يمكن لكابول ابتلاع كل بيوت ومحلات قرية شكيبه. شوارع تصطف على جانبيها المحلات، مظلات مخططة ورجال يسيرون في متاهة الشوارع. بيوت ببوابات أمامية مزخرفة. يستدير الناس ويرفعون أيديهم، احتراما لحاشية الملك. كانت كابول رائعة!

حين لاح مبنى القصر الملكي في الأفق، فتحت شكيبه فمها مشدوهة. كان المدخل بعد البوابات محاطًا على كلا جانبيه بأعمدة حجرية، طبقة فوق الأخرى حتى رأت القصر نفسه. عند المدخل الرئيس، يحيط ممر واسع ببرج شاهق. مدت شكيبه عنقها لتنظر جيدًا.

هذا البرج يصل إلى الجنة!

كانت واجهة القصر مزدانة بالزخارف والنقوش، لامعة ومشرقة. تكسو الخضرة وأجمات الورود الممر الحجري، وكذلك

رواق الأعمدة الذي يمر بالبرج. كان القصر عملاً معماريًا مذهلاً بعدد من النوافذ لم تره شكيبه من قبل قط ولا يُقارن بأي بيت رأته في حياتها.

يحرس الجنود كل ركن. فقط حين وصلوا إلى مدخل القصر رأت شكيبه الملك حبيب الله. في طريق العودة إلى كابول، كان في مقدمة الركب. على متن العربة الرائعة التي رأتها تقف خارج بيت حافظ الله. وحين ترجلوا، توجّهت عربة شكيبه في اتجاه مختلف لكنها لمحته يعبر المدخل الرئيس.

فكرت شكيبه: *هذا هو الملك*.

كان رجلاً بدينًا ذا لحية كثة. يرتدي زيا عسكريا بصفوف من الميداليات المثبتة على جانب سترته الأيسر وشرّابات أعلى كتفيه. يتدلى وشاح أصفر عريض من على كتفه اليمنى يصل إلى فخذه اليسرى ويغطي بعض النجوم على سترته. يستقر حزام مخطط بإبزيم مرصّع بشكل مريح في منتصف بطنه، وتضيف قبعة طويلة من صوف الخراف لقامته خمس بوصات. وقف الجنود انتباهًا لعودة الملك حبيب الله.

تساءلتْ شكيبه هل سيمكنها رؤيته في هذا القصر الضخم.

- اتبعيني.

أخذها جندي إلى منعطف خلف القصر حيث يؤدي الممشى إلى فناء فسيح سحري. اتسعتْ عينا شكيبه. كان في الفناء برك مياه صغيرة وأجمات ورود وأشجار فاكهة. سارا في ممشى حجري يؤدي إلى بيت حجري أصغر، لكنه ما زال أكبر من بيت أغا عزيز الله. طرق الجندي الباب وأجابه أحد الحرس.

- خذها، ستكون أحد الحراس لديك. أصلحوها.

أومـأ الحـارس وانتظر حـتى اسـتدار الجنـدي ثم فتح البـاب على اتساعه.

- هيا.

امرأة! وقفت شكيبه جامدة.

- قلت لكِ هيا! ماذا تفعلين بوقوفك هناك؟

تحررت سـاقا شكيبـه من الجمـود وتبعت المرأة الرجل إلى غرفة. كـان هناك ثلاث نسـاء يجلسـن على وسـائد على الأرض، كلهن أكبـر من شكيـبه لكنهن أصـغـر من كل زوجـات أعـمـامهـا. توقفن عن الحديث حين دخلت. لاحظت شكيـبه أربعـة حـرس آخرين في الغرفة. أهم نساء أيضًا؟

- حسنًا، دعينا ننظر إليكِ.

رفـعـتِ المرأة الشـادور عن رأس شـكيـبـه وتراجـعـت خطوة للخلف.

- حسنًا، حسنًا. هذا وجه ما. ظنـي أنه لهـذا أرسلوكِ إلى هنا. سيداتي، هذه أحدث حارساتنا.

زادت دهشة شكيـبه حين عـرفت أن جميع الحـرس في هذا البيت نسـاء يرتدين مـلابس الرجـال. بدا أن المرأة، غـفـور، هي المسؤولة عن الحـارسـات الخمس. كان الوقت مسـاءً ورأت غفور الإرهاق البـادي على وجه شكيـبه. فـأخـبـرتهـا أن تسـتريح الليلة وأنها ستـبدأ العمل في الصـباح. لأول مرة منذ وقت طويل نامتْ شكيبه بهدوء، محاطة بنساء يتظاهرن بأنهن رجال.

بدأ تحـولهـا مع طلوع الصـبح. قـادتهـا غـفـور إلى منطقـة الاستحمام وقصت شعرها الكث الملبّد. كانت الأوامر أن تستحم

وتُمنَح مـلابس مطابقـة لما ترتديه غـفـور. حـدّقت شكيـبـه في البنطال مذهولة، بالكاد تصدق أن بإمكانها السير به.

أزلقت فيـه قـدمًـا ثم الأخـرى، ثم أغلقتْ أزرار الخـصـر. أعطوها قـميـصًـا تحـتيًـا ضـيـقًـا، ضـغـط إلى صـدرها ثديـيـهـا المسطحين. أزلقتْ ذراعيـها في القميص وأغلقت أزراره. شعرتْ بالحذاء ذي الرقبة ثقيلاً. وقفتْ تحدّق نحو الأسفل في قدميها. مدّتْ يدها ومررت أصابعها في شعرها القصير.

سـارتْ خطوتين واسـتدارتْ. شـعـرتْ بتـحـرر سـاقـيـهـا واحـمـرت خجـلاً حين نظرت لأسـفل ورأت المنفرج بين سـاقيـهـا واضـحًـا. قفزت يديـهـا إلى ظهـرها وارتعـشت للتـفـكـيـر في أن تكوين ردفـيـهـا سـيكون مكشوفا للغاية في هذا البنطال المنتفخ. لـم ترَ في حياتها سوى نسا، يرتدين تنانير واسعة بما يكفي لتغطية المنحنيات والثنيات أسفلها.

مع ذلك شـعـرتْ بحـرية مـا في مـلابسـهـا الجـديدة. رفـعتْ قدمها اليمنى ثم اليسرى. تذكرت أخويها وكيف كانا يركضان في الحقول ببناطيلهم الواسعة.

فهمتْ غفور.

- الأمـر غـريب في البداية، لكنكِ سـتـعـتـادينه بسـرعـة. هذا الزي الموحد يصير مريحًا أكثر بمرور الوقت.

- ماذا نحرس؟

ضحكتْ غفور.

- ألم يخبروكِ بشيء؟ نحن حارسات نساء الملك حبيب الله.

- زوجاته؟

- ليس تمامًا. نساؤه. النسـاء اللائي يقـضي مـعـهن وقـتًا، نساء يأخذهن حين يريدهن.

لا بد أن شكيبه قد بدت حائرة.

- للرجال أن يأخذوا نساء أكثر من زوجاتهم، فتاتي العزيزة. أحيانًا الزوجات لا يكفينهم.

تيقنت شكيبه من أنها لا تفهم لكنها أبقت فمها مغلقًا في الوقت الراهن.

نظرتْ غفور إليها بتمعن وسألتها: ماذا حدث لوجهك؟

نظرت شكيبه لأسفل غريزيًا.

- احترقتُ وأنا طفلة.

- ممم. وأين عائلتك؟

- قريتي على مبعدة يوم سفر من هنا. أمي وأبي ميتان، اخواي وأختي ميتون.

عقدتْ غفور حاجبيها.

- ليس لك أقارب آخرون؟

- لقد تخلصوا مني كتسوية لديونهم. وأهداني الرجل إلى الملك.

- وأنتِ الآن واحدة منا. مرحبًا بكِ شكيبه. لكنك هنا ستكونين «شكيب»، مفهوم؟ الآن هيا لأقدمك للآخرين.

أربع نساء/رجال يحرسن حريم الملك. وجدتْ شكيبه نفسها تحدق في وجوههن وهن يحدقن في وجهها بدورهن. وإنما ليس بنية سيئة. كانت غفور القائدة، ليس فقط لأنها الأطول وصاحبة الصوت الأعلى بل لأنها ظلت في القصر وقتًا أطول منهن جميعًا. كانت أكثرهن رضًا بعملها، وبدا أنها فخورة بقيامها به بشكل جيد. كان وجهها ناعمًا، سوى من خط زغب ناعم أعلى شفتها، ما يمنحها مع حاجبيها غير المهذبين، مظهر شاب صغير مفعم بالحماسة لأهمية منصبه.

كانت غفور من عائلة متواضعة بقرية مجاورة بدّلتها عائلتها مع القصر ببقرة. حدث ذلك ذات ظهيرة وأمها منشغلة بإخوتها الصغار. جاء أبوها إليها وهي تعمل بالإبرة وقال لها سوف نذهب *لزيارة جدتك*. تساءلت غفور لماذا لن يأتي معهم الآخرون؟! لكنها رفعت كتفيها وسارت خلف أبيها طوال الطريق مسافة كيلو مترين حتى سلّمها أبوها لرجل يرتدي قميصًا وبنطالاً رماديين. نبّه عليها أبوها بصرامة أن تطيع الرجل، ثم استدار ليعود أدراجه إلى عائلتهم. صرختْ وبكت حين أدركت أنها لن ترى أمها ولا إخوتها ثانيةً.

جاء بها الرجل ذو الزي الرمادي إلى القصر ووقفتْ تراقب أحد الحرس يخرج ببقرة ويسلمها له. كانت بقرة جيدة، لا تبدو مريضة ولديها الكثير لتسد به حاجة عائلتها. أدركتْ على الفور ما فعله أبوها وتساءلت إن كانت أمها تعرف نواياه. لعنته لخداعه في سرها وخافت مما سيحدث لها، فتاة يافعة، بين أيدي غرباء.

لم تستغرق غفور وقتًا طويلاً، مع ذلك، لتشكر لأبيها مقايضته. كانت تفتقد أمها وإخوتها بشدة لكن الحياة في القصر، حتى بالنسبة إلى الخدم، أسهل كثيرًا من الحياة في البيت. الضرب أقل، والطعام أكثر، وقد اكتسبت بعض السلطة.

كان الملك يستمتع بوقته مع الحريم لكنه يعرف أن لا رجل خارج دائرة الشبهات. لا بد من حراسة الحريم لكنه لا يثق بالرجال. ظل يفكر في الأمر ويناقشه شهورًا، مسألة معقدة مثل نزاع القبائل في وادي كورام. حين اقترح أحد مستشاريه خطة لإلباس النساء ملابس الحرس الرجال، كافأه الملك لعبقريته، وأمره بتجنيد الحرس النساء بأسرع ما يمكنه.

استمتعتْ غفور برفاهية الحياة في القصر. كان كل ما عليها أن تتخلى عن كونها امرأة. جاءت فتاتان أخريان، لكنهما لم يستمرا سوى شهرين أو ثلاثة. جادلت إحداهما واحدة من الحريم، وكانت الأخرى، بنفشه، جميلة جدًا لحد أن الملك أعجب بها على الفور وقرر ضمها للنساء اللائي ينبغي حراستهن. تركوها حتى طال شعرها مجددًا قبل أن يعيدوها إلى منصبها الجديد كمحظية.

ثم جاءت شقيقتان، كريمة التي صارت كبير، وختول التي يدعونها قاسم. اختار مفوضو الملك هذه المرة بشكل أكثر حكمة، فعينوا فتيات طويلات كالرجال وقرويات لئلا يجذبن نظر الملك. جاء كبير وقاسم من عائلة لديها أربع فتيات. صرختْ أمهما بعصبية وهي تخبرهما أنه ليس في الإمكان إطعامهن جميعًا ولذلك اتفق أبيهما على أن يأخذهما إلى قصر الملك حيث ستحظيان بحياة أفضل. تقبلت الفتاتان المطيعتان قرار والديهما، وتركتا البيت وهما تمسكان بيد إحداهما الأخرى.

تكبر كبير شقيقتها بعامين لذلك هي من تعتني بها. تجاوزتْ خوفها سريعًا وصارت النائبة، ومن تجادل غفور كي لا تفرض عليهما سيطرتها بالكامل. كانت قاسم أهدأ وتفتقد العائلة. كانت أطول من أختها ببوصة لكنها تحني كتفيها، ما جعل غفور تتكزها في ظهرها مرارًا حتى تعلمت الوقوف كما ينبغي لحارس.

كانت طارق، الإضافة الأحدث، مختلفة عن الأخريات. كانت تقوم بعملها جيدًا بما يكفي لكنها تتمنى أن يلاحظها الملك ويضمها لحريمه. كانت الأقصر من بينهن، بوجه ممتلئ، وشعر كستنائي، أخبروها من قبل أن لا رجل يستطيع مقاومته. لم تكن تذكر مصدر هذا الإطراء لكنها رفضت أن تترك الزي الموحد

الذكوري يُفقدها فرصها. كانت تحرص على أن تؤرجح فخذيها وهي تسير وتخفض عينيها حين يكون الملك قريبًا. كانت تحرس بنفشه أغلب الوقت دونًا عن بقية الحريم، تشعر بقرابة للحارسة السابقة التي لفتت نظر الملك.

كثيرًا ما كانت غفور وكبير تقلبان عينيهما لها لكنهما كانتا تتسامحان مع أوهامها. لكل حارسة طريقتها في التكيف مع الوضع.

من على مسافة معقولة، قدّمت غفور شكيبه لعدد قليل من محظيات الملك، الأثيرات لديه. كانت بنفشه أصغرهن، وكانت تعرف لماذا تتقرب إليها طارق لكنها ترفض مشاركتها أي تفاصيل عن الملك. كانت كلما سألتها طارق عنه، تهز رأسها وتسوي تنورتها. كانت بشرتها شفافة وحدقتا عينيها مرقطتين بالأخضر. تعرف طارق لماذا أعجبت الملك. كانت أجملهن، بعد أن بدأ وجه حليمة يُنبئُ عن سنواتها.

حليمة، الأكبر سنًا من بين الحريم، أنجبت للملك ابنتين خلال سنوات. إحداهما عمرها عامان، والأخرى أربعة، وتشبها أمهما بصورة مدهشة. كانت حليمة تربت على شعرهما وتتنهد بحزن، مدركة أن ميل الملك إليها قد قلّ مؤخرًا وتتساءل ماذا سيحل بها وبابنتيها؟ كانت عطوفة وأمومية وتحاول التهدئة في شجار الأخريات.

بنازير، الأدكن بشرة، بعينين أبنوسيتين تدمعان بسهولة هذه الأيام. كانت حاملاً ومذعورة. بدأ بطنها ينتفخ لكنها ظلت مريضة عدة أسابيع، عاجزة عن الاحتفاظ بملاعق قليلة من الأرز في معِدتها. كانت تحدق في الجدران وتجهش في البكاء حين تلمس يد حليمة كتفها.

سكينة وفاطيما كانتا الأكثر حيوية، لكنهما أقل جمالاً من

الأخريات. أنجبت فاطيما ابنًا، ما منحها امتيازًا على الأخريات. كانتا ودودتين بقدر ما، لكنهما، خلافًا لحليمة الطيبة، كانتا عادة ما تحفزان المشاكل في الحريم. كانت سكينة تحتقر بنفشه بشكل خاص؛ إذ كانت مكانتها في الحريم قد انخفضت بشكل ملحوظ بوصول الفاتنة الجديدة. وكانت بنفشه تعرف كيف تقذف بتلك الحقيقة في وجه سكينة حين يقتضي الأمر. عرفت شكيبه أن عليها الاحتفاظ بمسافة بينها وبين هاتين الاثنتين، أخبرتها غريزتها أن تعليقاتهما على وجهها لا يمكن احتمالها.

هناك أخريات، هكذا أخبرنها. سترى المزيد غدًا.

حياة الحريم بسيطة إلى حد ما. راقبت شكيبه بذهول ما يفعلنه، والأهم منه، ما لا يفعلنه. إنهن لا يطبخن، ولا يحملن دلاء الماء من البئر، لا يرعين حيوانات ولا يقضين ساعات في تقشير الخضروات.

- من يقوم بكل الأعمال المنزلية إذن؟ سألتْ شكيبه غفور وهما تراقبان سكينة وبنازير تفركان خديهما وتلطخا شفتيهما بالكرز المهروس.

- الخدم. لكل شخص مهمة هنا في القصر: الحرس، الخدم، الحريم، ونحن. نحن جميعًا نؤدي واجبنا في البلاط الملكي.

جلست غفور تضع كاحلها الأيمن على ركبتها اليسرى. ترتاح كرجل.

- بلاط؟

- بلاط الشاهِ. ألا تعرفين ما البلاط؟

ضحكت غفور باستمتاع شخص كان جاهلاً من قبل.

- هذا هو بلاط الشاه، القصر! البلاط هو بيتك الجديد يا شكيب جان!

الفصل 23
رحيمة

- اخلعي الشادور.

أبقيتُ وجهي نحو الحائط ودسست قدميّ تحتي. كانت الغرفة صغيرة بما يكفي لسماع أي نفس ضعيف.

وقف عبد الخالق عند الباب، يداه عند خصره. يبدو أضخم من هذه الزاوية. تقدم خطوتين للداخل وأغلق الباب خلفه.

- قلت لكِ اخلعي الشادور.

أخفضتُ رأسي وأجبرت نفسي على التنفس. دعوت الله أن ييأس مني ويتركني، كما فعل في الأمس.

- أنا لن أتسامح مع الوقاحة. في الأمس، تركتك لشأنك. كان ذلك كرمًا مني، لأريكِ أنني طيب. اليوم، الأمر مختلف. أنت في بيت زوجك، أي بيتي، وعليكِ التصرف كما ينبغي للزوجة.

كنت أشارك السكن مع زوجة عبد الخالق الثالثة. الاثنتان الأخريان في سكنين منفصلين في البيت الكبير نفسه، تتصل جميعها من الداخل. كان الليل قد خيم تقريبًا حين وصلنا إلى البيت الكبير، فلم أرَ الكثير. أصرت بيبي كلالي، أم عبد الخالق، على الاتكاء عليَّ في سيرها إلى السيارة. كانت عجوزًا ولم أكن وقحة بما يكفي لأرفض، مع ذلك أجبتُ عن أسئلتها بكلمة أو اثنتين فقط. كانت تقيِّمني.

قادتني بيبي كلالي إلى غرفة صغيرة عند نهاية رواق. تلك

غرفتي، كما قالت. يوجد حمام خارج بابها مباشرة، لم أكن قد رأيت مثله في حياتي من قبل، كان حمامًا حديثًا، بماء جارٍ ومقعدة تواليت.

رأيتُ شاهيناز، الزوجة الثالثة، للحظة فقط قبل أن يشار إليَّ نحو غرفتي. أدارتْ ظهرها لي وسارت مبتعدة، ليست مهتمة بالتعارف.

– هذه شاهيناز. ستقابلينها في الصباح، ستريك البيت.

في غرفتي مرتبة في ركن، ووسادة وطاولة صغيرة.

قالت بيبي كلالي بجفاء: سنرسل إليكِ طبق طعام الليلة. غدًا ستكونين جزءًا من بيتك الجديد.

شككت في هذا.

كدت أصرخ في الأمس حين دخل عبد الخالق الغرفة، كنت متكورة على نفسي في الركن. مسح فمه بظهر يده. أنهى لتوه تناول الطعام. ظل طبقي دون أن يُمسّ.

– ألم تأكلي؟ زوجتي ليست جائعة، هه؟

قهقه.

لم أقل شيئًا.

جلس القرفصاء بجواري ورفع ذقني بأصبعين. كانت لمسته خشنة. أبقيتُ بصري بعيدًا. خلع الشادور عن رأسي وتحسس خلفية رأسي.

قال: غدًا.

وخرج من الغرفة. ارتعشتُ مذعورة.

خيّم الليل ومضى دون أن يغمض لي جفن. ظللت أتقلب على المرتبة، أستمع لصوت الخطوات، يد على مقبض الباب، طرق.

فكرت في أمي، في أختيّ. تساءلتُ إن كانت شهلا وبارفن قريبتين. دعوتُ الله أن نكون جميعًا في البيت نفسه وأن أراهما في الصباح، كل صباح. تساءلتُ ماذا ستخبر رحيلة ستارة، التي تسأل كل يوم أسئلة لا يمكننا إجابتها. تمنيت أن أكون راقدة عند قدمي خالة شايما، أسمعها وهي تحكي فصلاً آخر من قصة بيبي شكيبه.

تمنيت أكثر من أي شيء أن أكون في المدرسة، يدير لنا المعلم صاحب ظهره، فنتبادل أنا وعبد الله نظرات الملل، نركل أحدنا الآخر تحت الدكة ونميّل دفترينا ليرى كل منا الإجابة الصحيحة.

تمنيت أن أكون في أي مكان ما عدا هنا.

حين لم تعد مثانتي تتحمل، فتحتُ الباب قليلاً. نظرتُ في الرواق، رأيته خاليًا، فتسللت إلى الحمام ببطء. أوقفتني شاهيناز في طريق عودتي.

قالت ببرود: صباح الخير.

بدت أكبر من شهلا بأعوام قليلة، بملامح تناسب صوتها الرتيب. كانت نحيفة وأطول مني بعدة بوصات. تحمل رضيعًا على خصرها، لا يزيد عن ستة أشهر.

أجبت بحرص: سلام.

أعرف من هي وأتذكر تنبيهات أمي.

- اسمك رحيمة؟

أومأتُ.

- وهو كذلك، رحيمة. لقد طلبت مني بيبي كلالي أن أريكِ السكن. دعينا نبدأ إذن. لقد اختبأتِ في غرفتك بما يكفي.

بدا أنها لا تبالي بي، لكنها أُمِرت بتنفيذ مهمة، كما نصحتني مادر جان، كانت تنفذ أوامر حماتها، حماتنا.

- لقد ظل هذا بيتي ثلاثة أعوام، قيل لي إنني لن يشاركني فيه أحد. هذه الغرفة لي أنا وأطفالي. هذا هو المطبخ. هذه غرفة جلوسنا، وهذا الرواق يؤدي إلى بقية المساكن، المساكن الأفضل. أتوقع أنك ستقومين بنصيبك في الطبخ والتنظيف. كما ترين، أنا مشغولة بالفعل.

توقفتْ ونظرت إليَّ باهتمام.

- شعرك. لماذا هو قصير هكذا؟

- أنا *باشابوش*. أقصد أنني كنت *باشابوش*.

- لم أرَ *باشابوش* من قبل قط، لماذا جعلوكِ صبيًا؟

- لم تنجب أمي سوى فتيات وكان أبي يريد فتى.

- فألبسوكِ مثل الفتيان؟ وكنت تخرجين من البيت هكذا؟

ميزت في صوتها فضولاً أكثر من الازدراء. منحني هذا بعض الثقة لمواصلة المحادثة. شيء ما فيها يذكرني بشهلا وقد أدركتُ بالفعل حاجتي إلى حليف هنا.

قلت بتفاخر: بالطبع. كنت أذهب إلى المدرسة. وكنت أقضي مشتريات أمي، حتى إنني عملتُ وساهمتُ في نفقات البيت. كنت أتعلم إصلاح الأجهزة الإلكترونية.

كان ذلك أكثر مما كنت أفعله في محل أغا باراكزاي لكن شاهيناز لا تدري شيئًا عن الفارق.

- حسنًا، لا تتوقعي معاملة الابن المدلل هنا.

أدركتُ ما إن قالت هذا أن هذا بالضبط ما كنت أتمناه سرًا.

سألت آملة ألا يبدو إحباطي على وجهي: من يعيش هنا في المسكن؟

بدأت الطفلة تبكي، يدها الصغيرة تربت على وجه أمها.

قادتني شاهيناز إلى غرفة الجلوس لترضع ابنتها.

- مسكِننا أحد ثلاثة مساكن. لكل زوجة مسكنها. أو هكذا كان الأمر، حتى جئتِ أنتِ. زوجته الأولى بدرية. لديها أكبر سكن بغرفة نوم في الطابق الأعلى. وزوجته الثانية جميلة. تعيش في الجزء الأكبر من البيت أيضا لكنها في الطابق الأسفل. غرفة عبد الخالق في ذاك البيت الرئيس. ظننت أنك رأيتِها ليلة أمس لكنني متأكدة أنك سترينها قريبًا جدًا.

تجاهلتُ تعليقها الأخير، مذعورة من التفكير في مغزاه. ذكرى لمسته تجعلني اقشعر.

- أين تع... أين تعيش بيبي كَلالي؟

- في المسكن المجاور، لكنها تأتي كثيرًا، تحرس شؤون ابنها الأكبر جيدًا. خاصة حين يسافر وقتًا طويلاً. احترسي منها. إنها تحكم بقبضة من حديد.

- وماذا عن الآخرين؟

- أي آخرين؟

- أقصد ابنَيّ عمه، عبد الشريف وعبد الحيدر؟

كنت مترددة في السؤال. أتمنى من كل قلبي أن تخبرني أنهما في المسكن المجاور أيضًا.

- آه، لقد سمعت بما حدث. إنه حقيقي إذن؟ أحيانًا تفهم صفية الأمر كله على نحو خاطئ تمامًا. لقد أخبرتني أن أختين أخريين ستتزوجان في الوقت نفسه، وأن إحداهما عرجاء،

صحيح؟ يصعب تخيل كيف اتفقوا على هذا. حسنًا، عبد الشريف يسكن على الجانب الآخر من التل، مسافة قرابة أربعة كيلو متر. عبد الحيدر يعيش على الجانب الآخر من هذا الحائط. ويأتي إلى هنا كثيرًا لأنه ذراع عبد الخالق الأيمن.

بارفن قريبة! على الجانب الآخر من الحائط. تساءلتُ ماذا تفعل وإن كانت تعرف أنني على مسافة أمتار منها. شهلا. كانت شهلا من أُخِذَت لأبعد مسافة.

- هل يأتي عبد الشريف إلى هنا أحيانًا؟

- إنه يأتي، لكن ليس كثيرًا مثل أخيه. إن كنتِ تفكرين في رؤية أختيكِ، فلا تتأملي كثيرًا. لا أحد منهما يأتي بزوجته. نساء هذه العائلة لا يخرجن. اعتادي على هذه الجدران. ستكون كل ما سترينه.

تركتني شاهيناز وذهبت لتضع ابنتها في الفراش. كان لديها طفلان، ولد عمره عامان والرضيعة ذات الخمسة أشهر التي تحملها.

عرفتُ بعد ذلك بأسبوع أن عبد الخالق قد أخذها من قرية في الجنوب. كان هو ورجاله قد ذهبوا إلى هناك ونجحوا في التصدي لقوات طالبان وإجبارها على التراجع. أنقذوا القرية فشعروا أن لهم أن يأخذوا ما يشاؤون. نهبوا بيوتًا، وسبوا نساءً. لم يكن في القرية أحد للدفاع عنها. مات معظم الرجال في الحرب. أخذ رجال عبد الخالق كل ما وقعت عليه أيديهم. جاءت شاهيناز في جعبة عبد الخالق. لم ترَ عائلتها منذ يوم النكاح.

هذا قضاء أخف من قضاء، قالتْ. فعلى الأقل اتخذها زوجة شرعية. كانت قد سمعت عن نساء كثيرات تعرضن

للاغتصاب وتُركن مع عائلتهن. لا شيء أسوأ من هذا.

فكرتُ في قرية شاهيناز كثيرًا، أعرف أن أبي اشترك في مهام كهذه بالتأكيد، تساءلتُ هل نهب مثل الآخرين. أردتُ أن أظن أنه لم يفعل.

يمكنني البدء بالتنظيف، قالت شاهيناز. عليها تحميم طفليها. وجدت المكنسة وبدأت كنس الأرضية كما رأيت أختيّ تفعلان. بدت المكنسة أداة غريبة في يدي، وكنت أنتظر أن يأتي أحد ويتولى الأمر بدلاً مني. حين لم تخرج شاهيناز، وضعت المكنسة جانبًا وعدتُ إلى غرفتي متجهمة. كنت أفتقد حياتي القديمة.

بعد وقت ليس طويلاً حل المساء مجددًا. جاءت بيبي كلالي لتتناول معنا الطعام، جلسنا حول مفرش منبسط على أرضية غرفة الجلوس. أعدت شاهيناز وجبة من اليخنة والأرز. ذكّرتُ نفسي أن أضع قدميّ تحتي وأجلس كسيدة. شعرتُ أن حماتي تراقبني. ساعدتُ شاهيناز في رفع الأطباق وغسلها قبل أن أعود إلى غرفتي. جلست بيبي كلالي في غرفة الجلوس بكوب شايها، تراقب حفيدها يلعب بملعقة خشبية.

سمعتُ صوت خروجها، لكنها لم تغادر. انفتح باب غرفتي.

– لقد طلبك زوجك، عليك الذهاب إليه، أنتِ عروسه. ستأخذك شاهيناز إلى هناك.

حين لم أنهض، جاءت إليّ.. شدّتني من أذني لأقف.

– ألم تسمعي ما قلته؟ أتريدنني أن أكرره؟

آلمتيَ أذني الملتوية تحت أصابعها القاسية. صرختُ ووقفتَ على قدمي. كانت شاهيناز في الرواق. بدت مستمتعة بشكل ملحوظ.

قادتني في الرواق إلى البيت الرئيس. من قلقي لم ألحظ الكثير، أتذكر أن الأروقة كانت واسعة، والأسقف عالية. مررنا بأبواب كثيرة. لم أتخيل بيتا بهذه الضخامة من قبل!

أشارت لي شاهيناز نحو باب وأخبرتني أن أذهب وأطرقه. استدارت قبل أن أسألها عن أي شيء وعادت تهبط السلم. ركضتُ خلفها وجذبتُ ذراعها.

– شاهيناز، أرجوكِ، دعيني أعود معكِ!

حررت ذراعها مني ونظرت إليَّ بانزعاج.

همستْ: اتركيني! لقد طلب زوجك عروسه الجديدة، وتركه ينتظر طويلاً سيكون خطأ كبيرًا. هذه نصيحتي لكِ.

قلتُ بجزع: أرجوكِ، شاهيناز جان! أنا مرعوبة.

لم أرِد أن أكون وحدي هنا. أردت أن أعود إلى غرفتي المظلمة ومرتبتي الصغيرة. شعرتُ أنني غريبة عن نفسي وكرهت ملابسي. بدا ثوبي غير طبيعي، مشوشًا. كنت *باشابوش*! تماما مثل بيبي شكيبه، حارسة القصر!

– هل أنتِ غبية؟ اذهبي إلى هناك وإلا ستندمين. سيكون عقابك أسوأ مما تتخيلين.

سارت مبتعدة وتركتني أقف هناك، أفكر في حلول مستحيلة.

لا بد أنه سمعني. حين انفتح الباب شهقتُ وتراجعت إلى الخلف. جعله رد فعلي هذا يبتسم. أشار لي أن أدخل. ترددتُ لكنني خشيتُ أن تكون شاهيناز محقة، أطعته.

في زيارات لاحقة، سأدرك أن غرفة عبد الخالق تبدو كتصوري الخاص عن القصر. فراشه أعلى مستوى الأرض على

منصة خشبية. يوجد مقعد بذراعين مكسو بالمخمل في الركن، وسجادة زرقاء جميلة تغطي الأرض. وكذلك نافذتان تطلان على الفناء حيث يقف ثلاثة حراس مسلحون.

دخلتُ، مذعورة لرؤية أي شيء يخص عبد الخالق. جلس على فراشه بارتياح واستند على الوسائد.

أمرني: اخلعي الشادور.

ثبَّتّ نظري على الأرض ووقفتُ جامدة بلا حراك. حين ألبستني مادر جان الشادور أردتُ أن أخلعه، لكنني الآن، وعبد الخالق يتفرس فيّ بهذه الطريقة، لم أستطِع. راقبته من زاوية عيني ورأيت وجهه المتحفز نافد الصبر.

قال وهو يميل للأمام: اسمعي...

كان بلا عمامة، رأيتُ الشيب في شعره مثلما في ذقنه. كان يرتدي قميصًا وبنطالا قطنيين بلون بيج، ساقاه ممدودتان. الحجرة مضاءة بمصباح على الطاولة المجاورة للفراش.

- ربما لم يلقنك أحد أي تعليمات عمّا يعنيه أن تكوني زوجة. مما رأيته في نساء عائلتك، لست مندهشًا. دعيني أشرح لكِ كيف هو الأمر هنا. أنا زوجك وهذا بيتك. حين أطلب شيئًا تنفذينه. مقابل هذا، أنا أوفر لك مأوى وشرف أن تكوني زوجة عبد الخالق.

مرة أخرى، أشار لي أن أقترب. قاومتُ شعوري بالغثيان وتقدمت نحوه خطوتين. كنت في متناول يده. انقبضت عضلاتي.

أدار وَجهي لأنظر في وجهه. كان قريبًا جدًا لحد أن رأيت تقاسيم وجهه. يمكنني عدّ الشعرات في حاجبيه. حاولت أن أبقي عينيّ منخفضتين.

- هل تفهمين ما أقوله؟

أومأتُ برأسي. تذكرتُ مشهد حرسه الشخصي بأسلحتهم. كنت مرعوبة.

- جيد. الآن، افعلي ما أقوله لكِ واخلعي الشادور.

كان بإمكانه هو أن يخلعه. فكرت في هذا فيما بعد وأدركتُ انه كان بإمكانه فعل كل ما طلب مني فعله، لكن هذا لم يكن غرضه. قطعة تلو الأخرى، جعلني أخلع كل ما كنت أرتديه. بدءاً بالشادور، ثم جوربيّ، بنطالي التحتي، ثوبي. مع كل قطعةِ، كنت أرتعد أكثر. حين خلعت سروالي التحتي، بدأت أبكي، ما لم يحرك فيه شعرة. كنت ذليلة. وقفتُ أمامه، ضعيفة وهشة، ذراعاي تبذلان جهدهما لتغطية ما يمكنهما.

أومأ استحساناً، شفتاه مبللتان من الإثارة.

- لم تعودي باشابوش بعد الآن. الليلة، سأريكِ أنكِ امرأة، ولست فتى.

الفصل 24
رحيمة

تصيبني ذكرى الأمر بالغثيان. كرهت الشعور به. كرهت أنفاسه، شاربيه، قدميه الناتئتي العظام. لكن لم يكن من مفر منه. كان يطلبني متى شاء ويجعلني أفعل ما يريد. لحسن الحظ أن الأمر كان نادرًا ما يستغرق أكثر من دقائق قليلة. تمنيت لو كانت مادر جان قد أخبرتني بما عليَّ أن أتوقعه بشكل أكثر دقة لكنني حينها فكرت، أنها حتى لو كانت قد أخبرتني، لم أكن لأفهم النكاح أبدًا.

في الصباح التالي بدا على شاهيناز شفقتها عليَّ. لا بد أنها تعرف. احمرّ وجهي حين قابلتْ عيناي عينيها.

كنتُ أتمزق من الألم. صغيرة وغاضبة. كدت أصرخ وأنا أتبول في الحمام الغربي الفخم. طلبت مني شاهيناز أن أعد الغداء للعائلة. لأنها مشغولة بأطفالها. ذهبتُ إلى المطبخ ونظرتُ إلى الخضروات على المنضدة، ممتنة تقريبًا لوجود مهمة أشغل بها ذهني عن التفكير فيما مررت به. نظرت إلى علبتي الدقيق والسكر أيضًا. فكرت في أمي وتنهدت. أعفتني منذ صرت باشابوش من كل أعمال المطبخ أيضًا. لم يكن لدي أدنى فكرة عن إعداد وجبة بسيطة. كذلك، لو كان أبي قد رأى «ابنه» يقف في المطبخ لثار وقلب البيت رأسًا على عقب.

حاولتُ التفكير في الأطعمة التي كانت أمي وشهلا تعدانها.

حتى بارفن كان بإمكانها إعداد وجبة، مع أنها قد تقضي المزيد من الوقت في نحت تكوينات من البطاطس أكثر مما يستغرقه الطبخ نفسه.

بدأت أعد بعض يخنة البطاطس. نقعت الأرز في الماء، كما رأيت أمي تفعل. حاولت أن أركز لكن عينيّ ظلتا تقفزان إلى نافذة المطبخ، التي تطل على الفناء. يوجد عدد من الفتية، اثنان منهما يبدوان في سني تقريبًا، يركلون الكرة بينهم. كانوا يصرخون ويستفزون أحدهم الآخر. تسارعت دقات قلبي، أريد أن أكون معهم بدلاً من الانكباب على إناء معدني وقشور بطاطس ملتصقة بأصابعي.

تساءلت عمّن يكونون؟ يتحركون بأريحية في المجال. كانوا يركلون بلا مهارة، بالكاد يتواصلون مع الكرة.

- رحيمة، لماذا تجلسين هكذا؟ بربك، ألا تخجلين؟

أفزعني صوت شاهيناز. نظرتُ لأسفل وضممت ساقيّ معًا، وثنيت ركبتيّ. كنت أجلس كولد يتمتع بشمس الصيف. صواعق الألم تضرب بين فخذي.

- آه، آسفة، كنت فقط...

- احتشمي قليلاً!

أحنيت رأسي، احمرّ وجهي مجددًا. لعنت نفسي. الحمد لله أن أمي لم ترَني، كانت قد حذرتني مرارًا وتكرارًا مؤكدة على أن أتصرف في بيتي الجديد كفتاة مؤدبة، لكنني كنت قد عشت كولد لسنوات. كان ثمة الكثير لمحوه.

انضمت إلينا حماتنا على الغداء. دخلت بخطو بطيء وأصابعها على كتف ولد صغير، حفيد ربما. قبّلتُ يدها وغمغمتُ

بتحية، أقلد شاهيناز. كانت زيارتها مفاجئة لي، لكن ليس لشاهيناز. كنت أنظر إلى شاهيناز طلبًا لتوجيهات. لكنها لم تكن تبدي الكثير.

همستْ لي شاهيناز: فعلتِ الشيء نفسه معي، تريد أن تعرف إن كنتِ زوجة جيدة أم لا. اذهبي وضعي الطعام، الأطباق. اجلسي معها.

ثم ذهبتُ إلى غرفة الجلوس وتحدثتُ متملقة بيبي كلالي: خالة جان، بعد إذنك، سأذهب لأرضع الطفلة. آسفة لأنني لا يمكنني الجلوس معكِ لكن كنّتك الجديدة قد أعدت الغداء لكِ.

بدأت وضع الطعام كما اقترحت شاهيناز، فكرت أنها أرضعت الطفلة قبل دخول حماتنا. لكنني نسيت هذا بسرعة وأنا أضع البطاطس في طبق تقديم. لا تشبه ما كانت تعده أمي في شيء. اهتزت يدي وأنا أضعها في الخارج على المفرش. حركت بيبي كلالي مسبحتها بأصابعها وهي تراقب كل حركة من حركاتي. حين وضعتُ الأرز، تحدثتْ.

– كوب شاي سيكون بداية جيدة. يبدو أنك تستعجليننا على الغداء.

– أنا... أنا آسفة. يمكنني إحضار كوب من...

– نعم، أحضري كوبًا من الشاي أولاً. هكذا تعاملين الضيوف.

نهضتُ أقف وذهبتُ إلى المطبخ لأغلي ماء. وضعتُ بعض الشاي في الإبريق وبحثت في كل مكان حتى وجدت الأكواب.

– هل أضفتِ حب الهال؟

تنهدتُ: لا يا خالة جان. أنا آسفة. نسيت حب الهال...

شاي من دون حب الهال؟ هزت رأسها بإحباط ومالت للخلف.

- ربما كانت عائلتك تشربه هكذا، لكننا هنا...

- لا، أمي تضع حب الهال دائمًا.

ضاقت عيناها. أغضبتها مقاطعتي.

- كنت أقول إننا هنا نفضّل الشاي بحب الهال؛ لذلك تذكري هذا المرة القادمة.

أومأتُ بصمت فيما ترشف شايها الخالي من النكهةِ ببطء. يبدو الإحباط في عينيها. رأت البخار يتصاعد من الأرز.

- حسنًا، لماذا لا نتذوق الطعام الذي أعددته الآن.

مددتُ يدي وغرفتُ بعض الأرز في طبقها. كتل كبيرة تلتصق معًا. بدت البطاطس أفضل قليلاً. دعوت الله أن يكون بصرها ضعيفًا بما يكفي لئلا تلاحظ ما فعلته بالأرز. تناولتْ ملعقتين وهزت رأسها بإحباط..

- بارد. الطعام ليس جيدًا وهو بارد. ونحن هنا نتناول حبوب الأرز، وليس كرات الأرز. كم من الوقت وضعته على النار؟

- أنا لا... أنا لا أعرف...

- وضعته طويلاً، طويلاً جدًا. وما زالت البطاطس صلبة!

تنهدتْ بصوت عال: شاهيناز! شاهيناز، تعالي هنا!

جاءتْ شاهيناز إلى غرفة الجلوس، حاجباها مرفوعان فضولاً.

- نعم خالة جان؟

- هذه الفتاة لا تعرف كيف تطبخ! هل تذوقتِ هذا الطعام؟ إنه فظيع!

- لا، خالة جان، لم أذقه. لقد أصرّت على إعداد الغداء بنفسها فتركتها. لولا هذا لكان يسعدني أن أعد لكِ شيئًا ما.

نظرتُ إلى شاهيناز وأدركتُ أنها ليست طيبة كما ظننتها. تجنّبت هي النظر إليَّ. راودتني رغبة في لكمها لكنني هدّأتُ نفسي.

- هذا ليس حقيقيّاً! لقد طلبت مني أن أعد الغداء. وكانت قد أرضعت الطفلة لتوّها! لقد قصدتِ كل هذا!

- رحيمة، هذا السلوك هو تحديدًا ما كنت قلقة بشأنه. انت تتصرفين كطفل متوحش وليس كزوجة تليق بابني، لكنه تزوجك، وعلينا الآن أن نلغي ما أنتِ عليه. استمعي لي جيدًا. عليك التصرف كعروس محترمة وأن تتعلمي عمل المنزل. غضبك هذا الذي اعتدته في بيت أبيكِ لن يمر هنا بسهولة. سأغادر الآن، لكن اعلمي أنني أراقبك.

نهضتْ وسارت نحو الباب ببطء. لم تقل شيئًا آخر، صفقت الباب خلفها.

ألقتْ شاهيناز بشعرها للخلف وسارت إلى غرفتها، على وجهها نظرة متعجرفة. هي من بدأت.

مادر جان، *كنتِ محقة. وليست هذه سوى البداية فقط.*

واجهتُ شاهيناز في وقت لاحق من ذلك اليوم: لماذا فعلت هذا؟

- فعلت ماذا؟

- كان بإمكانك تنبيهي. وقد كذبتِ عليها. أردتِ أن أبدو سيئة.

- عن ماذا تتحدثين؟ أنا لم أكذب!

تذكرتُ أحد أقوال خالة شايما المأثورة: الكذاب نسّاي.
– لا تزعجي نفسك رحيمة. ستتعلمين كل شيء سريعًا. يعلم الله أنني فعلت.
كانت شاهيناز كتلة من التناقضات. كانت غاضبة لمشاركتها البيت معي. يسوءها بما يكفي أنها صاحبة أصغر البيوت. لدى الزوجتين الأخريين أطفال أيضًا وقد رتبت زواجهما بيبي كلالي بنفسها. فقط أنا وشاهيناز من اختارنا عبد الخالق بنفسه وكان واضحًا عدم رضا أمه عن اختياراته. تتصرف شاهيناز بسخط في أحد الأيام لكنها في اليوم التالي تجلس وتثرثر معي كأننا صديقتان قديمتان. كانت وحيدة، كما رأيت، وتفتقد أخواتها بقدر ما أفتقد أخواتي.
سألتْني ذات يوم: أتعرفين لماذا لا تحبك؟
– لأنني زوجة سيئة؟
قالت شاهيناز ضاحكة: لا، مع أن هذا لن يفيدك في شيء، إنها تكرهك لأنها أرادت أن يأخذ عبد الخالق ابنة أخيها زوجة رابعة، لكنه تزوجك أنتِ بدلاً من ذلك.
– لماذا لم يأخذ ابنة عمه؟
– كان سيفعل. هذا ما سمعته من الآخرين، على الأقل. لكنه غير رأيه منذ أسابيع واعتذر لعائلة خاله. ثم سمعنا أنه رتب لعقد نكاح مع شخص آخر، أنتِ. وكان أخو بيبي كلالي أكثر قليلاً من محبط؛ إذ كان عبد الخالق قد طلب يد ابنته بالفعل.
كنت أعرف أنني لا ينبغي أن أثق بشاهيناز ولا في أي شيء تقوله لكنني كنت وحيدة أيضًا. كانت هي الوحيدة الموجودة معي طوال الوقت. صادقت ابنها، معروف، سريعًا وقضيت وقتي

أعلمه كيف يركل الكرة. كانت شاهيناز تراقبني بارتياب، كأنها تتوقع مني أن أرتكب خطأ ما.

وبطريقة ما كنت أفعل كل شيء خطأ. كنت أجلس خطأ، أطبخ خطأ، أنظف خطأ. كان كل ما أريده أن أعود إلى المدرسة وإلى عائلتي وأصدقائي. كنت أشعر بخرقي بينما أرتدي التنورة، وبصدري تبرزه حمالة الصدر التي اشترتها لي أمي قبل النكاح. أردتُ أن أربط صدري مجددًا. هذا تحديدًا ما فعلته في أيام كثيرة. كنت ألف وشاحًا طويلاً حول صدري وأثبّته بمشبك. أحاول وقف نمو الأنوثة.

كانت حماتي تأتي كثيرًا.. حين تجد البيت غير نظيف طبقًا لمعاييرها، تشدني من أذني وتجعلني أمسح الأرضية وهي تقف تراقبني. كانت شاهيناز تلقي باللوم عليَّ في كل شيء، وكانت بيبي كلالي يسعدها تصديق أي شيء تقوله.

عاد عبد الخالق عازمًا مثل أمه على جعلي زوجة مناسبة. كنت أكره الشعور بأنفاسه على وجهي، وعنقي. أسنانه المصفرة ولحيته الخشنة على وجهي. كنت أحيانًا أحاول الابتعاد عنه، أحاول تحرير نفسي منه مثل المقاتلين في المجلات، لكنني كنت كلما قاومت اشتد جبروته. والأسوأ من هذا، اتسعت الابتسامة الخبيثة على وجهه، كأنه يستمتع بالمقاومة. لم أندهش. وعرفتُ من وجهه أن المقاومة ستزيد الأمر سوءًا فقط.

رقدتُ ليالي كثيرة متكورة على جانبي، أبكي بهدوء وأنتظر طلوع الصبح ليستيقظ الرجل النائم بجانبي يشخر، ويرفع ذراعيه ويغادر.

الفصل 25
رحيمة

- الآن تذوقي هذا. أرأيتِ؟ ليس له مذاق البتة. يجب أن تضيفي بعض الملح. كل شيء مذاقه أفضل بقليل من الملح. ممم.

قلبت شاهيناز محتويات الإناء مرة أخرى، تذوب الطماطم في الزيت الساخن. كانت تعلمني الأساسيات. لم يكن الأمر سهلاً، لكنني عرفت أنها تفضّل الإطراء. كان أفضل من معادتها.

- أترين الفارق؟ الآن، المسي سطح البطاطس فقط. يجب أن تكون ناعمة. أرأيت؟ لقد طُهيت. ربي، أمر مدهش حقًا أنكِ لا تعرفين ولو هذا القدر. لا بد أنكِ كنت مدللة للغاية في البيت. أرجو الا تكون أختاك حمقاوين مثلك في المطبخ!

لم أقلق بشأن هذا. شهلا وبارفن يمكنهما الطبخ مثل مادر جان تقريبًا. لكن ذكرهما جعل قلبي يتألم. كان قد مر أسبوعان على أخذنا من بيت أبينا. تساءلتُ ماذا كانت أمي تفعل. بإمكاني تخيل أبي نائمًا في غرفة الجلوس بابتسامة راضية على وجهه، سحب الدخان الثقيل حوله وبطنه متخم بالطعام.

- شاهيناز، كيف لي أن أرى أختيّ؟ أنا أفتقدهما كثيرًا! بارفن قريبة للغاية. هل يمكنني الذهاب لزيارتها؟

اقترحتُ: هذا ليس سؤالاً تسألينه لي. اسألي زوجك أو حماتك. لم أكن واثقة إن كانت تلك فكرة جيدة أم أنها تدبر لي مكيدة جديدة.

كنت أرى حماتي في أغلب فترات الظهيرة. في يومي الثالث، اُستدعيت إلى البيت الرئيس مرة أخرى لكن هذه المرة من قِبل زوجة زوجي الأولى، بدرية. لديها ملابس يجب غسلها. كانت بدرية ابنة عم من الدرجة الثانية لبيبي كلالي أيضًا؛ لذلك كانت المفضّلة لديها. كان عبد الخالق يعاملها جيدًا، إذ كانت تعامله بشكل جيد احترامًا للأواصر العائلية كذلك، لكنه فيما كان يضيف زوجات جديدات، أصغر سنًا، لبيته، كانت الليالي التي تقضيها في فراشه تقل شيئًا فشيئًا. كانت تلك نقطة خلاف مع أنني لم أفهم قط لماذا.

لم تكن بدرية جميلة على الإطلاق. كان خداها متدليين لأسفل، ولديها ثؤلولان أعلى فمها، بدا كل هذا كحرف التاء. كان وجهها سمينًا كفخذيها، لكنها لم تكن في حاجة إلى مظهرها. الآن في ثلاثينياتها، كانت ماكينة قديمة، اتسع خصرها بعد الخمسة أبناء والبنتين، والذين تفخر بإنجابهم لزوجها. كانت بيبي كلالي تحب أحفادها من بدرية وتتفاخر بهم أمام الزوجات الأخريات. ما كان يغذي التشاحن بينهن ويضمن لها بعض التسلية.

– تأكدي أن تقوم بعملها جيدًا يا بدرية. هذه الفتاة أمامها الكثير لتتعلمه. لقد كانت *باشابوش*، لا تنسي. أتصدقين هذا؟ *باشابوش* في هذه السن! لا عجب أنها لا تعرف كيف تتصرف كامرأة. انظري كيف تمشي، انظري إلى شعرها، أظفارها! على أمها أن تخجل من نفسها.

كانت بدرية أكثر غضبًا من اختيار عبد الخالق لي زوجة رابعة، لكنه كان زعيم حرب وكان هذا أمرًا شائعًا عند الجميع؛

لذلك أمسكت لسانها كما يليق بزوجة جيدة. لم يكن لديها شيء تشكو منه في جميع الأحوال. كان لديها أفضل مسكن في البيت. فراش حقيقي في غرفة النوم وأرائك في غرفة الجلوس. كان لديها موقد ومدبرة منزل لتقضي لها كل احتياجات منزلها. كانت الزوجة التي تحظى بأكبر قدر من التقدير، والتي يناقش معها عبد الخالق شؤونه، وكانت تحرص أن تعرف الأخريات ذلك.

كان للحياة في البيت إيقاع وروتين؛ تهتم الزوجات بأطفالهن فيما يهتم عبد الخالق بشؤونه، أيّاً كان ما يعنيه هذا. لم تحدث نزاعات مسلحة مؤخرًا. لكنه كان هو ورجاله، يوميًا تقريبًا، يتجولون بالسيارات الرياضية السوداء الثلاث التي تثير سحب الغبار حولها. يتحركون حوله حين يسير، يومؤون حين يصدر أوامره ويبقون بعيدًا عن أي امرأة في البيت. كانوا يتناولون طعامهم معًا، يقدمه لهم خدم المنزل الذين جلبهم عبد الخالق. يأكلون في غرفة معيشة عبد الخالق. غرفة بأرضية مكسوة بالسجاد، وعدد من الحشيات والوسائد ليتكئ عليها الرجال، يلعقون أصابعهم ويرشفون شايهم وهم يناقشون أعمالهم اليومية. حين يفرغون، يتناول النساء والأطفال ما تبقى منهم. ثم يأتي الخدم في الجولة الثالثة، على أمل أن يكون شيء ما قد انزلق من بين الأصابع النهمة الكثيرة قبلهم.

النساء لا يخرجن من المسكن قط. يلعب الأطفال معًا ويتعاركون معًا كإخوة وإنما ببعض الشقاق. يتفق الإخوة غير الأشقاء معًا أغلب الوقت لكن مباراة كرة قدم عرضية قد تتحول سريعًا إلى شجار يتخذ فيه أبناء الزوجة الأولى موقفًا ضد أبناء

الثانية. ينطبق الشيء نفسه على الفتيات، اللاتي قد يصرن
شرسات في لمح البصر.

لم يكن لدى بدرية مشكلة في توكيلي بالمهام. ولا لدى أي
شخص آخر. رغم وجود مساعدين كثيرين في البيت، بدا أن
النساء يستمتعن بشكل خاص بتحميلي مهام وضيعة، وبرؤيتي
متعثرة فيها. كنت أمسح الأرضيات، أغسل الحفاضات وأنظف
الحمامات الغربية. كانت يداي تتحرقان في نهاية اليوم وكل ما
أريده أن أريح رأسي على وسادة. في أغلب الليالي لم يكن ذلك
ممكنًا. كان عبد الخالق يستدعيني إلى غرفة نومه ليكرر ما فعله
الليلة السابقة، وما قبلها.

كان الجزء السفلي من جسدي ملتهبًا، كنت أسير وكأن في
ملابسي الداخلية كسرة زجاج. كنت أحيانًا أستيقظ من النوم
ليلاً وأتذكر. ما كان يجعل العودة إلى النوم مستحيلة. كنت أضم
فخذيّ معًا بقوة وأتكور، أدعو الله أن يسأم عبد الخالق مني
تمنيت أن تأتي دورتي الشهرية أكثر لكنها كانت قد بدأت منذ
ستة أشهر فقط وكانت تأتي على نحو غير متكرر. كان مهربي
الوحيد تمرين ذهني على الشرود بعيدًا وأنا معه. أغمض عينيّ
أو أحدق في بقعة على الحائط، مثل تمييز التكوينات في
السحب.

كنت خلال النهار أراقب حوائط البيت، أتمنى أن أرى أختي،
دعوت الله أن أرى بارفن تعرج في سيرها وهي تدخل فناءنا دون
أن يعرف أحد وتفاجئني بزيارة، بلوحة، بابتسامة. لم أحتمل
التفكير في كيف قد تكون أيامها. دعوت الله ألا يكون عليها فعل
ما أفعله. كانت قدماها تتحركان ببطء، وارتباك. الناس لا يحبون

هدا. إن كان من حولها يشبهون من حولي، سيعاقبونها بالتأكيد.
لقد تلقيت لطمة أكثر من مرة لأنني لا أحسن ما أفعله.
لم أحتمل البقاء هكذا وأنا أعرف أن أختي على الجانب الآخر من الحائط. أردت أن أراها. أردت أن أنظر إلى وجه يعرفني، وجه يحبني. لم يعد بإمكاني السكوت فاستجمعت شجاعتي لأطلب من بيبي كلالي حين رأيتها تسير في الفناء.
قلت لاهثة، أركض خلفها: خالة جان! خالة جان!
استدارت حماتي، منزعجة بالفعل. حين وصلت إليها لم تضيع وقتًا وصفعتني على وجهي.
- كيف تركضين وتصيحين هكذا؟ بربي! أنتِ ليس لديك أي فكرة عن التصرف السليم! ألم تتعلمي شيئًا هنا حتى الآن؟
آلمني وجهي وانشده فمي وأنا أبحث عن عذر لن يغضبها أكثر. سألتها: سامحيني خالة جان لكنني أردت التحدث معكِ قبل أن تغادري. صباح الخير. كيف حالك؟
لست مهتمة حقًا، بل أحاول أن أريها أن لدي بعض الذوق أيضًا.
- هل جئتِ تركضين عبر الفناء مثل الكلب الطريد لتسأليني كيف حالك؟
لم يكن الفوز معها ممكنًا.
- خالة جان، لقد أردت أن أطلب منك شيئًا ما. أنا أفتقد أهلي حقًا. لقد مرت أسابيع منذ أن رأيت أيًا منهما أو أيًا من أفراد عائلتي. هل من الممكن أن أرى أختي بارفن، على الأقل؟ إنها في البيت المجاور وأنا...
- لم نحضرك إلى هنا لتذهبي للعب مع أختك وتشغلينها عن واجباتها هي الأخرى. كفانا سوءًا أنك لا تستطيعين عمل ما

يطلب منكِ هنا! هذه عائلتك الآن. كُفي عن التفكير في أي شيء آخر واذهبي وأنهي مهامك. إن أختك بالكاد تساعدهم هناك بساقها العرجاء. انسي وإلا ستجعلين الأمر يزداد سوءًا.

– لكن، أرجوكِ، خالة جان، سأراها لدقائق قليلة فحسب. أعدك أنني سأقوم بكل مهامي. لقد مسحت الأرضيات بالفعل ونفضتُ السجاجيد هذا الصباح. يمكنني حتى أن أذهب إليها وأساعدها فيما عليها عمله...

صفعة أخرى على وجهي. تراجعت خطوة للخلف وشعرت بالدموع في عينيّ. لطالما فوجئت بقدر القوة في أصابعها المعروقة.

– الأفضل لك أن تتعلمي سماعي من أول مرة.

أدارتْ لي ظهرها وسارت تخرج من الفناء، وهي تهز رأسها.

ما كان يجب أن أندهش لكنني اندهشت. إن أختي على بعد ياردات لكنها كأنها على الجانب الآخر من البلاد. جعلتني بيبي كلالي أتساءل بقدر أكبر حتى، كيف حال بارفن «بساقها العرجاء». دعوتُ الله أن تعطف عليها الزوجات الأخريات ليمنحها وجهًا واحدًا عطوفًا على الأقل.

في بيت عبد الخالق، كان يوجد شخص واحد فقط لطيف معي بشكل حقيقي. زوجة عبد الخالق الثانية، جميلة. في حين بدت بدرية وشاهيناز ودودتين بما يكفي، كان الأمر يستغرق نصف اليوم مع كل واحدة منهن لرؤية وجهيهما الحقيقيين. كانت بدرية، ببيتها الأكبر، ذي الطابقين، متغطرسة مع الجميع، ومعي أنا أكثر، الصغيرة الجديدة.

قالت شاهيناز ذات يوم حين عدت إلى البيت أبكي: كانت هكذا معي، ليس سهلاً أن تكوني أقدم الزوجات.

– لماذا؟ إن لديها كل شيء! أفضل طباخة، أفضل خادمات، أفضل الغرف!

– الأمر لا يتعلق بكل تلك الأشياء. عبد الخالق لا يريدها، لا يطلبها، الآن وهو منشغل بكِ. حدث معي هذا وكانت تكرهني. كانت تكرهني لهذا.

– لكن... لكنني لا أريده أن يطلبني. سأكون سعيدة إن تجاهلني. ماذا تفعل لئلا يطلبها؟

ضحكت شاهيناز ولمعت عيناها بتسلٍّ.

– بسيطة، تقدمي في السن فقط. أترين كيف لا يحب عبد الخالق أكل طعام اليوم السابق؟ الرجال يريدون أشياء طازجة، ساخنة، خرجت لتوها من الفرن.

أمالت رأسها جانبًا وابتسمت ابتسامة ماكرة.

دعوت الله تلك الليلة أن يجعلني عجوزًا، أكبر في السن من بدرية التي بدت أكبر سنًا من أمي.

لكن شاهيناز كانت تكرهني بقدر بدرية. كانت هي الأخرى تكره أن يطلبها عبد الخالق، لكن هذا بالنسبة إليها لم يكن أفضل من رؤيتي أسير إلى غرفته. كانت تخبط القدور والأواني، وتتأفف حين أسألها عن شيء وتصفق بابها. في اليوم التالي تتكوم الأعمال عليَّ أكثر من المعتاد، حتى وإن طلبوني لتنظيف بيت بدرية.

كانت جميلة الوحيدة المختلفة. كانت تحظى بثاني أفضل بيت في المسكن لأنها الزوجة الثانية. تعيش في الطابق الأسفل على الطرف الآخر من الرواق لبيت بدرية. منحتها عائلتُها لعبد الخالق من باب الاعتراف بالجميل. لا أحد يعرف أي جميل بالتحديد، كانوا دائمًا ما يشيرون إليه بتعبيرات مبهمة للغاية،

لكنها بدت راضية بما يكفي بالترتيبات. أنجبتْ منه ثلاثة أبناء وبنتين، فجعلته راضيًا عنها بما يكفي ليعفيها من واجباتها نحوه.

في الثلاثين، كانت جميلة أجمل بكثير من بدرية ومن شاهيناز حتى، التي كانت أصغر منها بعشر سنوات على الأقل. تلمع عيناها بحنان ومرح حين تتحدث. كانت تحذيرات أمي نصائح حكيمة حين يتعلق الأمر بالزوجتين الأخريين لكنني حين قابلت جميلة، عرفت أن بإمكاني الوثوق بها.

رأيتها أول مرة وهي خارجة من بيت بدرية.

- لا بد أنكِ رحيمة! أي، أنتِ أصغر مما خمنت بدرية حتى.

أجبتها بسرعة: أنا لست صغيرة هكذا!

كنت مرهقة وأتعرق ولست بحاجة لتعليقات أحد عليَّ.

- من أنتِ على كل حال؟

قالت تبتسم برفق: يبدو أنكِ بدأت بداية جيدة.

أحرجني رد فعلها. تابعتْ: أنا جميلة. أعيش في هذا الجزء من البيت هنا أنا وأطفالي. ابني كهان، في سنك تقريبًا. ابنتي ليلى، أيضًا. هل قابلتهما؟

هززت رأسي. لم أكن قد رأيت أحدًا في مثل سني قط. تساءلت إن كانت ليلى لطيفة مثل والدتها.

نادت جميلة: ليلى! ليلي جان، ماذا تفعلين؟

- لطخت زارلاشت ثيابها مادر جان! أنا أغير لها ملابسها!

- تعالي هنا للحظة، خانم، واجلبي زارلاشت معكِ. أريدك أن تقابلي أحدًا.

سمعت خطوات. كانت ليلى بالفعل قريبة من سني، أصغر مني بعامين تقريبًا، لكن الرضيعة على ذراعيها تمحو الفارق

بدت مثل أمها، شعرها وعيناها بلون الليل، يُبرزه اللون الأخضر لثوبها وعصابة رأسها. نظرتْ إليَّ بفضول. كانت زارلاشت تبلغ من العمر عامًا تقريبًا. ذكرتني رؤيتهما بشهلا وستارة. كانت شهلا تحمل ستارة وهي رضيعة بقدر ما كانت أمي تحملها.

قالت جميلة، وهي تأخذ زارلاشت من ليلى: هذه رحيمة جان، أتذكرين النكاح الذي سمعنا عنه الأسبوع الماضي؟ هذه عروس أبيكِ.

رفعت ليلى حاجبيها.. أنتِ؟

وقفتُ جامدة. عاجزة عن الاعتراف بلقب بدا ثقيلاً جدًا.

- إنها كذلك، لذلك سترينها في الأنحاء كثيرًا.

- لماذا شعرك قصير جدًا؟ مثل الأولاد؟

شعرتُ بالدم يتدفق في وجهي ونظرتُ بعيدًا. لا أعرف ماذا اقول. لم تكن فكرة جيدة أن أخبر الجميع أنني كنت باشابوش.

- هكذا... هكذا كنت أقصه لأذهب إلى المدرسة!

قلت فجأة آملة أن يكون توضيحًا كافيًا، ولتعرف ليلى أيضًا انني كنت أذهب إلى المدرسة.

قالت مندهشة: المدرسة؟ أكنتِ تذهبين إلى المدرسة هكذا؟ مادر جان، إنها تبدو مثل كهان، أليس كذلك؟

سألتني جميلة: كنتِ *باشابوش*، أليس كذلك؟ هذا ما سمعته. ذكرت بيبي كلالي هذا قبل النكاح. لم يرَ أطفالي *باشابوش* من قبل قط، لكنني أتذكر أن ابنة عم جيراننا كانت *باشابوش*. ظلت كذلك حتى العاشرة من عمرها. ثم عادت فتاة مجددًا.

- ما معنى «باشابوش»؟

- ليلى جان، سأشرح لك الأمر فيما بعد. أردتك أن تقابلي

رحيمة جان فقط الآن. وهذه زارلاشت، صغيرتنا.
سمعت المزيد من الخطوات في الرواق وأنا أحاول ألا أحدق طويلاً إلى ليلى التي ذكرتني بكم افتقادي لأخواتي.
- كهان! حشمت! كفًا عن الركض في الداخل! أنتما تهزان الجدران!
استدارت جميلة إليَّ وأوضحت: حشمت هو ابن بدرية، وهو من سن ابني تقريبًا.
نظرتُ سريعًا إلى حشمت وشعرتُ بانقباض في معدتي. نظرَ هو إلى جميلة ثم إليَّ ثم كشر وجهه.
قال بطريقة مباشرة: من تكونين؟
يبرز طرف لسانه من بين أسنانه ليمنع كلماته لثغة مبللة. خطر لي أنني رأيته من قبل. لقد لعبنا كرة القدم معًا أكثر من مرة في الشوارع القريبة من مدرستنا. انحبس صوتي. تساءلتُ إن كان تذكرني كما تذكرته.
كررتْ جميلة: هذه رحيمة، عروس أبيك.
أدرت وجهي ونظرت لأسفل، أتجنب نظرته. اندهشت جميلة من خجلي رغم طريقتي في التحدث معها منذ دقائق قليلة.
- آه. نعم، لقد سمعت عنكِ. أنتِ... هاي، ألستِ... ألست صديق عبد الله، ألست أنت؟
لم أعرف كيف أجيبه. تململتُ ونظرتُ إلى جميلة. عرفت أن هذا سيبدو غريبًا لسمع الجميع. لا فتاة في مثل سني يُشار إليها بـ «صديق عبد الله». نظرتْ جميلة إلى ليلى، التي بدت أكثر ارتباكًا الآن عن ذي قبل.
قالت بعفوية: ما عليكَ من هذا يا حشمت إنها عروس أبيك

وعليك أن تحترم هذا. لا أحد يرغب في سماع أي شيء آخر من فمك.

حدقتُ في الأرض، عرفت الآن لماذا يبدو مألوفًا. تذكرت كيف كان يدفع ويطيح بمن في طريقه للكرة، بفمه المفتوح وأظفاره القذرة تنشب في كل من يعترض طريقه. كان لديه أصدقاء فقط لأنهم خائفون من عدم مصاحبة ابن عبد الخالق، درس تعلموه من آبائهم. كنا نتجنبه هو ومجموعته كلها. لقد مر عام منذ أن رأيته آخر مرة.

سأل مندهشًا: أنتِ فتاة؟ من أي نوع من الفتيات أنتِ؟ إنه أنت، أليس كذلك؟ لهذا لا تجيبين!

- حشمت! أتريدني أن أخبر أمك...

- انظروا إلى هذا، إن شعرك قصير حتى وكل شيء! أي عروس أنتِ؟ لقد كنت تركضين في الشارع مع عبد الله وأصحابه. لا عجب أنكم لم تحرزوا هدفًا واحدًا!

سال لعابه وهو يتحدث بتلذذ. غطيتُ رأسي بطرحتي، أردتُ أن أختبئ من إساءاته المبللة.

قالت جميلة: حشمت! يكفي هذا قلت لك!

قال حشمت: ربما كان عبد الله فتاة أيضًا! ربما كنتم جميعًا فتيات!

وظل يضحك.

لاحقًا، عندما لم يكن موجودًا، فكرت في الكثير من الردود الذكية لأقولها له.

بدلاً من قول أي شيء الآن، ركضتُ. ركضتُ والمسحة ما زالت في يدي، عيناي دامعتان. أردت أن أبتعد عن حشمت، عن

الفتى الذي عرفني كما كنت أتمنى أن أظل فتى حرّاً مثله. كرهتُ أنه يعيش هنا. عرفت أنه سيظل يذكر الأمر دائمًا. سيظل ينظر إليَّ دائمًا ويضحك على الفتاة التي كانت فتى.

حين دخلتُ غرفتي وصفقت الباب خلفي، تساءلتُ إن كان سيرى عبد الله مجددًا. تخيلتُ ما قد يقوله له وشعرتُ بقلبي يهوي. لم أرِد أن يراني عبد الله فتاة، زوجة عبد الخالق، زوجة أبي حشمت.

ألقيت براسي بين يدي وبكيت.

الفصل 26
رحيمة

كان تفكيري في بارفن يصيبني بالجنون. مرت الشهور ولم تبد بادرة أمل في أن يُسمح لي برؤيتها. عرفتُ أين البيت المجاور وحاولت التصنت على الحائط الفاصل بين البيتين لسماع صوتها أو حتى صوت أحد يتحدث إليها. لم أستطع البقاء هناك وقتًا طويلاً لئلا تأتي بيبي كلالي خلفي وتطلب مني شيئًا ما لا يريد أن يقوم به أي شخص آخر. اعتادت على السير بعصا هذه الأيام، دفعتها إلى هذا التغيير رغبتها الشديدة في تهذيبي ككنة متوحشة.

انتظرت شهرًا لأقوم بتحرُّك آخر. كان عليَّ أن أستجمع شجاعتي لأحاول مرة وأخرى وأفكر في الخروج من البيت. استيقظتُ في الصباح الباكر، الوقت الذي أقضيه في غسيل الملابس عادةً. أخذتُ كومة الملابس وسرتُ في الفناء بشكل طبيعي ما أمكنني. جفّ ريقي وأنا أمسح المنطقة بعيني. يوجد خدم قليلون هنا وهناك، لكن يبدو أنّ لا أحد منهم يلاحظني. غادر زوجي لتوه ولن يعود لساعات.

اقتربتُ من البوابة الأمامية شيئًا فشيئًا. راحتا يديّ تتعرقان.

لا تتردّدي، قلتُ لنفسي، وفتحت البوابة وخرجت. انتظرت لكنني لم أسمع شيئًا. لم يلحظ أحد حتى.

كان البيت على طريق ترابية مفتوحة، لم أرَها منذ يوم نكاحي. نظرتُ يمينًا ورأيت البيت المجاور حيث تعيش بارفن، سحبتُ الشادور من كومة الملابس وارتديته. سرت بسرعة وحاولت فتح بوابتهم لكنها كانت مقفلة.

طرقتُ برفق. في هذا الوقت يكون الخدم في الأفنية وكنت أعتمد على هذا. لو فتح لي أحد الخدم البوابة فقط، يمكنني أن أجد أختي. انتظرت لحظة لكن لم يجبني أحد. طرقتُ مجددًا، بصوت أعلى هذه المرة.

في محاولتي الثالثة سالت قطرات العرق على خلفية عنقي. سمعتُ وقع خطوات وغمغمة. تراجعت للخلف وأنا أرى البوابة تنفتح.

أجابتني امرأة أكبر مني سنّاً بحذر: السلام عليكم.

خمنت من ثيابها البالية أنها أحد الخدم. حاولت النظر إلى ما خلفها داخل البيت. مالت بظهرها وضيّقت فتحة الباب أمامها.

– سامحيني، أنا لا أعرفك. هل أنتِ هنا لرؤية أحد ما؟

تنحنحتُ وقعّرت صوتي لئلا يخونني: وعليكم السلام. نعم. أنا كذلك. أنا أخت خانم بارفن. جئت لزيارتها.

قالت بفضول: آه، خانم بارفن! أختها؟ مرحبًا، مرحبًا لكن... هل جئت وحدك؟

نظرتْ خلفي، تتوقع رؤية مرافق.

قلتُ أحاول أن يظل صوتي ثابتًا: كان يجب أن تأتي معي حماتي بيبي كلالي لولا آلام ظهرها. يجب أن ترتاح. لكنها أخبرتني أن أذهب من دونها، هل أختي قريبة؟ أريد أن أراها لدقائق قليلة فقط.

بدت المرأة مرتبكة. كان غريبًا حقًا أن تظهر إحدى زوجات عبد الخالق عند البوابة الأمامية من دون مرافق ومع ذلك من ذا الذي يتخيل أن تكذب فتاة صغيرة بخصوص هذا الأمر؟ كان عليها ألا تجادل معي، وأنا زوجة عبد الخالق، ففتحَتِ البوابة لي لأدخل.

قالت المرأة: ظني أنها ستكون في غرفتها. سأقودك إلى هناك.

كان البيت أصغر من بيت عبد الخالق لكنه مصمم بالطريقة نفسها. بحثتْ عيناي عن بارفن. لم أصدق أنني وصلت إلى هذا الحد! مررنا بعدة أطفال، لا أحد منهم أكبر من ست أو سبع سنوات. نظروا إليَّ، لم يشغلهم لعبهم عن التساؤل عن الغريبة التي ترتدي الشادور.

– من هذه التي معك رابية جان؟

توقفتُ، كما توقفتْ مرافقتي التي من الواضح ان اسمها رابية.

– صباح الخير، خانم لايلومه. هذه أخت خانم بارفن. جاءت من البيت المجاور لزيارة.

قالت لايلومه، وحاجباها منعقدان معاً بضيق شديد: وحدها؟ هل أنتِ عروس عبد الخالق؟

قلت: نعم.

ذكرت نفسي بأن أبدو واثقة.

– هل يعرف أحد أنك هنا؟

– بالطبع! كما أخبرت رابية جان، كانت بيبي كلالي ستأتي معي لولا آلام ظهرها. أردت أن أزور أختي زيارة قصيرة فقط. مضى وقت طويل منذ أن رأيتها.

- حسنًا، هذا... أنا فقط لا أظن أن...

- تسعدني مقابلتك! لقد سمعت كثيرًا عن العائلة في البيت المجاور لبيتنا لكنني لم تتح لي الفرصة مقابلة أحد منها. أكان هؤلاء أطفالك الذين رأيتهم في الفناء؟ إنهم رائعون، ليحفظهم الله!

سقط عن لايلومه أسلحتها بإطرائي، الذي بدا لي كشيء يمكن لشهلا أن تقوله وليس كأي شيء أستطيع أنا التفكير فيه.

- إنهم كذلك، نعم، شكرًا لك. إنه لعار أننا لم نتقابل، حسنًا، اذهبي لرؤيتها، لكن لا تطيلي لأن عليها القيام بأعمالها.

قلت برقة ما أمكنني: بالطبع! لا أريد أن أعطلها.

تنهدتْ رابية وأسرعت بي في طريقنا، لا تريد أن تتعطل هي عن أعمالها أطول من ذلك. سرنا في رواق قصير وما إن انعطفنا في زاويته رأيتها.

كان ظهرها لنا لكنني استطعت رؤيتها تعرج. دلو ماء في إحدى يديها. ينسكب الماء من الدلو مع خطوتها الواسعة، خط من الماء المنسكب خلفها.

- بارفن! ناديتها وأنا أركض إليها. استدارت أختي، بوجه متحير. أسقطَتِ الدلو على الأرض، رأيت الخادمة تهز رأسها لخرق بارفن.

قالت: رحيمة؟ رحيمة! ماذا تفعلين هنا؟

عيناها تدمعان وأنا أحتضن جسدها النحيل بين ذراعيّ.

- جئتُ لزيارتك! افتقدتك كثيرًا يا بارفن!»

التفتُّ حولي ورأيت رابية تختفي بالفعل في الرواق.

- دعينا نذهب إلى مكان ما! أريد أن أتحدث معكِ قبل أن أعود.

أومأت بارفن وقادتني إلى غرفتها، مساحة مستطيلة أصغر بلا نوافذ. حتى إنها كانت أصغر من غرفتي. أغلقنا الباب خلفنا وسقطت بارفن على مرتبتها بتهيدة، بدت مرهقة.

- بارفن، أردت أن أراك منذ فترة طويلة جدًا لكنهم لم يسمحوا لي بالمجيء! كل ما يريدونه مني هناك أن أظل أعمل وأعمل وقد تعبت من كل هذا! أنا أمسح الأرضيات وأغسل الملابس و...

خفتَ صوتي وأنا أدرك أن حياة أختي في الغالب ليست مختلفة عن حياتي. كانت شكواي لها أنانية.

همستْ قائلة: أعرف، رحيمة، الأمر فظيع هنا أيضًا، أدعو الله كل يوم أن يحدث شيء ما وأستطيع العودة إلى البيت. أنا افتقد مادر جان، وشهلا، والفتاتين! أفتقد بادر جان حتى!

أردتُ أن أعارضها، لكنني على غرابة هذا كنت أفتقد أبانا أيضًا، رغم لومي عليه أن وضعنا جميعًا في هذه المأساة.

- كيف الأمر معكِ هناك رحيمة؟ هل دعوكِ تأتي اليوم؟

- لقد تسللتُ إلى الخارج بنفسي، بارفن. لقد طلبتُ من بيبي كلالي عدة مرات لكنها لم تسمح لي؛ لذلك سرتُ إلى هنا اليوم ببساطة. أخبرتُ الخادمة أنني استأذنتها.

- آه لا! ألن يلاحظوا غيابك؟ ماذا سيفعلون بك؟

كنت قد فكرت في هذا قليلاً وتمنيت أن يفلح منطقي فقط.

- لقد أثرت المتاعب عدة مرات. في آخر مرة، هددتني بيبي كلالي بإعادتي إلى أبويّ. أتمنى أن تفعل هذا حين تكتشف ما فعلته اليوم. أريد أن أعود إلى البيت. أنا أكره المكان هناك.

- أتظنين أنها ستعيدك حقًا؟

بدت بارفن متشككة. بدت أختي مختلفة، أدركتُ. نحل وجهها وأنطفأ بريق عينيها. توجد بقع سوداء على خديها.

اضفتُ بابتسامة: لا أعرف، لكنني أردت أن أراكِ حقًا. وفكرت أن الأمر يستحق المحاولة.

قالت بأسى: أتمنى أن يعيدوني أنا أيضًا.

– كيف... كيف حالك هنا؟ هل يعاملونك برفق؟

– أفضل العودة إلى البيت. أتذكرين تلك الطيور التي كانت تحلق أعلى فنائنا؟ أتذكرين كيف كانت شهلا تنزعج من سقوط فضلاتها على الملابس المغسولة مرتين يوميًا؟! كان ذلك مضحكًا جدًا!

كانت تنظر خلفي. ترى شيئًا ما لم يعد موجودًا.

– بارفن، أما زلتِ ترسمين؟ هل رسمت شيئًا جديدًا؟ افتقد رؤية رسوماتك.

هزّت رأسها.

– العمل كثير جدًا ولا أريد أن اثير ضيق أي أحد هنا. يجب ان أقوم بما عليَّ. على كل حال، لم تعد لديَّ الرغبة في الرسم حقًا.

لم تكن تلك بارفن البتة. أمسكت بيديها ولم أعرف ماذا أقول. كنت أريد طرح أسئلة لكن إجاباتها ستؤلمنا نحن الاثنتان فقط. حدقت فيها وهي تبتسم بتحرج. تحدثتْ عن رحيلة وستارة، أخبرتني بقصص عنهما كأنها رأتهما منذ أيام قليلة مضت. تساءلتُ كيف كان زوجها. تساءلتُ إن كانت قد مرت بما مررت به:

– تقول خالة شايما إن رحيلة قد تذهب إلى المدرسة الآن. أليس ذلك رائعًا؟ ستحب المدرسة.

- خالة شايما؟ أترينها؟ أتحدثينها؟

بدا الأمر كأن بارفن قد فقدت صوابها تمامًا.

- نعم، لقد جاءت هنا. منذ أسبوعين، رأيتها عند البوابة الأمامية فقط لدقائق قليلة ثم غادرت. سألت عنكِ أيضًا لكنني اخبرتها أنني لم أركِ.

- أنت إلى هنا؟ لماذا لم تأتِ لتراني أنا أيضًا؟

- لقد حاولتْ.

بالطبع، لقد منعوها من رؤيتي. في الغالب لا يريدون أن اخبرها كيف يعاملونني.

- ماذا قالت أيضًا؟

- قالت إن بادر جان كما هو، لكنه أسعد الآن بالمزيد من دوائه. وأن مادر جان والفتاتين بخير. لم نتحدث طويلاً حقًا. تمنيت أن تجلس وتحكي المزيد من قصصها. كنت أحب قصة بيبي شكيبه، ألم تحبيها؟ أفكر فيها كثيرًا الآن.

كنت أفكر فيها أكثر من أي شخص أعرفه. دائمًا أتساءل ماذا ستفعل لو كانت مكاني، أو ماذا سأفعل لو كنت مكانها. أو إن كان ثمة أي فارق في جميع الأحوال.

همست، أقاطع ثرثرتها: بارفن، ربما علينا أن نهرب فحسب! تمامًا مثلما تسللت إلى الخارج هذا الصباح. يمكننا أن نذهب من هنا فحسب!

لو كنت أعرف حينها ما يخبئه لنا المستقبل لكنت فعلت ذلك حقًا. لكنت هربت معها تلك الليلة. لكان منحها هذا الفرصة على الأقل.

- رحيمة، أنتِ دائمًا تثيرين المشاكل. أنا بخير هنا. العمل

كثير لكنني بخير. قالت مادر جان إن علينا أن نقوم بما يطلبونه منا وهذا ما أفعله. ستزجين بنفسك في مشاكل كبيرة إن حاولتِ فعل أي شيء.

شعرتُ بغصة في حلقي لسماعها تتحدث هكذا. لم تكن صادقة لكنني أدركتُ أننا لا مهرب لنا، خاصة لها. لن تبتعد بارفن أكثر من أقدام قليلة عن البيت بعرجها.

علتْ أصوات في الرواق.

- أين هي؟ من أدخلك إلى هنا؟

- هل جاءت وحدها؟ هل تعرف بيبي كلالي عن هذا؟

سمعت وقع الخطوات وعرفت أن الزيارة قد انتهت، بأسرع مما توقعت. لم يزعجني أن أنظر خلفي لأرى من جاء في إثري. قبلت وجه أختي وعصرت يدها والباب ينفتح على وسعه.

قلتُ: أنا آسفة يا بارفن، آسفة بشأن كل هذا، أنا لست بعيدة عنك يا بارفن، تذكري هذا، حسنًا؟ أنا لست بعيدة عنكِ!

أبقيت عينيّ عليها وأنا أنهض لأقف. بدت هادئة على نحو غريب وسط الصياح.

قالت بهدوء: الطيور تحلق بعيدًا، الواحد تلو الآخر...
تراقبني وهم يسحبونني بعيدًا عنها مرة أخرى.

الفصل 27
رحيمة

اشتعلتْ بيبي كلالي غضبًا.

رآني أحدهم حين كنت أغادر البيت. وصل الخبر إلى بدرية، التي أسعدها في الغالب نقله إلى بيبي كلالي. لم يعنني هذا كثيرًا. جعلنيَ أكرههما أكثر فحسب. كانت بدرية شخصية أحقر مما ظننتها في البدء. دعوت الله أن أنتقم منها ذات يوم. لا عجب أن حشمت كان أبله.

لكنني جلبت لنفسي الأذى هذه المرة. استحققته. مع كل لكمة، كل سُبة، كان أملي يزداد في أن تزعق حماتي أن ما فعلته يكفيها، وأنها ستعيدني إلى أمي. غطيت رأسي بذراعيّ وانتظرت أن أسمعها تقول ما قالته من قبل. حين لم تقله، تحدثتُ أنا.

- إن كنت سيئة هكذا لماذا لا تعيدينني؟

توقفتْ. أدركتُ في تلك اللحظة أنني جلبت لنفسي المصائب بقولي هذا. لقد عرفتْ أن هذا تحديدًا هو ما أريده ورفضتْ أن تمنحني إياه، حتى وإن جلبت العار لعائلتي ولنفسي أمام الجميع. لا. لقد قررت في تلك اللحظة أنها ستقوّم تلك العروس المشاغبة بنفسها. ارتدّت خطتي في وجهي، لكنني كنت قد رأيت بارفن على الأقل. أو ما تبقى منها. أختي، مختلفة للغاية ورقيقة في محنتها، غيّرتها حياتها الجديدة. كنت أعرف أنني مسؤولة جزئيًا عن هذا. حدث كل هذا بسببي أنا، *الباشابوش*، وبسبب

مشاجرتي مع أمي. وما تبقى من لوم يقع على عاتق أبي المدمن.

فكرتُ في شهلا. تساءلتُ إن كانت هي أيضًا ما زالت تلومني. لقد سامحتني يوم النكاح، لكنني أتساءل إن كان الأمر قد اختلف الآن. ربما كانت ظروفها أفضل من بارفن أو مني. لشهلا طريقتها في مجاملة الناس، جعلهم يبتسمون. وجدتُ صعوبة في تصديق أن أي شخص قد يعاملها بطريقة سيئة.

ساءت الآن العلاقة بيني وبين بيبي كلالي إلى الأبد. بدأت تبذل جهدها لجعل حياتي بائسة. يأخذ زوجي مني ما يريده، يفعل بي ما يشاء ويترك ما تبقى من وجودي لأمه. كان مشغولاً للغاية ليعني بأي تفاصيل، الآن وقد توسع عمله أكثر مع بعض الأجانب. كانت سطوته ونفوذه يزدادان في إقليمنا، ومعهما، يزداد عدوانه وسيطرته على البيت. كنا نحن الأربع زوجات نخاف من قبضته المستعدة دائمًا.

كان شيء ما آخر يقلقني تلك الأيام. لمدة أسبوعين، ظللت أستيقظ في الصباح ومعدتي تتلوى بالغثيان. أرعبني ذلك الشعور، وأخيرًا أسررت به إلى جميلة، التي نظرت إليَّ وتنهدت. قالتْ: دعيني أرى وجهك.

وهي تكوّر راحتا يديها على خدّي. أدارت رأسي من جانب إلى آخر، تنظر في بشرتي وعينيّ. ندّت عني أنّة ألم حين لمستْ صدري.

- نعم، يبدو أنه حقيقي. ستصبحين أمّاً يا رحيمة جان.

صعقتني كلماتها الرقيقة. لسبب ما لم تخطر لي إمكانية هذا الأمر قط.

- ماذا؟ كيف تعرفين؟

- رحيمة جان، منذ متى أتاكِ مرضك الشهري؟
حين فكرت في الأمر، لم أتذكر متى كانت آخر مرة نزفت فيها. كان الأمر يحدث بشكل غير منتظم بحيث لم أستطع تسجيل حدوثه قط. رفعتُ كتفيّ.
- حسنًا، يبدو أنك حامل الآن. سيمر الشعور بالغثيان، سترين، لكن أشياء أخرى لديكِ ستتغير.
شعرتُ برأسي يدور. أخذتني جميلة من ذراعي وأجلستني على كرسي في الفناء. قالت: لا بأس يا دختار جان. النساء جميعًا يمررن بالشيء نفسه. جميعنا. سيساعدك هذا، سترين. سيسر هذا زوجك وحماتك. إنجاب الأطفال هو واجب الزوجة.
أحد الواجبات التي لم تنجزها بارفن. ربما لهذا كانوا يجعلون حياتها بائسة للغاية. تساءلتُ إن كانت بيبي كلالي ستحسِّن معاملتها لي حين تعرف. همستُ: أنا لا أريد أن يعرف احد!
لم أرد أن ينظر لي أي شخص بشكل مختلف. كنت أشعر بالعار.
همستْ في النهاية: لا تقولي أي شيء لأي أحد. ليس ذلك من الحشمة على أي حال. نحن لا نتحدث عن تلك الأشياء. التزمي الهدوء، قومي بعملك واتركي كل شيء آخر لله. بعد تسعة أشهر وتسعة أيام سترين طفلك، إن شاء الله. ليعينك الله.
لم تكن لديّ فكرة عما في انتظاري. بدت جميلة قلقة، حتى وهي تحاول تهدئتي. كانت بحكمتها تخفي عني المشاكل التي واجهتها قبل الزواج. كان عمها قد تزوج فتاتين من مثل سني. حين ولدت الأولى طفلها، ظلت تنزف ثلاثة أيام حتى جفت

عروقها ولم تنزف قطرة دم واحدة بعد ذلك. تبعها طفلها بعد ذلك بعشرة أيام إذ لم يجد من يرضعه. زوجته الثانية، نجت من الولادة، لكن الطفل مزق جسدها غير الناضج، وترك فتحة في مقدمته. قال زوجها، المتقزز من السيل الدائم للبول بين فخذيها إنها «قذرة» وأعادها إلى عائلتها لتختبئ من العالم بعارها. لم تكن الأمهات الصغيرات، ينجون بسلامة لكن جميلة لم ترد إخافتي.

أخذتُ بنصيحة جميلة لكن لم يمر وقت طويل قبل أن تلاحظ شاهيناز طريقة التواء أنفي لرائحة الطعام.

قالت وهي تضحك بصوت عالٍ: أنتِ حامل! سترين الآن قسوة الحياة الحقيقية!

كنتُ في بعض الأيام أكرهها اكثر من بيبي كلالي. أخبرت بدرية، لأنها تعرف أن هذا سيزيد من سخطها عليَّ. إن أنجبتُ ابنًا آخر في بيت عبد الخالق، قد لا يعاملني زوجها وحماتها كخادمة وضيعة في البيت. كنت أشك في أن يحدث تغيير بهذا القدر. نظرتْ إليَّ بيبي كلالي كما قد ينظر المرء إلى كلب مصاب بالبراغيث يتقافز على قدميه.

لكن المفاجآت تتربص بنا في المنعطفات، إذ سُمِح لي بعد ذلك بشهر باستقبال زوّار. لست متأكدة إن كان ذلك لأن حماتي عرفت أنني حامل أم لا. لكنني ذهلت حين رأيت خالة شايما تقف في فنائنا، تنظر حولها بعينيها المتشككتين. خلفها تقف بارفن، تقبض بيدها على الشادور من عند ذقنها وتُبقي نظرها لأسفل، نموذج الحشمة. تركتُ كومة الملابس المتسخة التي كنت أحملها وركضتُ إليهما. سررتُ بشدة لرؤية وجهيهما، لكنني

دعوت الله ألا تلاحظا التغيير الذي طرأ عليَّ. لم أرغب في إخبارهما بالأمر.

أمسكتُ بيد بارفن بقوة. رفضتْ خالة شايما حين حاولتُ تقبيل يدها. أمسكتْ بكتفيّ ونظرت في وجهي، تقيم التغييرات التي صنعتها الشهور القليلة الماضية.

هزّت خالة شايما رأسها وتنهدت حين رأت وجهي الممتلئ وبطني البارز قليلاً. كان طفلي في شهره الثالث. لم تندهش بأدنى قدر.

- أأنتِ بخير؟

أومأتُ برأسي. لم نتحدث عن الأمر مرة أخرى. كنت شاكرة لها هذا.

راضية بكوني على الأقل سليمة وجيدة التغذية، سحبتني جانبًا لنحظ ثلاثتنا ببعض الخصوصية معًا. كان لدي أسئلة كثيرة جداً لها. إنها رابطي الوحيد بحياتي الماضية.

كان اجتماعنا الأول مُرّاً حلوًا. أو حلوًا مُرّاً، الأدق في التسلسل. كنت سعيدة لوجودهما معي لكنني كنت أعرف كيف سأتألم حين تغادران. لم يسعنا أنا وبارفن الاقتراب بما يكفي من خالة شايما.

- كيف حال مادر جان؟ لماذا لم تأتِ معكِ؟

- أمكما بخير. أنتما تعرفانها. إنها تتدبر أمرها في البيت لكنها ظلت في قبضة أبيكما وقتًا طويلاً للغاية لحد أنها تنسى أحيانًا الوقوف على قدميها الاثنتين.

سألت بارفن: وماذا عن رحيلة وستارة؟ هل تسألان عنا؟

- بالطبع تسألان عنكما! أنتما أختاهما. هذا لم يتغير لمجرد وجودكما في مكان آخر الآن! لا تستمعان للفضلات التي

يرددها البعض عن فتيات ينتمين إلى أناس آخرين. باه! الفتيات ينتمين لعائلتهن ويظللن كذلك دائمًا. لديكما أمكما وأخواتكما ولا شيء يغير هذا، أنا لا يعنيني من تزوجتما.

أومأنا برأسينا لكنني نظرت حولي سريعًا لأتأكد من أنّ لا أحد يسمعنا. أعرف خالة شايما جيدًا وأعرف كيف تثير تعليقاتها النارية المشاكل.

- لكن لماذا لم تأت معكِ مادر جان إذن؟ أهي بخير؟ ألا تفتقدنا؟

- بالطبع تفتقدكما! إنها... بخير، قد تعرفان. لقد حزنت كثيرًا بعد رحيلكن أنتن الثلاثة. حزنت للغاية لحد أنها صارت تتناول بعضًا من دواء أبيكما.

- تتناول ماذا؟

- هكذا تسير الأمور أحيانًا. اسمعا أيتها الفتاتان، حين تسوء الأمور، يبحث الناس عن مهرب، مخرج. أحيانًا يصعب العثور عليه فورًا. كان مهرب أبيكما ذاك الدواء اللعين وقد صار كذلك الآن مهرب أمكما أيضًا. لم تكن سوى مسألة وقت. إنه أمامها طوال الوقت.

كنت غاضبة. مادر جان ستصبح مثل أبينا. تخيلتها بعينين زائغتين تشخر على الكنبة، ورحيلة تعتني بستارة. سألتُ بمرارة: ماذا عن النقود الكثيرة؟ ماذا يفعلان بها؟

- قسّموها. بالطبع، أخذ أبوكما معظمها، لكنه أعطى بعضها لإخوته وجدكما. احتفلوا بولائم من الدهن، واستعرضوا أنفسهم في القرية ظانين أن هذا سيغير نظرة الناس إليهم. يعلم الله على ماذا ينفقها أيضًا. ما أعرفه أن أمكما لم تلمسها قط.

- ماذا عن شهلا؟ هل سمعت أي شيء عنها؟
- لا، سألت أباكما عنها لأنه هو من على اتصال بتلك العائلة أكثر من أي شخص آخر، لكنه يقول إنها بخير فحسب. لم يرها. المسكينة بعيدة للغاية. على الأقل أنتما الاثنتان قريبتان.
- لكن يا خالة شايما، إنهم لا يسمحون لي برؤية بارفن! إنها قريبة للغاية لكنها كأنها على الجانب الآخر من العالم.
- ماذا؟ حتى الآن؟ حسنًا، سيكون عليَّ أن أزوركما أكثر من ذلك لنرى بعضنا البعض. كيف يعاملونكما يا فتاتي مع ذلك؟ بارفن؟
قالت بوداعة شديدة لم يكن أحد ليصدقها: أنا بخير، خالة جان. إنهم يعاملونني جيدًا.
ضيّقت خالة شايما عينيها.
- وحماتك؟ هل تضربك؟ هل تتناولين طعامًا كافيًا؟
- إنها عطوفة معي، خالة شايما. تعلمني كيف أفعل الأشياء وأنا آكل كثيرًا. أغلب الوقت لست جائعة على كل حال.
التفتت خالة شايما لي، لا تعرف ماذا تفهم من إجابات بارفن.
- أنا بخير يا خالة جان. حماتي، بيبي كلالي، ضربتني مرات قليلة لكنني فهمت كيف أرضيهم. وهي لا يمكنها الضرب بقوة على كل حال، تلك الساحرة العجوز.
أخفضتُ صوتي غريزيًا. دائمًا ما تظهر بيبي كلالي فجأة حين لا أريد رؤيتها.
همهمت خالة شايما: ساحرة حقًا، اللعنة على هؤلاء، يأخذون فتيات صغيرات هكذا.

قلتُ فجأة: خالة شايما، هل تعدين بأن تأتي كثيرًا؟ أنا أفتقدك جدًا!

أومأت بارفن برأسها موافقة.

- بالطبع. سآتي كثيرًا ما أمكنني بظهري اللعين هذا. على أحد ما أن يعتني بكما. قد يكون عبد الخالق أكبر رجل في القرية لكنكما لديكما عائلة أيضًا. أريد أن أتأكد أن هؤلاء الناس يعرفون هذا.

كانت كلماتها وحضورها مريحين للغاية، حتى ولو لم يغيّرا شيئًا في حياتنا اليومية. سألتها: وربما يمكنك إخبارنا بالمزيد عن بيبي شكيبه؟

- آه! لدينا الآن شيء ما علينا إنهاؤه. لا أحد يحب قصة بلا نهاية...

كانت من حين لآخر تذهب لإحضار بارفن وتأتي بها إلى بيت عبد الخالق حيث نجلس ثلاثتنا نتحدث. كانت مثابرة وأفلحت لذلك. حمدت الله على هذا. كانت تلك المناسبات النادرة التي رأيت فيها أختي. كنت كلما نلتقي ينفطر قلبي لها وأتمنى تقريبًا لو لم أكن قد رأيتها. بدتْ ابتسامتها الواهنة التي تمنحها لنا أنا وخالة شايما سخيفة على وجهها الرقيق وبشرتها الشاحبة. كرهتُ ضرّاتها لما كن يفعلنه بها.

لكنها هي لم تشكو لنا قط. لم تخبرنا بما عليه الأمر حقًا قط. على نحو ما، أظن أنها أشجعنا جميعًا. أختي الوديعة الخجول، كانت هي من تحركت في النهاية. كانت هي من قالت لمن حولها إنها قد فاض بها من جراء إساءاتهم. كما قالت خالة شايما، الجميع في حاجة إلى مهرب.

الفصل 28
شكيبه

على مدار الأسابيع القليلة التالية، وبمساعدة غفور، ألِفَت شكيب بيتها الجديد. كان بلاط الملك صرحًا مذهلاً، وكانت غفور تعرف كل ركن فيه. شيّده الأمير عبد الرحمن، حين كانت شكيبه رضيعة. يحيط بجدرانه السميكة خندق مائي ويعلو أركانه أربعة أبراج مراقبة تشرف على الملكية بأكملها. ميزت شكيبه أعلى كل برج مدفعًا موجهًا نحو الأفق. تحيط الأسوار بجميع أنحاء القلعة ويقف الحرس في كل مكان.

- هذا المبنى هناك، على الجانب الشرقي، هذا *سلام خان*. حيث يستقبل الملك زواره. توجد عدة مبانٍ أصغر خلفه، حيث يقضي وقته مع عائلته أو مستشاريه المقربينَ. هناك حيث مهجع الجنود وذاك المبنى كله للأسلحة.

واصلتا سيرهما، ظل الجنود يتجنبون النظر إليهما لكنهم يراقبون حركتهما باستمتاع شديد. عبرتا الحدائق الغناء وسارتا إلى الجانب الغربي من القصر.

- ما ذلك المبنى هناك؟

أشارتْ شكيبه إلى مبنى ضخم نسبيًاً، طويل ليشرف على ما وراء جدران القصر. كان قطعة فنية معمارية، يبدو جليلاً وعلى مبعدة تمشية قصيرة من البلاط.

- أه، هذا! إنه قصر *دلكشا*[1].
-يبدو مذهلاً!
- إنه كذلك. وداخله جميل للغاية إلى حد يُذيب القلب! توجد هناك لوحات، وزخارف، وأواني زهور ذهبية. لن يمكنك تخيل شيء بهذا الجمال!
- هل دخلته؟
كان صوت غفور مفعمًا باليقين: حسنًا، ليس تمامًا... لكنني سمعت.
- أين يعيش الملك؟
- آه، حسنًا، إنه يسافر كثيرًا لكنه حين يبقى هنا، يقيم هناك مع زوجته.
- زوجته؟ هل تذهب النساء إلى هناك؟
- بربك، لا! ما هذه الفكرة المجنونة؟ نساء الحريم يبقين في الحريم. هذا مكانهن. يمكنهن التجول في فنائهن ولديهن مسبحهن الكبير الذي يمكنهن استخدامه متى شئن. لكنهن لسن زوجات الملك!
- نعم، مثل الحرم. أي أنه محرم على الرجال الآخرين دخوله. ما عدا الملك بالطبع. لهذا نحن من نحرسه بدلاً من جنوده. ولأنه أيضًا يعرف الرجال ويعرف أنهم لا يمكن الوثوق فيهم بين النساء، ولا حتى نساء الملك.
كانت شكيبه قد غادرت الحريم مع غفور في الصباح الباكر. النساء ما زلن نائمات والحارسات الأخريات يرتدين ملابسهن لبدء العمل.
- كم نساء الحريم؟

---

(1) القصر الصيفي. (المترجمة).

كانت غفور قد أشارت لها إلى خمس أو ست فقط مساء أمس، لكن مساكنهن كانت ضخمة للغاية وذوات غرف كثيرة. فكرت شكيبه أنه قد يكون هناك المزيد.

- عددهن؟ مم... بالتعداد الأخير يوجد تسع وعشرون.

- تسع وعشرون؟

ضحكتْ: أكيد، تسع وعشرون، هذا عددهن، إن كنا سنعد بنازير معهن! لن تحظى باهتمامه الآن بعد أن بدأ بطنها ينتفخ. لن يعني بها إلا بعد أن تنتهي.

- تنتهي من ماذا؟

- ينتهي الأمر. تضع الطفل.

- آه، وأطفالهن، يعيشون مع أمهاتهم في هذا البيت؟

- بالطبع. ألم تري أطفال حليمة هناك معها؟

- أين وجدهن كلهن؟ أقصد الحريم.

- بالطريقة نفسها التي وجدني بها. وأنتِ أيضًا. عائلات كثيرة تتخلى عن فتياتها. عائلات كثيرة ينقصها أشياء. على كل حال، إنه الملك. يأخذ ما يريد.

- وماذا عن الأطفال؟ هل يتعامل معهم بأي شكل؟

- طبعًا. أتعرفين...

أخفضتْ غفور صوتها إلى درجة الهمس: الملك، نفسه، كانت أمه جارية. إنه يعرف عن تجربة أنه يمكن لأي طفل أن يرتقي سلم المجد، وليس أبناء الزوجة الأولى فقط.

بدأ تيار هواء ثابت يهب وتذكرت شكيب أن ظهرها مكشوف. سيستغرق الأمر وقتا للاعتياد على البنطال، فكرت. بدت غفور مرتاحة تمامًا في ملابسها مع ذلك. سألت غفور بشكلٍ طبيعي: هل يؤلمك؟

كانت شكيب تعرف ماذا تقصد لكنها تظاهرت بالجهل.

– ماذا؟

– وجهك. هل يؤلمك؟

– لا.

ظلت شكيبه تحدق أمامها مباشرة. لم تكن مصادفة أن كانت غفور تسير إلى يمينها، جانبها الجيد. لم تعد ترتدي الحجاب فلم يعد من ساتر لوجهها المشوه. أرادتْ أن ترى غفور وجهها كما كان يجب أن يكون.

– هذا جيد.

سُرَّت شكيبه لأن الحوار انتهى عند هذه النقطة.

عادتا إلى الحريم، الذي يعج بالثرثرة الآن بعد أن استيقظت النساء. بوجود الكثير من الوجوه الجديدة حولها، مدت شكيبه يديها بشكل غريزي لتشد طرحتها على وجهها لكنها لم تجد شيئًا لتشده.

مرتا بالبهو، كانت النساء في كل مكان، يجلسن في مجموعات من أربع أو خمس. كانت اثنتان أو ثلاث يطعمن أطفالاً صغارًا، وواحدة ترضع طفلاً في الركن. بعضهن في الثلاثينيات، وأخريات في سن شكيبه. بعضهن نحيفات وأخريات مليئات. قليلات من عنين برفع بصرهن إليها. وضعتْ غفور يدًا على مرفقها وقادتها إلى غرفة كبيرة بأرضية حجرية. في منتصفها حمام سباحة كبير. تجلس ثلاث نساء مغمورات في المياه حتى نصف صدورهن. تتردد أصداء أصواتهن بين جدران الحمام.

– هذه غرفة المسبح.

أعلنت غفور، تراقب رد الفعل المذهول الذي تعرفه. انفتح فم شكيبه قليلاً فقهقهت غفور. تجاهلت شكيبه استمتاعها.

كانت الجدران الحجرية مرتفعة بفخامة. توجد شرفة في الطابق الثاني تطل على الحمام.

توجد نباتات في الغرفة، أوراق خضراء وارفة ترويها رطوبة الغرفة. نظرت النسوة إلى غفور وشكيب لكنهن، إذ لم يرين سوى جانب شكيب الجيد فقط، عدن سريعًا لمحادثتهن. سارت الحارستان إلى الأمام.

- هذه الغرف للمحظيّات. بعضهن يتشاركن الغرف معا، لكن من لديهن أطفال يحظين بغرف خاصة بهن. خلال نصف ساعة، سوف يرسل القصر الغداء. يوجد في القصر خدم نساء يأتين إلى هنا لكننا أحيانًا نساعدهن في جمع الأطباق بعد انتهاء الطعام.

- ماذا أيضًا علينا أن نفعله؟

كانت عينا شكيبه منشغلتين بالنظر إلى متاهة الأبواب.

- أن نراقب الأشياء فقط. الأهم أن نسيطر على الخروج والدخول. ليس لأحد الدخول دون علمنا أو الإذن منا، كذلك الخروج... من حين لآخر، يريد بعضهن، وخاصة الجديدات هنا، التجول في الأنحاء. إن مسؤوليتنا ألا تحدث أشياء كهذه. وأحيانًا تطلب منا النساء مساعدتهن في شيء ما. لا شيء آخر حقًا. كما قلت من قبل، لكل فرد دوره هنا في القصر. وهذا هو دورنا.

علت الأصوات في الغرفة الكبيرة، صيحات إثارة. انتصبت اذنا غفور.

- لنذهب لنر بماذا يلهون هذا الصباح. هذه الضجة غير طبيعية.

ولم تكن مخطئة. كان أمان الله، ابن الملك، قد عاد إلى القصر.

الفصل 29
شكيبه

- لماذا كل هذه الإثارة بشأن ابن الملك؟
- لماذا؟! ألم تسمعي عن ابنه أمان الله؟ أيتها المسكينة. ما زال أمامك الكثير لتعرفيه!

رأت شكيب أن غفور تتغطرس. فكرت في الأمر لعشر ثوان قبل ان تقرر أنها سيكون عليها التسامح مع هذا الآن.

- أخبريني إذن، لماذا كل هذه الضجة عليه؟
- إنه المستقبل. الجميع يراهنون أنه سيخلُف الملك. إنه حاكم كابول والمسؤول عن الجيش والخزانة.
- ما الخزانة؟

لم تكن قد سمعت الكلمة من قبل قط.

- أتعرفين، إنها الجماعة التي تعمل مع الجيش. تمنحه الطعام والزي العسكري. و... أحيانًا يهتمون بالجياد أيضًا.

شيء ما في تململ غفور أخبر شكيب الا تثق بها.

- لكن أهم شيء عنه أنه لم يتزوج بعد. هو في سن الزواج ووالده يبحث له عن العروس المناسبة. ستكون فتاة محظوظة!
- متى سيتزوج؟
- لم يقرر الملك بعد. لكن أمان الله محبوب هنا في الحريم. إنه عطوفَ ووسيم أكثر من والده. تتصرف خادمات القصر بأفضل ما لديهن حين يكون موجودًا، يتمنين أن يصرن من محظياته بدلاً من والده.

- هل لديه حريمه الخاص؟
- لا. إنه لم يتزوج بعد. ربما سيصير لديه حين يتزوج.

كان أمان الله قد سافر منذ شهرين، إلى الحدود المتنازع عليها بين أفغان وبريطانيا؛ لذلك كان مرهقًا ولم يهتم برسميات القصر المعتادة. لن تراه شكيب اليوم، بل خلال يومين، لقد رأت أباه بالفعل.

لا بد أن أمان الله قد جلب أخبارًا جيدة من الجبهة.

وقفتْ شكيب في ركن بغرفة المسبح تنقل وزنها من قدم لأخرى وتتساءل إلى متى ستظل في القصر. كانت الحياة مريحة بقدر لا بأس به. الأرز والخضار وفيران، الكعك حلو. لديها بطانية تدفئها ليلاً، وصحبة النساء/الرجال اللاتي لا يضمرن شيئًا لها. لكنها ما زالت قلقة. تساءلت ماذا كان والداها سيقولان لو عرفا أنها تعيش في القصر. وترتدي ملابس الرجال. في الغالب لن يلحظ أبوها أي فارق. لم يكن قد رآها كفتاة أو فتى عندما كان على قيد الحياة. ما زالت تشعر بالغضب حين تفكر في أرض أبيها. أرضها. كانت رؤية الحجة تتمزق بين يدي المالك وتتناثر في الفناء كأوراق شجر متساقطة مؤلمة أكثر من ضرب عزيز الله.

عودي برأسك من السماء وافهمي مكانك في هذا العالم. قالت خانم مارجان.

لكل فرد دوره هنا في القصر، أخبرتها غفور.

تساءلت شكيب عن مكانها في هذا العالم، شيء ما يخبرها أن مكانها لم يكن كخادمة منزل، ولم يكن الحفيدة غير المرغوب فيها كذلك. لكن هذا، بالتأكيد، لا يمكن أن يكون قدرها، رغم كونه

مريحًا في الأيام القليلة الماضية. لكنها عرفتْ من أعماق قلبها أن عليها التحرك إن كانت تريد معرفة هدفها الحقيقي في الحياة.

لو لم ينشغل ذهنها تمامًا بالتفكير في مخرج من موقفها الحالي، لربما كانت لاحظت الملك قبل ذلك. هكذا، لم تدرِ كم مضى عليه وهو يقف في الشرفة. لم تلحظ حتى أن النساء في المسبح قد أخفضن صوت ضحكهن العالي، وصِرن أكثر وقارًا.

- حارسة!

جفلتْ شكيب لصوته. نظرت لأعلى وميزت الرجل الذي رأته يهبط من العربة. تسارعت دقات قلبها.

هل رآها شاردة في أحلام اليقظة؟ بدأت دفاعاتها غريزيًا.

- حارسة! تعالي هنا!

فردتْ ظهرها، أحنت رأسها وصعدت السلم الضيق المؤدي إلى الشرفة. كان الملك قد دخل من سلم خلفي، دون أن يلحظه أحد. يرتدي زيه الرسمي من دون القبعة. كان يميل على الدرابزين، ينظر إلى النساء في المسبح كالمعتاد.

لم تقل شكيب شيئًا وأبقت رأسها محنيًا.

مر وقت طويل للغاية قبل أن يتحدث.

- أحضري لي سكينة.

- أحضرها إلى هنا؟

استدار الملك إليها بحدة. لم يكن معتادًا على سماع الحرس يتحدثون. انصبّت عيناه المضيّقتان على وجهها. استدارت جانبًا بعفوية. قال أخيرًا: أأنتِ جديدة؟

- نعم، سيدي.

- همف. أخبري سكينة أنني أطلبها. ستُريكِ الطريق.

اومـأت شكيب واتجـهت لتـهـبط السلم. كـانت النسـوة قـد
ـمن صـوت الملك وينتظرن عـودة شكيب. يعـرفن جلسـتـه في
لى تلك وعـاداته. مـا زال أمـام شـكيب الكثـيـر لتـتـعلمـه عن
الـسـر. نظر النسـاء إلى بعضـهن البعض لكنهن لم يجـرؤن على
لنظر إلى أعلى. كن يتحدثن بغنج.

وقفت شكيب إلى جانب المسبح ونظرت إلى سكينة، شعرها
الداكن الكثيف مسحوب للخلف في ضفيرة وعلى كتفيها
الداريتين قطرات الماء. قالت شكيب بهدوء: إنه يريدك.

ابتسمت سكينة بخبث، مالت شفتاها جانبًا.

- أنا، مجددًا؟ ربي العزيز، ظننته قد نال كفايته مني الآن.

تحـدثتْ بصـوت مـرتفع بما يكفي لتـسـمـعـهـا الأخـريات في
المسبح.

رأت شكيب بعـضـهـن يقلبن أعـينهن، وبعـضـهن يـزممن
شفاههن. ثبتت بنفشه عينيها الخضراوين على مؤخرة سكينة.

- أحيـانًا يفـضّل الرجـال *القـيـمق* وأحيـانًا يكتـفـون بـاللبن
الفاسد.

كـانَ صـوت بنفـشـه باردًا وهـادئًا. حـاولت الأخـريات إخفـاء
ضحكهن. مالت بنفشه برأسها للخلف، تتماوج خصلات شعرها
الداكن الطويل في الماء. حتى الآن، كـانت هي *القـيـمق*، قشدة
الحريم.

استدارتْ سكينة ورمقتها بنظرة كراهية. خرجتْ من المسبح
وتناولت منشفتها. لفتها حول جسدها العاري وجففت نفسها
بتبيتًا قبل أن تقف بجوار شكيب. لاحظت بعض النساء وجه
شكيب لأول مرة.

- يا رحـيم، انظرن إلى هذا! ظني أنهم بعـد بنفشـه بذلوا جهدًا أكبر في اختيار حارسات لا يجذبن نظر الملك!

- يا رحيم. أرجوكِ. لا أستطيع أن أتخيل حتى...

نظرت سكينة إلى شكيب، متجاهلة ثرثرتهن خلفها.

قالت شكيب أخيرًا: قال... قال إنك سترينني الطريق.

رفعت سكينة حاجبًا.. نعم، أعرف الطريق.

سمعت شكيب المحادثة تستمر وهي تستدير جانبًا.

- تبدو مثل *الهليم* أليست كذلك؟

تنهدت شكيب، لم تكن تلك أول مرة يُشبَّه فيها وجهها بطبق الديك الرومي بالشوفان، المهروس بما يكفي لحد يمكن إطعامه للرضع.

- وجهها؟

- آه. معكِ حق! فظيع!

- اللعنة عليكِ، أنت تعـرفين كم أحب الهليم! لقـد أفسـدت عليَّ فطوري بقولك هذا!

ترددت القهقهات بهدوء واسـم شكيبه الجديد يُمرر ويُعتمد بين المجموعة.

قادتها سكينة وتبعتها شكيب إلى رواق خلفي وصعدتا سلمًا منفصلاً أعلاه باب خشبي ثقيل. توقفت سكينة واستدارت لتواجه شكيب.

- الآن، اطرقي هـذا البـاب، وحين تسـمعين إجابة، افتـحي البـاب، ثم اسـتديري وعودي إلى الأخـريات. هنا آخر مـا يمكنك الوصول إليه.

أومـأت شكيب وفـعلت كـمـا قـالت سكينة. طرقت البـاب فسـمعت صوت الملك يصيح بشيء ما غيـر مـفهوم من الداخل.

فتحت الباب فقط بما يكفي لتدخل منه سكينة، تمسك بمنشفتها حولها ورأسها مطرق. أغلقتْ شكيب الباب وانتظرتْ قليلاً. سمعت صوتيهما يتحدثان بهدوء. ضحكة. صرخة. شعرت بالدم بتدفق في وجهها وهي تتذكر أن سكينة لا تستر نفسها سوى بمنشفة. استدارت وهبطت السلم خائفة فجأة من أن تُكتشف وهي تطيل وقفتها خارج الغرفة.

تعرف الآن الحريم. تفهم الآن أن الملك يزور من يريدها متى يريدها. كان يأتي كثيرًا لكنه لا يبقى طويلاً. كان يفضل بعضهن عن الأخريات، يتجاهل بعضهن معظم الوقت لكنه يبقيهن في الحريم. كانت النساء التسع اللاتي انجبن له أبناء يُعاملن أفضل معاملة. يحظين بأفضل الثياب وأفضل فاكهة وكن يسرن بقامات منتصبة عن الأخريات. على مقرّاتهن حراسة أكثر من الأخريات، والفضل في ذلك لأرحامهن السخية. لكن فاطيما، التي لم يعش أبناؤها الثلاثة أكثر من شهر، كانت الاستثناء. كانت قد أحبطتِ الملك أكثر من النساء اللاتي أنجبن فتيات ولم تكن لتتلقّى أي معاملة خاصة حتى تنجب له ابنًا يستطيع العيش وقتًا طويلاً بما يكفي ليسير خطوات قليلة على الأقل.

ظلت شكيب تراقب وتتعلم عدة شهور. تنتبه جيدًا لنظام العمل في القصر، تفاعل النساء مع بعضهن البعض وعادات الملك. كانت أقوى من الحارسات الأخريات وبدأت تتحمل مهام تشق على الأخريات. كان سهلاً عليها حمل دلاء الماء الثقيلة إلى الحريم. لم تكن تمانع من حمل الأطفال حين يسقطون في النوم في الفناء. لم تكن مصدر تهديد لأي شخص، والفضل في ذلك يعود لوجهها المشوه.

لكنها لم تتوقف عن التفكير في محنتها. كانت تراقب نساء الحريم. على الأقل ينتمين لأحد ما. على الأقل لديهن شخص ما يهتم بهن. الفتيات الصغيرات ينظرن إلى أمهاتهن، يختبئن في أحضانهن. كيف هو هذا الشعور!

لكن ماذا عن الحارسات؟

كانت شكيب في حاجة إلى خطة. في هذه الأثناء، حرصت على أن تؤدي مهامها جيدًا وأن ترضي غفور والقصر. لم ترغب في جلب أي عقوبة على نفسها، تتذكر جيدًا جدتها وعزيز الله. في بيوت أكثر قوة، قد يكون الطعام أفضل لكن العقوبات أقسى بالقدر نفسه.

كانت في فناء الحريم حين رأت أمان الله. يسير على مهل مع رجل آخر، رجل بقبعة صوفية ولحية قصيرة. رأته من قبل. كان صديق أمان الله، كما أخبرنها. اسمه أغا بران. تساءلت شكيب عن ماذا يتحدثان. كانت تلك خامس مرة تراه فيها وقد فهمت الآن لماذا أثارت عودته تلك الضجة.

كان أمان الله، ابن الملك، آسرًا، متين البنيان، أطول من شكيب ببوصات قليلة. كتفاه العريضتان تجسدان معنى الثقة، مع أنه بدا قريبًا من سن شكيب. كان كيانه كله ينضح بجرأة فطرية. تخففها عينان عاقلتان عطوفتان.

ذاب شكيب وعادت شكيبه.

حين رأته أول مرة حاولت تغطية جانب وجهها الأيسر بعفوية وأخفضت بصرها. لكنها بعد ثالث مرة غيرت طريقتها حين أدركت أن بإمكانها استغلال «ذكورتها»، حدقت في الأمير الذي لا يراها على كل حال.

منحها هذا شيئًا ما لأحلام يقظتها بدلاً من أرض أبيها أو اسرتها الميتة.

كان أمان الله وبران متجهين نحو حدائق القصر. لمست شكيب وجهها وشعرها، تتساءل كيف تبدو له. كانت تعرف أن نصف وجهها جميل حقًا، تثق بذلك من رد فعل مَن لم يروا سوى هذا الجانب.

كانت تخشى، إن حدث وأنجبتْ أطفالاً، ألا يحبوا النظر إليها، أن يخافوا من نصف القناع الذي ترتديه. لكن أطفال الحريم كانوا يمدون أذرعهم لها، يثقون بها، يضحكون حين تدغدغهم. ربما سيكون أطفالها مثلهم. ربما سيراها أطفالها كما كانت تراها أمها، لا عيب فيها وجديرة بالحب.

حينها أدركتْ شكيب كيف يمكنها تغيير قدرها. كيف يمكنها ان توقف إهداءها من غريب لآخر. لكنها لتفعل هذا، كان عليها ان تنتمي إلى أحد، إلى رجل وإن كان لديها أبناء، يمكنها وضع خاتمة لقدرها. إن أمًا لأبناءٍ لن تُمرَّر من يد لأخرى كالماشية.

توقف أمان الله. كان رفيقه يشير إلى بعض الأجمات التي ازهرت ورودًا خلال الأسبوع الماضي. مال ولمس أوراقها برقة لم تتوقعها شكيب من قائد الجيوش والخزانة، أيًّا كان معنى تلك الكلمة.

وقفتْ منتصبة القامة، أدارت جانب وجهها الأيمن ناحيته. تمنت أن يلتفت وينظر إليها، أن يراها. سارت خطوات قليلة إلى الأمام، آملة أن تلفت حركتها انتباهه. وقف والتفت نحوها بالفعل كما لو كان ينفذ ما تأمره به أفكارها.

قفز قلب شكيب في حلقها، تجمّدت، راقبته من زاوية عينها

وتساءلت ماذا عليها أن تفعل، ابتسمت نصف ابتسامة وأحد
رأسها قليلاً بما يكفي لتمنح الانطباع لكن من دون تشتيت
انتباهه.

بدأ يتحدث وعاد يستدير إلى صديقه، دون أن يغير تعبير
وجهه. أكان يقول شيئًا ما عنها؟ ماذا قد يقول؟ هل يمكنه
تمييزها من بين الحارسات الأخريات من على هذه المسافة؟ ربما
أخبره الملك عنها، المرأة/الرجل الجديدة.

أدركتْ شكيب أنها كانت تبتسم ونظرت حولها. لم ترغب في
أن يراها أحد تحدق إلى أمان الله وصديقه وهما يتمشيان بين
الأجمات والورود. عضت شفتها السفلى ومالت بظهرها للخلف.
بدأت فكرة تتكون في ذهنها لكنها تتطلب بعض العمل.

الفصل 30
رحيمة

حلت المواسم ومضت، مر عامان وكنت أخشى أن أنسى شكل أمي. فكرت أن أستطيع تمييز شقيقتيّ الصغيرتين إن قابلتهما مصادفة. كانت تصلني الأخبار من خالة شايما لكنها لم تكن أخبارًا جيدة في العادة. كانت تخفف وطأة ما تخبرنا به لكنها رأت أن من حقنا أن نعرف. صارت مادر جان مدمنة مثل ابي. رحيلة وستارة تعتنيان بنفسيهما ما استطاعتا، مع تدخل حدتي أحيانًا لتحسين الوضع قليلاً. في المقابل، كانت مادر جان تقوم بالمزيد من العمل في المسكن وكانت علاقاتها بالكنات الأخريات قد تدهورت بالفعل. كان بادار جان، حين يفيق، يجعل حياتها بائسة. فمع كل ذلك، كما أشارت أمه، لم تعد مادر جان لا زوجة ولا أمًا تلك الأيام.

كان جزء مني ممتنًا لأنني لم أكن هناك لأرى ما صارت إليه أمي. تساءل جزء من ذهني كيف كان سيتغير الأمر لو كانت حماتي قد أعادتني. ما إن أبدأ هذا التفكير يمكنني لأيام التفكير بسيناريوهات «ماذا لو». كنت دائمًا أصل إلى النتيجة نفسها، أتساءل ماذا كان سيحدث لو لم يجعلوني *باشابوش*. ظني أن نهاية أسرتي بدأت في ذلك الوقت. بشكل لا مفر منه، كنت أتساءل إن كانت شهلا وبارفن تفكران في الأمر نفسه. وإن كانتا ما زالتا تلومانني.

كنت أتساءل أيضًا عن خطة بيبي شكيبه. كانت الجدران من حولي خانقة فلم أستطع تخيل ما الذي منحها بريق الأمل.

في هذه الأثناء تعلمت إيقاع البيت ووجدت موضعًا لي فيه. ظل القمر يكتمل ويعود هلالاً مرارًا وتكرارًا، فيما أجد سبلاً لجعل حياتي سهلة. مع ذلك، لم يتغير فيّ شيء بالنسبة إلى بيبي كلالي.

كان ابني، جهنجر، يبلغ من العمر عشرة أشهر حينذاك، معجزة في حد ذاته. كاد حمله تسعة أشهر وولادته يمزقانني إربًا. لم أرَ دماء بهذا الكم من قبل. تلقته جميلة، كما تلقت طفلي شاهيناز. لم يكن عبد الخالق يحبذ ذهاب زوجاته إلى المستشفيات، ولم يكن من قابلات في المنطقة. قصّت ضرتي الحبل السري وأنا مستلقية منهكة وهامدة. لم أشعر بالضعف هكذا من قبل. لفّت جميلة بطني وأطعمتني مرقًا دسمًا من الدقيق والزيت والسكر والمكسرات، أمرتني أن أشربه. أتذكرها بشكل مبهم وهي تصلي إلى جانبي، تدعو الله ألا يكون مصيري كزوجتي عمها. أتساءل إن كانت دعواتها هي ما أنقذتني.

اعتنت جميلة وشاهيناز بولدي الرضيع في الأسبوع الأول حتى تعافيت. حتى بيبي كلالي تركتني وشأني فترة من الوقت. على الأقل أنجبتُ ولدًا، قالت: أخيرًا، فعلت شيئًا صحيحًا.

سميته جهنجر، اسم شخصية اخترعناها أنا وعبد الله وأشرف، شخص وليد خيالنا الجماعي. كان جهنجر رجلاً ضخمًا وقويًا لا يخاف شيئًا. له بنية نموذجية، وأقوى مقاتل وأذكى شخص في البلد بأسره. غازي العالم، كما يعني اسمه. كنا جميعًا نريد أن نكون جهنجر الذي يستطيع فعل أي شيء.

كان بطلنا دائمًا. حين ييأس عبد الله من القيام بحركة الكاراتيه الجديدة التي رأيناها، كنا نقول له إن جهنجر لم يكن ليستسلم بهذه السهولة. حين لا يمكنني تمرير الكرة إلى مكان قريب من المرمى، كنت أفكر في جهنجر وكيف كان سيركل الكرة، كان أشرف يتلبس شخصية جهنجر حين يذهب إلى السوق لشراء شيء. ويبتهج حين يشعر أنه عقد صفقة جيدة جدًا مع البائع.

لم أفكر في الاسم كثيرًا وأنا حامل، كنت أظن أن الأطفال يُولدون بأسمائهم، تمامًا كما يولدون بيدين أو قدمين. كذلك كنت مرعوبة من فكرة ولادة طفل بحيث لم يعنني الاسم كثيرًا، لكن جميلة جعلتني أفكر.

قالت: *لا بد أن تحددي اسمًا، ولا بد أن يعني شيئًا*.

حين انتهت من مسح الدم عن فخذي كان الطفل قد سُمّيَ.

استغرقني الأمر عدة أسابيع لأعتاد الأمر. سأمتن لجميلة دائمًا لمساعدتها.

حتى شاهيناز، في التاسعة عشرة من عمرها، كانت أمًا خبيرة، ولم تستطع منع نفسها من تعليمي كيف أرضع هذا الكائن الصغير، وأحممه، وأحمله.

وقعت في غرامه، كان جهنجر منقذي، وصار وجهه مهربي. كان السبب لاستيقاظي في الصباح وأملي في الغد.

لم تأتِ خالة شايما لزيارتي منذ أشهر، ما لم تكن عادتها. كنت قلقة من أن تكون مريضة، لكنني لم يكن لدي وسيلة للاتصال بها والسؤال عنها. لم يسعني سوى انتظار ظهورها مرة أخرى. لم أرَ بارفن حتى منذ شهر تقريبًا. أردتهما أن تريا

جهنجر. كان قد بدأ يصفق بيديه ويستطيع الإمساك بالطاولات ليستند عليها ويقف، أردت أن ترى خالته ما يمكنه فعله الآن.

قررتُ ترتيب زيارة لبارفن. كنت قد حظيت بقدر قليل من الحرية تلك الأيام، بعد أن أنجبت ابنًا للعائلة. كان عبد الخالق قد دعا شخصًا أجنبيًا إلى البيت ليتحدثا في العمل، وكان ثمة الكثير من التحضيرات لعملها. كنت أعرف أنهم سيدعونني لمساعدة الطباخة والخادمات. فقررت تأجيل زيارتي لليوم التالي.

بعد صلاة العصر مباشرة. كنت قد بدأت بإعداد عجين الفطائر حين جاءت بيبي كلالي إلى المطبخ. انتظرتُ ملاحظاتها عمَّا أفعله خطأ. بدت مرتبكة؛ كأنها تريد قول شيء.

- ماذا تفعلين الآن؟

- سأعد عجين *الأوشاك* يا خالة جان. انتهيت من تنظيف غرفة الجلوس، إنها جاهزة للّيلة.

- نعم، جيد، ربما... أعتقد أن هذا يكفي. واصلي ما تفعلينه.

حيّرني سلوكها.

- هل كل شيء بخير؟

- نعم، كل شيء بخير. لماذا؟ لماذا تسألين؟

- لا سبب، فقط أنني... حسنًا، كنت فقط أسأل.

قلت وعدت أهتم بالعجين؛ كان قد بدأ يجف. حان وقت تقطيعه قطعًا بيضاوية وحشوه بالكراث والبصل الأخضر.

- حسنًا إذن.

قالت بيبي كلالي وخرجت من المطبخ.

كــان ذلك أول دليل على وجــود شيء مــا خطأ. ظني أن حماتي، مع كل ما هي عليه، كانت تستجمع شجاعتها لإبلاغي بشيء ما. عادت بعد ساعتين. هذه المرة معها جميلة. كان جهنجر يزحف في المطبخ. كنت قد وضعت حواجز حول الموقد، اتذكر جيدًا حادثة احتراق بيبي شكيبه وهي طفلة. لم أرد أن يحمل ابني ندوبًا مثلها. الحياة صعبة على المعوقين، كما تعلمت من بارفن.

كان جهنجر يشد طرف تورتي، يبكي. كان جائعًا لكنني أردت الانتهاء من *الأوشاك* قبل وصول الضيوف. أبقيتُ عيني عليه لكن تعبير وجه جميلة أقلقني كثيرًا.

قالت بيبي كلالي: رحيمة، إن حفيدي جائع. سأجعل شاهيناز تُطعمه شيئًا ما.

بدت مرتبكة تقريبًا كما شعرت.

قلت بتوتر: لقد انتهيت الآن، خالة جان. سأعد شيئًا له، جميلة، ماذا يحدث؟ ما الأمر؟

– آه، رحيمة جان، حدث شيء فظيع! لا أعرف كيف أخبرك بتلك الأخبار الحزينة...

مادر جان، برقت في ذهني.

– ماذا حدث، جميلة؟ أخبريني!

– أختك! أختك بارفن أخذوها إلى المستشفى! لقد جُرحت جرحًا سيئًا جدًا!

بارفن؟

– أي مستشفى؟ كيف جُرحت؟

نهضتُ، حملتُ ابني بين ذراعيّ.

- لا أعرف سوى ما سمعته من بيبي كلالي.

التفتتْ جميلة إلى حماتنا التي قطبت وجهها ونظرت بعيدًا.

- أخبريها، أخبريها حقًا!

- يقولون إنها أشعلت النار في نفسها هذا الصباح...

لم أسمع شيئًا مما قالته جميلة بعد ذلك. وضعتُ جهنجر على الأرض وذهني ينغلق على ذاته. حاولتْ بارفن الانتحار. كل ما أمكنني تذكره هو ابتساماتها غير المقنعة، تأكيدها الواهن على أنها بخير، وأنهم يعاملونها جيدًا بما يكفي. لماذا لم أذهب لزيارتها هذا الصباح؟

جمّعتُ القطع معًا بعد ذلك بوقت طويل. أخذتني جميلة إلى بيتها لأرقد هناك. أحضرتْ جهنجر أيضًا وجعلتْ إحدى الفتيات الكبيرات في البيت تهتم به لتظل هي معي. ظللت أسألها ماذا حدث مرارًا وتكرارًا وكانت توضح لي الأمر ما أمكنها. سكبت بارفن على نفسها زيت طبخ في الصباح، فيما كانت النساء والأطفال يتناولون الإفطار. كان زوجها، عبد الحيدر، قد غادر البيت بالفعل.

جاءت زوجة عبد الحيدر الثانية، توبة، لتساعد في إخباري بما حدث. أوضحت أشياء، وحكت أشياء أخرى بالتواء وغموض، لكنني فهمتُ أنهم قد رأوا أختي ذاك الصباح بكدمة حديثة على وجهها.

قالت توبة أنهم لم يكن لديهم أدنى فكرة أن بإمكان أختي فعل شيء كهذا بنفسها. لم يكن هناك أي سابق إنذار. لم تكن بارفن قد قالت أي شيء، وفي الحقيقة، قالت توبة، إن بارفن ابتسمت لها الليلة الماضية. أردتُ أن أخبرها أنها كاذبة. أنا

اعرف الابتسامة الفارغة التي تتحدث عنها توبة. أردت أن أقول إنهم جميعًا عميان وأغبياء لكن لساني انعقد بالذنب. إن كنت انا، شقيقتها، قد تجاهلتُ سلوكها، ماذا أتوقع من ضرائرها؟ ماذا أتوقع من زوجها؟

سمعوا الصراخ. كانت قد أشعلتِ الثقاب في الفناء حيث وجدوها، حاولوا تغطيتها ببطانية لإخماد النار. كانت قد سقطتْ على الأرض، وكانوا جميعًا مرتبكين. فقدَتِ الوعي. أعادوها إلى البيت وحاولوا خلع ملابسها، وتنظيف حروقها، التي كانت كثيرة للغاية. تحدّثوا كثيرا حتى قرر أحدهم أخيرًا نقلها إلى مستشفى.

لم تكن أقرب مستشفى قريبة بالمرة. لم يكن زوجها سعيدًا باستدعائه للعودة إلى البيت للتعامل مع الموقف.

بطريقة ما، أرسلوا خبرًا إلى والديّ.

لا بد أن مادر جان قد فقدت عقلها من الفجيعة. حتى بادر جان، الذي تخلى عنا مقابل حقيبة نقود، كان يؤثر طفلته الفنانة. لا بد أن الخبر صدمه. كانت خالة شايما في بيتنا حين وصلهم الخبر. كانت في طريقها لرؤيتي. أردت أن أكون معها لكنني خفت من رد فعلها.

أرجوكِ لا تزيدي الأمر سوءًا يا خالة شايما.

لكنها كانت صوتنا. كانت تقول ما لا يجرؤ أحد على قوله. كنت في حاجة إليها. وصلتْ في المساء منقطعة النفس وعيناها دامعتان.

- *آه، بنيتي العزيزة، لقد سمعتِ بما حدث! مصيبة فظيعة! انا لا أصدق. الفتاة المسكينة!*

عانقتني بقوة. شعرت بعظام ترقوتها تنضغط في وجهي. لم ألحظ من قبل مدى نحولها.

- لماذا فعلتِ هذا يا خالة شايما! كنت سأذهب لزيارتها هذا الصباح لكنني لم أفعل. كيف أمكنها فعل هذا؟

ارتعشتُ للتفكير في كمّ الألم الذي لا بد أنها لاقته، ألم مرعب.

- أحيانًا يضغطون على النساء بشدة، يركلونهن بقسوة شديدة دون أن يكون أمامهن مخرج. ربما ظنت أن هذا مهربها الوحيد. آه، يا بنة أختي المسكينة!

كلنا في حاجة إلى مخرج. كانت خالة شايما محقة.

سألتُ خالة شايما توبة: ماذا قالت، أخبريني، أقالت شيئًا ما وهي في طريقها إلى المستشفى؟

هزت توبة رأسها. كان الأمر مريعًا. رائحة اللحم المحترق، الآلام المبرحة، الجزع. لم تستطع توبة وصف هذا الرعب لنا.

- ألم تتحدث قط؟ أكانت واعية؟

أوضحت توبة: كانت كذلك... كانت ترقد هامدة لكنها كانت واعية. كنت أتحدث معها، كانت تستمع إليَّ لكنها لم تقل شيئًا.

- لا بد أنها كانت تتألم بشدة! ليعينها الله، المسكينة!

- بالتأكيد سيعطونها أدوية في المستشفى يا خالة جان. ربنا قدير وسوف يحفظها.

قاومتُ رغبتي في البصق عليها، إنها تتظاهر، تتظاهر أن الأمر ليسَ بهذا السوء، إن بارفن لم تكن تتألم بشدة. إنهم في المستشفى التي تبعد مسافة يوم وفي حالة مزرية أساسًا، سيضمدون جراحها سريعًا. إن الله، الذي قدَّر في المقام الأول

أن كل هذا سيحدث، سوف يُصلح كل شيء. كان كل شيء لعبة تظاهر، مثلما كانت بارفن نفسها تتظاهر بأن كل شيء بخير كلما رأيناها. لم يكن ثمة صدق في حياتنا.

بدأتْ خالة شايما تندب. تمنيت أن تكف؛ كان صوت عويلها يصيب رأسي بالدوار، صاحت في توبة: أنتم دمرتموها، لو ماتت سيكون دمها في رقبة عائلتكم. أتفهمون؟ دم هذه الفتاة الصغيرة في رقابكم!

سكتت النساء. عضتْ توبة على شفتها وقاومتْ دموعها. تساءلتُ إن كان بإمكانها أن تَصْدقني القول.

سألتُها سؤالاً آخر.

أخبرتني وهي تبكي أن ربنا قدير وأنا العائلة كلها تدعو لبارفن وأنها في طريقها إلى المستشفى وأنهم يتمنون شفاءها حقًا.

أردتُ أن أصدقّها، أردت أن أصدق أن شقيقتي ستكون بخير، لكن عيني توبة أخبرتاني أن هذا ليس قدرها.

الفصل 31
رحيمة

توقفتْ بارفن عن التظاهر.. بعد عشرة أيام من الآلام المبرحة، نالت خلاصها أخيرًا.

أُعيد جثمانها ودُفنت في المقابر المحلية. حضر أبي الجنازة، كذلك عدد قليل من أعمامي وجدي.

في العزاء، رأيتُ أمي مجددًا، لأول مرة منذ يوم زفافي. لو كنا في ظروف طبيعية، لم أكن لأصدق ما صارت إليه.

- رحيمة! رحيمة، ابنتي، يا ربي! أتصدقين هذا؟ لقد أخذ الله ابنتي، بارفن الغالية! صغيرة للغاية! رحيمة جان، الحمد لله أنك كنت قريبة منها على الأقل!

كان شعرها خفيفًا وملبّدًا. خرجت كلماتها مبللة وبلثغة، فقدتْ عددًا من أسنانها. تهدّل جلدها وبدت أكبر من سنها. عانقتها بقوة، مذهولة من نحولها هي الأخرى مثل خالة شايما.

- مادر جان! مادر جان، لقد افتقدتك كثيرًا!

- وأنا أيضًا افتقدتك يا بنيتي! افتقدتكن جميعًا! أهذا ابنك؟ ليبارك الله في حفيدي!

- اسمه جهنجر، مادر جان. أتمنى... أتمنى أن يمكنك المجيء لزيارته. إنه طفل جميل.

ابتسمَ ابني، كاشفًا عن سنّيه السفليين. انتظرتُ أن تمد أمي ذراعيها لتحمله. لكنها لم تفعل. لمستْ خده بيد مرتعشة

ونظرتُ بعيدًا. بدا جهنجر محبَطًا مثلي من لا مبالاتها.

- آه، لقد أردتُ أن أزورك يا رحيمة جان، خاصة حين سمعت بولادة حفيدي، لكن خروجي من البيت ليس سهلاً، أنتِ تعرفين. وبيت زوجك ليس قريبًا. وبطفلين في البيت، لم أستطع أبدًا.

عضضتُ لساني، أتساءل لماذا لم تشق المسافة على خالة شايما وأعرف أنه بإمكان أمي إحضار الفتاتين معها أو تركهما مع إحدى زوجات أعمامي إن شاءت. كانت أمي أضعف مما توقعته.

جلسنا في عزاء النساء صفًا، جدار من البؤس والدموع. جاءت نسوة القرية لتقديم التعازي، يهمسن بعبارات العزاء نفسها لكل واحدة منا تلو الأخرى. بكت بعضهن حتى.. تساءلتُ لماذا؟! كان أكثرهن قد ضحكن لرؤية أختي وهي تحاول اللحاق بالأطفال الآخرين، دعونها بارفن إي لانج، وشكرن الرب بصوت عالٍ لأن أطفالهن ليسوا مثلها. جعلنها تشعر بنفسها ضئيلة ومذنبة. اليوم يتظاهرن بمشاركتنا حزننا عليها. احتقرت نفاقهن.

صلينا. جلست النسوة صفًا أمامنا، يهززن أجسادهن مع إيقاع القراءة، تمخطت العجائز وهززن رؤوسهن. كن يبكين علينا، لانت قلوبهن مع التقدم في السن، وبعد أن صرن أنفسهن، أقرب إلى القبر من معظم الأخريات. في الأيام العشرة الماضية، جفّت دموعي. جلستُ ساكنة، أراقب الوجوه أمامي بوجه خالٍ من التعبير. مدت مادر جان يدها لتمسك بيدي.

جلست رحيلة وستارة إلى يميني. هززتُ رأسي. كنت

مخطئة حين ظننت أنني لن أستطيع التعرف على أختيّ! لقد طالتا، كبرتا كثيرًا لكنّ وجهيهما لم يتغيرا. بدتا ملائكيتين وبريئتين. أمسكت بي رحيلة ولم تتركني.

- رحيمة، أهذا صحيح؟ هل ماتت بارفن حقًا؟ هذا ما قالته مادر جان لكنني لم أصدقها!

- ليته لم يكن كذلك.

كنت قد قررت أنّ لا خير في التظاهر.

- كيف حالك يا رحيلة؟ كيف الحال في البيت؟

- ألا يمكنك العودة إلى البيت أحيانًا؟ لقد ظل موحشًا للغاية منذ أن غادرتن جميعًا!

صدقتها. لقد شعرت بالوحشة نفسها. أراهن أننا جميعًا شعرنا بها، كلّ منا في ركنها من العالم، معزولة بجدران كثيرة للغاية.

- هل تعتنين بستارة؟

- نعم.

أومأت رحيلة برأسها. خطر لي أنها الآن في سني حين زوجوني. نظرتُ إليها وتساءلت إن كنت قد بدوت صغيرة هكذا. رأيت برعمي ثدييها بالكاد يبدأان في الظهور. كتفاها منحنيتان للأمام، صدرها منكمش للداخل. عرفت من قامتها أنها غير مرتاحة للتغييرات التي تحدث في جسدها. تساءلتُ إن كانت مادر جان قد تذكرت مسألة حمالة الصدر أم لا.

كانت ستارة في التاسعة من عمرها تقريبًا، متعلقة برحيلة أكثر من أمي. بدت مرتبكة في حضوري، كأنها لا تثق بأحد سوى رحيلة. همستُ: كيف حال مادر جان يا رحيلة؟

أعرف أنني سألفت الأنظار بتحدثي في العزاء، حتى ولو بصوت هامس، لكنها فرصتي الوحيدة لرؤية أختيّ. وقد أقلقني ما رأيته.

رفعتْ رحيلة كتفيها ونظرت إلى مادر جان خطفًا.

- إنها تظل معظم الوقت راقدة فحسب، تمامًا مثل بادر جان. تبكي كثيرًا، خاصة حين تأتي خالة شايما. ما يزيد من غضب خالة شايما فقط.

عند ذكر اسمها، نظرتْ خالة شايما نحونا. توقعتُ أن ترمقنا بنظرة توبيخ لكنها لم تفعل. لم تكن تأبه بأدنى قدر بتلك القواعد.

- هل تذهبان إلى المدرسة؟

- ليس دائمًا. هذا يعتمد على ما يقوله بادر جان. أحيانًا، حين تتناول دواء بادر جان، ينبغي عليَّ البقاء في البيت لأنظف وأُنهضها وألبسها. إن رأتها بيبي جان في تلك الحال تبدأ مشاجرة كبيرة دائمًا.

حدقت ستارة في الأرض لكنني أعرف أنها تستمع لمحادثتنا الهامسة. بدت متحفظة بشدة، مختلفة تمامًا عن الفتاة الصغيرة الاستجوابية التي تركتها. عدت أنظر إلى مادر جان وهي تمسح دموعها، تتمتم بغضب وتتململ في جلستها على الكرسي. دققتُ النظر في عظمتي وجنتيها، النظرة الثكلى في عينيها. كانت كل المشاعر خالية من المشاعر في آن واحد. كانت مدمنة بشدة مثل أبي تمامًا.

مادر جان، *ماذا حدث لكِ؟*

غاصت معدتي حين فكرت فيما قد يحدث لأختيّ. دعوت

الله أن يمد في عمر خالة شايما لتظل في حياتيهما. صرفتُ من ذهني فكرة أنهما قد تصيرا مدمنتين قريبًا.

كانت الأمور أسوأ مما توقعت، حتى بإخباريات خالة شايما القليلة.

- رحيمة، لماذا لم تأتِ شهلا؟

لم يُسمَح لشهلا بالمجيء. ولدتْ طفلها الثاني منذ وقت قصير وليس من الصواب خروجها من البيت وهي في تلك الحال. تساءلتُ كيف تلقّتِ الخبر، وحدها وبعيدة للغاية عنا جميعًا.

انتهت الجنازة وقراءة القرآن.. قرأت النسوة الفاتحة وكررن الدعاء لله بأن يُلهمنا الصبر في مصابنا، وأن يجعل بارفن بين الملائكة في النعيم، وهن يفكرن في نفوسهن أن هذا أفضل ما قد يحدث لها لتستريح من إعاقتها وطفولتها البائسة. أردتُهن أن يخفّفن جميعًا لأستطيع قضاء هذا الوقت الثمين مع أمي وأختيّ.

انقضى العزاء سريعًا. عدتُ إلى بيتي، أكثر بؤسًا. كانت مادر في حال سيئة. رحيلة تحل محلها كأم. كيف حدث هذا لنا؟ كنت الوحيدة من بين أخواتي التي تسنت لها فرصة عيش طفولة من أي نوع، ولم يكن ذلك سوى لأنني كنت *باشابوش*. نظرتُ إلى ابني وحمدتُ الله لأنه فتى. ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة سعيدة، أهدابه طويلة للغاية لحد بدا أنها قد تتشابك. على الأقل لديه هو الفرصة.

أردتُ أن أكون وحدي لكن فرص هذا قليلة في البيت. بانقضاء العزاء انقضت فترة حدادي. كان من المتوقع مني مواصلة مهامي. عاملتني بيبي كلالي تمامًا مثلما اعتادت، إن لم

يكن أسوأ، ظني أنها أقنعتْ نفسها أن انتحار بارفن كان إهانة مقصودة لعائلتها. بوفاة بارفن، حملتُ أنا ذنب المأساة التي جلبتها على العائلة الكبرى.

تجاهلتُ كل شيء وكل شخص. قمتُ بواجباتي، جهنجر معي دائمًا على مبعدة أقدام مني، نائمًا أو يلعب. كنت أراقبه بأسى، أعاهد نفسي على أن أكون له أمًا أفضل من أمي. لحسن الحظ لم يكن عبد الخالق يواجه صعوبة في إطعام وكساء عائلته. كان جهنجر ابنه، مثله مثل الأولاد الآخرين في البيت. سيذهب إلى المدرسة ويتمتع بمزايا كونه ابن زعيم حرب.

وكان أبوه يحبه بطريقة أدهشتني وأراحتني. كان عبد الخالق يحتفظ بمسافة بينه وبين بناته لكن أبناءه يظلون بجانبه. كان أكبرهم يرافقه في بعض اجتماعاته حتى. كان الصغار منهم يركضون بخوف حين يعود إلى البيت، يخشون صياحه فيهم لأنهم يقضون وقتًا طويلاً جدًا في اللعب. لم يكن يطيق بكاء الرضّع لكنه قد يراقبهم وهم نائمون، ما عدا ابني؛ كنت كثيرًا ما أراه يربت برفق على خد جهنجر أو يهمس في أذنه بشيء ما. كان يحمله بالقدر نفسه من الحب الذي أحمله أنا به. يقهقه حين يتمتم الصغير بأشياء وينتفخ صدره بالفخر حين يسمعه يقول «بابا»، كأنه يسمع الكلمة لأول مرة. كان الإيقاع الهادئ لتنفس ابنه وهو نائم يخمد أشد ثوراته المزاجية حدة. كنت سعيدة بكون جهنجر ابنه المفضل، أعرف أنني لن أكون كذلك قط. على الأقل كان ابني آمنًا.

كان الأولاد الأكبر، إخوة ابني غير الأشقاء، يخافون أباهم ويعشقونه في الوقت نفسه. كانوا يتبارون للفت انتباهه ويبحثون

عن سبل إرضائه، أو درء غضبه على الأقل. يقف الكبار منهم منتصبي القامة وهم يتلون سورًا من القرآن، فيما يذهب الصغار لإحضار صندله حين يطلبه. كان فخورًا بأبنائه الصبيان. يبتسم لهم هم دونًا عن الجميع.

كان زوجي يقضي وقتًا متزايدًا مع الأجانب ومستشاريه المقربين، يضعون الخطط. كانت الزوجات في قمة التوتر، وبدرية وحدها كانت تعرف لماذا. إن لم تسر الأمور جيدًا مع عبد الخالق، فلن تسير جيدًا معنا. حين سألنا بدرية، لوحت لنا بتغطرس قائلة: لا تشغلن أنفسكن بالقلق بشأن هذا. إنه يعمل كثيرًا لأنه يعيد التفاوض على ترتيبات اتفق عليها مع بعض هؤلاء. الأمر معقد لأشرحه لكُنّ.

لا ترغب في مشاركتنا المعرفة التي تميزها عنا. يناقش عبد الخالق تلك الأمور معها بصفتها زوجته الأولى. هذا هو التفاعل الوحيد حقًا بينها وبينه بعد أن صار نادرًا ما يدعوها إلى فراشه. كان لكل شخص دوره في البيت، وكان هذا دورها.

لكن الجدران لها آذان، وكنت أقضي معظم الوقت في القسم الرئيس من البيت. بدأتُ أتسمّع أشياء حين يجتمع عبد الخالق ورجاله في غرفة الجلوس.

- يوجد خمسة مقاعد أخرى للإقليم. مقعد منطقتنا شاغر. قليل من الرجال ذوي النفوذ قد يتقدمون لمنافستك، لكن امرأة ستفوز بالتأكيد. ستحصل على المقعد بلا شك بسبب تلك القواعد الغبية التي وضعوها.

- أنا لا أحب تلك الفكرة. لماذا علينا أن نضع امرأة في منصب رجل؟ والأسوأ من هذا، أنت تطلب مني أن أضع زوجتي

مكاني؟ منذ متى نضع النساء في مناصب الرجال؟
- أفهم هذا يا صاحب حقًا، وصدقني، أنا لا يعجبني الأمر
مثلك تمامًا، لكن هذه هي القواعد. أنا فقط أبحث عن طريقة
للالتفاف حول النظام لئلا نفقد سيطرتنا على المنطقة.
الانتخابات قريبة. علينا التخطيط لها.
- اللعنة على من وضع تلك القواعد المشينة أيًا كان! يخبرنا
أن يكون لدينا نساء نائبات؟ ليس للنساء شأن هناك! من سيعتني
بالأطفال إذن؟
كان مستشاروه صامتين. استطعت سماع زوجي يروح
ويجيء، يغمغم. فوجئت بما سمعته. بدا أنهم يقترحون عليه أن
تشارك إحدى زوجاته في الانتخابات القادمة! هل سيفكر في
خطوة كهذه حقًا؟ نحن الزوجات نادرًا ما نغادر البيت. كيف
سيمكنه إرسالنا للتعامل مع غرباء؟
نظرت إلى ساعة الحائط. ظل جهنجر نائمًا أربعين دقيقة.
سيستيقظ خلال وقت قصير. وقد وعدت خالة شايما أن تأتي
لزيارتي اليوم. غدا سينقضي أربعون يومًا على وفاة بارفن.
- أنا فقط أقترح حلاً يا صاحب. أعرف أنه ليس حلاً
جذابًا لكنه قد يكون الحل الوحيد أمامنا. أنا فقط لا أريدك أن
تفقد أي فرصة لكسب نفوذ في المنطقة. أنت في وضع جيد
بالفعل بالاتفاقات التي عقدتها.
تصاعد الدخان من أسفل الباب، رائحة الأفيون الحادة
الكثيفة. تذكرت بيتنا، أبي نائم في غرفة الجلوس وأمي تجلس
تخيط ملابسنا.
شارك صوت آخر: هذا حقيقي، لا أحد آخر يمكنه ضمان

الأمن مثلنا، خاصة أعلى الجسر. هؤلاء الأجانب، بالتأكيد لن يرسلوا جنودهم لحراسته. إنهم يعتمدون علينا. خط الغاز هذا ليس مشروعًا صغيرًا. لقد ظلوا يتحدثون عنه سنوات عديدة، وهذه المرة يبدو أنه سيحدث بالفعل.

- هذا حقيقي. لقد ضخوا أموالاً كثيرة في تلك المواسير، وهذه المنطقة ملكك أنت يا صاحب. وسيكون من العار أن تفقد ولو جزءًا من سيطرتك عليها.

يتحدث الصوت بحرص وحذر.

صاح فيه عبد الخالق: أعرف هذا! أتظن أنني لا أعرف هذا؟ لا أريدك أن تخبرني بأشياء أعرفها بالفعل!

لم أرد الوجود بالقرب منه لأكثر من هذا لأنني كنت أعرف ما سيحدث، حملت ابني وعدت إلى غرفتي أنتظر خالة شايما، أردتها أن تشغل ذهني عن كل هذا. أن تحكي لي عن خطة بيبي شكيبه الغامضة.

الفصل 32
شكيب

انتظرتْ شكيب الوقت المناسب. كانت محبوبة نادرًا ما تجلس وحدها، لكنها الشخص المناسب، قررت شكيب. لقد أنجبت للملك أربعة أبناء.

كانت أوّل خطوة في خطة شكيب أن تكتشف ما فعلته محبوبة. كيف استطاعت إنجاب أربعة أبناء في حين يظل نساء أخريات ينجبن فتيات فقط؟ لا بد أنها تفعل شيئًا ما مختلفًا لئلا تلد فتاة واحدة.

كانت أعمار أولادها تتراوح بين عام وسبعة أعوام. حين دخلت شكيب، كانت محبوبة تحمّم أصغر أبنائها. بحثت عيناها عن منشفة، كان الصبية الآخرون بعيدًا يلعبون.

- شكرًا لك! ظننت أن لديَّ منشفة هنا.

قالت محبوبة لشكيب التي ناولتها منشفة من رف قريب. كان خصرها الممتلئ قد زاد عرضًا مع كل حمل لها. أمسكتْ بيد صبور فيما تجففه.

تمتمتْ شكيب: عفوًا.

كانت قد أثبتتْ جدارتها لنساء الملك حقًا. لم يكن من طبعها بدء محادثات، لكنها أجبرت نفسها على التفوه بالعبارات التي تمرنت عليها.

- أبناؤك رائعون.

- الحمد لله، إنهم نعمة كبيرة.
تنهّدت، كان الفتى يحاول الهرب من قبضة أمه. يلاحق إخوته بعينيه.
- الأخريات لديهن فتيات، أغلبهن. أنتِ محظوظة.
- نعم، حسنًا، بعضنا أنعم الله عليه بالبنين وأخريات عليهن حمل البنات.
- لقد أسعدتِ الملك للغاية.
بدا جليًا على محبوبة تعجبها من هذه المحادثة. استدارت لتنظر إلى من تتحدث.
- آه، أنتِ! ما اسمك؟
- شكيب.
قالت وهي تنظر إلى محبوبة مباشرة. كانت قد ارتاحت تمامًا بين نساء الحريم خلال الأسابيع القليلة الماضية. كن منشغلات للغاية بانتقاد بعضهن البعض، فلم ينتبهن للحارس المرأة الجديدة ذات الوجه الذائب. لم تعد شكيب تفتقد شد حجابها لتغطية خدها. عرفت الحرية في السير بيديها في جيبيها والشمس على وجهها.
- صحيح، شكيب، دعيني أسألك سؤالاً. ما اسمك الحقيقي، عزيزتي؟ اسمك كفتاة؟
تململتْ شكيب. فاجأتها محبوبة بهذا السؤال.
- اسمي شكيبه.
- فكرة ذكية. ظني أن هذه فكرة غفور. هل تتفقين أنتِ والأخريات جيدًا معها؟ أحيانًا تكون مزعجة حقًا.
قالت شكيب بغموض: بالطبع.

- أمر سخيف جداً أن يُلبسوكن هذا الزي الرسمي. وكأن احدهم قد ينسى أنكن لستن رجالاً. كأننا في حاجة لحرس على كل حال. إننا بحاجة إلى المزيد من الخدم ليساعدونا مع اطفالنا. لكن هذا سيثير الحس الأمني للملك.

- بعضهم ينسى.

- تتسون أنكن نساء؟ أتظنين هذا حقًا؟

كانت محبوبة تكافح لإلباس ابنها الذي كان يخربش وجهها باعتراض غاضب. أدارته وحجزته بين ركبتيها. نظر الطفل إلى شكيب بتجهمٍ مهزوم.

- كيف وصلت إلى هذا... كيف تمكنتِ من إنجاب البنين؟

- ماذا؟

- أريد أن أعرف كيف تمكنتِ من إنجاب كل هؤلاء الفتيان؟ ماذا فعلت؟

ضحكت محبوبة بشقاوة.

- اتريدينني أن أبدأ بالأساسيات؟ أنتِ ترتدين كالرجال لكنك لا تدرين شيئًا عن أعضائهم، صحيح؟

احمرّ وجه شكيب وتمتمت بتلعثم: أقصد... لا، ليس هذا ما قصدته. كنت أسأل كيف... إن الأخريات ينجبن البنات، كيف نجحتِ أنتِ في ولادة بنين بدلاً من بنات؟

- أتظنين أنك أول من تسألني هذا السؤال؟ لقد جاءت أغلب نساء الحريم إليَّ يبحثن عن الإجابة نفسها. لقد أنجبتُ للملك بنينًا أكثر من أي امرأة أخرى!

تريد محبوبة أخذ وقتها في التفاخر. انتظرتها شكيب.

- لقد أنجبت له ابنًا تلو الآخر ولا شيء سوى الأبناء! لهذا

ينظر إليَّ بعينين ناريتين وقلب يملؤه الاحترام. أنتِ فتاة/فتى حكيمة. تبحثين عن مفتاح إرضاء الرجل.

جعلت رطوبة حمام البيت أنفاس شكيب ثقيلة. تساءلتْ إن كانت محبوبة ستبوح بسرها أبدًا. ربما كان كل هذا خطأ.

- لكن أخبريني، لماذا تسألين هذا السؤال؟ أنتِ رجل الآن، ألست كذلك؟ هل ستعودين امرأة؟ هل ستتزوجين؟

هزتْ شكيب رأسها.

- لا أظن ذلك. لماذا إذن تطلبين إجابات ليس لك شأن بها؟ هل أرسلك أحد لتسأليني؟ من الذي أرسلك؟ أهي شكرية؟ لقد رأيت كيف تنظر إلى أبنائي. لديها خمس بنات. هل تتخيلين؟ تلك الدجالة. سأريّها إن أصابت عينها الحاسدة أحد أبنائي.

- لا، لم يرسلني أحد!

جزعت شكيب، لم ترغب في إثارة أي مشاكل بين النساء، إن أدى الأمر إليها في النهاية، لن يساعد هذا في موقفها.

- فريدة؟ لها عين شيطان هي الأخرى... لا يمكن الوثوق بها. لا يجب أن تتجولي في الحريم لتؤدي للنساء مثل تلك المهام!

تدبر ابنها تحرير نفسه أخيرًا. تنهدت محبوبة، أحد جوربيه مفقود.

- سامحيني. أنا لم يرسلني أحد. كنت... كنت أسأل من باب فضولي الشخصي.

- هل يريدك رجل؟

- أنا.. لا، أنا فقط...

قررت شكيب أن تنهي هذه المحادثة.

- أنا أمزح معكِ. سأخبرك ببعض الخدع إن وعدتني...

توقفت محبوبة ونظرت يمينًا ويسارًا بشكل درامي. انخفض صوتها إلى همس.

- إن وعدتني أنك لن تفشي تلك الأسرار لأي شخص آخر. يمكنك عمل تلك الخدع إن وجدتِ نفسك تحت رجل يومًا وما ورغبتِ في منحه ابنًا.

جلست شكيب القرفصاء بجوار محبوبة، أذناها ساخنتان. لم تكن تتوقع بعض ما سمعته. وما كان ليمكنها تكراره أبدًا. لكنها سجلت كل شيء في ذاكرتها، آملة أن تفيد منه في وقت ما. مرحلة القمر، بذور زهور صفراء، عصير تفاح خالٍ من البذور البنية. كانت تلك هي الأمور البسيطة. لكن الأمور الأخرى، ما يتم فعله مع الرجل، هي ما جعلت شكيبه تتساءل إن كانت محبوبة تسخر منها. مع ذلك لم يكن من أثر للخداع في عينيها. كانت تتحدث بسلاسة، كأنها تتحدث عن أمور شائعة وعادية. إنها كذلك بالنسبة إلى محبوبة. لكنها ليست كذلك لشكيب.

هل تسمح النساء للملك بفعل تلك الأمور حقًا؟ فكرت في حليمة ولم تستطع تخيلها. ثم فكرت في سكينة، طريقة سيرها، نصف عارية، إلى غرفة الملك وطرقها على الباب بخجل مصطنع. قد يكون الأمر حقيقيًا.

لم تستطع منع ذهنها من الانجراف إلى أمان الله، حاكم كابول. فكرت في طريقه مشيه، خطواته الواثقة، أصابعه تتحسس الزهور برقة. تساءلتْ كيف ستشعر وهي بالقرب منه، وأنفاسه على وجهها، رطبة ودافئة كالهواء في غرفة مسبح الحريم. تخيلت أصابعها تتحسس حافة لحيته المهذبة والأوسمة على زيه العسكري تضغط على صدرها المحرر من القيود.

هزتْ رأسها وتمنت ألا يشي وجهها بأفكارها.

في الليل، تنام الحارسات في غرفة بجوار بيوت المحظيات. يتناوبن ورديات الحراسة. كانت الليلة نوبة حراسة شكيب. برد كابول القارس لا يزعج شكيب. أحكمت لف معطفها حولها وفركت يديها معًا. تذكرت أول ليلة حراسة لها، قضتها كلها منتبهة، مرعوبة من أن يجدها أحد نائمة أو يتسلل إليها. بحلول الصباح كانت قد سحبت سلاحها، هراوة ثقيلة، عدة مرات لإخافة ضفدع ذهب في تجواله بعيدًا عن البركة فحسب. كادت تنهار حين جاءت غفور لتسألها كيف كانت ليلتها.

– لماذا توجد أصوات كثيرة جداً في الليل؟ يوجد ضفادع وأبراص وجنود يسعلون ويروحون ويجيئون! قلتِ إن عليَّ أن أقف في الليل الهادئ حتى الصباح. لم يكن ليلاً هادئًا بالمرة!

ضحكتْ غفور بصوت عالٍ. استدار جنديان، عقدا حاجبيهما استنكارًا لسماع امرأة تضحك بصوت عالٍ، حتى وإن كانت امرأة/رجل.

– هل أخافتك الضفادع؟ حسنًا، أيتها الفتاة القروية، لم أظن أن قليلاً من الكائنات الليلية ستصيبك بكل هذا التوتر!

شعرت شكيب بالإحراج قليلاً.

– لم تكن الضفادع، كانوا جنودًا في الغالب... إن صوتهم عالٍ لكنني لم أستطع رؤيتهم. ظننت أن...

– لا تقلقي بشأن هذا. ستكون الليلة التالية أسهل عليك. ستعتادين على أصوات القصر ليلاً، قد تحبينها حتى أكثر من أصوات النهار.

كانت غفور محقة، مع ذلك احتفظتْ شكيب بتلك الحقيقة لنفسها. على مدار الشهور القليلة التالية، صارت تحب الجلوس

في الظلام، يلقي الضوء الخافت المنبعث من مقر الملك مع مصابيح زيتية قليلة وهجًا كافيًا لخلق لعبة ظلال. تبتسم شكيب حين يتخذ بعضها شكل حيوانات، وضحكت حين اتخذ أحدها شكل جدتها.

كانت طارق ترافقها في الليالي التي يجافيها فيها النوم. كانت قد وقفت في حضرة الملك عدة مرات وبالكاد لاحظها. كانت تفقد الأمل في أن تكون الزهرة التي سيقطفها الملك من البستان، كما كانت تصيغ حلمها. كانت متوترة، تقرض أظافرها وتمسح جبينها. لكن شكيب لم يزعجها صحبتها.

- إن غفور تشخر مجددًا.

أومأتْ شكيب برأسها.

- الأمر مثل النوم بجوار حصان بحلق محتقن. لا أستطيع تحمله. لا أعرف كيف يتجاهلنه الأخريات.

- ستتكر الأمر في الصباح.

ابتسمتْ طارق.

- هل حدث شيء ما في القصر؟

- لا، لا شيء حتى الآن.

كان الجو هادئًا في الحدائق، لكن القصر لا يسهل التنبؤ بأموره. كان الناس يجيئون ويغادرون في أوقات غريبة أحيانًا. ومن حين لآخر، كان الملك حبيب الله يتوق إلى إحدى المحظيات في ساعات الليل الحالك.

كان الحراس صامتين. تنهدتْ طارق. شيء ما يشغل بالها. سألتْ: هل أنتِ سعيدة هنا؟

- سعيدة؟ ماذا تعنين؟

- أعني، هل أنت سعيدة؟ هل يرضيكِ هذا؟

– لقد رأيت ما هو أسوأ.
– ألا تفتقدين عائلتك؟
– أفتقدهم بقدر ما يفتقدونني.
لم تعرف طارق كيف تفسر رد شكيب. فهمت من نبرتها أنها لن توضح. شدت شعر ناصيتها، حاولت توصيله إلى حاجبيها.
– لكن، إلى متى تظنين أننا سنظل هنا؟
– لا أعرف.
– أتساءل عن هذا أحيانًا.
– عن ماذا؟
– عن ماذا سيفعل بنا القصر. إلى متى سيحتفظون بنا هنا؟ أريد أن أتزوج. أود أن يكون لديَّ أطفال وبيت. أن أعيش في مكان ما آخر، ألا تودين ذلك؟
كانت طارق، في ملابس الرجال، امرأة رغم كل شيء. كان صوتها يتهدج تقريبًا. كانت شكيب تفهمها بقدر أكبر مما تعلن عنه. كان عليها حماية خطتها الخاصة.
– لا أعرف. إن حياتنا مريحة هنا.
تنهدتْ طارق بعمق.. إنها مريحة، لكنها ليست طبيعية. أنا لست مثل غفور. أو حتى كريم. لا أريد أن أظل أرتدي بنطالاً لما تبقى من حياتي. لقد كنت سعيدة كفتاة.
قاطع شكوى طارق صوتُ صفق باب. تجمدت الحارستان وبحثتا عن مصدر الصوت. ركزتا أعينهم في الظلام، تحاولان تحديد موقعَ صوت الخطوات.
– أين كان...
– شششش! همست شكيب.

لاح ظل يتحرك سريعًا عند الباب الجانبي للحريم. كان احدهم يعود ركضًا إلى القصر.

- أتظنين أنه الملك؟

لم تظن شكيب ذلك. لا يغادر الملك حبيب الله الحريم من الباب الجانبي. وهو ليس بحاجة إلى أن يتسلل من الحرس أيضًا.

صاحت شكيب وهي تلف أصابعها حول هراوتها: من هناك؟

أسرع الظل خطوه، مر أسفل الوهج الأصفر للمصباح الزيتي. من عرض الكتفين وتكوين البنطال، ميزتا أنه رجل. رجل في الحريم؟ قالت شكيب: هذا غريب. انتظري هنا. سأتفقد الأحوال في الداخل.

لكن الحريم كان هادئًا. سمعت شكيب الشخير الخافت. لقد جاء الرجل من مكان ما مع ذلك. انتظرت، أصخت السمع لأي حركة. سارت في الرواق على أطراف أصابعها ببطء. وبحرص.

حين تجاوزتْ غرفة الحمام وتفقدَتِ الرواق على الجانب الآخر منه، عادت أدراجها. شيء ما يتحرك في الردهة. ركزت بصرها في الظلام فيما تستدير إليها قامة.

- أوجدتِ شيئًا؟

كانت طارق.

تنهدتْ شكيب وهزتْ رأسها. عادتا إلى هواء الليل في الخارج ونظرتا في الفناء، عبر الحدائق، إلى القصر. لا شيء يتحرك. تساءلتْ شكيب من قد يكون هذا؟ أحدهم زار إحدى محظيات الملك. من قد يجرؤ على التسلل إلى الحريم؟ ومَن مِن المحظيات قد تسمح لأحد بالتسلل إلى غرفتها؟

جلستا صامتتين، يقلبان الفكرة نفسها. إن اكتشف أحدٌ في القصر، سيُلقى باللوم على الحارسات.

الفصل 33
شكيب

دخلت شكيب وطارق مقر النوم حين طلع الصبح، لم تسمعا ولم تريا شيئًا آخر لبقية الليل. كان الجنود يسيرون في الأنحاء الآن والخدم يهرولون. الملك يتوقع زوارًا تقريبًا.

استيقظت غفور، رفعت يديها أعلى رأسها وهي تتثاءب. فركت الأخريات عيونهن. سألت غفور مندهشة: طارق؟ لا زلتِ مستيقظة؟

قالت شكيب بهدوء: حدث شيء ما ليلة أمس، شيء ما يجب أن تعرفنه كلكن.

حظيت كلماتها، النادرة في العادة، بانتباههن كاملاً.

- لقد رأينا شخصًا ما يغادر الحريم من الباب الجانبي، الذي يجب أن يكون مقفلاً. بدا كأنه رجل. ركض نحو القصر لكننا لم نرَ وجهه في الظلام.

- لا بد أنه الملك. أنتِ تعرفين، تأتيه رغباته في أوقات غريبة.

هزت طارق رأسها.

- لم يكن الملك، صدقيني. أنا أعرف قامته. كان ذاك أنحل، وأطول. والملك لا يتسلل من الباب الجانبي ليدخل ويخرج. إنه يأتي ويذهب كما يشاء، حتى في الأوقات المتأخرة. كان ذلك شخصًا ما آخر.

مالت غفور وكريم إلى الأمام؛ تدركان الآن فقط ما تلمّحا

شكيب وطارق إلى حدوثه ليلة أمس. نظرت قاسم إلى وجه أختها المشغول. سألت كريم: هل سمعتما أي شيء في الداخل؟ هل كان أحد مستيقظًا؟

قالت شكيب بنبرة باردة وجادة: لا شيء. سرتُ في الأروقة ولم أسمع شيئًا البتة، ولم أرَ أحدًا. أيًّا كان من سمح له بالدخول لم يصدر صوتًا.

قالت غفور: بالطبع، لكن إن كان هذا قد حدث مرة، فالأرجح أنه قد حدث مرتين وثلاث وأكثر. لدينا هنا مشكلة خطيرة أيتها الحارسات. لو عرف الملك أن أحدهم يتسلل من تحت أنوفنا ليقوم بزيارات سرية إلى حريمه الخاص، فعلينا جميعًا أن نصلي صلاة الوداع.

سألت قاسم بعصبية: هل علينا إخبار أحد ما في القصر؟

صاحتْ غفور: لا، بالطبع لا! علينا أن نكتشف ما يمكننا فعله وحدنا وأن نوقف انفجار هذا الأمر في وجوهنا.

أومأت كريم وطارق برأسيهما موافقتين. وقفت شكيب صامتة. غفور تتولى الأمر الآن.

- أول شيء، علينا التحدث مع المحظيات، بشكل خاص، واحدة تلو الأخرى، ولنرَ إن كانت إحداهن لديها أي معلومة.

قالت قاسم: أتظنين أن من سمحت له بالدخول ستخبرنا؟

- لا، لن تخبرنا بأي شيء، أنا واثقة بهذا. لكن إن كان هذا ما يحدث، فلا بد أن واحدة منهن قد سمعت بشيء ما، وأنا واثقة بأن واحدة أخرى سيسرها التحدث عن الأمر. أنتن تعرفن كيف يتعاملن مع بعضهن البعض، لا يفوّتن فرصة لتمزق إحداهن الأخرى إربًا.

قالت طارق: ما لا أصدقه أننا لم نسمع بالأمر حتى الآن بالفعل.

- كان هذا سيحدث عاجلاً أو آجلاً. إنها مسألة وقت فقط حين يوجد نساء كثيرات جدًا في بيت واحد، تثير إحداهن مشاكل بلا شك.

تحدثتْ غفور بثقة، كأنها كانت تتوقع هذا منذ شهور.

رقدت شكيب وطارق لتنالا قسطًا من الراحة. ذهبت الأخريات إلى مواقعهن. عدلن جدولهن لتغطية نوبة طارق أيضًا لتتمكن من إغماض عينيها الحمراوين لساعات قليلة. منح الموقف غفور طاقة جديدة. كان وجهها جادًا ونبرتها صارمة. أصدرت الأوامر كجنرال في الجيش يأمر جنوده.

تبادلتا كريم وقاسم النظرات لكنهما لم تعلقا بشيء.

لم تستطع شكيب النوم. منذ أن رأت ذاك الظل المتحرك، استقر في معدتها شعور ما، شيء ما سيحدث. رقدت على جانبها، تنظر في شقوق ونتوءات الحائط الحجري. ليست في قريتها الآن، ولا في بيت عزيز الله حتى، إنها في قصر الملك، لدى أصحاب البيوت الأكبر مشاكل أكبر.

جاءها النوم أخيرًا، ولكن لوقت قصير. في الظهيرة، نهضت وارتدت زيها. وجدت كريم في غرفة المسبح. خمس نساء يجلسن في المياه. نظرت شكيب لأعلى ورأت الشرفة خالية.

- هل سمعتِ أي شيء؟

هزت كريم رأسها.

- تقول غفور إن لديها شكوكها لكن لم تتحدث واحدة منهن حتى الآن. لقد سألت اثنتين، بريزة وبنازير، إن كانتا قد سمعتا

.ميئًا ما ليلة أمس لكنهما لم تسمعا شيئًا. سألنا من لديهن أطفالاً فقط، إذ ليس من المحتمل أن يكن هن من استقبلن الزيارة الليلية.

أومأت شكيب برأسها. منطق معقول.

– لكن ليس من الحكمة إثارة الأمر كثيرًا لئلا تخبر إحداهن الملك حبيب الله عما نسأل عنه...

تنهدتْ كريم بعمق.

– توجد طرق كثيرة جدًا لانفجار هذا الأمر في وجوهنا نحن.

قالت شكيب: هكذا تسير الأمور، يجب أن يقع اللوم على شخص ما دائمًا.

كانت ما تزال ترى أصبع بوبو شاهكل المعقوف يشير نحوها، عيناها الخرزيتان تملؤهما الكراهية.

لم يجلب الأسبوع التالي أي اكتشافات، لا سبيل لمعرفة من جاء لزيارة الحريم. كانت عودة الزائر تارة أخرى هي الدليل الوحيد على أن شكيب وطارق لم تتوهما الأمر. بعد خمسة أيام فقط من رؤيته أول مرة، شُوهد مجددًا وهو يغادر. تلك المرة كانت نوبة حراسة قاسم الليلية.

أيدت أوصاف قاسم ما قالتاه شكيب وطارق من قبل.

سألتها غفور بنبرة آمرة: هل لاحقته؟ هل رأيتِ وجهه؟

– لا... رأيت فقط...

قالت غفور وهي ترفع ذراعيها لأعلى مرهقة: وقفتِ هناك ساكنة؟ نحن نحاول أن نعرف مَن هذا وأنتِ تقفين هناك فقط؟ عمل رائع لحارسة في الحريم!

- كان يسير بسرعة شديدة. ولم أظن أن عليَّ...

قالت كريم بانزعاج: انسي الأمر. لا بأس. لا جدوى من ملاحقته. لعله يعرف بالفعل أننا رأيناه والواضح أنه لا يهتم. إنه لا يخاف سوى من القصر. وهو يعرف أننا ليس بيدنا شيء.

- ماذا تقولين؟ لو كان لدى قاسم أدنى قدر من الشجاعة لاستطاعت...

صاحت كريم: يمكنك إذن الوقوف مكانها في أثناء نوبتها وملاحقته بنفسك!

كانت قد ضاقت من تحكُّمات غفور. زمّت غفور شفتيها وصمتت.

تسربت التلميحات في أرجاء الحريم ووصلت إلى مقرات الحرس. تشعر مجموعتهن الصغيرة بالضغط الآن يقوض الصداقة الرفيعة التي تشكلت بينهن. راقبتْ شكيب اتساع الشقاقات، أسبوعًا بعد آخر.

كان الرجل يزور الحريم أسبوعيّاً تقريبًا. بحسابات غفور. لم يكن يظهر خلال نوبات حراستها هي لكن الأخريات شككن في هذا الاستنتاج. الأرجح أنها كانت تتجاهله؛ إذ كانت هي الأخرى لا ترغب في ملاحقته في منتصف الليل. الأفضل أن تكتشف أمر المرأة وتنهي الأمر من هناك.

في تلك الأثناء، قررتْ شكيب أن تواصل التأسيس لخطتها. كانت قد تحدثت مع عدد قليل من النساء لغرض معين في نفسها سألتهن إن كن قد سمعن أي شيء، أي أصوات غريبة في الليل وفي أثناء ذلك تجد طُرقًا لذكر عائلتها. كانت تحكي عن عائلتها بخجل وارتباك، عن البنين الذين أنجبتهم أمها، وخالاتها، وجدتها.

النساء في عائلتنا ينجبن بنينًا كثر. كنت أنا الفتاة الوحيدة.

نظرات فضولية. لم تدرِ النساء لماذا تذكر الحارسة ذات الوجه المشوه تلك المعلومات عن عائلتها لكنهن كن يومئن بأدب ويواصلن شؤونهن. أو يلوحن لها لتبتعد وهن يعقدن حواجبهن. لكن شكيب ثابرت.

حدسها يخبرها أنها لا تملك الكثير من الوقت.

الفصل 34
رحيمة

قلت: بدت مريعة يا خالة جان، لم أتخيل رؤية أمي على هذه الحال قط. ستبكي شهلا كثيرًا لو رأتها!

خطر لي مع ذلك أن شهلا هي الأخرى ربما قد تغيرت. لم تعد واحدة منا كما كانت منذ ثلاث سنوات. لديها طفلان الآن. كنت أفكر فيها وأنا أنظر إلى شاهيناز، أتساءل كيف تعاملها عائلتها الجديدة. أدعو الله أن تكون أفضل حالاً مما كانت عليه بارفن.

تنهدت خالة شايما: رحيلة ذكية. أتمنى فقط أن يرسلاهما إلى المدرسة، هذا كل ما أريده لكُن جميعًا، قدر من التعليم يمكنكن به مواصلة حياتكن.

سألتُها بيأس: فيما نفعني التعليم؟ لقد ذهبت إلى المدرسة أعوامًا قليلة ولم ينفعني هذا في شيء، أين أنا الآن؟

- سترين فيما بعد، لا شيء يضيع. انظري إليَّ، أنا محظوظة لأنني تعلمت القراءة. إنها كالشمعة في غرفة مظلمة. ما لا أعرفه، يمكنني اكتشافه بنفسي. ليس أسهل مِن خداع مَن لا يمكنه معرفة شيء بنفسه.

سكتُّ. ما زلت لا أرى نفع الدراسة. كانت خالة شايما الوحيدة من بين أخواتها التي واصلت الدراسة حتى الصف الثامن، لأن أحدًا لم يتقدم لطلب يدها. وباستثناء قراءة

الجريدة، أو كتاب ما من هنا أو هناك، لم أرَ كيف جعل التعليم حياتها أفضل. لم تستطع منع ما حدث لي ولأخواتي.

قالت خالة شايما: ستكون أمك بخير...

أخطأت فهم تعبير الارتياب على وجهي.

- إنها روح الإنسان، أتعرفين ماذا يقولون عن روح الإنسان؟ إنها أقسى من الصخر وأرق من بتلة زهرة.

- بالطبع.

- إن أمك تحمي نفسها. تحمي روحها، تجعل بتلة الزهرة بقسوة الصخر بالدواء الذي يأتي به أبوكِ إلى البيت لأنه طريق النجاة الوحيد أمامها. عليك أن تفعلي مثلها، بشكل مختلف بالطبع. لا تنسي أنك أيضاً كذلك، جزء منك بتلة زهرة والجزء الآخر صخر.

تنهدتُ.

- ذلك الدواء اللعين. الآن بعد أن صار عبد الخالق صهر أبيكِ، يمكنه نيل ما يشاء منه. يوجد الكثير جدا منه لدرجة أن أمك لا تستطيع مقاومته.

قلتُ بمرارة أكثر مما قصدت: لقد ربحا جيدًا من تلك الصفقة.

كنت أحيانًا أعدُّ أمي ضحية. وأحيانًا أخرى أفكر أنها شريكة أبي في المؤامرة. في كلا الحالتين، أخواتي هن من عانين. نظرت إلى جهنجر وأقسمت ألا أفعل هذا به أبدًا.

- يمكنك لوم أمك لكن هذا لن يفيدك بشيء. أنتِ لا تعرفين شعور مَن في موقفها. قطرات الندى في مستعمرة النمل فيضان.

- لكنك تلومينها أيضًا! كنتِ أنت من أخبرتها ألا تتخلى عنا. أنا أتذكرك وأنت تجادلينها!

تنهدت خالة شايما وشرد بصرها بيأس.

- بالطبع قلت لها كل هذا! وقد حاولتْ. حاولت التحدث مع أبيكِ لكنه...

- أعرفه.

سكتت خالة شايما. عضّت شفتها. حان وقت تغيير الموضوع.

- كيف حال عبد الخالق معكِ مؤخرًا؟

- إنه مشغول جدًا بشؤونه، وبالكاد يأتي إلى البيت.

- جيد، مشغول! بماذا؟

رفعتُ كتفيّ.

- لست متأكدة تمامًا لكنني سمعته يتحدث مع مستشاريه وحرسه في ذلك اليوم. شيء ما عن قيام رجاله بما لا يستطيعه الجنود الأجانب.

- أو لا يريدون فعله. لديه لعبة جيدة. تأتي تلك البلدان الأخرى إلى هنا، تقذف بقنابل قليلة في الأنحاء. أصدقاء اليوم أعداء الأمس. يغيرون قبعاتهم فحسب، وفجأة يصيرون حلفاء تلك البلدان الغربية. لا أحد يأبه بما كان عبد الخالق يفعله في السنوات القليلة الماضية.

- ماذا كان يفعل؟

زمّت خالة شايما شفتيها معًا.

- إنه زوجك يا رحيمة؛ لذلك ظننت أنك ستكونين على علم بالأمر الآن. كيف تظنينه كسب كل هذا المال والنفوذ؟ من دم

شعبنا بالطبع. هكذا، الخطف وطلب الفدية، السرقة، القتل ومسح اليد من كل هذا ليبدو جميلاً أمام الأجانب الذين إما لا يعرفون أو يتغافلون. إن زوجك ليس الوحيد، والأرجح أنه ليس من ضمن الأسوأ. لقد كنتِ صغيرة على معرفة كيف تسير الأمور ولم يكن أحد في بيتك ليتحدث عن هذا؛ لأن أباك كان يعمل تحت إمرته.

كان صوتها همسًا حذِرًا.

تذكرت كيف صارت شاهيناز زوجة عبد الخالق، خطفوها من بيتها كغنيمة كأنها قطعة حليّ ذهبية أو صينية فضية.

– يجب أن تعرفي هذه الأشياء، رحيمة، بما أنك تعيشين هنا في هذا البيت. بصفتك زوجته، على الأقل. لكن لا تتحدثي عنها أيضًا. ولا حتى مع زوجاته الأخريات. أتفهمينني؟

أومأتُ برأسي. كانت تحذيراتها غير ضرورية؛ كنت أعرف بالفعل كيف لا يخفى شيء على أحد في هذا البيت.

قلتُ وأنا أفكر في المحادثة التي تنصّتُ عليها: أخبره مستشاروه أن عليه أن يسمح لإحدى زوجاته بالمشاركة في الانتخابات البرلمانية، فكرة مجنونة.

– الانتخابات؟ أبناء الحرام المتآمرون!

– يريدونه أن يفعل ذلك حقًا. سيكون ذلك تغييرًا كبيرًا له، خالة شايما، أليس كذلك؟ تخيلي إحدى زوجاته في البرلمان.

– إلى الجحيم بهذا التغيير الكبير! إنها تمثيلية. توجد قاعدة بأن يُخصَّص عدد معين من مقاعد البرلمان للنساء. لقد ضمنوا تلك القاعدة في الدستور لأنهم من دون هذا لن يعطوا النساء شيئًا ولو حتى وقت راحة خلال النهار. لكنه سيضع

إحدى زوجاته ويخبرها بما تقوله تحديدًا، وكيف تدلي بصوتها، وإلى من تتحدث. الأمر لا يختلف في شيء عن شغله المقعد بنفسه!

كانت كلماتها تنضح بمرارة تبدت في لفظها للكلمات بقوة كأنها تبصقها.

لم أفكر في الأمر على هذا النحو لكن منطق خالة شايما معقول. ويفسر اضطرار عبد الخالق إلى التفكير فيه بالفعل. الأمر -كما قال مستشاروه- قد يكون الحل الوحيد أمامه لحفظ سيطرته على المنطقة.

- هل قال أي زوجة سيجعلها تشارك؟

أنا أيضًا تساءلت عن الأمر.

- لا، لم يقولوا شيئًا عن هذا.

- بدرية على الأرجح.

- لماذا بدرية؟

- لأن جميلةَ جميلةٌ جدًا. لن يريد أن يراها الرجال. وأنت وشاهيناز صغيرتان للغاية.

كانت محقة.

على مدار الأسابيع القليلة اللاحقة، كانت بدرية تستعد للانتخابات. كان عبد الخالق يقضي معها المزيد من الوقت خلف الأبواب المغلقة. لم نكن نعرف عن ماذا يتحدثان، وكانت بدرية تزم لنا شفتيها بقوة، أو على الأقل تتظاهر بهذا.

كان من الواضح شعورها بأهميتها لاختيارها لهذه المهمة. قالت، وهي تنقر بأصبعها على شفتيها: سوف تكون انتخابات صعبة، ظللنا نناقش كيف سنعلن الأمر، كيف سنعلن عن اسمي.

سألت شاهيناز: ما الأشياء التي ستفعلينها إن وصلتِ إلى البرلمان؟

كانت ظهيرة دافئة والأطفال جميعًا في الفناء. سافر عبد الخالق لليلة، وبيبي كلالي في الفراش، تتعافى من دوار برد قالت إنه كاد يقتلها ثلاث مرات متتالية. يمكن للبيت الآن أن يتنفس بعد أن أقسمت بيبي كلالي أنها لا تستطيع.

– أيتها السخيفة! ألا تعرفين ماذا يفعل البرلمان؟ من الجيد انني أنا من سأترشح!

رأيتُ جميلة تبتلع ابتسامة. نعرف أن بدرية تحاول تأليف إجابة.

– إن هناك مسؤوليات كثيرة على عاتق عضو الجرجا[1]. أمور للتصويت عليها، قرارات لاتخاذها...

لوّحت بيدها إشارة بأن الأمر يطول شرحه.

رفعت شاهيناز حاجبيها.

– لكنكِ ستكونين محجبة، صحيح؟

– بالطبع! سأرتدي الشادور.

– وحين تصلين إلى البرلمان، ماذا بعد ذلك؟ إن معظمهم رجال، أليس كذلك؟ ستذهبين وتقابلينهم؟

– نعم، سيكون ذلك واجبي كنائبة منتخبة. سيكون علينا التحدث عن التصويت، القضايا.

– متى الانتخابات؟

– خلال شهرين. أمامنا الكثير من العمل.

---

(1) الاسم الدارج للبرلمان في أفغانستان. (المترجمة).

تنهدت بدرية كأنها أدركت لتوها كمّ العمل الذي في انتظارها.

كانت بدرية، كزوجة أولى، معتادة على مكانة مميزة في البيت، لكنها تغضب من أي انتباه قد تحظى به الأخريات. وكانت تلك الدّفعة تحديدًا هي ما تحتاج إليه لتستعيد امتيازها، ولكن الامتيازات ليست كلها جيدة.

بعد أسبوع تقريبًا من تلك المحادثة استيقظتُ في الصباح، ربطتُ شعري خلف رأسي وارتديت ثوب العمل. أردتُ أن أنظف قنّ الدجاج. تقلب الرائحة معدتي دائمًا؛ لذلك أخذت معي قطعة قماش لأربطها حول أنفي وفمي.

خرجتُ وسرتُ إلى أقصى طرف البيت. استيقظ الدجاج مبكرًا وقوقًا لرؤيتي بسعادة. طار ريش في الهواء جعلني أسعل. عدّلت كمامتي وأخذت نفسًا عميقًا.

قبل أن ألتقط مكنستي علت القوقأة، وراحت الدجاجات تركض في القن كأن شيئًا ما يطاردهن. استدرت فرأيت بدرية تسير خلف البيت. ذراعها اليسرى ملتصقة بجانبها وتسير بعرج خفيف ذكرني بيارفن.

راقبتها واكتشفتُ أنها لم ترني. وقفتُ عند حبل الغسيل وأخذتْ ثوبًا وشادورًا... استغرقها الأمر ثلاث محاولات لتستطيع ارتداء الثوب؛ كلما رفعت ذراعيها لأعلى، تتوقف فجأة وتنخفض ذراعها بألم، تهز رأسها. تساءلتُ ماذا حدث، وأسعدني أن أؤجل مهمتي في جميع الأحوال.

- بدرية جان، صباح الخير!

التفتت بدرية فجأة، تسبب رد فعلها المفاجئ في وخزة ألم.

- آه، رحيمة! نعم، صباح الخير. ماذا تفعلين في الخلف هنا؟

ما زالت ذراعها ملتصقة بجانبها.

- عليَّ تنظيف قنّ الدجاج، يبدو أن ذراعك تؤلمك. ماذا حدث؟

عبستْ. قالت بلا مبالاة وهي تعاود النظر إلى حبل الغسيل: لا شيء.

لمحتُ رقبتها ورأيت كدمة حول عظمة ترقوتها. هممت بقول شيء عن هذا لكنني منعت نفسي. حاولتِ التحرُّك بشكلٍ طبيعي، لكن الألم بدا على وجهها.

قالت بحزم: اذهبي فحسب، وواصلي أيّاً ما كنتِ تفعلينه يا رحيمة، ليس لدي وقت للثرثرة.

عدت إلى قن الدجاج، أنظر من أعلى كتفي لأتأكد من أنها ما زالت تعرج. قابلها حشمت عند باب البيت وساعدها على الدخول. لاحظني أراقب وهز رأسه. أبقى على مسافة منه هذه الأيام. صرت أفهم الآن أن عليَّ ألا أوجد بالقرب من فتيان في مثل سني أو أكبر، أيّاً كانت درجة قرابتهم لي. ولم أرغب في بدء أي حوار عن عبد الله، الذي يبدو الآن كشخصية اخترعها خيالي.

عند الظهيرة، عدتُ إلى بيت جميلة. أغلب الوقت أصطحب ابني حين أقوم بأعمال المنزل، لكن يستحيل تنظيف قن الدجاج إن اصطحبته معي. كان يقضي الوقت مع جميلة في أثناء قيامي بالمهام الشاقة من هذا القبيل. كانت ترحب بوجوده الآن بعد أن كبر أطفالها وكنت أثق بها أكثر من أي شخص آخر. مع أنني

كنت أعيش مع شاهيناز، لكنني كنت أتوجه إلى جميلة بكل سؤال عن تغذية جهنجر وتحميمه. حتى إنها غزلت له سترة وطاقية لتدفئاه في الشتاء.

سألتها: لم يسبب إزعاجًا كبيرًا أليس كذلك؟

أعرف إجابتها مسبقًا.

- آه، إنه يزداد روعة كل يوم، رحيمة. علينا أن نبخره غدًا، لإبعاد العين الحسودة. سيتحدث ولن نستطيع إسكاته قبل أن تلاحظي. يجب أن تشاهديه وهو يحاول.

سألتُ، راغبة في التحدث عمّا رأيته: أرأيتِ بدرية اليوم؟

- لا، أتبحثين عنها؟

كانت تُطعم جهنجر الذي يجلس أمامها بفمه المفتوح خبزًا منقوعًا في الشاي بالملعقة.

- رأيتها هذا الصباح، في الخارج خلف المنزل. يبدو أن ذراعها تؤلمها جداً. ولم تكن تسير جيدًا.

قالت جميلة وهي تهز رأسها: ما السبب؟ هل سألتها عن الأمر؟

- نعم، لكنها صرفتني.

تنهدت جميلة.

- لقد طمِعتْ في الكثير، يجب أن يشعر الرجل أنه المسؤول عن بيته في نهاية اليوم، خاصة رجل مثل عبد الخالق خان.

- ماذا تقولين؟

- أنتِ تعرفين أنه ليس من السهل عليه السماح لها بالمشاركة في الانتخابات. يجب نشر اسمها بين العامة في المنطقة لينتخبها الناس، سيتحدثون عنها. وسيكون خبرًا هائلا

أن زوجة الزعيم عبد الخالق قد خرجت من البيت، لتشارك في الانتخابات. ليس هذا ما يريده.

أدركتُ مدى غبائي لأنني لم أفهم هذا بنفسي.

– ليلة أمس، سمعته.

– ماذا حدث؟

– أرادها ألا تتحول إلى واحدة من تلك النسوة، اللائي يثرن ضجة كثيرًا، يتحدثن مع الكثيرين. أرادها أن تعلم أنه هو من وضعها في الانتخابات وأنها ليس لها علاقة بالأمر. ظني أنه سمعها تتحدث عن الأمر. ليس هذا ما يريده من زوجاته. لا أعرف ماذا قالت تحديدًا لكنه قسى عليها ليلة أمس.

هزت جميلة رأسها وطرقعت بلسانها.

– بدا في أسوأ حالاته.

بقدر ما كانت غطرسة بدرية تستفزني، أشفقتُ عليها. نعرف جميعًا قسوة عبد الخالق. تساءلت إن كانت بدرية قد ندمت لاختيارها كنائبة.

– هل سيواصل الأمر؟ أقصد هل سيجعلها تشارك في الانتخابات؟

– ظني هذا. إنه يريد النفوذ. بواسطتها سيضع يده على مشروعات كثيرة مختلفة. لن يتخلى عن ذلك، بقدر ما يكره كتابة اسم زوجته في القوائم واضطرارها إلى الخروج أحيانًا من البيت لتأدية واجباتها. أنا واثقة بأنه يفكر في طريقة للاحتيال على كل هذا في جميع الأحوال.

كان عبد الخالق قد لقّن بدرية درسًا حقًا. لم تتحدث عن الانتخابات بعد ذلك أبدًا. كان يجتمع معها من حين لآخر وكذلك

مع مستشاريه. التقطتُ مقاطع متناثرة من المحادثات. لم يكن الأمر يسيراً جيداً. لم يكن مستشاروه واثقين من فوز بدرية بمقعد الجرجا، لكن عبد الخالق أقنعهم.

كان زوجي ماهرًا في الإقناع، إن أراد أن تفوز بدرية، فسوف تفوز بدرية.

الفصل 35
رحيمة

راح عبد الخالق وبدرية يسافران إلى كابول كثيرًا. وكان عبد الخالق يكره هذه الرحلات. زعمت بدرية أنها تستمتع بالسفر، لكننا كنا نعرف أنها تكذب. كان دائمًا ما يثور قبل الذهاب، وبشكل أسوأ حتى بعد العودة.

فازت بدرية في الانتخابات، يعود الفضل في ذلك إلى أصوات النساء، حسبما قالت نشرة الأخبار المحلية. بالنسبة إليَّ وإلى ضرتيّ الأخريين، بدا الأمر لا واقعيًا أن تسمح مؤسسة بأهمية البرلمان للنساء بالتصويت. جاءت خالة شايما لزيارتي مرة أخرى. سألتها عن عائلتي وبيبي شكيبه، سألتني عن بدرية وعبد الخالق. زالت سذاجتي بمرور الوقت. صرت أعرف أي نوع من الرجال زوجي وأنه فعل أشياء فظيعة. بدأ جهنجر ابني يبدو كأبيه، الأمر الذي أرعبني. كنت أخشى أحيانًا أن أكف عن حبه لو صار كأبيه. كنت أنكمش حين يغضب أو يثور، كان لنوبات غضبه عداوة مألوفة، لكن سوء مزاجه لم يكن شيئًا مقارنة بأبيه، وكان فيما عدا هذا ودودًا وعطوفًا للغاية، يشد وجهي لوجهه ويربت على رأسي كأنني أنا الطفلة وهو الأب.

تتنفس خالة شايما بصعوبة اليوم. ربما كان الغبار في الهواء أو صحتها المتدهورة أو خوفي الشديد عليها. إنها الوحيدة المتبقية لي من عائلتي وكنت أخاف دائمًا من انقطاع زياراتها.

كنت أدعو الله أن يعطيها الصحة بدافع الأنانية.

- إنه يأمرها بالتصويت لما يريد، لا تفعل شيئًا سوى تنفيذ أوامره.

أومأتُ برأسي.

- يجب أن تري كيف تعود مرهقة من كابول. تبدو مستنزَفة تمامًا.

- لكن لا بد من وجود طريقة ما، طريقة يمكنها بها التصويت وحدها. إنه لا يذهب إلى البرلمان، أتعرفين. ما أن تدخل الجلسة، لا يكون هناك معها.

- أنا واثقة بأن لديه طرقًا لمعرفة ومراقبة كل صغيرة وكبيرة خلف تلك الأبواب.

أمسكتُ بيد جهنجر الصغيرة وفتحتها وأخذت منها الحجر الذي وجده. كان قد شاهد إخوته الأكبر منه يلعبون ويريد أن يقلدهم. لمعت عيناه المستديرتان حين رآهم، انفرج فمه بابتسامة واسعة وشد وجهي لأنظر إلى ما يراه.

- نعم، باجم، أراهم. ستنمو لتصير ولدًا كبيرًا وقويًا مثلهم، انتظر فقط.

كنت أحيانًا أحاول تخيله وهو في العاشرة من عمره، لكن عقلي لا يمكنه تصور أي شيء سوى هذا الرضيع الرائع. حين حاولت تخيل نفسي بعد عشر سنوات، خفتُ. لقد تشققت يداي بالفعل وصارتا معروقتين. ظهري يؤلمني ليلاً، من حمل جهنجر تسعة أشهر، ولاضطراري إلى الانحناء لغسيل الملابس ومسح الأرض معظم الأيام. هذا البيت، هذه الحياة، أعجزاني. ربما كان هذا ما رأته بارفن، الحياة بعد عشر سنوات. ربما رأت مشهدًا قبيحًا لا يمكن تحمله.

الجميع في حاجة إلى مهرب.

اقترحتْ خالة شايما: ربما يمكنك الذهاب معها إلى كابول.

أخذت تسعل، سعال جاف يهز جسدها كله. وضعتُ يدي على يدها وقرّبت كوب ماء نحوها.

- شكرًا لك، *دختار جان*. أخٍ! الغبار يضايقني اليوم أكثر من المعتاد.

تمنيت أن يكون هذا هو كل شيء حقًا.

- على كل حال، ماذا كنت أقول؟ نعم، لماذا لا ترين إن كان بإمكانك الذهاب معها إلى كابول؟

- ماذا سأفعل في كابول يا خالة جان؟

قالت بغموض: من يدري، لكنكِ في كابول سترين أشياء مختلفة. إنه تعليم في حد ذاته. سترين كيف يعيشون هناك، سترين المباني وما يحدث في البرلمان. إنها فرصة لكِ.

كانت فكرة مغرية. لا أمانع رؤية كابول، المدينة الكبيرة. سمعت عنها من قصة بيبي شكيبه فقط، التي آمل أن تستأنفها خالة شايما اليوم. بدا الأمر كأنها قرأتْ أفكاري.

- أنا أعرف أنك تستمتعين بقصة بيبي شكيبه. كانت تعيش في كابول، كما تعرفين. إنها حياة مختلفة هناك.

- لكنك لم تريها قط، أليس كذلك؟

- انظري إليَّ يا رحيمة! أنا شاكرة لأن عظامي البالية ظلت تحملني حتى الآن. حين كنت أصغر، مع ذلك...

ضَعُف صوتها.

- كنت أحلم بالذهاب إلى كابول. كنت أتمنى أن تأتي عربة من الطريق، وتقلني لأشاهد القصر الرئاسي والمحلات والشوارع

والمطار. أردت أن أرى جميع الأماكن التي قرأت عنها.

أدركت أن ذلك كان مخرجها. أن يذهب ذهنها إلى حيث لا يمكن لجسدها أن يذهب.

اقترحتُ: ربما يمكنك الذهاب الآن؟

دفعني الشوق في صوتها إلى أن أتمنى لها أن تذهب يومًا.

- لقد تأخر الوقت. لكن فكّري في الأمر. بدرية تروح وتجيء بين قريتنا والمدينة. لن يصعب عليها أخذكِ معها، اعرضي عليها المساعدة.

- المساعدة؟ المساعدة الوحيدة التي تحتاج إليها مني هنا هي الغسيل والمسح والكيّ وتدليك ظهرها... القائمة طويلة لا تنتهي.

- أنا أعرف نوعية بدرية. أشك في أنها تستطيع القراءة. أتساءل كيف تتدبر أمرها في البرْلمان. أخبريها بمعرفتك القراءة والكتابة. هذه أفضل مساعدة لها.

كان ذلك حقيقيًا. لم تكن بدرية قد تعلمت القراءة قط. رأيت حشمت ذات مرة يقرأ لها خطابًا من عائلتها. كانت تنصت باهتمام شديد وهو يفك لها شفرة الكتابة. لم تكن وحدها الأمية. أغلب نساء قريتنا لم يتعلمن القراءة. تعلمت أنا وشقيقاتي بفضل إلحاح خالة شايما. قد لا تتسنى تلك الفرصة لرحيلة وستارة، فكرتُ، الآن وقد تقوقعت مادر جان على نفسها ولم تعد صحة خالة شايما كما كانت.

- إنها لا تستطيع القراءة. وشاهيناز أيضًا. جميلة يمكنها قليلاً، على ما أظن.

قالت خالة شايما: حسنًا، ها أنتِ ذا.

مالت إلى الأمام وتنفست ببطء وهي تزم شفتيها.

- تحدثي معها بلطف. ظني أنه سيكون جيدًا لكِ مشاهدة الأماكن التي رأتها جدتك شكيبه.

أثارتني الفكرة أكثر حين ذكرتُ بيبي شكيبه. كنت قد خبَرتُ حياتها المزدوجة من قبل بالفعل، عندما عشت كفتى. أردتُ أن أرى الأماكن التي رأتها. لكنني أردت المزيد أيضًا. أردتُ ألا أكون تحت سيطرة أحد كما كانت، يمنحها أحدهم للآخر. أردتُ أن أكون أكثر جرأة. أن أصنع قدري، لا أن أتلقاه مُعَدّاً لي مسبقًا. لكنني، بسبب ما كانت أمي تقوله دائمًا، لم أكن واثقة بأن ذلك ممكنًا.

- خالة شايما، أتظنين أن بإمكان المرء تغيير قدره؟

رفعتْ حاجبًا.

- أخبريني بشيء، كيف تعرفين قدرك؟

لم أجد إجابة.

- لا أعرف. قالت مادر جان إن قدرنا أنا وشهلا وبارفن أن نتزوج عبد الخالق وعبد الشريف وعبد الحيدر.

- وماذا عن هذا الصباح؟ ماذا تناولتِ على الإفطار؟

- قطعة خبز وشاي.

- هل جلب لك أحدهم الخبز؟

- لا...

كدت أضحك لفكرة أن يجلب لي أحدهم شيئًا.

- بالطبع لا! أعددته بنفسي.

- وهكذا ربما لم يكن قدرك أن تتناولي الإفطار اليوم، لكن ماذا حدث؟

- أنا أعددته لنفسي؟

- ربما. وربما كان قدرك من البداية أن تتناولي الخبز والشاي. ربما كان قدرك هناك، ينتظر تحركك ليحدث.

- لكن ألا يقول الناس إن هذا كفر؟ ألا ترضى بقدرَك الذي قدّره الله لك؟

- رحيمة، أنتِ تعرفين عمق حبي لله. تعرفين أنني أصلي الخمس صلوات يوميّاً من قلبي. لكن أخبريني مَن مِن هؤلاء الذين يقولون هذا قد تحدث مع الله ليعرف قدره حقًا؟

رقدتُ تلك الليلة مستيقظة أفكر فيما قالته خالة شايما. تنفس جهنجر برقة، متدثرًا بالأغطية بجواري، يده الصغيرة على رقبتي.

أكان قدَر بارفن أن تموت بهذه الطريقة، ببشرتها عجينة من جلدٍ ذائب؟ أم أنها فوَّتت الفرصة لتغييره؟ لصنع مصيرها الحقيقي؟ أكان قدر مادر جان أن ترقد مغيبة بالأفيون تاركة رحيلة وستارة لتدافعا عن نفسيهما أمام نوبات غضب أبي وحدهما؟

حيرني الأمر. تنهدتُ وشددتُ البطانية على كتفي ابني. مررتُ بأصبعي على شفتيه الورديتين. اختلج وجهه النائم وانفرجت زاويتي فمه عن ابتسامة حالمة. ابتسمتُ.

ما كنت أعرف قدري، ولا قدر ابني. لكنني قررتُ تلك الليلة أن أبذل كل ما بوسعي لجعله أفضل قدر ممكنًا. لكلينا. لن أفوت فرصة.

ما تقوله خالة شايما عن بيبي شكيبه، أنها كانت تبحث عن فرصة لصنع قدرها بنفسها. أنا، حفيدة حفيدة حفيدتها، يمكنني هذا أيضًا.

شكيب

تسارعتْ دقات قلب شكيب، جفّ ريقها. كان أمان الله يتمشّى في الحدائق مجددًا. كانت شكيب تقف في موقعها، لا يفصل بينهما سوى شجيرة بارتفاع الكتف. كان يسير مع الرجل الأكبر سنًا مجددًا، صديقه. تعرّفت عليه شكيب من قبعته الصوفية. جلسا على دكة فبدأتْ راحتا شكيب تتعرقان.

القدر وضعهما في هذا الطريق، في أثناء نوبة حراستي.

- توجد الكثير من القوى الفاعلة. على أبيك التعامل معها بحرص. نحن فئران في حقل أفيال، لكننا قد ننجو من بين أقدامها الثقيلة لو تحركنا بذكاء.

- المشكلة في النزاعات داخل الحدود. وعندها، لا يمكننا التلكؤ وإلا سنضعف.

- هذا حقيقي. لكن الأمرين مرتبطان. البلد المستقر في الداخل يواجه الأعداء بقوة. وأعداؤنا يعرفون أن النزاعات الداخلية تصنع فريسة سهلة.

- جيشنا أضعف بالمقارنة بجيوشهم.

قال بحزم: لكن إرادتنا قوية.

ميزت شكيب نبرة الاحترام في صوت أمان الله. كان يثق بهذا الرجل.

تنهد أمان الله شاردًا.

توترت شكيب لسماعها صوت تنفسه. تحركت خطوة إلى

اليمين ثم خطوة إلى اليسار، تحاول لفت نظريهما إليها.

- إن شعبنا يعرف القليل جداً عما يدور خارج حدودنا. بالكاد يعي ما يحدث على بعد إقليم أو قرية منه.

حبستْ شكيب أنفاسها. تساءلت إن كان أمان الله قد لاحظها. كان ظهرها لهما، لكنها مالت برأسها قليلاً جدًا، مديرة جانب وجهها الأيمن نحوهما، في حال عنيا بالنظر. وقفا وعادا يسيران نحو القصر. لم تستطع منع نفسها من النظر إلى أمان الله حين كان قريبًا منها لترى لون عينيه. مالت بخصرها، ونظرتْ من زاوية عينها.

نظر إليها. أومأ لها.

لقد نظرا لقد نظرا لقد رآني!

شعرتْ شكيب بأنفاسها تتسارع. مرت ساعة تقريبًا قبل أن تدرك أن آغا بران، أيضًا، قد أومأ برأسه نحوها، احترام رقيق. مسحتْ راحتيها الرطبتين في بنطالها. لقد تواصلت بالعين مع أمان الله. لقد لاحظها وأومأ برأسه لها. لم تلحظ أدنى أثر للازدراء في تعبير وجهه، ولا أدنى قدر من الاشمئزاز. أكان ذلك حقًا؟ أيمكن ألا يكون قد لاحظ تشوهّها؟

تجدّدتْ طاقتها تلك الظهيرة. رغبت في التواصل أكثر مع القصر، مع أي شخص خارج الحريم. لكن الحرس انزعجوا، أم لم ينزعجوا؟ فكرت شكيب في الموقف. لديها حرية أكثر مما لدى المحظيات. يمكنها التجول في أنحاء القصر بلا قيود. يمكنها التفاعل مع الخادمات اللاتي يأتين بالوجبات إلى الحريم.

جاءت كريم لتريحها من موقعها.

- يمكنك تناول شيئًا، سيحضرون العربات سريعًا.
- في الحقيقة، لست جائعة، قد أذهب في جولة.
- افعلي ما تشائين. فقط انتبهي جيدًا. لقد مرت أسابيع ولم نعرف شيئًا.

كانت النساء كتومات. وكانت لدى كل حارسة شكوكها الخاصة، لكن الأسئلة التي طرحنها لم تعد عليهن سوى بتنويعة من الإجابات عديمة الجدوى وإثارة الفضول.

عبرتْ شكيب الحدائق، مرت بالتماثيل، بالبركة، بحارسين يتحدثان معًا بهدوء، ينظران إليها من بعيد. نظرت من بعيد إلى قصر دلكشا، رائع ومحرَّم. أرادت أن ترى ما بداخله لكنها ليس لها شأن هناك. تركت خيالها يخبرها بما قد يكون في الداخل.

ربما يوجد حَمَام، طيور بيضاء رقيقة تتغذى على خبز القصر الدافئ وتصدح بتسابيح للأسرة الملكية. أو ربما يوجد اكوام من الطعام، أصناف أعدها طباخون لإثارة شهية الملك والملكة.

كانت الأمور مختلفة تمامًا هنا في كابول، في القصر. أشياء مثيرة جداً لم تسمع عنها شكيب من قبل قط. أشياء لم تسمع والديها يتحدثان عنها. تساءلت إن كان القصر يفكر في القرى بقدر ما يفكر في تلك الأشياء الأخرى. لماذا الانشغال إلى هذا الحد بالروس، أيّاً كانوا، في حين توجد قرى كاملة تعيش من دون ماء؟

كانت شاردة تمامًا في أفكارها لحد أنها لم تلاحظ أغا بران يجلس على دكة، وفي يده أوراق. قال برفق: السلام عليكم. استدارت شكيب مفزوعة. حين رأت من فاجأها، أدارت

كتفيها لتواجهه بجانب وجهها الأيمن. همستْ: و... وعليكم السلام.

عاد ينظر في أوراقه، يقرأ بتركيز.

تقدّمت شكيب خطوة لتغادر لكنها أدركت أنها حظيت بفرصة نادرة. ها هو خيط صلة بالقصر، رجل قريب للغاية من أمان الله. لا توجد جدران بينهما، لا تدخلات. يمكنها التحدث إليه، إن استطاعتِ التحدث. قالتْ ببساطة: أنا... أنا حارسة في الحريم.

نظر بران إلى أعلى، عيناه البنيتان مندهشتان.

– نعم، أتذكر. رأيناك اليوم في الفناء. أنت في موقع مهم هنا في القصر.

لكل فرد دوره في القصر.

– نعم. ويبدو أنك أيضًا كذلك.

قهقه.

– يتوقف هذا على من تتحدثين إليه.

– ماذا تفعل؟

– ماذا افعل؟ حسنًا، يمكنك القول إنني مستشار. أعمل مع أحد الوزراء. مساعد المساعد، إن جاز القول.

هل يتحدث أهل القصور بالألغاز دائمًا؟ تساءلتْ شكيب وهي تفكر في محادثته السابقة مع أمان الله. سألتْ: أنت في الجيش؟

لم يعد صوتها يرتعش. ميزت من سلوكه وصوته وكلماته انه ليس خطرًا .

– لا لست كذلك. أعمل معهم لكنني لست عسكريًا .

- أنا لا أعرف أي شيء عن كابول.
- أنتِ من قرية. هذا ليس غريبًا.
ميزتْ نبرة تنازل في صوته، قررتْ تجاهلها.
- ما اسمك؟
سكتت قليلاً قبل أن تجيب: شكيب.
- شكيب. افهم. وما اسمك الذي سمَّاك به والداك؟
- شكيبه.
- شكيبه جان. أنا اسمي أغا بران. أسعدني التعرُّف عليكِ.
هل عائلتك قريبة من هنا؟
- ليس لديَّ عائلة.
تدحرجت الكلمات على لسانها قبل أن تفكر فيها، لكنها الحقيقة. أوضحتها بوبو شاهكل وأعمامها معها بما لا يدع مجالاً للشك.
- أنا آسف جداً لسماعي هذا.
تذكرت شكيب خطتها فجأة. إن أرادت تغيير مصيرها فعليها ألا تضيع فرصة كهذه. حاولَتِ استدراك خطئها.
- أقصد، كان لديّ عائلة لكنني أعيش هنا الآن. لم أعد أرى عائلتي. لكن كان لديّ إخوان كثيرون. أنا الفتاة الوحيدة في سلسال طويل من البنين. عماتي جميعًا لديهن بنين. وجدتي أيضًا.
زم أغا بران شفتيه قليلاً. نظر بعيدًا لبرهة قبل أن يعود بنظره إلى شكيب.
- لا بد أن أزواجهن سعداء.
- كانوا كذلك.

تململت، شعرت بلسانها ثقيلاً بالكذب. راقبها. تساءلت إن كان قد ميز الكذب في صوتها. قالت مترددة: نعم... تقريبًا...
لم تكن متأكدة من قدر ما عليها قوله.
- القصر جميل.
- إنه كذلك. أنتِ في كابول، في قصر الملك، قلب أفغانستان. هنا بين هذه الجدران يُصنَع التاريخ.
يا له من كلام فخم، فكرت دون أن يبدو عليها شيء.
- هل ابن الملك...
لم تستطع نطق اسمه.
- هل هو رجل مهم؟
- إنه كذلك وليس كذلك.
- هذا ليس ممكنًا.
رفع بران حاجبه.
- ولماذا؟
قالت بصراحة: لأنه إما مهم أو ليس مهمّاً. لا يمكن أن يكون الاثنين.
قهقه مجددًا.
- ألا تحبذين التناقضات؟ حسنًا. أنتِ لست مستعدة للحياة في القصر إذن. هذه الجدران مأوى جميع التناقضات.
مر جنديان ونظرا إليهما بفضول. رأت شكيبه أحدهما يهمس للآخر. استدارت بعيدًا عن أغا بران فجأة وفردت ظهرها.
- عليَّ العودة إلى الحريم.
كانت خرقاء وفظة، فكر بران، لكنها مثيرة للاهتمام بشكل غريب. تساءل عما حدث لوجهها وعن قدر الحقيقة فيما قالته.

الفصل 37
رحيمة

بدت بدرية مندهشة.

- إنك تبدين متعبة للغاية. لقد رأيتك تضعين راحتك على ظهرك طوال اليوم. ظني أنكِ سترتاحين إن تركتني أدلكه.

- هذا ما أحتاج إليه تمامًا. أنتِ محقة. لديَّ بعض الزيت هنا. دعيني أتمدد.

لم تضيع وقتًا وهي تتقدم الطريق إلى فراشها حيث رقدتْ على جانبها، وظهرها لي. رفعتْ ثوبها إلى عنقها، ونظرت إلى الباب لتتأكد أنه مغلق.

غمستُ أصابعي في زيت من دهن حيوان وبدأتُ أدلّك ظهرها. كتل اللحم تتدلى بحرية حول خصرها.

أنّت: «ووووييي، ووووييي»، نظرتُ إلى أعلى بنفاد صبر. كانت تشكو من ظهرها فقط حين يوجد شيء ما لفعله في البيت. في حين كانت تحب الإشارة دائمًا إلى كونها أكثر نشاطًا من جميلة وشاهيناز، الأصغر منها، تناقض آخر من تناقضاتها. تمثّل جيدًا الآن، مع أنه ليس ضروريًا.

- آخ، أنتِ صغيرة. ليس لديك فكرة عن الأوجاع والآلام. انجبي المزيد من الأطفال وسوف ترين. ظهري، ركبتايّ، وحتى عنقي! كل عضو مني يؤلمني من الصباح حتى المساء. والطريق إلى كابول طويلة ووعرة. عضلاتي كلها تؤلمني بشدة بسبب

وعورتها، وبالكاد يمكنني مدّ ساقيّ.
دلكتها بقوة أكبر، أعرف أنها تحب الانتباه. لكنها ذكرت كابول، وكنتُ أبحث عن طريقة لتنفيذ فكرة خالة شايما.
- هل ستعودين إلى كابول قريبًا؟
- خلال أسبوعين تقريبًا. سينعقد البرلمان مرة أخرى. علينا التصويت على عدة قوانين ومناقشة بعض الموضوعات. أشياء لن تفهميها.
لا بد أن تدليكي قد أراحها. كانت تعود لعاداتها القديمة وتتفاخر بمنصبها. هذا ما عاد عليها بالكدمات الزرقاء والسوداء إثر قبضة عبد الخالق حتى قبل أن تنال المقعد.
- لا بد أن العمل كثير للغاية عليكِ هناك.
- آه، إنه كذلك. إنها مسؤولية كبيرة. والذهاب والعودة إلى كابول ومنها شاق. ليس سهلاً.
- لا بد أنك متعبة للغاية.
شعرتُ بلساني ثقيلاً ومترددًا لقولي أشياء لا أعنيها. كانت بدرية نادرًا ما تقوم بشيء في البيت وأطفالها الذين كبروا تقريبًا يساعدونها في القليل الذي عليها فعله. وإن كانت سعيدة بنيل مقعد في المجلس فلا بد أنها سعيدة بالسفر إلى كابول.
قالت تشير إلى مكان ما أسفل ظهرها: أنا... أنا متعَبة للغاية. اضغطي قليلاً هنا.
أمسكت نفسي لئلا أتأفف. بدأتْ أصابعي تتشنج لكنني ضغطتُ براحتيّ على حيث أشارت. كنتُ بحاجة إلى إرضائها من أجل الخطة التي بدأت تتشكل في ذهني. غرست خالة شايما بذرة.
- أتعرفين، لقد كنت أفكر، ربما أستطيع مساعدتك في كابول.

قالت باستنكار: أنتِ؟ *تساعدينني؟*

جـززتُ على أسناني. تابعتُ: أنتِ صـغيـرة، مـجـرد فـتـاة! لا تعرفين شيئًا عن الجرجا أو ما يحدث هناك. إنها أمور حكومية، وليست لعب أطفال.

لقـد مـر وقت طويل للغـاية منذ أن قـضـيت وقـتًـا فـي لعب أطفال من أي نوع. كـذلك، كـمـا توقـعت خالـة شـايما، ليس لدى بدرية خبرة أو دراية يؤهلانها للمشاركة في البرلمان. كانت هناك فقط لأن عبد الخالق يريدها هناك.

- فكرت فـقـط أن بإمكاني مـسـاعـدتك في أمـور صـغـيـرة، كملء الاستمارات أو قراءة صحف كابول...

توقـفـتْ أنفـاس بدرية. شـعـرتُ بالتـوتر في خـصـرها تحت يدي.

- أنتِ... ألا تمانعين القيام بعمل كهذا؟ هل يمكنك القراءة؟

- بالطبع.

- ويمكنك الكتابة أيضًا؟

- نعم.

- وتجيدينهما؟ ليس فقط عدة حروف من هنا وهناك؟

قلت قـبل أن أمنع نفسي من الاسـتـغـراق في ذكـريات تلك الفـترة من حيـاتي: نعم. كنت أحظى بدرجات عـالية في المدرسة في الكتابة والقراءة. أفضل من زميلاتي في الفصل.

قالت بعجـرفة لا يمكن احتمالها: مم. سـأفكر في الأمـر. إنها مهـمة صـعبـة وقد يمكنني الاسـتفـادة من مـسـاعـدتك... لـكنني اتسـاءل عـمـا سـيـقـوله عـبـد الخـالق. أنتِ تعـرفين أنه لا يحب خروجنا من البيت. لقد استثناني.

- إنه مختلف معكِ. ظني أنه من الأفضل أن توضحي له أنني سأكون معك، لتسهيل الأمور عليكِ. لأنه من الواضح أنه يحبك أنتِ أكثر.

بدت راضية بمنطقي. نسيت للحظة كم مرة استدعاني عبد الخالق لقضاء ليلة معه. كأن الليل لم يكن سيئًا بما يكفي، كنت دائمًا أفكر في سخط بدرية حين سأراها في الصباح التالي. ضربتني ذات مرة بصندلها لكسري طبق مع أنها رأت ابنها يخطفه من يدي. كانت حماتي على علم بكل شيء وكانت تتفاخر بشكل خاص بإعادة معاقبتي.

- وماذا عن ابنك؟ جهنجر ما زال صغيرًا. هل ستتركينه هنا؟ لن تحبذ بيبي كلالي هذه الفكرة.

إنها تفكر في اقتراحي بجدية. لم أفكر في هذا الأمر مليًا لذلك تحدثت ببطء، أستوضح الأمر فيما أتحدث.

- ظني أن بإمكاني أخذه معي. إنه ليس صعب المراس لذلك لا اظنه سيزعجك. يمكنني العناية به في كابول ومساعدتك أيضًا.

أسكتُّ نفسي قبل أن أقول أي شيء عن بيبي كلالي. إنها تستنكر كل ما أفعله في جميع الأحوال.

- لا أعرف إن كان عبد الخالق سيوافق على سفر ابنه إلى كابول أم لا.

بدتْ متشككة لكنني شعرت بانفراج. فدفعتُ بقوة: اقترحي عليه الأمر فقط. أرجوكِ. ظني أنني قد أكون مفيدة لكِ.

استدارتْ لتنظر في وجهي: لكن لماذا؟ لماذا تريدين فعل هذا؟ عيناها ضيقتان كشقين. تحركتُ ورفعت يديّ إلى كتفيها أحاول إزالة توترها.

- لأن... لأنك تقومين بأعمال كثيرة جدًا وقد فكرت أن...
ممنًا. لطالما أردت أن أرى كابول. ظننتُ أنها فرصة جيدة. كما
ملت، عبد الخالق يستثيك، لذلك فإن ناقشتِ أنتِ الأمر معه،
ا خبرته أنني قد أكون مفيدة لكِ... فربما سيوافق؟
اغمضت عينيها وأطلقت تنهيدة وأنا أدلك لها كتفيها.
، روقها الفكرة. الآن، علينا أن نقنع زوجنا.
تمنيتُ أن تكون بدرية مقنعة مثلي.
ظلت بعد ذلك - كلما سألتها عن الأمر - ترفع كتفيها. إما
انها لم تجد الفرصة لتسأله، أو أنها نسيت، أو أنه لم يكن في
مزاج مناسب لتذكر الأمر له. كانت رحلتها التالية إلى كابول
، متقرب. بعد أسبوعين. بعد أسبوع. فقدتُ الأمل. لم تجد في
، مسها الشجاعة، مع أن الفكرة أعجبتها. بعد أيام قليلة من
اقتراحي عليها الأمر، طلبت مني أن أقرأ لها عدة أشياء في
البيت. ظني أنها كانت تختبرني. الأمر ليس أن بإمكانها تحديد
الفارق لكنها بدت مطمئنة لكوني أستطيع قراءة الحروف بالفعل.
حين لم يتبقَ سوى يومين فقط قبل السفر فتحتْ بدرية
الموضوع مع عبد الخالق. من طريقتها، لم يكن متحمسًا كثيرًا
للفكرة لكنها، بعد الكثير من المداهنة، نجحت في إقناعه. سألتها
مرة أخرى وأنا أحضّر لها الثياب التي طلبتْ مني كيّها.
- لا ترتكبي أخطاء، لم تعجبه الفكرة البتة. ولكل الأسباب التي
توقعتُها، لم أصدق أن بإمكان أحد، حتى أنا، إقناعه بالموافقة، لكنه
وافق. وها أنتِ ذا، لقد تحققتْ أمنيتك، سنغادر يوم الأحد لنكون
هناك في موعد الجلسة يوم الاثنين. الأفضل لك أن تكوني مفيدة
جداً لي هناك وإلا سأندم على فعلي كل هذا من أجلكِ.

- لن تندمي... سوف ترين! شكرًا جزيلاً لكِ! الأفضل ا.
أبدأ بتجهيز حقيبة أشيائي أنا وجهنجر!
قالتْ: أنتِ فقط...
وأدارت لي ظهرها وهي تضع الملابس في الحقيبة.
- ليس عليك تجهيز أي حقائب لجهنجر.
سألتها مرتبكة: لماذا؟
- لأنه لن يذهب. قال عبد الخالق إنه أصغر من أن يسافر
قال إن جميلة يمكنها رعايته في أثناء سفرنا.
توترتُ؛ لم أكن قد انفصلت عن جهنجر من قبل قط. كانت فكرة تركــه وحــده تُفطر قلبي. هل أواصل؟ هل أتخلى عن الفرصة؟
- آه، لم أظن أن... هل قال هذا؟ بالتأكيد؟
- بالتأكيد؟ أتظنين أن أحدًا قد يخطئ سماع عبد الخالق؟ «بالتأكيد» دائمًا يا رحيمة. جهزي حقيبة الملابس قليلة لكِ فقط. سيكون جهنجر بخير مع جميلة. إنها تحب الصغار.
ما زلتُ متوترة.
- كم سنغيب؟
- رحيمة، كفّي عن تلك الأسئلة الغبية. إن دورة البرلمان أربعة أشهر. وقد ظللت أروح وأجيء لتحضير الأشياء ونحظى بعطلات.
- عطلات! لماذا؟
- العطلات لنعود إلى المناطق التي نمثلها. لنجتمع بالناس ونعرف عن قضاياهم.
- لكنك لم تجتمعي بأي أحد قط.

اتظنين أن عبد الخالق سيتركني أتجول في البلدة
أتحدث مع هذا وذاك؟ بأمانة، الأمر لا يهم. لا أحد يتحقق مما
... ولا أظن أن النواب الآخرين يعودون إلى التحدث مع
الناخبين بالفعل. من لديه الوقت لهذا؟ أنا متأكدة أن جميع من
في المنطقة لديهم قضايانا نفسها.
- وما تلك القضايا؟
بدت بدرية محبطة.
- ربما لم يكن لديكِ عملاً كافيًا في البيت! أكنتِ تجلسين
مفكرين في هذا الهراء لتسأليني عنه؟ لا تتحدثي مع أحد في
الدول، لكنهم سيرونك؛ لذلك اجلبي ملابس جيدة. ليس ثوب
البيت الأزرق الرث الذي ترتدينه دائمًا.
الثوب الأزرق الرث! ارتديته كثيرًا جدًا لحد أن صار النسيج
شفافًا، كما قالت شاهيناز هازئة ذات يوم. شعرتُ بإحراج لكن
صعب عليَّ تركه. كان لونه الأزرق الفاتح يذكرني ببنطال أزرق ظللت
ارتديه بسعادة عدة أشهر. كان من قماش الداينم. شعرتُ وأنا
ارتديه بحرية الركض في الشارع، السير وذراع صديقي المقرب حول
كتفي، ركل كرة قدم لتمر من بين قدمي حارس المرمى. كان الثوب
الأزرق الرث راية حريتي، التي لا يعرفها أحد غيري.
- كم سنغيب؟
كنت أحسب. أعرف أن بدرية قامت بعدة رحلات ذهابًا
وإيابًا خلال الجلسة الماضية، لكنني لم أهتم البتة بحساب فترات
العطلات.
- أسبوعان، على ما أظن. ثم سنعود لعطلة قصيرة قبل أن
نسافر مجددًا إلى كابول... هكذا يسير الأمر.

- أسبوعان؟ آه، واو. أسبوعان... ظني أن بإمكاني...
- ظنك؟ أنتِ من فكرت في هذا كله لذلك لا تتحولي إلى طفلة الآن.

إنها تريدني أن أذهب معها، أدركتُ وكدت أبتسم. إنها تحتاج إليّ. شعرت أنني أملك ما يجعلني أربح.

عرفت فيما بعد كيف تسير الأمور حقًا. كانت بدرية، مثل كل النائبين الآخرين، تُمنح راتبًا لتعيين مساعد، وسائق، واثنين من الحرس الشخصي. حتى ذلك الوقت، كان عبد الخالق يحتفظ بتلك الرواتب وراتبها؛ إذ كان يوفر لها سائقًا وحارسين بالفعل. لعجزها عن القيام بأعمالها الورقية كانت بدرية تذهب إلى مكتب الإدارة العامة أكثر من أي عضو آخر. وكانوا هناك قد سأموا منها ويلحون عليها لتجد مساعدًا في أسرع وقت ممكن وإلا فسوف يقتطعون قسمًا من الرّواتب.

كان تهديدًا فارغًا لكن وجود مساعد سيجعل الأمر أسهل على الجميع.

لكني آنذاك لم أكن أعرف كيف تسير الأمور. لم أكن أعرف أيضًا أن عبد الخالق وبدرية يفعلان ما يفعله الكثير من أعضاء البرلمان الآخرين. بدا أنه لا أحد في كابول يتابع مسألة المال. أو الوعود.

كل ما استطعتُ التفكير فيه أن بإمكاني فعل هذا. كنتُ على ثقة بأن جميلة ستعتني بابني جيدًا. ربما سيعود هذا عليَّ وعلى جهنجر بالخير في النهاية. كان أي شيء أفضل من خدمة الجميع في البيت.

- حسنًا.

وافقتُ، أفكر في أن هذا قد يكون مفترق طرقي، قدري.

الفصل 38
شكيبه

منذ أن وصلتْ شكيب إلى القصر، نادرًا ما تواصلتْ بالعين مع أي شخص، حتى النساء. كانت قد قضت وقتًا طويلاً من حياتها بالحجاب، تخدم في بيوت لا يريد أصحابها سماع صوتها ولا رؤيتها. حين مرتْ بجندي لأول مرة، كاد قلبها يقفز من بين ضلوعها حين تمتم بتحية ما خرقاء نحوها. في المرة الثانية، كان بستانيّاً. استغرق الأمر ساعة لتهدأ رعشة يديها وتتجاوز ارتباك التواصل بالعين الذي حدث بينهما.

كان من الصعب عليها تصديق أن بإمكانها النظر إلى الغرباء مباشرة والتحدث إليهم. كانت تشعر غريزيّاً بالرغبة في الركض بعيدًا. لكن بمرور الأيام واعتياد ساقيها على بنطالها، اعتادتْ هي ببطء على التفاعلات الصغيرة. كانت تدفع نفسها دفعًا لتتحدث مع الحرس الآخرين ولتسمعهم حين يتحدثون مع أحدهم الآخر.

في بعض الأيام، كانت شكيب تقابل أشخاصًا يعملون في القصر، ليس خارجه فقط. في كل مرة يسهل عليها قليلاً فتح محادثة. وبالطبع كانت تجد طريقة لتقحم شيئًا ما عن السلالة الطويلة للبنين في عائلتها. لم تكن ماهرة في ذلك، لكنها لم تهتم.

بعد مرور عام على وصولها إلى قصر الملك صارت تسير في

الأنحاء بثقة. تعرف عن كل محظية أكثر مما كانت تتخيله ممكنًا. كانت قد راقبت أطفالهن، أطفال الملك، يسيرون خطواتهم الأولى، يكتبون كلماتهم الأولى. بدا حبيب الله ملكًا جيدًا، حسبما يقول العاملون في القصر. كان قد توسع في شبكة الطرق عبر البلد، وأنشأ أكاديمية عسكرية ومدارس أخرى.

كان الملك حبيب الله يسافر أسابيع في كل مرة ويعود بمحظية جديدة، فتيات بالكاد شببن عن الطوق، بعيون بريئة وعصبية. راقبتْ شكيب الفتيات الجديدات وهن يتعثرن ويبكين حتى يستقررن في الحريم.

لكل فرد دوره في القصر.

كانت المحظيات الجديدات يجعلن القديمات يلوين شفاههن ويُعِدن التفكير في وضعهن. ازدادت سكينة مكرًا، كانت تسدي القادمات الجديدات نصائح زائفة وتظل صامتة أيامًا حين يتجاوزها الملك حبيب الله ويستدعي وجهًا جديدًا. أنجبت بنازير فتاة سمَّتها مِزجان وكحّلت لها عينيها، كما نصحتها حليمة.

ازدادت فاتيما شحوبًا في الأسابيع القليلة الماضية. أتمّ ابنها عامه الأول منذ وقت قصير لكنه يقضي معظم الوقت مع حليمة؛ إذ لم تكن بصحة جيدة للعناية به. كان مرضها مجهولاً، وكانت طبيبة الحريم تزورها كثيرًا، امرأة بريطانية تُدعى مسز براون. لم يكن في كابول سوى أطباء ذكور، ما لا يتماشى مع قواعد الملك الأمنية. أُحضِرت مسز براون من خارج البلاد، امرأة عطوف لكنها صارمة، أعجبت الأسرة الملكية لكفاءتها وسلوكها أيضًا. كانت تقيم في القصر ونادرًا ما تعود إلى موطنها في إنجلترا. وضعتْ مسز براون («خانم بيه رو ين» كما تدعوها

النساء) سماعتها الطبية على صدر فاتيما وظهرها، وضغطت بيدها على بطنها. كانت تتنهد وتنقر بطرف إصبعها على شفتيها، تفكر.

بالرغم من التوترات السائدة، كان الحريم بمثابة عائلة. النساء الأكبر في السن بمثابة أمهات للمحظيات الأصغر سنًا، تتنافس الصغيرات بينهن كأطفال ليس لديهم سوى لعبة واحدة فقط.

كان الملك حبيب الله يزورهن متى يشاء، يظهر أحيانًا خلال النهار، وأحيانًا أخرى في سواد الليل. كان يأتي بالحد الأدنى من الحاشية لكن زياراته لم تكن سرًا. خلافًا للرجل الآخر.

كان الزائر الآخر، أيًا كان، يأتي نادرًا. ما أن تظن الحارسات أنه ملّ عشيقته، يزور أخرى، دائمًا تحت ستار الظلام. لا بد أنه عرَف أن الحارسات رأينه والأرجح أنه خمّن عجزهن عن إيقافه. أيًا كان، فقد كان يخون شرف الملك بجرأة ويرتكب أشنع الخطايا، ثم يعاود التجول في قصره.

تساءلتْ شكيب عمّن قد يكون بتلك الوقاحة؟ ولماذا؟

كان أمان الله يبقى قريبًا من القصر حين يسافر والده عبر البلاد ليتفقد الطرق التي أمر بإنشائها. كان يأتي إلى فناء الحريم من حين لآخر؛ يميل ليربت على ظهور إخوته الصغار، يعبث في شعورهم، ويركل الكرة نحوهم. تراقبه شكيب، قلبها يدق بإيقاعات غريبة، بين اليأس والأمل. كان يتعرف عليها ويمنحها ابتسامة خفيفة. كمصافحة سرية بينهما، فكرت شكيب.

قد أبدو أكبر سنًا منه قليلاً لكنني لم أتأخر كثيرًا على الزواج. ما زلت صغيرة، قوية وعفيّة. أتمنى أن يذكرني الآخرون

أمامه، كيف أساعد البستانية في زراعة الشجيرات، كيف أحمل الأطفال حين ينامون، كيف أحمل صواني الطعام إلى مقران السيدات. إن ظهري بقوة ظهر أي جندي في القصر، ذراعاي صلبتان وذهني عاقل. فكِّرْ فيّ يا أمان الله جان، وأنا متأكدة أنني لن أخيّب ظن رجل مثلك.

لم تكن شكيب وحدها من تفكر في زواج أمان الله.

كان الملك حبيب الله أيضًا يرى أنه قد حان وقت تزويج ابنه. كان في ذهنه عدد من المتنافسات، بنات وزرائه أو مستشاريه المقربين. حسبما قال الملك نفسه، حين سمعته شكيب وهي تقف خارج جناحه في الحريم. «لا يمكنني إجباره، سوف يختار بنفسه، إنه ابني. أمان الله مختلف عن إخوانه. إنه يشبهني أكثر من الآخرين. ومختلف عني تمامًا بطرق أخرى. أتساءل أحيانًا كيف كنت سأشعر نحوه لو لم يكن ابني».

شعرتْ شكيب بالوقت يسرقها. سوف يختار أمان الله عروسًا قريبًا. شحذت جهودها المتواضعة. كانت تجد سببًا للتحدث مع كل من تقابله تقريبًا لتذكر نساء عائلتها اللاتي لا ينجبن سوى البنين.

رأته مرة أخرى مع أغا بران. كانا يعبران الحدائق عائدين من اجتماع في قصر دلكشا. دست شكيب يديها في جيبيها ونظرت حولها. صار يسهل عليها الانتقال بين الجنسين الآن، تعي بصدرها المسطح ومنحنياتها اللامرئية في حضرة أمان الله فقط. كانت ترتعش لرؤيته. وتأمل أن يعرف.

توقف الرجلان عند الدكة. قطف أغا بران وردة حمراء، شم أريجها ووضعها في جيب سترته. كانت شكيب على مسافة بعيدة

انهما راحت تقترب منهما ببطء وطبيعية، تتظاهر بتفقد الشجيرات وهي تتجول. اختفيا خلف الأشجار حين جلسا ولم يلاحظا المرأة/الرجل بجوارهما، تتصنّت وتتقرّب.

- لقد قررت إذن؟

- أنا مستعد يا أغا بران. ظني أنه حان الوقت للزواج. أريد ان اصنع تركتي الخاصة وعليَّ أن أبدأ بأسرة لفعل هذا. أريد أن يكون بجانبي زوجة عاقلة تحب كابول كما أحبها. أنا واثق بقراري. إن إرادتها قوية رغم ما مرت به من مِحن، ما زالت تسير برأس مرفوع رغم غدر الناس بها. حين أنظر في وجهها ارى تفهّمًا رقيقًا بسبب ما حدث لها.

تجمدت شكيب. *وجهها؟ أتراه يتحدث عن وجهها هي؟ نعم، لقد غدر بي الناس! غدر بي الجميع تقريبًا! لكنني سأعمل بإخلاص شديد من أجل كابول! سأفعل أي شيء تريده!* لم تتحرك خشية أن يلحظها أحد.

ربما أخبره أغا بران عنها؟ ربما أخبره بما قالته له وربما يعرفان أنها تستمع في هذه اللحظة ذاتها.

- وماذا سيقول أبوك؟ أعني، بخصوص موطنها...

- أعرف هذا، لكنه هو من عرفني عليها هنا في هذا القصر.

اتسعت عينا شكيب. بالفعل، كان الملك حبيب الله هو من جلبها إلى القصر وأدخلها في حياة ابنه. فردت كتفيها، تريد أن تتصرف كما يليق بسيدة قصر.

- سوف أتحدث معه مجددًا الليلة. لقد ذكرت له الأمر من قبل لكنه لم يصدق أنني كنت جادًا.

أخذ بران نفسًا عميقًا.

لم تقل شكيب شيئًا للحارسات الأخريات، لكنهن ظللن يتبادلن النظرات بشأن تغيرها. كان على غفور أن تكرر الأمر ثلاث مرات قبل أن تلاحظ شكيب أنها تتحدث إليها. حين تجد كريم وقاسم طعامها لا يُمس تتقاسمانه بعد مغادرتها. حاولت طارق التحدث معها، عن أحلامها بالأمومة. كانت شكيب تومئ وتهز رأسها بشرود على نحو ظنت معه طارق أنها ربما تتحدث إلى الحمائم أيضًا.

مر يومان على هذه الحال. في الليل، تحدق شكيب في الحائط، تتخيل وجه أمان الله وتتخيلَ كيف سيرسل إليها بشخص ما من القصر لطلب يدها. أين ستعيش؟ ستُطيل شعرها، ستضع مساحيق التجميل، كما تفعل نساء الحريم من حين لآخر. كانت سيدة بريطانية تزور القصر قد أتت بأحمر الشفاه والبودرة، وعرّفت النساء كيف يفتّحن لون بشرتهن ويضفين لمحة لون مغرية على خدودهن. تساءلتْ شكيب إن كانت البودرة تستطيع إخفاء تشوهها، قناعها النصفي.

في الليلة الثالثة، كانت نوبة حراسة شكيب. وقفتْ خارج الحريم، تراقب القصر وتتمنى لو كانت أمها على قيد الحياة. استغرقتْ وقتًا أطول لتستجيب لصوت الخطوات والثرثرة داخل الحريم. كانت حليمة في المدخل الأمامي حين بدأت شكيب تدرك أن شيئًا ما يحدث.

- إنهَا فاتيما! إنها ليست بخير. نحن في حاجة إلى الطبيبة!

ساءتْ حالة فاتيما فجأة، ومعها، تغيّر مسار قدر شكيب.

الفصل 39
رحيمة

كانت الطريق وعرة. آلمني جنباي مع كل قفزة للسيارة. راقبتني بدرية من زاوية عينها. لم تندهش الزوجة الأولى الخبيرة. كان عبد الخالق قد طلبني الليلة الماضية. دخلتُ غرفته بهدوء. مع أنني لم أعد عروسًا جديدة، لكن الليالي التي أقضيها مع زوجي ما زالت تثير تقززي. عليَّ أن أشرد بذهني بعيدًا، أفكر في المهام التي عليَّ إنجازها أو أتذكر أيام المدرسة حين كان المعلم يحفّظنا جدول الضرب.

ما أن ينتهي واجبي كزوجة، أنتظر حتى أسمع شخيره، إشارتي لألملم أشيائي وأعود إلى غرفتي. كانت ليلة أمس مختلفة.

كنت أنا وبدرية سنغادر في الصباح، رحلتي الأولى إلى كابول. كنت متحمسة لكنني قلقة بشأن تركي جهنجر. عرفتُ من انفاسه المعتدلة أنه مسترخيًا لكنه لم ينم بعد. انتهزت الفرصة.

- أريد أن أسأل عن شيء...

بدأتُ مترددة. كنت أبحث عن صياغة للكلمات لا تثير غضبه فورًا. بدا مندهشًا لسماعي أتحدث. أخبرني بحاجبه المرفوع أن أسأل.

- غدًا... لأنني سوف أساعد بدرية جان... كنت أود أن آخذ جهنجر معي إلى...

- ستعتني به جميلة.

- لكنني لا أريد إزعاجها. يكفيها العناية بأطفالها.
- سيكون بخير.
- وأريد أن أتأكد أنه يأكل جيدًا. أحيانًا يكون صعبًا الإرضاء للغاية...
تحدثتُ كثيرًا.
صاح: لا تذهبي إذن! كانت فكرة غبية من البداية! والآن عليَّ أن أسمع شكواكِ! أنت لا تمتنين لأي شيء!
نهض الآن، أزاح عنه الملاءات فكشفت ساقيّ.
- أنا آسفة...
قلتُ آملة إخماد رد الفعل الذي رأيته قادمًا.
فات الأوان. أمضى عبد الخالق النصف ساعة التالية في تعسيفي لأنني تحدثت.
أدركتُ حينها أن زوجي يفهم الناس، يعرف جيدًا كيف يُخضعِهم له، كيف يُغضبهم أو يُحزنهم أو يُخيفهم. أدركتُ أن هذا ربما ما يجعله ناجحًا في عمله أيًّا كان.
جاء الصباح وقبّلت خد ابني النائم وأنا أضعه على وسادة في غرفة نوم جميلة. لمست خده وراقبتُ شفتيه ترسمان ابتسامة ملائكية صغيرة.
عضت جميلة على شفتها حين رأتِ وجهي. بدأ الاحمرار على خدي يزداد قتامة، كدمة بشكل الكف. قالت بحنان: سيكون بخير يا رحيمة جان... سينام بجانبي مغطى ببطانيتك. سنتحدث عنكِ حتى تعودين. هذا أمر جيد لك، سترين.
كنت ممتنة وكنت أعرف أن جهنجر يحب بقاءه معها ومع أطفالها. لكنني، كنت أكره ترك ابني.

أسبوعان، فكرت. سنعود بعد أسبوعين لأولى عطلاتنا، ليست فترة طويلة للغاية، صحيح؟

مررتُ بأصابعي في خصلات شعره الداكن وانحنيت لأقبّله ثانية في رأسه. تقلّب على جانبه، كشفتْ شفتاه الرائعتان عن أسنانه الصغيرة.

قالت جميلة: لا بأس يا رحيمة جان. سيكون بخير، وأنتِ ستكونين بخير. سترين.

عانقتني برفق، تعرف أن كدمة واحدة تنبئ عن كدمات أخرى.

حملتُ حقيبتي وخرجت إلى السيارة. كانت بيبي كلالي وبدرية في الخارج، وحشمت أيضًا. ينظر باستعلاء ويبتسم بدناءة. صاح: صباح الخير!

تمتمتُ: صباح الخير.

ما زلت مشغولة بوجه جهنجر الناعم. لا تنقصني ظرافة حشمت اليوم.

– سلام خالة جان.

تجاهلتْ بيبي كلالي تحيتي.

– مستعدة للسفر إلى كابول كما أرى. لا أعرف كيف تتركين ولدًا صغيرًا لتتدخلي فيما لا يعنيكِ. إن ابني طيب ليسمح بهذا! لذلك فالأفضل لكِ أن تساعدي بدرية جان جيدًا.

رددتْ بدرية: هذا صحيح.

تمتمتْ بيبي كلالي: ظني أنها ستجلب لنفسها مصائب تستحقها.

ضحك حشمت.

قال: سترافقين مادر جان إلى كابول! أراهن أن أصدقاءك في الفصل سيحسدونك إن عرفوا بذهابك إلى المدينة.

وجهتُ إليه نظرة حادة لم تخفَ على بيبي كلالي ولا على بدرية. كان يكسب نقاطًا بذكر ماضيّ *كباشابوش* وأصدقائي الصبيان ما أمكنه. حين فعل هذا أمام أبيه ارتد الأمر عليه بنوبة غضب كادت أن تطيح به هو نفسه. كان شيء ما في كوني *باشابوش* قد أثار اهتمام عبد الخالق بي من قبل لكنه الآن لا يمكنه تحمُّل سماع شيء عن جلوسي بجوار الفتيان في المدرسة.

وضع حرس عبد الخالق حقائبنا في حقيبة السيارة. أحكمتْ كل منا شادورها وركبنا في المقعد الخلفي.

لا تتحدثي مع الحرس، سيحرسونك لكنكِ إن فعلتِ أي شيء... دعيني أؤكد لكِ... سوف تندمين. وفي كابول، لديَّ ناس: سأسمع بكل ما تفعلينه، إن فعلتِ أي شيء يحرجني، أقسم أنني سأجعلك تندمين.

كان واضحًا. كنت شاكرة لأن جهنجر أصغر من أن يتسبب في مشاكل كثيرة. لكن مزاج عبد الخالق كان صعبًا وسريعًا، وفي الغالب من دون إنذار. طلبتُ من جميلة أن تحرص ألا يعترض جهنجر طريق أبيه. لن أكون هناك ليلوذ بي.

ظللت أقلّب تلك الأفكار حتى هدهدتني الطريق الوعرة أخيرًا ونمتُ. لم تكن بدرية في مزاج للثرثرة هي الأخرى. مالتْ برأسها على النافذة وبدأ شخيرها الخفيف.

لا أعرف كم مر من الوقت قبل أن تظهر المباني مرة أخرى. كان هناك عِمارات، بيوت، أحصنة وسيارات. جلست مستقيمة الظهر، عيناي متسعتان. كنا في سيارة جيب بنوافذ ذات زجاج

قاتم، دققت النظر لأرى كيف يبدو ناس كابول. قفز ذهني إلى بيبي شكيبه وانطباعاتها الأولى عن العاصمة، كما تدعوها خالة شايما.

كنت مثلها، مذهولة وبعينين متسعتين لكن بشكل مختلف. لم أرَ من قبل هذا الكم من السيارات والناس في مكان واحد! بدا أن كل من يعيش في كابول يملك سيارة. وفي محل بعد آخر كانت الشوارع مصطفة بسلع مثيرة وأطعمة مختلفة. خبازون، خياطون، وصالونات تجميل حتى! كان ذلك مختلفًا تمامًا عن قريتي. تمنيت لو كانت شهلا معي لترى كل هذا. أو الأولاد. توجد أماكن كثيرة للغاية كان بإمكاننا اكتشافها معًا لو كنا نشأنا هنا!

قلتُ مندهشة: إن كابول... إنها مذهلة!

بدتْ بدرية مستمتعة برد فعلي.

- إنها كذلك بالطبع! تحدث أمور كثيرة هنا. لن يكون لديَّ الوقت لأشرح لك كل شيء.

رأيت معروفًا وحسنًا في المقعد الأمامي يتبادلان نظرة. لم تر بدرية نفسها أي شيء في كابول. كانت قد شكتْ لجميلة من ذهابها برفقة الحرس من فندقها إلى مبنى البرلمان والعكس فحسب.

- لقد وصلنا تقريبًا. سنقيم في فندق يديره أوروبيون.

في شارع تصطف على جانبيه الأشجار، لاح مبنى ضخم. لبوابته الخارجية أعمدة حجرية. ثم ممر واسع تصطف على جانبيه أعمدة حجرية، طبقة فوق الأخرى حتى رأينا القصر نفسه. عند المدخل الرئيس يحيط ممر واسع ببرج شاهق. مددت عنقي لألقي نظرة جيدة.

هذا البرج يصل إلى السماء! فكرت.

كانت واجهة القصر مزدانة بالنقوش والزخارف، باهتة ومشققة، لكنها بالتأكيد بدت مذهلة. ذات مرة، مرت امرأة بالباب الأمامي، تغطي وجهها بطرحة بلوني الأصفر والأخضر، تخفي كل شيء أسفل أنفها وكذلك أسفل كتفيها. فيما نمر بها، استدارت قليلاً ونظرتُ إلى نافذتي القاتمة مباشرة، قابلتْ عيناها عينيّ كأنها رأتني من خلال الزجاج، كأنها تبحث عني. أمر غريب، لكنني لم أظنه غريبًا.

سألت: ما هذا المبنى؟

أعرف الإجابة بالفعل.

– إنه *بلاط الشاة*، القصر الرئاسي.

همستُ: بيبي شكيبه...

انتابتني قشعريرة حين فكرت في جدة جدتي وما لا بد أنها شعرت به. حين رأت تلك البوابات أول مرة، وللتفكير فيما رأته على الجانب الآخر. كالمعتاد، لم تنه خالة شايما قصتها. مسار الأحداث في قصتها لا يمكن التنبؤ به. أردت أن أعرف ماذا حدث لها بقدر ما أردت أن أعرف ماذا سيحدث لي.

– رحمتك يا رب، بماذا تغمغمين؟

ظل سؤال بدرية بلا إجابة. حدقت في القصر حيث بدأت سلالتي.

ماذا حدث لك هنا؟ تساءلتُ.

استدار معروف يسارًا، ثم يمينًا، ثم يسارًا مرة أخرى. يناور عبر الشوارع المزدحمة ويسب كل سيارة تعترض طريقه. كان ثمة دبابات وجنود يرتدون الزي العسكري المموّه والخوذات. لا يبدون

افغانيين. إنهم الجنود الأجانب التي أخبرتنا عنهم بدرية. مثل حرس زوجي، لديهم أسلحة كبيرة معلقة على أكتافهم. وقف الصبية الصغار أمامهم، بفضول بادٍ. ضحك الجنود وثرثروا مع الصبية بشكل طبيعي. سألتُ بدرية: هل هم أمريكان؟

- إنهم من كل مكان. بعضهم أمريكان، وبعضهم أوروبيون أو ايّاً كانوا.

أشارت إلى مبنى إلى يسارنا. أعلنتْ: لقد وصلنا.

- هل تقيمين هنا دائمًا؟

- نعم، إنه مكان لطيف. سترين.

كانت محقة. توقفتِ السيارة عند بوابة معدنية في شارع صغير مختفٍ بعيدًا عن السوق المزدحمة. همستْ بدرية: ارتدي الشادور.

ارتديته بسرعة. اخفض سائقنا زجاج نافذته حين وصلنا إلى حارس البوابة ذي الزي الأزرق. ذكر اسم عبد الخالق. ظننت أنهما يتصافحان لكنني لاحظت أن أصابع حسن تمسك بشيء ما أخذه الرجل ودسه في جيبه.

نقود.

نظرتُ إلى بدرية لكنها إما لم تلاحظ ما حدث أو أنها لم تهتم.

فتح حسن البوابة وقاد معروف سائقنا في ممر دائري أمام أكبر مبنى رأيته في حياتي، كان بارتفاع ثلاثة طوابق بصفوف من النوافذ كمئات العيون، يؤطر عمودا المدخل ببابه الزجاجي المزدوج.

- وهنا تنعقد الاجتماعات؟

- لا، أيتها الحمقاء. الجلسات تنعقد في مبنى البرلمان.

كنت مذهولة للغاية لأنزعج من نبرتها المتغطرسة.

دخلنا ردهة جميلة فيها مكتب استقبال. كان رجل يرتدي قميصًا من قماش خفيف وبنطالاً ضيقًا يتحدث في الهاتف، لكنه أومأ حين رأى سائقنا والحارس الآخر. أعاد السماعة إلى موضعها ونظر لأعلى إلى حارسينا. وقفتُ خلف بدرية، لا أريد أن أقوم بأي حركة غير لائقة. دخلتْ ثلاث نساء من الخارج يرتدين قمصان علوية مناسبة وبناطيل من الدانيم. كانت طرحهن مربوطة بإحكام أسفل ذقونهن لكن خصلات شعورهن تؤطر وجوههن وحواجبهن المقوسة بأناقة. كانت أحذيتهن ما لفت انتباهي أكثر من أي شيء. أحذية من الجلد الأسود تكسر الصمت في المكان.

شعرت وأنا أنظر إلى ملابسهن بالامتنان للشادور لستره ثيابنا الفضفاضة البالية. شعرت فجأة بفظاظتي وارتباكي. حاولت إخفاء قدمي خلف بدرية. كانت النساء مشغولات بالحديث وبالكاد لاحظننا.

ظلت المحادثة بين الحرس الشخصي لعبد الخالق وموظف الاستقبال تروح وتجيء حتى وصلت أخيرًا لمصافحة أخرى. وُضعتْ رزمة نقود في راحة الموظف الذي دسها في جيب سترته سريعًا، فيما يمسح المكان بنظرة سريعة ليتأكد أنّ لا أحد يراقبه، ليس لأن أي شخص كان ليهتم بما يحدث.

اصطُحِبنا إلى غرفة في الطابق الثالث بفراشين مفردين وحمام غربي. كانت النافذة تطل على الفناء الخلفي للفندق. أرض حجرية صغيرة محاطة بشجيرات وأجمات الورود. رأيتُ حمامة تلوذ بظل شجرة.

مثل حدائق القصر حيث اعتادت بيبي شكيبه الوقوف

الحراسة، فكرتُ.

- لا أصدق أنك تقيمين هنا في كابول! لا عجب أنكِ تحبين المجيء إلى هنا كثيرًا!

قالتْ وهي تفتح حقيبتها وتُخرج منها سترة: لا تعتادي على هذا.

- لماذا؟

- لأننا سننتقل إلى شقة سريعًا. عبد الخالق يستخدم هذا المكان مؤقتًا فقط. لقد ظل يبحث عن مكان لنا في كابول يمكننا الإقامة فيه ببعض الخصوصية، وحرسه فحسب في الخارج.

سألت: وهل وجد مكانًا الآن؟

أجابتي: وكيف سأعرف بحق الجحيم؟

جلست على الفراش وخلعت صندلها. كانت قدماها مثخنتين بعقد صفراء. فركت باطن قدمها وتنهدت.

- انظري يا رحيمة، أنا أعرف لماذا تفعلين هذا. لا تظنين اني غبية.

نظرتُ إليها لكنني لم أقل شيئًا. ظننت أنه من الأفضل أن أدعها توضح.

- لكنك ما دمت ستساعدينني فيما أحتاج إلى قراءته وكتابته في تلك الاجتماعات، لا يهمني كثيرًا. فقط لا تتوقعي مشاهدة الكثير من كابول.

كانت محقة. كان حارسانا يتركاننا لشأننا لكنهما لم يبتعدا عنا مسافة أكثر من عشرين قدمًا. كانا يجلسان أغلب الوقت في منطقة الجلوس الصغيرة في الطابق الثالث، على مبعدة بابين

فقط من غرفتنا. استأتُ لأن عبد الخالق يطبق على أنفاسنا طوال الوقت هكذا، لكن جميلة كانت قد أخبرتني عن التهديدات التي يتعرض لها أعضاء البرلمان، خاصة النساء، لذلك كان ثمة شيء ما مريح في وجود الحارسين الشخصيين لعبد الخالق، الموثوق بهما، ليراقبانا في تلك المدينة الجديدة المزدحمة. شعرت بالأمان أكثر لوجودهما.

بدأ العمل في اليوم التالي. قادنا الحارسان إلى مبنى البرلمان في الصباح. ظللنا نرتدي الشادور حتى وصلنا إلى هناك. خلعتْ بدرية شادورها أولاً وأمرتني أن أفعل مثلها. نظرتُ إلى الحارسين لأرى رد فعلهما. كانا ينظران بعيدًا، فيما ندخل إلى مبنى طويل وواسع، أمامه صفوف من الأعمدة.

كان الناس يدخلون ويخرجون، رجال ونساء يبدون من مختلف الأنحاء. كان بعض الرجال يرتدون القفطان الواسع والبنطال الشائع في قريتنا، يلفون رؤوسهم بعمامات، يتدلى أحد طرفيها على الكتف. لكن النساء ما جعلن فكي يسقط. كان بعضهن يرتدين كما نرتدي، ثيابًا بسيطة واسعة عند الخصر أسفلها بنطال واسع. لكن أخريات يرتدين القمصان بأزرار مغلقة وتنورات طويلة واسعة. حتى إن بعضهن يرتدين الجاكيت والبنطال. كن يرتدين طرحهن الملونة بذكاء. فيما نقترب رأيت أن بعضهن يضعن أحمر الشفاه، بينما حدّدت أخريات عيونهن بالكحل. تساءلتُ فيما يفكر أزواجهن وهم يرونهن يسرن سافرات الأوجه ويضعن مساحيق التجميل.

وصلنا إلى نقطة أمن. وقف أربعة حراس بالزي الرسمي عند المدخل. رجلان وامرأتان. ينتظم الزحام عندها ببطء في

ثلاثة طوابير. أخذتني بدرية من مرفقي وقادتني لنمر بالآخرين. سكتتْ قليلاً حين وصلتْ إلى حارسة الأمن، ترتدي الزي الكاكي نفسه الذي يرتديه نظيرها الرجل لكن بتنورة طويلة.

حارسة امرأة. تمامًا مثل بيبي شكيبه، فكرت. لم يسعني سوى التحديق في وجهها، أتساءل إن كانت تشبه المرأة التي سمعت عنها كثيرًا في أي شيء.

تمتمتْ بدرية بتحية سريعة ولوحتْ لها. أومأت الحارسة وأعادَتِ انتباهها للمرأة أمامها. قادتها خلف حاجز.

- ماذا تفعلان؟

- إنهن هنا للأمن، يفتشن الناس بحثًا عن أسلحة. تلك الغرفة في الخلف تفتش فيها الحارسات النساء. لا يجوز إدخال أي شيء إلى هذا المبنى. ولا إخراج شيء منه أيضًا.

- أليس علينا أن نمر بالتفتيش؟

- حسنًا، علينا ذلك لكنني لا أفعل. الحارسات تعرفنني. ولا أحد آخر من البرلمان يمر بالتفتيش أيضًا. نحن أعضاء البرلمان، رغم كل شيء! سيكون من السخف أن يتحسسونا كلما دخلنا! لن أتحمل هذا!!

أمسكتُ لساني، أعرف أنها ستتحمله إن صدر لها الأمر بذلك.

ابتسمتْ بدرية بأدب لأشخاص قليلين تعرفهم. اقتربت منا امرأتان ترتديان ثوبين طرحتاهما أطول، بوجهين مشرقين ومبتهجين.

- بدرية جان! تسعدني رؤيتك مجددًا! كيف حالك؟ وكيف حال الأسرة؟

لهما نفس الطول والعرض وتقاسيم الوجه حتى، لكنهما يفصل بينهما في السن قرابة عشر سنوات، في وجه الأكبر سناً خطوطًا أكثر، وبشعرها خصلات رمادية أكثر.

انضغطتِ الخدود ببعضها، قُبلات في الهواء وذراع حول كتف. تحيات النساء.

- صفية جان، قندم، *سلام*!

اتسعت عيناي لسماعي بدرية تحييها بتلك الرقة.

- الحمد لله، الجميع بخير. كيف حالك أنتِ وحال الأسرة؟ وأنتِ حميدة جان؟ كيف حالك؟

- بخير، شكرًا لكِ. هل أنتِ مستعدة لجلسة أخرى طويلة؟

أجابت حميدة، كان وجهها خاليًا من المساحيق وجادًا.

- نعم، مستعدة. متى في ظنك سوف تبدأ؟

- يقولون إن علينا البدء خلال نصف ساعة.

قالت صفية وهي تنظر إلى المدخل. كانت هي الأكبر سنًا. في عينيها رقة أراحتني.

- لكن ظني أننا ليس لدينا العدد الكافي هنا. الأرجح أننا سنبدأ خلال ساعة. ربما خلال ساعتين. أنتِ تعرفين كيف يسير الأمر.

أومأت بدرية بأدب وظلت صامتة.

لا تعرف ماذا تقول لهما، فكرتُ.

- ومن التي معكِ هنا؟ هل هي ابنتك؟

تنظران إليَّ بتساؤل وتبتسمان. نظرتُ إلى بدرية وشعرتُ بالرغبة في السير بعيدًا. لم أحبذ أن يظنها أحد أمي. هي أيضًا لم تحب ذلك، وإنما لأسباب مختلفة.

- هي؟ لا، إنها ليست ابنتي. إنها ضرتي.

- ضرتك؟ آه!

تلاشتِ ابتسامة حميدة. تستنكر هذا.

سألت صفية تحاول التغطية على رد فعل حميدة: هل أحضرتها لترى البرلمان؟

- نعم، لقد... لقد أرادتْ أن ترى ما أفعله. ما نفعله؛ فقررتُ أن أعيّنها مساعدة لي.

- سوف تكون مساعدتك! ما اسمك؟

قلتُ: رحيمة، تسعدني رؤيتكما.

قالت صفية يبدو عليها السرور بسبب ردي: ونحن أيضًا تسعدنا رؤيتك، ظني أنها فكرة رائعة أن تأتي لتري ماذا يفعل البرلمان. قد تودين الانضمام إلى... بدرية جان وتحظين بمقعد في الجرجا. نحن بحاجة إلى نساء للمشاركة في حكومتنا.

أومأتْ بدرية لكنها بدت غير مرتاحة.

- لماذا لا تأتيان أنتما الاثنتان إلى مركز الموارد هذا المساء؟ بعد انتهاء الجلسة.

هزت بدرية رأسها.

- لا، لا يمكننا. في وقت ما آخر.

- لمَ لا يا بدرية جان؟ لديهم هناك مدرسون ساعدونا كثيرًا. الليلة سنعمل على الحواسيب. الأمر ليس سهلاً. عليكِ قضاء وقت حقًا لتتعرفي على هذه الأجهزة. سيكون من الجيد تعلمها.

- أعرف. لقد رأيت الحواسيب. إنها ليست صعبة لهذه الدرجة.

قالت بدرية وعيناها تتحركان بعصبية.

أكد تعبير وجهي لصفية وحميدة أنها لا تعرف شيئًا البتة عن الحواسيب. قررتْ حميدة تجاهل الكذبة البيّنة.

سألتُ: ماذا يُعلّمون هناك أيضًا؟

ظللت بعيدة عن المدرسة وقتًا طويلاً للغاية. كانت فكرة المدرسين والدروس تثير جزءًا فيّ دفَنَه بيت عبد الخالق.

قالتْ صفية، سعيدة بفضولي: يُعلّمون أشياء كثيرة، المحادثة بالإنجليزية، كيفية البحث، كيفية إدارة البرلمان...

– أهي مَدرَسة؟ أيمكن لأي شخص الذهاب؟

أومأتْ حميدة.

– يمكنك المجيء، بصفتك مساعدتها. إنه لنساء البرلمان فقط. تديره منظمة أجنبية ويفتح أبوابه بعد انتهاء الجلسات. ربما يمكنك إقناع بدرية جان بالمجيء. يوجد في هذا المبنى أشخاص كثيرون جدًا لا يفعلون شيئًا. علينا جميعًا أن نضاعف جهودنا.

– بعد إذنكما سيدتيّ، أريد أن أُري رحيمة جان المبنى ثم سنذهب إلى مقعدينا.

قالتْ بدرية وأصابعها تُمسك بمرفقي بقوة. أرادتْ إنهاء تلك المحادثة.

سرتُ خلفها بقلب أسعدته سيرة الدراسة. بدأتُ أتحسس إمكانية التغيير هنا.

الفصل 40
شكيبه

وقفتْ شكيب جامدة.

- لا تقفي هناك فحسب! إنها بحاجة إلى الطبيبة. اذهبي واحضري خانم بيهروين!

رفعتْ حليمة يديها لأعلى بيأس. أومأتْ لشكيب واستدارتْ لكنها توقفتْ فجأة، أدركتْ أنها لن تصل إلى الطبيبة من دون الدخول إلى القصر مباشرة في منتصف الليل. انعطفت إلى مقر الحارسات.

- غفور! غفور، استيقظي. علينا أن نأتي بالطبيبة لفاتيما. إنها مريضة وتحتاج إلى مساعدة.

هبّت غفور، الحارس الهُمام، تنهض لتتولى المسؤولية على الفور.

- مريضة؟ أسوأ مما كانت عليه؟

- ظني هذا. لم أرَها.

- ماذا؟ ألم تدخلي لتتفقديها؟ ماذا كنتِ... لا عليكِ! كريم، انهضي. اذهبي لتري فاتيما. خذي قاسم معكِ. سأذهب إلى القصر لأسأل عن الطبيبة.

سألتْ شكيب: ماذا عليَّ أن أفعل؟

- لا شيء. يمكنك هذا، أليس كذلك؟

قالت غفور منزعجة. مرت بشكيب لترتدي زيها الرسمي

سريعًا. أغلقتْ إبزيم حزامها بنشاط قبل أن تسدّد لشكيب نظرة ازدراء أخيرة.

سوف يستيقظ من في القصر. عليَّ أن أعود لنويتي، فكرت شكيب وعادت إلى موقعها خارج الحريم. سرعان ما مر بها كريم وقاسم ودخلتا الحريم. طارق، تكره البقاء وحدها، تبعتهما ذراعاها منعقدتان على صدرها في هواء الليل البارد. لاحت على شفتيها المزمومتين نصف ابتسامة حين مرت بشكيب.

ضربت شكيب الأرض بقدمها. يمكنها تمييز نظرات الحارسات البعيدة إليها. نظرة مارجان خانم نفسها، بعض الشفقة، لكن لا صداقة.

أنا وحدي، ذكرت شكيب نفسها. *لم يتغير شيء*. بدأت تسير أمام الحريم وحول المدخل الجانبي، تحرص أن يبدو عليها أنها تحرس المبنى بالفعل.

ظهرت غفور ودكتورة بيهروين من الظلام. تحمل غفور مصباح زيت وتحمل خانم بيهروين حقيبة سوداء، أسرعتا خطوهما. يتبعهما رجلان، أرسِلا ليراقبا وينقلا الأخبار إلى القصر. استدارت شكيب لتعود إلى المدخل الأمامي حين سمعت صوت فتح باب. دفعها شخص ما قبل أن يمكنها الالتفات إليه، بقوة كافية لإسقاطها، خففتْ من سقطتها بيدها وركبتيها ورفعت بصرها لترى ظهر الرجل وهو يقفز ليختفي.

همّت بالصياح خلفه ثم أمسكتْ نفسها. نظرت إلى غفور وفريق القصر يقتربون. لم يروا الرجل يدفعها ويُسقطها أرضًا، ولم يروه وهو يختفي خلف الأشجار. ظلتْ صامتة ونهضتْ تقف على قدميها. أرادتْ أن تقابلهم عند المدخل الأمامي.

أعلنت شكيب وهم يقتربون: الأخريات في الداخل مع خانم
فاتيما، أنا أقف حارسة هنا.

رفعت صوتها عاليًا بما يكفي لتتأكد أن الرجلين يسمعانها.
وقفا بعيدًا، يفركان أيديهما معًا ويتحدثان بهدوء وهما يشاهدان
المرأتين تدخلان الحريم.

- هل أدخل معكِ؟

لم تتوقف غفور. صاحتْ من الردهة: افعلي ما تشائين.

تبعتهما شكيب. كانت الأروقة مضاءة بعدة مصابيح. تتبعت
الأصوات القادمة من غرفة فاتيما. غرفة صغيرة في الناحية
الخلفية من البيت. وقفتْ نبيلة وقليل من الأخريات في الرواق
الضيق، يهززن رؤوسهن ويتمتمن لبعضهن البعض. داخل الغرفة
المزدحمة، رأت شكيب دائرة من النساء. جلست سكينة إلى جانب
فاتيما، ترفع رأسها في حجرها. بدا وجه فاتيما شاحبًا، حتى
في الوهج الأصفر للمصابيح.

جلست دكتور بيهروين إلى جانب فاتيما وفتحت حقيبتها. وضعت
يدًا على جبينها وطلبت قطع القماش المبللة بلغة فارسية بدائية.
أسرعت حليمة لتُحضرها قبل غفور. أمسكت الطبيبة بمعصم فاتيما
وضغطت بإصبعيها عليه، قطبت جبينها وزمّت شفتيها. أخرجت
سمّاعتها من الحقيبة ومالت على فاتيما برأسها مائلاً جانبًا، تستمع
بتركيز. علت أصوات الثرثرة في الغرفة بوصول الطبيبة. رفعتِ
الطبيبة رأسها أخيرًا وأشارت بأصبعها بغضب نحو الباب.

- هش! اخرجن من الغرفة إن أردتن الثرثرة!

رغم عدم فهمهن الإنجليزية، هدأتِ الغرفة على الفور.

اصطفت قطرات العرق على جبين فاتيما، كجنود يستعدون

للمعركة. كانت تتأوه بوهن وتميل برأسها جانبًا. بدأ ابنها يبكي ويشد كمّها. حملته بنازير وهمست له بشيء ما في أذنه فهدأ، ما زالت شفته السفلى متكورة.

– إنها محمومة. لا بد من حمام ماء بارد. سيدات! ساعدنها على الوصول إلى المسبح!

نظرتِ النساء إلى دكتورة بيهروين، يحيّرهن الأمر الذي تصدره. كانت دكتورة بيهروين قد تعلمت القليل من الكلمات الفارسية بمرور الوقت لكن أغلب تواصلها مع الحريم كان بالإشارات. تنهدت بيأس، وأشارت إلى سكينة ونبيلة أن تحملا فاتيما ثم أشارت إلى الباب. أومأتا إلى كريم وقاسم فهبتا للمساعدة. حملت النسوة الأربع فاتيما إلى الرواق. أشارت دكتورة بيهروين إلى غرفة المسبح. صاحت: آب، آب!

صاحتْ قاسم: تريدنا أن نذهب إلى المسبح!

أسرعن في الرواق. أشارت خانم بيهروين إلى مسبح ضحل وأمرت النساء أن يضعن فاتيما في الماء. تمتمت لنفسها: علينا أن نخفض درجة حرارتها، إنها تشتعل.

ارتعشت فاتيما من برودة الماء، لكن قاسم ظلت ثابتة، يداها أسفل إبطي فاتيما لتُبقي رأسها أعلى سطح الماء. بدأت فاتيما تفيق، صارت أكثر وعيًا قليلاً، أدارتْ رأسها نحو خانم بيهروين. قالت: أشعر بضعف شديد يا دكتورة.

أومأت الطبيبة. كان هذا واضحًا لها تمامًا.

– ماذا يحدث في الداخل هنا؟

تردد صدى صوت رجل من الباب الأمامي. جفلت النساء من الصوت. نظرت غفور إلى شكيب.

- اذهبي واخبريهما أنها محمومة وأن دكتورة بيهروين تحاول خفض حرارتها. اذهبي!

أومأتْ شكيب وأسرعت إلى الباب الأمامي. كان الرجلان يسيران خارج الباب مباشرة. بدأ صبرهما ينفد.

- إنها محمومة. وهي في المسبح الآن لخفض الحرارة. إنها ضعيفة.

- هل ستكون بخير؟

- لا أعرف أكثر من هذا. عليك سؤال دكتورة بيهروين.

تأفّفا، لا ترضيهما الإجابة لكنهما لا يستطيعان اكتشاف الأمر بنفسيهما.

عادتْ شكيب إلى المسبح. كن قد رفعن فاتيما من الماء.

- لنُرقدها!

قالت دكتورة بيهروين وهي تشير إلى أقرب باب، على مبعدة أقدام قليلة من الردهة غرفة بنفشه. كان الباب مغلقاً.

صاحت غفور: خانم بنفشه، افتحي الباب من فضلك!

حين لم تتلقَّ إجابة طرقت مرة أخرى، بقوة أكبر.

- خانم بنفشه!

- أرجوكن، أنا نائمة! صاحتْ بنفشه من الداخل. تبادلت النساء نظرات الدهشة.

- خانم بنفشه، أرجوكِ هذه حالة طوارئ. إن خانم فاتيما...

- آه، ليرحمنا الرب. افتحي الباب فقط!

قالت سكينة بغضب ودفعت باب غرفة بنفشه تفتحه. انشده فم بنفشه من المفاجأة لرؤيتهن يُرقدن فاتيما بوجهها الشاحب

على أرض غرفتها. احمرّ وجه بنفشه وهي تمسك بروب لترتديه أعلى قميص نومها. جلبت إحداهن مناشف وجلباب نوم لفاتيما. كن قد بدأن يخلعن ملابسها المبللة حين نظرت سكينة لأعلى نحو بنفشه.

– ماذا بكِ؟ يمكنك سماعنا أليس كذلك؟ إنها مريضة!

عضت بنفشه شفتها السفلى وفركت عينيها.

– كنت نائمة. لم أسمع شيئًا.

– يجب أن تنامي جيدًا إن كنت...

سكتت سكينة.

– ما هذا؟

نظرت دزينة من الأعين إلى حيث يشير أصبعها.

توجد على الأرض خلف الباب قبعة صوفية رمادية قبعة رجل.

فغرت بنفشه فاها. صار وجهها شاحبًا مثل وجه فاتيما.

– إنها قبعة رجل!

لم تتكلم. تبادلت النساء النظرات، يدركن فحوى الأمر ببطء. حاولت بنفشه التغطية على الأمر.

– إنها قبعته، قبعة عزيزنا حبيب الله... بربك سكينة، ماذا تحاولين أن...

– إنه أنتِ، أليس كذلك. لقد ظلت الحارسات يسألن عن ضجة غريبة في الليل، أو أي أحداث غريبة! إنه أنتِ من كن يسألن عنها! أين غفور؟ أين كريم؟ هنا!

اندفعتْ سكينة نحو الباب، التقطت القبعة ولوحت بها لأعلى في الهواء.

- أهذا ما كنتن تبحثن عنه؟ بنفشه تجرؤ على اتخاذ عشيق!
- سكينة، أيتها المومس! انتبهي لما تقولينه وإلا ستندمين! لن اجيبك! أنت دونًا عن الجميع بـ... بــ....

بحثت عيناها في الغرفة عن حليفة. لسوء الحظ، خلال الوقت الذي قضته في الحريم، لم يكسبها سلوكها المتعالي أي صديقات. نظرتْ إلى طارق، عيناها تتوسلان. نظرت طارق بعيدًا، يبدو على وجهها الصراع.

فشلتْ في الرد على سكينة بالمثل. دمعتْ عيناها وتلعثم لسانها وهي تنظر في الغرفة المليئة بنظرات عدائية. كانت دكتورة بيهروين فقط هي من تركز مع فاتيما، التي أفاقها الماء البارد ثم الفضيحة الطازجة الآن. رفعتْ نفسها لأعلى على مرفقيها، عيناها المزجّجتان تنظران حولها إلى الأخريات.

سمعتْ سكينة الذعر في صوت بنفشه، فانقضّتْ عليها، وقالتْ بهدوء: حسنًا، إن كانت قبعة حبيب الله حقًا، فما علينا سوى أن نعيدها إليه ونسأله عنها؟ الأمر سهل للغاية.

لوّحتْ بالقبعة في وجه بنفشه ثم رمت بها إلى غفور. نظرت غفور إلى القبعة الرمادية بذعر مماثل لذعر بنفشه تقريبًا. ذهنها مشوش، تعرف أنه لا خير في إرسال أخبار سيئة إلى القصر.

جَنّ جنون بنفشه. قالت باكية، وهي تنظر حولها في الغرفة: سكينة، أخواتي، أنتن لا تظنن أنني قد... أرجوكن، لا تقلن مثل هذه الأمور عني لحبيب الله! سيفكر في أمور... سوف... أرجوكن! أنا لم أؤذِ أيًّا منكن من قبل! أرجوكن توقفن فقط وفكرن قبل أن تفعلن أمورًا دنيئة!

- دنيئة؟ انظرن من يتحدث عن الدناءة!

- خانم، ها، أرجوكِ، هش!

انزعجت دكتورة بيهروين من عاصفة البكاء والصراخ. ما زالت مريضتها في حاجة إلى عناية. تمتمتْ: أنا لا أعرف عن ماذا تتجادلان أنتما الاثنتان، لكنني متأكدة أن الأمر يمكنه الانتظار.

قالتْ حليمة، بهدوء زائف: سكينة، لنفكر في هذا لاحقًا. دعينا نترك هذا الأمر الآن ونركز على فاتيما جان. سنتحدث لاحقًا. لنرَ الآن ماذا تريد خانم بيهروين.

راقبتْ شكيب دون أن تسمع شيئًا. رأت نظرات عصبية وهمسات حادة وطرقعة ألسنة، نساء يرحن ويجئن، رؤوس تهتز وشاي ساخن. كان الأطفال يدخلون فتأمرهم النساء بالخروج. اغرورقت عينا بنفشه الخضراوان بالدموع. كانت تشفق على نفسها وتكره سكينة.

لاحظتْ شكيب شيئًا ما لم تلحظه الأخريات، بتلة وردة حمراء على الأرض، مسحوقة تحت صنادل محظيات الملك الكثيرات.

عرفتْ شكيب من الذي سمحتْ له بنفشه بزيارتها في مخدعها.

الفصل 41
شكيبه

تحسّنت حال فاتيما. وساءت حال بنفشه.

تلبّدت الأجواء في الحريم. كانت الأخبار تُرسَل إلى الرجلين في الخارج بانتظام. لم يُقَل شيءٌ بعد عن بنفشه لكنها مسألة وقت فقط. مجرد ساعات. انسحب من هن أكثر حكمة إلى غرفهن لمعرفتهن أن القصر، الملك، لن يتعامل مع ما فعلته بنفشه بسهولة. لقد ارتكبتْ إثمًا فظيعًا ولن يمكنهن فعل شيء لها.

لم يرغب أحد في نقل الأخبار إلى القصر، خوفًا من بدء الإطاحة بكل من له علاقة بالأمر ولو من بعيد.

- الرحمة، أرجوكن، الرحمة.

بكتْ بنفشه في الركن. ركعت على ركبتيها، لمس رأسها الأرض بتوسل.

تجمعت الحارسات وعدد قليل من المحظيات خارج غرفتها. كانت فاتيما قد أعيدت إلى غرفتها، وما زالت دكتورة بيهروين معها. قررتْ سكينة: يجب أن تكون إحدى الحارسات، أنتن المسؤولات عمّا يحدث في الحريم. إن واجبكن أن تخبرن القصر بما يحدث هنا.

قالت نبيلة بمكر: ماذا إن لم نقل شيئًا؟ أنا واثقة بأنها ستنهي هذا الأمر الشائن بعد ما حدث الليلة. يبدو أنها عانت بما يكفي الآن.

قـالتْ سكينة بحـدة: أتجـرئين على إخـفـاء هذا عن الملك!
وماذا إن اكتشف بطريقة أخرى؟ سيقع اللوم علينا جميعًا! أنا لا
أخاطر بحياتي.

أومـأتْ عـدة أخـريات، يوافـقن سكينة رأيهـا. مـاذا لو كـان
الرجلان في الخارج قد سمعا كل شيء بالفعل؟ ماذا لو أخبرا الملك
بكل شيء؟ على الحـريم أن يكن صـرحاء إن أردن أن يظللن بمأمن.

قالت غفور: خانم سكينة، ربما سيكون وقع الأمر أسهل على الملك
إن سمعه من شخص يحبه. وبما أنك أنتِ من اكتشفتِ الأمر، أنا
واثقة من أنه سيكافئك على هذا ويضع نهاية لهذا العار.

*إنها مـؤثرة، فكرتْ شكيب. ربما لديهـا بعض من دمـاء بوبو
شاهكل في عروقها.*

- تتحدثين كأنه يومك الأول في القصـر. أنتِ تعرفين جيدًا
جدًا أنكن من عليكن إخبـار رجال الملك. نحن -نساء الحـريم- لا
يجـوز لنا المشـاركـة في هذه الأمـور. أنـا لن أخـفي أي شيء عن
عـزيزي حـبـيـب الله لكنه ليس من واجـبي الذهاب إليـه بهـذه
الأخبار.

عضّت غفور شفتيها ونظرت إلى كريم. هزّت كريم رأسها،
ليس لديها شيء لتضيفه إلى النقـاش. ازداد توتر غفور بمعرفتها
أنهـا -بصـفـتهـا قـائدة الحـرس- المسؤولة عن الاتصـال المباشـر
بالقصـر. مسؤولية ثقيلة على كتفيها. قد تُكافأ على خدماتها أو
تُطرَح أرضًا لنقلها أخبـارًا بهذا الشؤم. تحركت وأشـارت برأسها
للحـارسـات الأخـريـات ليتبـعنها إلى الردهة. أكـدت نظرة سـريعة
إلى الخـارج وقـوف الرجلين ينتظران بهـدوء عـند الطرف البـعـيد
من الفناء، بظهريهما نحو الحريم.

- كـــريم، لماذا لا تذهبي أنتِ وقـــاسم وتطلبـــا من هذين الرجلين السماح لكما بمحادثة الملك مباشرة. سيكون من الأسوأ ..اول تلك الرسالة بين الكثيرين قبل وصولها إلى الملك.

قـالتْ كـريم بتصنّع: مع كـامل احتـرامي، غـفور جـان، لقـد مللتِ دائمًا قـائدة المجـمـوعـة، وهذا لا يبـدو كـشيء مـا يمـكنك ،مويضنا بفعله مثل نوبة حراسـة ليلية. لن تجرؤ واحدة منا على ،تجاوز سلطاتك.

قـالتْ طارق، وهي تنظر إلى شكيب خطفًـا. هي أيضًـا تريد التحالف مع أحد: ولا نحن.

تأففت غفور.

- حـسنًا. حـسنًا! جـبانات. سـوف أذهـب وأتحـدث مـعـهـمـا بنفسي.

أرادتْ أن تبـدو رابطة الجـأش لكن عـينيـهـا خـانتـاهـا. ظلت تذرع الخطا في الردهة عـشـر دقـائق قـبل أن تضـع يدهـا على مقبض الباب.

وضعت كـريم أذنها على البـاب، لم تسمع شيـئًـا لأن الأصوات في الفناء كانت مكتومة. نظرت الحارسات إحداهن إلى الأخرى، يسـرن ويتنهـدن من حين لآخـر. عـيـونهن حـمـراء من السـهـر والمشـاجـرة. حين فـتحت كريم البـاب بعد ذلك بـعشـر دقـائق، كان الفناء خاليًا. أخذ الرجلان غفور إلى القصر.

مرت ساعة، بألم، قبل أن تظهر غفور مجددًا. سقطتا قاسم وكـريم في النوم على حـائط الردهـة. جلست طارق بجـوار البـاب كأنها على استعداد للهرب في أي وقت. كانت تنقر بقدمها على الأرض بعصبية. جفنـاهـا ثقيلان وداكنان. جلست شكيب مستندة

على الحائط المقابل، معدتها مضطربة. منزل يسوده التوتر لا
يبشّر بالخير أبدًا. ليس لديها سبب لتظن أنها ستخرج من هـ
سليمة.

نظرتْ غفور حولها بعصبية وماطلتْ قليلاً. سألت بهدو،
عيناها تتحركان في المكان، لا تريد تثبيتها على أحد بشكل
خاص: كيف حال فاتيما؟

قالت طارق، صوتها منهك كعينيها: إنها أفضل قليلاً، تناول
بعض الشاي بالسكر وتحدثتْ قليلاً، لقد نامت الآن، غادر
دكتورة بيهروين منذ دقائق قليلة، لا بد أنك مررت بها في
طريقك إلى هنا.

- جيد.

سألت كريم نافدة الصبر: ألن تخبرينا بما حدث؟

- تحدثت مع الرجلين في الخارج وأخذاني إلى أغا فرو
المستشار المقرب لملكنا. لم يرغبا في إزعاج الملك شخصيًا
شرحت له الموقف وقد انزعج للغاية بالطبع، وأخطر الملك.

سألت قاسم: ثم؟ ماذا سيحدث الآن؟

- إنه غاضب، يريد التحدث مع شكيب.

لم تندهش شكيب البتة.

- عن ماذا يريدون التحدث معي؟

كانت نبرتها هادئة معتدلة، جعلت غفور عصبية. نظرت إلى
الأخريات ففهمت شكيب ما يعنيه رد فعلها هذا.

لقد فعلتْ شيئًا ما.

قالت بتحدٍّ: كيف لي أن أعرف؟ لقد سألوني من كانت الليلة
في نوبة الحراسة الليلية وأجبتهم. الأفضل أن أتفقد خانم

• ابهما، يوجد جندي ينتظر في الخارج، شكيب، سيرافقك إلى
القصر، أنا واثقة بأنه ليس أمرًا كبيرًا.
كانت شكيب واثقة بالعكس.
لكنها لم تقل شيئًا، حدّقت في خلفية رأس غفور البارز وهي
...بر متعثرة في الرواق تبتعد عنها بأسرع ما يمكنها.
راقبتها الأخريات تبتعد ثم التفتن إلى شكيب. لم تقل شيئًا
لكنها نهضتْ وسارتْ إلى الباب. كما قالت غفور، يوجد جندي
في الخارج، وجه طفل في زي رجل، بدا متوترًا في هواء الفجر
البارد، أشار لها أن تتبعه، يلتفت من حين لآخر لينظر بشكل
• اطف إلى وجهها.
قادها إلى أبواب القصر الأمامية الثقيلة، مزخرفة بدقة
..رحاب على نحو غريب في تلك اللحظة. فتح الباب ودعاها إلى
الدخول، سارا في رواق طويل بجدران مزخرفة، طاولات عريضة
مذهبة ومقاعد مطرزة ببذخ، لاحظت شكيب ما يحيط بها
باهتمام مبهم.
- في هذه الغرفة.
أعلن ودفع بابًا ليفتحه بما يكفي لدخولها فقط. ظل هو في
الخارج وبدا ممتنًا لانتهاء مهمته هنا.
دخلتْ شكيب، تتذكر أن تُبقي ظهرها مستقيمًا وعينيها
منتبهتين. كان التعب قد نال من ذهنها كما نال من نظرها.
في الغرفة، كان الملك حبيب الله يسير خلف مكتب أنيق
منحوت من الخشب، أصابعه تشد أطراف لحيته، يجلس رجلان
بقلق على مقعدين بذراعين إلى يساره، في مواجهة أحدهما
الآخر، أحدهما بدين وقصير، والآخر طويل ونحيل. لو كانت أقل

توترًا للاحظت سخف التناقض بينهما، نظرا لأعلى نحو شكيب، شفاههما مزمومة. صاح الملك حبيب الله: أنت!

توقف عن السير فجأة، رفرف روبه الأزرق وهو يستدير ليتوقف.

- *السلام* عليكم، جلالتك.

قالتْ بهمس، رأسها مطرق وعيناها في الأرض.

- *السلام* عليكم، ماذا؟ كأن شيئًا لم يحدث؟ أتعرفين معنى الكلام أيتها الغبية؟

- أعتذر، سعادتك. أنا لا أقصد الإساءة...

- لا تتملقيني أيتها الحارسة! أنتِ هنا للإجابة عن أسئلة لتبرري أفعالك، أو عدم أفعالك كما هو الأمر! كنت أنتِ المسؤولة عن الحراسة الليلة، بينما استطاع رجل التسلل بطريقة ما من تحت عينيكِ إلى حريمي *الخاص*!

بدأت محادثة تتشكل في ذهن شكيب، استطاعت تخيُّل غفور تقف في الغرفة نفسها، منذ وقت ليس طويلاً، ترسم صورة حارسة كسولة، تسمح بسلبيتها لرجل بانتهاك شرف الملك، والاستمتاع بالاحتياطي الخاص به من النساء.

- جلالة الملك، لقد كنت أحرس الليلة لكنني لم أرَ أحدًا يدخل.

- لم تري أحدًا يدخل؟ لكن أحدهم دخل بالفعل، أليس كذلك؟

كان وجهه بلون السجاد المفروش على الأرض، برز وريد أزرق فيَ جبينه كصاعقة برق، ألقى نفسه على مقعده ونظر إلى مستشاريه بتساؤل. نهض الرجل الأطول وتحدث: أيتها الحارسة. هل رأيت أحدًا يغادر الحريم الليلة؟

لم يكن لديها متسع من الوقت للتفكير في إجابتها.

- لا، سيدي.

- ولم تري أحدًا يدخل؟

- لا، سيدي.

- أهذا هو نوع الحرس الذي يحرس حريمي!

انفجر الملك، خبط بقبضته الطاولة بدويٍّ كالرعد، تابع: كان الأفضل لنا تعيين بهائم!

أمرها الرجل الطويل: أيتها الحارسة، وضحي للملك العزيز ما حدث الليلة: أكان هناك رجلٌ في الحريم؟

بحثتْ شكيب عن الإجابة الصحيحة، يداها ترتعشان إلى جانبيها، كانت تخشى أن تتحرك، تناوبوا على طرح الأسئلة عليها.

- أجيبي!

- أنا... أنا لم أرَ...

- لا تخبرينا بما لم تريه! أخبرينا بما حدث!

- الليلة وجدنا قبعة في إحدى الغرف...

لم تكن تعرف كيف تصيغ هذا الاكتشاف، كانت مسألة حساسة والكلمات الخاطئة قد تجلب مصائب، كانوا في انتظار كلماتها.

- لم يكن أحد هناك، لكن القبعة... القبعة تشير إلى أن أحدهم... شخص ما كان هناك. سألنا لكن...

سأل الملك، عيناه عبارة عن شِقّان فقط، تحدث ببطء واقتضاب: في غرفة من؟

- كنا في غرفة خانم... خانم بنفشه.

أجابتْ وسمّرت عينيها على الأرض الرخامية، جلبتْ بنفشه
العار على القصر بإثمها لكن شكيب لم ترغب في فضحها
تذكرت بنفشه منذ قليل.. راكعة.. وجهها مبلل بالبؤس.

لماذا فعلتِ هذا؟ لماذا جلبت كل هذا علينا؟

- بنفشه...

أدار حبيب الله ظهره لهم ونظر إلى النافذة، سقط ظله على
الستائر القرمزية الثقيلة.

- تلك الثعلبة.

- هل رأيتِ أي أحد من قبل؟ يدخل الحريم أو يخرج منه؟

ماذا قلتِ لهم غفور؟

- لا ... لم أرَ شيئًا.

- أكانت تلك أول مرة تعرفين بالأمر؟

- نعم، سيدي.

فكر الرجال الثلاثة بصمت، سمعت شكيب أنفاسهم
المعتدلة.

- أنت.. أتظنين أن هذا قد حدث مرة واحدة؟

- أظن... أظن ذلك.

- ومن كانت المسؤولة عن حراسة الحريم الليلة؟

- أنا، سيدي.

صاح الرجل القصير: أنتِ تكذبين. لقد سمعنا شيئًا مختلفًا.
أخبرتنا غفور أنك رأيتِ الرجل من قبل! وأبقيت الأمر سرًا عن
الجميع حتى الليلة!

- مع احترامي، أغا صاحب، أنا لم أر...

- كاذبة!

غفور، أيتها النذلة! هل ألقيتِ بي طعامًا للأسود!

اتضح الأمر الآن، أقوالها أمام أقوال غفور، وهم يصدقون غفور. لم تكن شكيب شاهدة، بل كانت أحد المذنبين.

- أكنتِ تعلمين شيئًا عن أفعال بنفشه؟ هل طلبتْ منكِ التغطية عليها؟

- لا، سيدي، أنا لم...

- ماذا عن الرجل؟ من هو؟ هل رشاكِ؟

- أرجوك، أيها الملك العزيز، أنا ليس لدي صلة بالـ...

كان بالكاد يسمع ما تقوله، مهتمًا أكثر بأثر كل هذا على صورته.

- يجب أن تعرفي، أيتها الحارسة! أن انتهاكًا جسيمًا كهذا لن يمرَّ بلا عقاب، لقد تلطخ اسمي، بنظرة واحدة إلى وجهك يتضح أنك ملعونة! ضعوها في الحجز! وبنفشه أيضًا! سنجعلهما عبرة لمن يعتبر.

الفصل 42
شكيب

- لماذا كان عليكِ فعل هذا؟

- لن تفهمي.

كانت الغرفة مظلمة وذات رائحة لحم متعفن، ذكّرت الرائحة شكيب بالكوليرا، بالحداد والوحدة.

تغير وجه بنفشه، صُعِقت شكيب من الاختلاف، منذ ثماني ساعات فقط، كانت أجمل نساء الحريم. طعن وجهها في السن بسرعة شديدة! كان شعرها ملبدًا وبدت عيناها الخضراوان بائستين وحمراوين.

إحدى محظيات الملك الأثيرة لديه، حياة مرفهة لأقصى حد، أفضل طعام وأفضل ملبس، ما الذي جعلها تعدّ كل هذا من المسلّمات؟

مرت ساعة في صمت تام، أرادت شكيب أن تسألها عن أغا بران، كانت واثقة بأنه هو.. القبعة.. بتلة الوردة.. لكن لماذا؟ لقد كان صديق أمان الله، لماذا يرتكب رجل مثله خطيئة كهذه في حق والد صديقه، خاصة وهو أقوى رجل في أفغانستان؟

- أنا آسفة لوجودك هنا.

رفعتْ شكيب بصرها.

- أنا أيضًا.

فكرتْ في أمان الله. فيم سيفكر حين يسمع بأحداث الليلة؟

سيخيب أمله فيها! لم تكن حارسة جيدة، طبقًا للقصر. لماذا سيتزوجها؟ لقد دمرت بنفشه كل شيء، نظرتْ إليها بازدراء وشفقة.. ثم كانت غفور، الأفعى ذات اللسان المشقوق.. أوقعتْ شكيب في الفخ، لتنقذ نفسها.. لا عجب أنها فرت بجلدها.. جبانة.

لم تكن الغرفة المظلمة مألوفة بالنسبة إليها لكن باقي الأمر كان كذلك. عادة ما تشير أصابع الاتهام الغاضبة إليها.

بأوامر الملك، اقتيدت شكيب بعيدًا، عبر الأروقة، وعبر المطبخ، وإلى الغرفة الصغيرة التي يحتفظ فيها الطباخون باللحم المشفّى والخضروات. للغرفة رائحة اللحم والتراب. أغمضت شكيب عينيها وتخيلت بيت أبيها. شرد ذهنها نحو تلك الجدران العارية. قميص أخيها ملقى على كرسي كأنه سيظهر عند الباب في أي لحظة بحثًا عنه.. تميمة أختها على المائدة.. أبوها، يجلس في الركن يسبّح بمسبحته شاخصًا ببصره من النافذة في الأراضي القاحلة.. الوطن المقفر.

نهضتْ شكيب وبدأت تسير.. الجدران ضيقة والضوء يتسلل ليؤطّر الباب بوهجه الأصفر.. تمد شركة أجنبية القصر بالكهرباء بتفويض من الملك.. أفغانستان كلها تومض بمصابيح الزيت لكن القصر يتوهج بالضوء، كمنارة لبقية البلد.

للملك أن يعيش بطريقته. لا بد أن الأمر يغيظه حقًا أن رجلاً آخر سلك طريقه إلى محبوبته بنفشه. إنها جميلة، كما أظن.. إن لم تبدُ أسنانها وهي تبتسم. أسنانها كلها ملتصقة معًا، تبدو كدجاجات يتسلقن بعضهن البعض في قنٍّ مزدحم.

وضعتْ بنفشه رأسها بين ركبتيها.. لا تعرف شكيب إن كانت

نائمـة أم مـسـتـيـقـظـة.. سـألتْ شكيب بهـدوء: مـاذا تظنين ا«ه»
سيفعلون بنا؟

رفعتْ بنفشه كتفيها وأخفضتهما بتهيدة عميقة.

- إلى متى سنظل هنا؟

رفعتْ بنفشه بصرها. عيناها خاليتان ومستسلمتان.

- انتِ حقًا لا تعرفين؟

هزت شكيب رأسها.

- إن عقوبة الزنا هي *السنكسار*.. سيرجمونني.

الفصل 43
رحيمة

قاعة المدرج الكبير، أكبر من أي شيء رأيته في حياتي، فيها المئات من أعضاء البرلمان. مقاعدهم مرصوصة صفوفًا تمتد من احد طرفي القاعة إلى الآخر، كراسي جلدية خلف صف من المكاتب. لكل عضو مكبر الصوت الخاص به وزجاجة ماء.

كان مقعد بدرية في الخلف. كنت أرى حميدة وصفية أمامنا بصفين وأقرب إلى المنتصف. في مواجهة المدرج يجلس رجل بشارب منمَّق وشعر رمادي، يستمع.. يومئ برأسه من حين لآخر.

أخافني الرجال.. بعضهم في سن زوجي، شعور رمادية ولحى طويلة تصل إلى صدورهم تقريبًا. آخرون أصغر، وجوههم حليقة وملابسهم مختلفة عن ملابس الرجال في قريتي، بناطيل.. قمصان بأزرار مغلقة.. جاكيتات.

أثناء استراحة خلال الأسبوع الأول، سألتني حميدة عن رأيي فيما رأيته حتى الآن. تحرّجتُ من الإجابة، أخشى أن أبدو غبية، وكنت قلقة من أن تعرفا حين تريان كتابتي وقراءتي أن تعليمي أساسي للغاية. سألتُ، مذهولة من اللهجات التي كنت أسمعها: من أين يأتون؟

نظرتْ إلى حيث أشير: ماذا تقصدين؟

– اقصد، أنا لم أرَ رجالاً... يرتدون هكذا قط.

أشـرتُ برأسي نحـو رجل يرتدي بنطالاً بنيًـا وسـتـرة على الطراز العسكري على قميص أبيض.

– هذا ما سترينه في كابول يا رحيمة جان، في هذا البرلمان حيث تجتمع كافة أنحاء أفغانستان.

سعلت صفية.

– تجتمع؟ الأرجح أنه حيث تنقسم أفغانستان!

ضحكتْ حـمـيـدة.. استدار رجل على مبعدة صف ورمقها بنظرة، هزّ رأسـه ومـال ليتمتم بشيء ما للرجل الجـالس بجـواره، يشاركه استنكاره.

بدأتِ الجلسـة.. حـاولت أن أنظـر حـولي دون أن يلاحظني أحد، أمسكتْ بدرية بقلم ووضعته على ورقة خالية أمامها وهي تنظر إلى المتحدث.. كانت تلعب دورها.

– سـيداتي سادتي، سنناقش الآن مـسـألة أعضـاء حكومـة الرئيس، لقد رشح سيادة الرئيس سبعة أشخاص، ولهذا البرلمان أن يقرر الموافقة أو عدم الموافقة على هذه الترشيحات.

همستُ: بدرية، هل سنرى الرئيس؟

يصـعب تصـديق أنني قـد أرى أقـوى رجل في البلد وجـهًـا لوجه.

– لا، أيتها الحمقـاء! نحن في البرلمان، الرئيس يقوم بعمله ونحن نقوم بعملنا! لماذا قد يأتي إلى هنا؟

– سوف نتحدث عن المترشحين واحدًا تلو الآخر، سأطلب منكم طرح مـا لديكم من أسـئلة. علينا أن نقـرر مـا إن كان هؤلاء الأفـراد مناسـبين لمناصبهم، ومـدى مـسـاهـمـتـهم في تقدم البـلاد في المسار الصحيح. الأول هو أشرف الله فوزالي، مرشح لمنصب وزير العدل.

واصل المتحدث كلامه عن خلفية فوزالي، مسقط رأسه ودوره في تدريب قوات الشرطة.

تجلس نائبة برلمانية على مقعدها إلى جواري، سمعتها تافف.. ضجرة.. راقبتها من زاوية عيني، تُقوِّس ظهرها وتهز راسها، فيما يعدد المتحدث فضائل وخبرات المترشحين، يضيق ذرعها شيئًا فشيئًا، تتململ في جلستها وتنقر بطرف قلمها.

قُدِّم المترشح التالي.. شخص ما محبط مثل من سبقه.. رفعت يدها لتتحدث لكن المدير تجاهلها.. رفعت يدها بمسرحية أكبر.

قالت وهي تميل للأمام لتتحدث في مكبر الصوت الخاص بها: عذرًا، لكنني أود قول شيء عن هذا المترشح، عذرًا!

- خانم، لقد انتهى وقت نقاش أمر هذا المترشح، لقد أوشكنا على الانتهاء من جلسة اليوم.. شكرًا لكم جميعًا، نراكم غدًا للتصويت.. انتهت الجلسة.

همستِ المرأة: بالطبع انتهت الجلسة! حاشا لله أن نتحدث بالفعل عن هؤلاء المترشحين!

سألتُ بدرية: من هذه؟

مالتْ بدرية إلى الأمام لتقول لي: من بجوارك؟ آه، إنها زَمَرُّد بركاتي.. إنها مشكلة. احرصي على الابتعاد عنها.. هذه واحدة ممن لا يجوز لك الاختلاط بهن.

- لماذا؟ ما خطبها؟

- إنها مثيرة للمشاكل.. أرأيت ما فعلته اليوم؟ دائمًا تقاطع كل شيء.. إنها محظوظة لأنهم لم يحكموا عليها *بالسنكسار*.

الرجم.. ارتعشتُ وتذكرت بيبي شكيبه.

حسبما رأيت، لم تفعل زمرد أي شيء لم يفعله العديد من أعضاء البرلمان الآخرين. تمامًا مثل الرجال، رفعتْ يدها وطلبتْ أن تتحدث، لكنني لاحظت أن كثيرًا منهم لم يرحبوا بسماعها. قلب عدة رجال أعينهم أو لوحوا بأيديهم منزعجين لسماعها تطلب الإذن بالكلمة.

- إنها تفرض أفكارها كثيرًا، الناس لا يريدون الاستماع إليها طوال الوقت.

كنا نعبر نقطة الأمن إلى الخارج، رآنا سائقنا قادمتين فذهب ليُدير السيارة، كان حارسنا معه بالفعل. تجاوزتنا زمرد غاضبة، يهرع حرسها الشخصي للحاق بها.

ذكّرتني بخالة شايما، المرأة الوحيدة التي أعرفها والتي يمكنها التحدث إلى رجال ليسوا أقاربها. تساءلتُ ماذا كانت ستقول عن زمرد، تخيلت كلتيهما في قاعة واحدة معًا فجعلني هذا أبتسم، سيُمكنهما حينها الإمساك بالبرلمان بأسره في قبضتيهما.

لكن ما رأيته في ذاك الأسبوع الأول لم يكن سوى البداية. كان البرلمان مزيجًا متنوعًا من الشخصيات والسياسيين. يوجد نساء كثيرات جدًا، لكن القليل منهن فقط من يتحدث في الجلسات. كذا توجد زمرد واحدة فقط.

في أثناء النقاش عن مترشحي الحكومة، ازدادت عصبية زمرد شيئًا فشيئًا. مُنحت الإذن بالتحدث، فانطلقتْ كالعاصفة، تتساءل عن نوايا المترشحين ومدى أمانتهم. ألمحت إلى ترشيحهم لأسباب أخرى لا تتعلق بالكفاءات، إذ كان أحدهم شقيق زوجة الرئيس وآخر صديق طفولة الرئيس. بالإضافة إلى غياب

التعددية، قالت ناقدة. كانوا جميعًا من الشريحة نفسها من السكان الأفغان. أفغانستان في حاجة إلى تمثيل كافة أطيافها، اصرت زمرد، وإلا فسوف تنهار، مجددًا.

في اليوم الخامس من الجلسات، اتخذنا مقاعدنا. أفتقد مهنجر اليوم بشدة وأرى خديه المدورين وعينيه اللوزتين حين اغمض عيني. تساءلتُ إن كان يستطيع السير الآن، تُمسك يده الصغيرة بيد جميلة بقوة، وددت أن أسمع صوته، صيحته الصغيرة «مادا»، ما زال لا يستطيع تحريك لسانه لنطق «مادر» جيدًا.

أعادني صوت زمرد إلى الجلسة.

– علينا أن نفكر في مستقبل البلاد. نحن الأفغان صرنا خاضعين، نترك أي شخص تقريبًا ليتولى مناصب مهمة ذات نفوذ، علينا أن نفكر في الأمر مليًّا قبل أن نقرر.

– خانم، أعتقد أنه من الحكمة أن تفكري قبل أن تتحدثي.. يوجد هنا أشخاص كثيرون جدًا وأنت لا تفكرين...

– أنا لا أفكر؟ أنا أفكر كثيرًا جدًا! إنه أنت وأنتم جميعًا من عليكم البدء في التفكير.. وأنا الآن سأتحدث وأعبر عن أفكاري.

نظرت بدرية إليَّ، اجتاحتِ القاعة موجات الغضب، يميل الرجال على بعضهم البعض يتأكدون من الإهانة، نظرت حميدة وصفية إلى زمرد بتوتر.

– مما رأيته.. أن الترشيحات المقدمة لنا حتى الآن، قد اقتصرت فقط على رجال ظلوا يعملون إلى جانب أكثر الشخصيات شؤمًا في تاريخ دولتنا الحديث، من يكسبون أموالهم من تجارة المخدرات، والتحالف مع زعماء الحرب والمرتزقة، من

تلوثت أيديهم بدماء إخوتهم الأفغان، كذلك يوجد مترشحون من الأقارب، يتلقون امتيازًا خاصًا من كبرائهم.

كان من الواضح أنها تتحدث عن شقيق زوجة الرئيس، الذي يسافر بين كابول ومدن أخرى مثل دبي وباريس ولندن وإسلام آباد، يعمل في التصدير والاستيراد. كان لديه شركة أعمال ناجحة ويعيش مع أسرته بترف، لكن الجميع يعرفون أن دخله لا يأتي من شركته فقط.

- علينا أن نراقب من نضعه في تلك المناصب الرسمية يجب أن يكونوا فيها للأسباب الصحيحة، لتقدم وحماية وطننا العزيز أفغانستان. لقد عانينا بما يكفي بين أيادي الآخرين في العقود الماضية. إن شعبنا يستحق مسؤولين ذوي عقلية سليمة أنا أتساءل، وآخرون غيري كذلك، كيف تسنى لبعض هؤلاء المترشحين جمع ثرواتهم وشعبنا يعيش في جوع؟ كيف يمكنهم العيش ببذخ وفي الوقت نفسه يهتمون بشؤون البسطاء؟ نحن جميعًا نعرف الإجابة. نعرف أن هناك مصادر مالية لا ينبغي التحدث عنها، لا يجوز نقاشها علنًا.. الرشاوي.. الفساد.. المخدرات.. هذه الممارسات ستقضي على البلد.

سرت موجات الهمهمة في الغرفة، وواصلتْ زمرد بصوت أعلى: أنا لا أوافق على هذه الترشيحات.. لا أوافق على التصويت لهؤلاء الأشخاص.. إخوة وأبناء عمومة يأخذون حقوق شعبنا من تحت المائدة.. هل سنجلس هنا هادئين وندعهم يمتصون دماء الشعب الأفغاني؟ يسمنون من العقود والصفقات الحكومية؟

صاح رجل: هذا يكفي!

ردد آخرون قوله.

- أسكتِها.

واصلتْ زمرد، لا تأبه لتعليقاتهم، رفعتْ صوتها ليعلو على اعتراضاتهم: إن كل من في هذه القاعة، كل رجل وكل امرأة يجرؤ أو تجرؤ على الموافقة على تلك الترشيحات سوف يتحمل ذنب تمتع هؤلاء بالأموال التي يجب أن تذهب للشعب الأفغاني، وطننا أفغانستان. ومن أجل ماذا؟ من أجل فرصة لكسب المزيد من المال! أنتم تعرفون أنفسكم.. تأتون إلى هنا وتتظاهرون بتمثيل إقليمكم في حين لا تمثلون حقًا سوى جيوبكم!

- من تظن هذه المرأة نفسها؟

- أنا لن أستمع إلى جعجعة تلك العاهرة!

ازدادتِ الصيحات غضبًا.. حميدة وصفية ليستا بعيدتين عن زمرد، تحركتا نحوها وسحبتاها من ظهرها.. تحدثتْ معها صفية، قالتْ شيئًا ما في أذنها بينما وضعت حميدة يدها على مكبر الصوت، كنا قريبتين منها بما يكفي لنظل نسمعها مع ذلك.

- لن يسكتني أحد! كفانا هراء! من منكم سيتحدث لو لم أتحدث أنا؟ قولوا عليَّ ما يعنُّ لكم لكنكم تعرفون أنني أقول الحق وأنكم أنتم الملعونون بما تفعلون! إنه ذنب! ذنب!

ذهب رجلان إليها ليواجهاها مباشرة. ارتفعت الأصابع على مبعدة بوصات قليلة من وجهها. شعرتُ بجسدي يتوتر من عدائيتهما. أردتُ أن أسحب زمرد إلى الخلف لكنني جلستُ جامدة، عيناي متسعتان.. أدعو الله أن تسكت.

كان الجميع واقفين. يلوحون بأذرعهم. تجمَّع عدد من الرجال في ركن من القاعة، يشيرون نحو زمرد ويهزون رؤوسهم.

انضم رجلان آخران إلى حميدة وصفية في محاولة كبح جماح زمرد. وقف آخرون يراقبون المشاجرة بتسلٍّ واستمتاع.

كنت أخاف عليها، كما كانت جميع النساء في الغرفة. لم أكن قد رأيت امرأة تتحدث بهذه الجرأة، هذه الصراحة وفي غرفة تعجُّ بالرجال! كان كل ما رأيته في حياتي يُنبئني بأن زمرد لن تغادر القاعة سليمة.

تمتمتْ بدرية، محتفظة برأسها مطرقًا. لم نكن قد تحركنا من على مقعدينا: هذا سيئ، لا يمكننا المشاركة في هذا الأمر. أتفهمينني؟ ابقي مكانك فحسب.. سنغادر ما أن تهدأ الأمور.

أومأت برأسي.. آخر ما نريده أن يعرف عبد الخالق أننا اشتركنا في مباراة صياح بين أكثر العضوات جرأة والرجال الذين تجمعوا عند الباب. كانوا رجالاً مثل زوجي، أكبر سنًا ولديهم كتل انتخابية مخيفة في مواطنهم.. كانوا زعماء حرب.

جاءتْ إلينا حميدة حين هدأتِ الأمور. قالتْ: شيء لا يُصدق، هؤلاء الرجال متوحشون!

أومأتْ بدرية بأدب، لا تريد التعليق بشيء.

- أعني، إنها جريئة قليلاً، أنا معهم في هذا. إنها قذيفة في الحقيقة.. لكنها محقة.. خاصة بشأن قيومي. إن أصدقاءه في وزارة الدفاع يلقون إليه بكل العقود التي تأتي إلى مكاتبهم، كأنه في حاجة إلى المزيد من المال. هل رأيتما سيارته؟ بيته؟

قلت مبهوتة: لم أرهما.

كانت بدرية صامتة تمامًا في حضور هاتين المرأتين لحد أنها نسيت وجودهما تقريبًا. لم تكن تلك عادتها البتة لكنها ارتبكتْ، كانت تخشى أن تبلغ عبد الخالق أي ثرثرة تافهة.

- دعيني أخبرك، إن بيته أحد أجمل البيوت في كابول. لقد هدم بيتًا قديمًا متهالكًا في شاري ناو ثم شيد لنفسه قصرًا من طابقين! وأنت تعرفين كم هي باهظة تلك المنطقة! لا يوجد افغاني يمكنه شراء أي شيء هناك. كل هذه الممتلكات تقدر بنصف مليون دولار أمريكي على الأقل.. على الأقل!

نصف مليون دولار أمريكي؟ ترنح ذهني لوقع المبلغ.

- نصف مليون؟!

- نعم، هذا صحيح! قد يفعل أي شيء ليأخذ ما يريده.. أي شيء.. كان حليفًا لطالبان منذ وقت قصير حين نهبوا إحدى البلدات، سلبوا الناس كل ما يملكونه.. أشعلوا النيران، أوقفوا الرجال صفًا وأطلقوا عليهم الرصاص.. وحين انتهوا من تلك البلدة، لم يكن لدى من نجوا منها سوى ملابسهم التي تسترهم.. عار!

- وهم يريدون أن يصوتوا له؟

إن كان هذا الأمر معروفًا إلى هذا الحد، لماذا لا يغضبون عليه؟

- إنهم كذلك.. لكن هذا هو الأمر.. بحق الله، إن زعماء الحرب يشكلون ثلث البرلمان الآن.. جميع من نفذوا الهجمات الصاروخية، وسفكوا الدماء، جميعهم يجلسون هنا في هذه القاعة.. يريدون الآن أن يصلحوا ما أفسدوه.. مهزلة تقريبًا.

تابعت تهز رأسها: أنا أفقد صوابي حين أفكر في هذا كثيرًا، مثل زمرد!

كنت سأندهش لو كنت شخصًا آخر، لكنني كنت زوجة عبد الخالق، الرجل الذي يثير الخوف في جميع أرجاء إقليمنا. وكنت

واثقة بأنني لا أعرف ربع ما فعله خلال سنوات الحرب. في الحقيقة ما زلت لا أعرف ماذا يفعلون حين ينطلق هو ورجاله بأسلحتهم الأوتوماتيكية.. هو أيضًا قد يرشحه أحد لشغل منصب.

- ماذا نفعل؟ أغلب سياسيينا أمثال هؤلاء، لكنني أقول لكِ.. أنا لن أوافق على ترشيح ذاك الجزّار الفاسد. لقد تحدثتْ صفية إلى النساء الأخريات، سوف يرفضن ترشيحه كذلك.

راقبتُ بدرية: إن صوّت الكثيرون ضده لن تكون أمامه فرصة، صحيح؟

شفتاها مزمومتان لأسفل ووجهها مقطب.. كنت أسأل كثيرًا.

- إن أمامه فرصة كبيرة في الواقع.. لدى زعماء الحرب اتفاقاتهم.. تحالفاتهم.. لخدمة أغراضهم الخاصة.

تساءلتُ إن كانت حميدة تعرف من يكون عبد الخالق، لا أعرف إلى مدى تصل شهرته، يتمتع في قريتنا بنفوذ كبير ويحاول مضاعفته، مشاركة بدرية في البرلمان خطوة نحو هذا.

قالت بدرية: حميدة جان، سنأتي بكوب شاي من الكافتيريا، بعد إذنك.

أثارت المحادثة أعصابها. كان صوتها جامدًا: هل آتي لك بشيء ما؟

- لا، شكرًا. سأذهب لأرى صفية. قد تُستأنف الجلسة خلال نصف ساعة أخرى.

في غرفة الفندق تلك الليلة سألتُ بدرية عما تقوله زمرد.

- أهذا حقيقي؟ هل يوجد الكثير من السياسيين الفاسدين؟
- لا تزعجي نفسك بأشياء كهذه.. لا تعنيكِ.
أزعجني هذا.. كنت متأكدة من أن صفية لا توافقها على هذا.
- لكنه يعنيكِ، أليس كذلك؟ ستصوتين على هذه الترشيحات غدًا، هل ستوافقين عليها؟
- بالطبع سأوافق.
- لماذا؟
- لماذا؟ لأنه من عليَّ أن أصوت له! هل انتهيتِ من ملء تلك الاستمارة؟ ظلوا -في مكتب الإدارة العامة- يسألون عنها طوال الأسبوع.
- كدتُ أنهيها.
تنهدتُ.. تساءلتُ كيف تدبرت بدرية أمرها في البرلمان من قبل.. كانت بالكاد تستطيع الخربشة لكتابة اسمها فقط.
- لكن كيف ستحددين قرارك؟
- لقد قررت بالفعل؟ أنا أعرف ما القضايا، ثم أحدد قراري.
تذكرت جلسة اليوم الساخنة.. نظرة زمرد العازمة.
- هل لديها زوج؟
قالت باستنكار: من؟ زمرد؟ يقولون إن لديها زوجًا لكنني أتخيله مجرد فأر جبان وليس رجلاً، أتصدقين كيف تتصرف؟
- إنها ليست خائفة منهم.
قالت: عليها أن تخاف.. لقد تلقت تهديدات أكثر من أي عضوة أخرى في المجلس.. لا عجب في ذلك، طريقة تناولها الأمور.. مخزية.

طرقعت بلسانها.

- أنتِ لم تتلقي أي تهديدات، أليس كذلك؟ قالت حميدة إن أغلب النساء تلقين تهديدات.. توسلتْ إليها عائلتها ألا تشارك في الانتخابات مجددًا لكنها أصرت.

- إنها بلهاء أخرى.. أنا لم أتلقَّ أية تهديدات لأنني أعرف ماذا أفعل، لا أتدخل فيما لا يعنيني وأنفذ المطلوب مني فحسب، أنا لست هنا لأحرج نفسي أو زوجي.

ارتعشت حين تذكرت كيف وضع عبد الخالق بدرية في مكانها.. لم أظن أن بدرية تعني بأي شكل خاص بالبرلمان.. حدستُ أنه شيء ما يتعلق بزوجنا.

- هذه الاستمارة عن الانضمام إلى مجموعة سوف تسافر إلى بلدان أخرى لديها برلمانات كخبرة تعليمية كما يقولون.. أوروبا، تقول الاستمارة: «إن المدير يوصي بشدة أن يسافر جميع أعضاء البرلمان ليتعلموا كيفية العمل في البرلمانات الأخرى».

الآن وبينما أنا في كابول، بتُ أسمع عن أماكن أخرى أروع، وحتى أبعد عن خيالي، مثل أوروبا. تساءلتُ، كيف يبدو مكان كهذا؟ لقد قطعنا كل تلك المسافة إلى كابول. ربما يمكننا الذهاب إلى أوروبا أيضًا؟ رفعتْ بدرية رأسها، مفتونة مثلي بالاسم المثير.

- السفر إلى أوروبا؟ حقًا؟

أدركتْ بدرية ما إن لفظت الكلمة سخافة الفكرة.

- انسي الأمر.. لستُ مهتمة.. ألقي بتلك الأوراق بعيدًا.. أنا مرهقة.. يمكنك إنهاؤها في الصباح.. سآوي إلى الفراش.

الفصل 44
رحيمة

- التصويت الآن على المرشح أشرف الله فوزالي. من فضلكم ارفعوا مضاربكم للموافقة على ترشيحه.

كان لدى كل عضو من الأعضاء مضربين، إحداهما أحمر والآخر أخضر، يستخدمهما في المجلس للإعلان عن أوافق أو لا اوافق. كان ذلك أول تصويت وبدت بدرية مرتبكة، سألتُها بهمس: هل ستصوتين له؟

- ششش!

أجابتني بهمس عصبي، عيناها تنظران حولها. كانت المضارب ترتفع، عدد كبير معًا في وقت واحد. مدت بدرية يدها إلى المضرب الأخضر ورفعته نصف المسافة، ما زالت غير واثقة.

تتبعت نظرتها إلى رجل يجلس في مقدمة القاعة، من موقعنا يمكننا رؤية جانب وجهه، كان ضخم الجثة بلحية كثة وملامح خشنة، عمامته الرمادية ملفوفة أعلى رأسه كالأفعى، يرفع مضربه الأخضر.

رأيته ينظر نحونا، يمنح بدرية إيماءة خفيفة، ارتفع مضربها الأخضر وهي تثبّت عينيها على مقدمة القاعة، اندهشتُ.. لم أتعرف على الرجل لكن بدا أن بدرية تعرفه.

- بدرية ماذا تفعلين؟ من ذلك؟

- اخرسي! سجلي الملاحظات فحسب أو افعلي ما تفعلين.

- لكنه ينظر إلى موضعنا!
- قلت لك اخرسي!
عقدتُ ذراعيّ، أغلقتُ فمي وراقبتُ، هكذا سار الأمر لبقية الجلسة، كلما طلب المدير من الأعضاء التصويت على أحد المترشحين، تنتظر بدرية أن يرفع الرجل مضربه، وترفع مضربًا مثل مضربه. أخضر.. أخضر.. أحمر.. أخضر.. أحمر.. أحمر. وفي كل مرة ينظر إلينا، على وجهه تعبير استحسان متعجرف لرؤيتها تصوّت مثله.
نظرت السيدات إلى بدرية، بدوْنَ حائرات، همست صفية بشيء ما لحميدة، التي رفعت كتفيها.
قيومي.. حان وقت التصويت على ترشحه، نظرتُ إلى حميدة وصفية، كانتا تهزان رأسيهما فيما يستعد المدير لبدء التصويت. سرت موجة همهمة صغيرة في القاعة فيما يستعد أعضاء البرلمان للتقرير بشأن أكثر الشخصيات إثارة للجدل في كابول، طرقعت الألسن باستنكار قبل أن ترتفع المضارب حتى.
- سيداتي سادتي، تفضلوا برفع مضاربكم. ارفعوها عاليًا لنراها!
رفع الرجل مضربه الأخضر.
نظرتُ إلى بدرية، كنت واثقة من شعورها بنظري إليها لكنها تجنبت النظر إليَّ.
رفعت حميدة وصفية مضربيهما الأحمرين، رفع النواب من حولهما مضاربهم الحمراء أيضًا. توجد جيوب متفرقة من المضارب الخضراء هنا وهناك، جميعهم رجال تقريبًا.
علت الغمغمات فيما ترتفع المضارب الخضراء.

ابقتْ بدرية رأسها منخفضًا وأمسكت مضربها، فتحت فمي لأقول شيئًا ما.. أخضر.

- بدرية! ماذا تفعلين؟ ألم تسمعي ما يقولونه عنه؟ لماذا تصوتين له؟

- أرجوك يا رحيمة، اسكتي!

نظرتا حميدة وصفية إلينا، رفعتا حاجبيهما، أبعدتا نظرهما ومالتا على إحداهما الأخرى، فكرتُ في محادثتنا مع حميدة، لم يمكنني تجاهل ما أخبرتنا به.

- لكن حميدة قالت...

قالت بخشونة: اسكتي، وإن لم تستطيعي فغادري! اخرجي من هنا فقط! لستُ في حاجة إليك.

حدقت فيها. ليس لديَّ مكان آخر أذهب إليه. بقيت بجانبها، أشتعل غضبًا، حتى وإن لم يكن من شأني، ربما كنت سأفعل مثلها لو كنت مكانها، ربما كنت سأقلد تصويت الرجل الجالس في الزاوية مثل القرد.

عبد الخالق.. لقد وضعها هنا لهذا.. لا بد أن لهذا الرجل علاقة باتفاق الأمن ذاك الذي أراد عقده. تمامًا كما قالت حميدة.

أدهشني فقط وصول نفوذ زوجي إلى هذا الحد، في عقر البرلمان في كابول، وفي موطن ذاك الرجل أينما كان.

نظرتْ حميدة إلينا، بشفتين مزمومتين.

ربما كنت سأختلف عن بدرية لو كنت أنا من أشارك في البرلمان.. ربما صرت مثل حميدة أكثر أو صفية أو زمرد حتى.. ربما كنت سأجلس على المقعد البرلماني لأقرر بناءً على رأيي الخاص.

لكن الأرجح أن ذلك لم يكن ليحدث، لن يكون من السهل العودة إلى بيت عبد الخالق بعد تجاهل تعليماته، خاصة في شأن كهذا.

انتهت جلسة اليوم، نهضت بدرية عن مقعدها بسرعة وجمعت أشياءها، شقت طريقها في الصف ثم إلى الممر الرئيس دون أن تستدير خلفها لترى إن كنت أتبعها.

وصلنا إلى الحارسات عند نقطة الأمن، ولا حتى ابتسامة تهذب، كان إحباطهن من تصويتها واضحًا. كن يعرفن أن مضاربها الخضراء والحمراء تقررها لها قوى خارجية، كانت جزءًا من المشكلة.

قالت صفية بموضوعية: يسعدني انتهاء هذا اليوم أخيرًا.

وافقتها بدرية برصانة: نعم، وأنا أيضًا.

تمتمتْ حميدة وهي تعدل طرْحتها: يوم مثير.

راقبت محادثتهن، أريد أن أعلن أنني لست جزءًا من هذا.. أردت أن أقول إنني لم أكن لأصوت لقيومي. مع أنني كنت متأكدة تقريبًا أنني كنت سأصوت له.. كنت أتعلم أن كابول المدينة العالمية لم تكن تختلف كثيرًا، على الأقل من هذه الزاوية، عن قريتي النائية. كان الكثير من قراراتنا ليست قرارات بالمرة، كنا نُساق إلى خيار ما أو آخر، بصياغة رقيقة. تساءلت إن كانت النائبات الأخريات يتمتعن بحرية التقرير بأنفسهن حقًا.

جلستُ في السيارة وملت إلى الخلف، تمنيتُ لو كنت في البيت مع جهنجر، إنه في الغالب يأخذ قيلولة الآن، فمه مفتوح قليلاً وجفناه يرمشان بأحلام بريئة، شكرًا لله أن جميلة معه لترعاه.

دخلتْ بدرية من الجانب الآخر، جلستْ، استدارت وصفعتني على وجهي بقوة جعلت رأسي يصطدم بباب السيارة.

- رحيمة، وجهي لي سؤالاً آخر وأقسم أنني سوف أذهب إلى عبد الخالق وأخبره أنك تفتحين فمك الغبي أثناء الجلسة، سنرى حينها حماسك لتحريك لسانك، تعلمي السيطرة على نفسك، أيتها الكلبة.

نظر معروف إلى المرآة الداخلية، تحول تعبير وجهه من الدهشة إلى الخبث، كان مستمتعًا. آلمتني الصفعة لكنني لم أقل شيئًا، أمامي ما تبقى من فترة إقامتنا لأتجاوزها ولم أرغب في صنع مشهد لحرسنا الشخصي.

في الصباح التالي، شققنا طريقنا بين جموع الجنود الأجانب عودة إلى مبنى البرلمان متأخرين بسبب بدرية، لكن لا تصويت اليوم، نقاش فقط، لا شيء مهم لها، لكنها ملزمة بالحضور.

لم أتحدث معها، أجيب عن أسئلتها وأبتعد عن طريقها فحسب، بدأتُ أفكر إن كان الوجود في كابول يستحق التعامل معها، كانت سيئة هنا بقدر ما كانت في البيت، ولم يكن أمامها سواي للتنفيس عن عصبيتها وغضبها وهي تنفذ خطة زوجنا التي بدأت تنال منها.

سجلت لها ملاحظات، ملأت الاستبيان الذي وزعته منظمة أجنبية ما بهدف تطوير البرلمان، ثم حانت استراحة الغداء، انجذبتُ نحو حميدة وصفية، تبعتني بدرية على مضض تحمل صينيتها.

قالت حميدة: كيف حالكما أنتما الاثنتان؟

تنظران إلينا بشكل مختلف الآن، غيَّر الأمس أشياء.

- بخير، شكرًا، وأنتما؟

كانت بدرية مقتضبة، ما لم يلطِّف من الموقف.

قالت صفية: ما زلتُ مندهشة من الأمس، كنا نأمل في التصدي لتلك الترشيحات، لكن ظني أنه قدرهم أن ينجحوا.

القدر! هل تؤمن صفية بهذا حقًا؟ وإن كانت كذلك، لماذا تَعني بالتصويت؟

وافقتْ بدرية: ربما كان كذلك.

بحثتُ عن شيء ما لأقوله لصفية وحميدة لأخبرهما أنني في صفهما دون أن أثير عصبية بدرية.

- أحيانًا يفاجئك الناس، أليس كذلك؟ رب ضارة نافعة.

- متفائلة، هذا شيء لا نراه كثيرًا.

ما كنت أرى في قيومي أي شيء سوى الفاسد الذي تحدثنا عنه، ما كان لدي سبب لأظن أن أي شخص قد يفعل أي شيء جيد حقًا، كان «تفاؤلي» مجرد كلمات مرصوصة معًا لتجعلني أبدو موضوعية، أردتُ صداقة هاتين السيدتين، كانتا مستقلتين وسعيدتين، شيء ما ذُقته حين كنت فتى صغيرًا فقط.

- أنا وصفية سنذهب إلى مركز الموارد هذا المساء، ربما أردتما الانضمام إلينا؟

- شكرًا لكِ لكنني لا أستطيع، سوف أذهب إلى بيت ابنة عمي هذا المساء، لم أرَها لأكثر من عامين.

نظرتُ إليها مندهشة. أكانت صادقة؟ واصلتْ حين رأت تعبير وجهي: إن ابنة عم أمي تعيش هنا في كابول، لم أرَها منذ وقت طويل جدًا وخالتي تتقدم في السن، تلح عليَّ لزيارتها، إنها

...ي على الجانب الآخر من النهر قرب مستشفى النساء.
حسنًا، إن كنتما ستذهبان إلى هناك هذا المساء، ربما في
وقت...
بدت بدرية مذهولة.
قالت متلعثمة تحاول استبعاد فكرة ذهابي معها: نحن؟ لا،
...وف أذهب وحدي، إنها ابنة عمي أنا، تعرفين.. وقد قالت
، مهمة جان إنها لا تريد الذهاب على أي حال.
نظرتا إليَّ للتأكيد.
- حسنًا، لقد ظللت تذكرين كم هي رائعة، ربما عليَّ الذهاب
معك، هاه؟
اتسعتْ عيناها.
قالت، تخبرني نظرتها بما يجب أن أقوله: حقًا؟ أتريدين
الذهاب؟ أأنتِ واثقة بأن هذا ما تريدينه؟
قلتُ: لا، أتعرفين؟ ظني أنني غيرت رأيي، اذهبي أنتِ لزيارة
أقاريك، ربما سأذهب إلى مركز الموارد بدلاً من ذلك، سيكون
رائعًا رؤية ما يقدمونه، أُفضِّل حضور بعض الدروس فيما نحن
هنا.
لمعتْ عينا حميدة، كأنها رأتني بضوء جديد.
- إنها فكرة رائعة! هذا ما سنفعله، فيما تزور بدرية خالتها،
سنذهب نحن إلى مركز الموارد، سنتقابل فور انتهاء جلسة اليوم
ونتوجه إلى هناك مباشرة، ستكونين مستعدة للذهاب حينها،
صحيح؟
وافقتُ، أسعدني أن لديَّ وجهة أخرى غير وجهة بدرية،
افترقنا بعد انتهاء الجلسة وذهبت مع حميدة وصفية، أخذتْ

بدرية السائق والحارس، تُركت وحدي لأشعر بحرية أكثر من
الوحدة، أخذنا معنا بعض الطعام من الكافتيريا وحملناه في
أكياس بلاستيك، سألتُ: هل لديهم تلك الدروس طوال الوقت؟
هل يشبه المدرسة؟

كان حماسي يزداد لفكرة العودة إلى الدراسة. حتى وإن لم
تجد الدروس نفعًا.

- لديهم مدرسون مختلفون، ألم تسمعي صفية تتحدث
بالإنجليزية؟ أين في ظنك تعلمت قول «هاللو، هاو آر يو؟»

قلدت حميدة صفية بمرح.

لم أفهم شيئًا مما قالته لكنني انبهرت لأنهما تعلما
الإنجليزية، أردت أيضًا تعلم استخدام الكمبيوتر الذي رأيته في
مكتبة البرلمان، كانت المكتبة غرفة صغيرة في القبو بثلاث
خزانات كتب كبيرة، اثنتان منهما خاليتان، كانت مجموعة الكتب
قليلة لكن أمينة المكتبة عازمة على جمع الكثير من الكتب عن
السياسة والقانون والتاريخ، تصفحت الكتب واكتشفت كمَّ ما
ينبغي تعلمه عن الحكومة، لم يكن الأمر ببساطة رفع أحد
مضربين.

لفتت الأجهزة نظري، كان هناك ثلاثة منها، لكن المزيد
سيأتي، كما أخبرونا. جلس إلى الأجهزة ثلاثة رجال أعرفهم من
الجلسات، حاولتُ ألا أحدق أعلى أكتافهم لكنني أردت أن أعرف
إلى ماذا ينظرون في تلك الشاشات، راقبتهم من زاوية عيني وهم
ينقرون لوحَ المفاتيح ببطء وحرص، يجمعون الحروف معًا بطريقة
لم أرَها من قبل قط.

أخذتاني إلى مبنى صغير مشيد حديثًا بنوافذ صغيرة

والافتة، مكتوب على واجهته بالإنجليزية والدارية[1]: مركز تدريب النساء.

سألتُ: هذا للنساء فقط حقًا؟ لا يمكن للرجال المجيء إلى هنا؟

قالت صفية ضاحكة: كلا البتة، تمامًا مثل دورة المياه، شكرًا لله أن فكّرت إحداهن في مشاركتنا بجدية أخيرًا، أتعرفين يا حيمة جان، إن المنظمات الأجنبية ترسل المدرسين وأجهزة الكمبيوتر، كل هذا متاح، علينا فقط استخدامه.

- هل يأتي الكثير من عضوات البرلمان إلى هنا؟

أجابت حميدة بسرعة: نادرًا! كثير منهن لا يعرفن شيئًا عمّا يفعلنه، أنا أيضًا لم أكن أعرف شيئًا، لكنني الآن في الدورة الثانية وقد بدأتُ أدرك لتوي كم ما زال علينا تعلمه قبل أن يحقق هذا البرلمان مهمته بالفعل، نحن مثل الرضّع، ما زلنا نتعلم الحبو.

صورة جهنجر.. ركبتاه خشنتان وسوداوان من الزحف.. راحتاه تخبطان الأرض بحماس.. أفتقدُ ابني.

لا بد أن صفية قد قرأت صفحة وجهي.

- الديك أطفال؟

أومأتُ برأسي.

- لدي ابن.

- منذ متى أنتِ متزوجة؟

- ثلاث سنوات تقريبًا.

- مم، كم كان عمرك حين تزوجت؟

---

(1) اللغة المتداولة في أفغانستان، قريبة للفارسية. (المترجمة).

أجبتُ بهدوء: ثلاثة عشر عامًا.

ما زلتُ أفكر في وجه ابني الصغير، كنت أتساءل ماذا يفعل

- لا بد أن زوجك أكبر منكِ سنًا بكثير، باعتبار عمر بدريه

قالت حميدة وهي تتوقف لفتح باب مركز التدريب.

أومأتُ، لاحظت محاولتهما إخفاء فضولهما.

- زوجك... ماذا يعمل؟

خلا ذهني تمامًا من أي إجابة، لست متأكدة تمامًا مما يفعله ولا أعرف كيف يمكنني تجنب شرح الأمر، قلت: لا أعرف.

احمرّ وجهي لطريقة نظرهما إليَّ.

- لا تعرفين؟ كيف لا تعرفين؟

- لم أسأله قط.

- لم تسأليه قط؟ لكنك تعيشين هناك! لا بد أن لديك فكرة ما عن عمله.

لم تكن تلك الأمسية بريئة كما بدت، كانتا مهتمتين، في الغالب بعد أن شاهدتا تصويت بدرية الغريب، لكن التحدث كثيرًا قد يجلب المشاكل.

- لديه أرض، ويوفر الحرس لبعض الأجانب، بعض المسؤولين عن بناء شيء ما في إقليمنا، لا أعرف التفاصيل حقًا، أنا أبقى بعيدة عن شؤونه.

قالتْ صفية بطريقة أشعرتني أنني قد أوضحت كل شيء: فهمتُ.

عليَّ أن أتوقف عن الكلام.

- هل تحدثتْ بدرية معكِ عن المترشحين؟ الأشخاص الذين صوتت لهم؟

حاولتْ حميدة أن تبدو طبيعية، قلت وأنا أدخل من الباب:

يجب إنهاء هذه المحادثة.

- نحن لا نناقش قضايا البرلمان حقًا، أنا هنا لمساعدتها في الأعمال الورقية وقراءة الوثائق فقط.

- الا تستطيع القراءة؟

أحببتُ هاتين المرأتين منذ اليوم الأول، أحببتهما حقًا، المهما في تلك اللحظة كانتا توتراني للغاية، كانتا تتلاعبان بأعصابي، كنت متأكدة من أنني سأدفع ثمن هذا لاحقًا.

- دعونا ندخل، أرجوكما، لا أطيق الانتظار لرؤية ما في الداخل.

استسلمتا، تبعتهما إلى المركز حيث تجلس امرأة أمريكية خلف كمبيوتر، أصابعها تتحرك بسرعة على لوحة المفاتيح، نظرتْ لأعلى وابتسمتْ بسرور لرؤيتنا، أول زائرات خلال أسبوع.

نهضتْ وعانقتنا، حيتنا بود، تمرنت صفية، وقد ازدادت ثقتها، على إنجليزيتها وسألتها كيف حالها وحال أسرتها.

همستُ: لماذا لا يوجد أحد آخر هنا؟

- لسن مهتمات، إنهن يحضرن الجلسات فقط ثم يعدن إلى البيت، لا أحد يهتم بتعلم شيء جديد، يرين أنهن يعرفن ما يفعلنه، حتى وإن كن لم يفعلنه من قبل قط، وُلِدن خبيرات!

ضحكتْ حميدة.

قدمتاني إلى مس فرانكلين وأوضحتا لها أنني مساعدة عضوة أخرى في البرلمان، بدتْ سعيدة للغاية لوجودي هناك، حدقتُ في شعرها البني الفاتح، خصلاته الناعمة تفلت من تحت

حجابها، بدت في ثلاثينياتها، جعلني بريق عينيها أفكر أنها لم تخبَر حزنًا من قبل قط.

فكرتُ: *إن كان هذا حقيقيًا، فهي محظوظة.*

قالتْ: سلام عليكم يا رحيمة جان.

لكنّها غليظة إلى درجة أنها جعلتني أضحك.

- شوتووور آستين؟

أجبتها: أنا بخير، شكرًا لكِ.

ونظرتُ إلى حميدة، لم أرَ أمريكيين من قبل قط، ذُهلت لسماعها تتحدث بلغتنا، بدا رد فعلي مألوفًا لحميدة، ضحكتْ قائلة: تتحدث الفارسية جيدًا، أليس كذلك؟ الآن، مدرّستنا العزيزة، ماذا ستعلميننا اليوم؟

قضينا هناك قرابة ساعتين، علمتنا مس فرانكلين بصبر أساسيات استخدام الكمبيوتر، تُحرك الفأرة على المكتب فيتحرك سهم على الشاشة، كنت سعيدة، أشعر بحماس لم أشعر به منذ أيامي كباشابوش.

أتخيل لو تعلمت استخدام هذا الجهاز، أتخيل لو استطعت العمل مثل هذه المرأة، مس فرانكلين، أن أعرف الكثير جدًا لدرجة أن أُعلّم الآخرين!

شعرتُ بتشريف.. شعور جديد! فكرتُ أن حتى حشمت لم يرَ كمبيوترًا من قبل، وبالطبع لم يتلقَّ دروسًا خاصة في كيفية استخدامه، وددت بشدة أن أرى وجهه حين يعرف ماذا كنت أفعل في كابول.

بدا أن الليل سيحل قريبًا وأن علينا أن نغادر، كانت صفية وحميدة قد وعدتا بدرية أن إحداهما سترافقني بحرسها

وسائقها إلى الفندق، عانقتُ مس فرانكلين قبل أن نغادر، جعلها هذا تضحك بصوتٍ عالٍ، ومضت عيناها الزرقاوان بعطف.

- أريد أن أعـودَ إلىً هنا، أرجـوكِ! لقـد أحـبـبـت المكان هنا جدًا!

ليت يومنا انتهى بتلك المشاعر.

كـانت يد صـفـيـة على مـقـبض البـاب حين صـعـقنا صـوت انفجار، سقطنا على الأرض، بعيدًا عن النوافذ، نظرات عصبية.

- ماذا كان ذلك؟

- شيء ما. ليس بعيدًا بالتأكيد، لكنه لا يبدو كصاروخ.

كنا نـعـرف الحـرب، ألفت أسـمـاعنا الانفـجـارات، لـكن مس فـرانكلين ليـست كـذلك، شـحـب وجـهـهـا تمامًـا وكـانت تـرتعش، وضعت حميدة ذراعها حول مدرّستها الشابة، تحاول طمأنتها، عصرت صفية يدي، لم نسمع صوتًا آخر، نهضتْ صفية بحرص وسارت نحو الباب، كان الناس في الشارع يصيحون، ويشيرون، هرع سائقها وحارسها نحو الباب، بدوَا محبطين، كانا يلهثان، سألتْ: ما هذا؟ ماذا حدث؟

- يبدو أنها قنبلة، كانت خارج مبنى البرلمان مباشرة، ابقين هنا، سنذهب لنرى ماذا حدث.

تجـمـعنا عند النـافـذة، نحـاول قـراءة وجـوه المارة، صـاحتْ حميدة نحو أحد المارة.

- ماذا يحدث؟ أكانت هذه قنبلة؟

كانت الفوضى تعم الشارع، إما لم يسمعها أحد وإما لم يعنِ أحد بالرد عليها.

تسللنا خـارج البـاب بوصـات قليلة، يدفـعنا الفـضـول، كنت

متوترة، بالرغم من مشاركة أبي وزوجي في الحرب، ظللتُ دائمًا على مبعدة قرية منها. تساءلتُ إن كانت بدرية قريبة من هنا.

عاد سائق صفية، يهز رأسه ويتمتم في سره، أوقفه حارس حميدة، يريد أن يعرف ماذا وجد.

- إنه على مبعدة شارعين، قنبلة في سيارة، يبدو أنهم كانوا يحاولون اغتيال زمرد.

انقبضت معدتي، تخيلتها تندفع خارج المبنى، تذكرت النظرات النارية التي رمقها بها بعض الرجال، حتى بعض النساء هززن رؤوسهن وهي تمر بهن، يظنون أنها تجاوزت الحد، وكانت عقوبة تجاوز الحد قاسية في عالمنا، لطالما ظلت كذلك.

- زمرد! لا عجب، إنها تشير بأصبعها كثيرًا، هذا ليس جيدًا، أهي بخير؟

- لا أعرف، قال أحدهم إنها لقت حتفها، أخذوها بعيدًا، لم أرها هناك، ولا حرسها. الأفضل أن نذهب من هنا.

الفصل 45
رحيمة

حين سمع عبد الخالق بما حدث، أمر سائقه وحارسه أن يعيدانا إلى البيت، أرعبتني القنبلة، ظللتُ أنا وبدرية في غرفتنا في الفندق، خائفات من استهداف عضوات أخريات في البرلمان، نسمع مئات النسخ من أحداث البارحة من حارسنا وطاقم العمل في الفندق.

«لقد ماتت». «لقد نجت لكنها فقدت ساقًا». «لم يمسها سوء لكن ثلاثة أطفال كانوا يمرون لقوا حتفهم». «كانت طالبان». «كان زعيم حرب». «كان الأمريكان».

لم أعرف ماذا أصدق، كانت بدرية تصدق كل قصة بحذافيرها حتى تسمع التالية، دار رأسي، دعوت الله من أجل زمرد، فكرتُ أن ثمة شيئًا ما ملهمًا في استفزازها البرلمان بأكمله بسلوكها غير اللائق. عاد حارسنا، كان سائقنا يدخن سيجارة، عيناه حمراوان من دخان القنبلة المتصاعد، يتوق للابتعاد، حين أومأ لنا أن السيارة مستعدة، تنهدتُ بارتياح، أردت أن أحتضن جهنجر.

تخيلت كيف سيصيح ابني الصغير ويضحك حين يراني، كيف سيندفع إلى ذراعيّ. لم أستطع الانتظار لأحمله، أدعو الله ألا يكرهني لأنني غادرت، كنت آسفة لأنني تركته، لا أريد أن أكون مثل أمي، لا أريد أن أتركه ليُربي نفسه بنفسه، فتحت

حقيبتي وتأكدت من وجود قلم الحبر الجاف والورقات القليلة التي أخذتها من مبنى البرلمان، ابتسمتُ حين فكرتُ كيف سيسعد جهنجر بها.

كان ابني البقعة المضيئة في عودتي إلى البيت، ذهبتُ مباشرة إلى غرفة جميلة وأنا أناديه، توقف حين سمع صوتي وركض ليحييني عند الباب، ابتسامة بريئة وعينان براقتان.

– ماا داا ماا داا

ذاب قلبي لسماعه يناديني.

– نلعب كرة في الخارج! ماا داا

لم يضيّع وقتًا ليشدني للعب معه، ابتسمتُ، وددت لو أستطيع اللعب معه في الفناء حيث يمكننا ركل كرة أخيه هنا وهناك، ما زلتُ قريبة من الطفولة بما يكفي وأحب اللعب، لكنهم كانوا قد ذبحوا لتوهم دجاجة من أجل عشاء عبد الخالق وكان أمامي وقت قصير لتنظيفها وتحضير العشاء.

– سامحني، باجم، ربما فيما بعد يمكنني الخروج واللعب معك، عليَّ الآن أن أقوم بعمل ما، ربما يمكن لأخيك الخروج للعب معك.

ظني أنني كنت آمل سرًا أن يغير عملي في كابول تعاملهم معي في البيت، لكن هذه الفكرة تبددت سريعًا. جاءت بيبي كلالي في الصباح التالي لتتأكد أن الوقت الذي قضيته في المدينة لم يمحُ كل جهدها الذي بذلته معي.

– كانت تلك كابول، أما أنا هنا، في هذا البيت، تذكري من أكون، لا توجد هنا اجتماعات ولا أوراق لتعملي عليها، الآن اذهبي لتغسلي وجهك، تبدين قذرة، يا له من منظر.

تنهدتُ، أومأت وسرت بعيدًا قبل أن تظل تتحدث حتى يسوء مزاجها أكثر.

ظللت في غرفتي، كانت ليلتي الأخيرة هنا مع زوجي سيئة بشكل استثنائي، عنيفة بشكل استثنائي ولم أرغب في وضع نفسي في طريقه مرة أخرى، تساءلتُ إن كان سيدَعنا نعود إلى كابول بعد ما حدث، ما زلت لا أعرف إن كانت زمرد حية أم ميتة.

وكان ثمة شيء ما يحدث في البيت، لم أعرف ماذا كان لكن جميلة بدت قلقة ومرتبكة، كانت مؤدبة مع بيبي كلالي لكنها تستأذنها وتبتعد سريعًا، بدا أن بيبي كلالي ناقمة على البيت كله، سألتُ جميلة لكنها ابتسمتْ وغيرتِ الموضوع. كانت شاهيناز ناقمة عليَّ لسفري إلى كابول، مقتضبة ومشحونة، لا فائدة من التقرب إليها.

استعنت بأصغر أبناء جميلة، لأرسل إلى خالة شايما خبر عودتي من كابول، تمنيت بشدة أن أراها، كنتُ من قبل مستمعة فقط، سيمكننا الآن تبادل القصص. أردتُ أن أخبرها عن زمرد والقنبلة، وعن حميدة وصفية ومركز الموارد، لكن مر أسبوع دون أن تأتي، سألت جميلة إن كانت قد سمعت بأي شيء عن خالتي لكنها لم تسمع شيئًا، مر أسبوع آخر وما زلت لا أعرف شيئًا.

كنت قلقة ومحبطة لكنني لم أستطع فعل شيء، بدأت أشعر بالفارق بين البيت وكابول بالفعل، مذاق الاستقلالية ذاك، أو حتى إمكانيتها فحسب، جعلني أتوق للعودة.

مرت ثلاثة أسابيع، كنت أنا وبدرية في انتظار قرار عبد الخالق، في الغالب سيسمح لنا بالعودة إلى كابول واستكمال

الأشـهـر الثـلاثة المتـبـقـيـة في الدورة البـرلمانيـة، لم يخـبـر بدرية بشيء، ومع هذا كـانت هي مـصـدر مـعلوماتي الوحيـد، لا يناقش تلك الأمور معي مباشـرة، يعاملني كابنته أكثر من كوني زوجته، لم يهمني هذا، كنت أفضل تقليل التعامل معه إلى الحد الأدنى.

سـألتُ بدرية أخـيـرًا بيبـي كـلالـي عمّـا يحـدث، بدأت بيبـي كـلالي، وهي مـسـتندة على حـائط غـرفـة الجلوس ووشـاحـهـا على حـجـرهـا، تحكي لـهـا همـسًـا. حين توقفتُ عند عتبة البـاب، رفعتـا بصـرهـمـا، منزعـجـتين. قـالت بيـبـي كـلالـي: واصـلـي عملك، خـذي السجاجيد! وانفضيها جيدًا هذه المرة، لا أريدها أن تبدو داكنة.

خرجتُ من الباب لـكنني تلكأت في الرواق، قـالت بدرية حين انصـرفتُ: متى حدث هذا؟

– بعـد مـغـادرتك مـبـاشـرة، إنه يـعـرف أخـاهـا، لـيتـه لم يـأخـذ تلك المتـشـردة قط، لا أعـرف مـاذا يريد من رحـيـمـة، إنهـا عـائلة حقيرة.

– أوافـقـك، لماذا أراد زوجـة بـاشـابوش، لن أفـهـم أبدًا، لـكن خالة جان، لماذا تظنينه يريد التخلص منها؟ إنها الأصغر هنا وهو يريدها لشيء ما.

– سـيـتـخـلص منهـا، ظني أنه يـعـرف الآن أنهـا كـانت غـلطة، ويريد أن يصلحها بالجديدة، سوف يتزوجها.

– لكن لماذا لا يبقيها فقط ويتزوج الأخرى؟

– لأنه يلتزم بالشـرع، إنه سـيـد مـحـتـرم في هذه القـرية. في هذا الإقليم، يـعـدّ مـثـلاً أعلى؛ لذلـك يتـبـع سنّة الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، ليس للـرجل أن يتـخـذ أكـثـر من أربع زوجـات أبدًا، لم يكن ليواجه مشكلة لو لم يتزوج الباشـابوش.

جفّ حلقي، ماذا يخطط زوجي؟ زوجة خامسة؟
قالت بدرية: حسناً، ليبارك له الرب، التزامه الديني ذاك مثير للإعجاب، مسلم ورع.
غمغمتْ بيبي كلالي بشيء ما، توافق بدرية على إشادتها بابنها. ثم قالت: فقط لا تقولي أي شيء عن هذا لرحيمة، إنها متوحشة بما يكفي بطبعها، لا نريدها أو خالتها المجنونة شايما أن تثيرا ضجة بسبب الأمر، الأمر ليس من شأنهما على كل حال.
- لن أقول شيئًا، لكنها ستعرف سريعًا...
كان الأطفال آتين من الردهة، ابتعدتُ عن الباب وذابت خطواتي في خطواتهم.
أردتُ أن أتحدث إلى جميلة، هل سيتخلص عبد الخالق مني حقًا؟ كيف؟
قالت جميلة وهي تضيّق عينيها: لماذا؟ ماذا سمعتِ؟
حكيتُ لها ما سمعته، استمعتْ لي باهتمام.
- أنا لا أعرف أي شيء أكثر من هذا. بيبي كلالي لا تتحدث سوى مع بدرية، بالطبع ملاكها. بقيتنا سنسمع بالأمر فقط حين يحدث، لكن ليكن الرب في عوننا جميعًا، إن قام بذلك حقًا، ستكون كارثة.
- لكن هل تظنينه سيتخذ زوجة خامسة؟ إنه يريد التخلص مني جميلة جان، هل يمكنه هذا؟
بدأت جميلة بالقول: يمكنه...
لكنها سكتت قليلاً وغيرت ردها: أنا لا أعرف يا رحيمة جان، لا أعرف حقًا.

تركتا الأمر مسكوتًا عنه، إن أراد أن يتخذ زوجة أخرى دون تجاوز الحد، سيكون عليه التخلص من واحدة منا وقد أوضحت بيبي كلالي بالفعل أنني أنا من يمكن استبعادها. لقد دعوتُ الله ذات مرة أن يُعيدني زوجي إلى والديّ. الآن، سيعني هذا أن أترك ابني، أخبرتني جميلة ذات مرة عن فتاة ما أرسلها زوجها إلى بيت أبيها لأنه لم يكن راضيًا عنها كزوجة، رفضت عائلة الفتاة أخذها لشعورها بالعار، لا أحد يعرف ماذا حدث للفتاة.

مرت أربعة أسابيع على عودتي من كابول. جاء جهنجر إلى غرفة نومنا حيث كنت أخيط مزقًا في ثوبي، الثوب المنزلي الأزرق الذي حذرتني بدرية من ارتدائه في كابول، فهمت لماذا بعد أن رأيت ملابس نساء البرلمان، لكنه ما زال بحال جيدة ولا توجد فرصة ليقع في طريقي أي قماش جديد.

نادى عليّ جهنجر، رفعتُ بصري، اندهشتُ لرؤية خالة شايما تخُبّ خلفه بخطوات قليلة، لم تكن قد دخلت إلى هذا القسم من البيت من قبل.

- خالة جان! سلام خالة شايما جان، لقد جئتِ! كنت قلقة عليك للغاية!

نهضتُ بسرعة لأستقبلها، وضعتْ خالة شايما يدها على مقبض الباب، تميل إلى الأمام حتى تهدأ أنفاسها، قالتْ لاهثة وأنا أقبّل يديها: سلام... آه.. سلام دختار جان، اللعنة على عبد الخالق لبنائه بيته بعيدًا هكذا عن البلدة.

سمعتُ صفير الهواء في رئتيها، نظرتُ إلى الرواق خطفًا لأتأكد أنّ لا أحد يسمعها وهي تلعن زوجي.

- أنا آسفة جدًا يا خالة جان، ليتني أستطيع زيارتك.

- انسي هذا، سأظل أسير طالما تستطيع قدميّ، دعيني أجلس الآن وأرتاح، لا بد أن لديك شيئًا ما لتحكيه لي عن رحلتك، وماذا بحق الجحيم تفعلين هنا لوقت طويل هكذا؟

أخبرتها بكل شيء، الفندق، الحرس، المباني والجنود الأجانب، ثم القنبلة وسبب عودتنا.

- سمعتُ عن هذا في الراديو، أبناء الحرام، لا يمكنهم التعامل مع امرأة ذات صوت.

- من الفاعل في رأيك؟

- وهل هذا مهم؟ قد لا يعرفون من وضع القنبلة هناك، لكننا جميعًا نعرف لماذا، إنها امرأة، لا يريدون سماع صوتها. إن آخر ما تحتاج إليه بلادنا معوق آخر، وهذا ما آلت إليه الآن.

- ألم تمت؟ ماذا حدث لها؟

- ألا تعرفين؟

- لقد سمعنا أشياء كثيرة جدًا قبل أن نغادر، ولا أحد هنا يعني بالأمر، أنا واثقة بأن عبد الخالق يعرف لكن...

- لكنكِ لن تسأليه.

هززت رأسي.

- يبدو أنهم وضعوا القنبلة بجوار سيارتها مباشرة، انفجرت وقتلت أحد حرسها. لكنها نجت، قالوا إن قدمها احترقت لكن لا شيء آخر.

- هل ستعود إلى البرلمان؟

- إنها تريد ذلك.

لم أشك في هذا، زمرد لا يمكن إرهابها بسهولة، وددت أن أضحى مثلها عازمة وشجاعة.

يجب أن أكون كذلك، فكرتُ.. كنت شجاعة جدًا وأنا باشابوش، أتجول في الأنحاء مع الصبيان، لا أخاف شيئًا، لو كانوا قد تحدّوني لمصارعة رجل كبير وطرحه أرضًا لكنت قد فعلت، كنت أظن أن بإمكاني فعل أي شيء.

والآن أرتعد أمام زوجي، أمام حماتي. لقد تغيرت، فقدت شجاعتي، أشعر بثوبي زيًا تنكريًا، يخفي الصبي الشجاع العنيد الذي كان يجب أن أكونه، أشعر بالسخف، بأنني شخص يتظاهر، كنت أحتقر ما أنا عليه.

قرأتْ خالة شايما أفكاري.

- إنها تخاطر وقد تكون مجنونة تمامًا أيضًا لكنها تفعل ما تريد، وأنا واثقة بأنها لن تندم على هذا، أراهن أنها ستظل تفعل ما تفعله، هذا ما يفعله المرء أحيانًا لينال ما يريده أو ليكون ما يريده.

لم تكن خالة شايما مثل أي شخص آخر، كان الجميع يظن زمرد غبية لقولها ما قالته وبلهاء حتى لتعمدها إزعاج الرجال.

بحرص وهدوء.. أخبرتُ خالة شايما عن رغبة عبد الخالق في اتخاذ زوجة أخرى وما قالتاه بدرية وبيبي كلالي عني.

لم تعلق خالة شايما بشيء لكنني أدركت أن الخبر أربكها، بدت قلقة.

- هل قالتا متى؟

هززت رأسي.

- ربي العزيز، يا رحيمة، هذا ليس جيدًا.

زادت كلماتها من قلقي.

- علينا أن نفكر في شيء، لكن احتفظي بهذا لنفسك الآن، تذكري، في الجدران فئران وللفئران آذان.

اومـأتُ براسـي، أحـبس دمـوعي، كنت آمل أن تقـول خـالة شايما شيئًا ما آخر، إنها إشـاعة سخيفـة. أنني في مأمن هنا في بيت عبد الخالق.

- دائمًا ما لا يسير الأمر كما يظن المرء، أراهن أنك تساءلتِ ماذا حدث لبيبي شكيبه، هل أواصل من حيث توقفت؟

استـمـعت بنصف انتبـاه لقـصــة جـدة جـدتي، كـان ذهني مشغولاً.

عليَّ التفكيـر في شيء مـا بالفـعل، ويجب أن أسـتطيع، أليس كـذلك؟ لماذا أرتـدي ثوبًا الآن؟ لماذا لم يعـد بإمكاني لف صـدري لأسطحه؟ أردت أن أعود فـأكون الشخص نفسـه الذي كنته، زمرد لا تسـمـح لشيء أن يقف في طريقـهـا، ارتدت ثوبًا وتزوجت وخاضت حملة انتخابية لتحظى بمقعد في الجرجا، مقعد شغلته كنائبة حقيقية.

لم يثقل الثوب عاتقها كما فعل بي، لا أرتاح فيه، أفكر دائمًا كم سـيكون مـريحًـا أن أغلق أزرار قـمـيـصـي وأنطلق إلى الشـارع فحسب، أن أرتدي مـلابسي القـديمة فحسب.. مـدى شجـاعتي حينها، قد لا توافقني زمرد على هذا، لكن الملابس تعني لي شيئًا مختلفًا لأنني عشت فيها.

الثوب، الزوج، الحماة. تمنيت أن ألقي بكلِ هذا جانبًا.

الفصل 46
شكيب

حين كانت شكيبه صغيرة سمعتْ عن امرأة في قرية مجاورة حُكم عليها بالرجم، كان ذلك حديث قريتهم والقرى المجاورة.

دُفِنت المرأة حية حتى كتفيها، محاطة بزحام المتفرجين. حين حان الوقت، ألقى أبوها بالحجر الأول، أصاب صدغها مباشرة، ثم استمر رجمها حتى لقت حتفها.

استمعت شكيبه لزوجة عمها تحكي تلك القصة، انشدَهَ فمها رعبًا من تلك العقوبة وانزلقت حبات الأرز الذي كانت تنقّيه من بين أصابعها المغبرة خارج الطبق، تجمعتْ كومة من حبوب الأرز على الأرض.

سألتْ شكيبه: ماذا فعلَتْ؟

استدارت زوجات أعمامها وتوقفن عن الحديث مندهشات، كنّ كثيرًا ما ينسين وجودها.

ضاقتْ عينا بوبو شاهكل حين رأت الأرز على الأرض، قالت بحدة: دمّرت حياة أبيها ولم تجلب لعائلتها سوى العار! ابنة عاقة أخرى! انتبهي لما تفعلينه أيتها الحمقاء المأفونة!

نظرتْ شكيبه لأسفل لترى الفوضى التي صنعتها، أغلقت فمها وعادت تنقّي الأرز، نقرت بوبو شاهكل بعصاتها تحذيرًا.

سنكسار؟ سرت رعشة باردة في عروق شكيب وهي تنظر إلى بنفشه وتتخيلها نصف مدفونة، والحجارة ترتطم برأسها.

لم توجه لها أسئلة أخرى، ساد الغرفة صمت تام لم يكسره سوى قرقرة أمعائهما الخاوية.

مر يومان من دون طعام ولا ماء، لم ينفتح الباب ولو مرة واحدة رغم رؤية شكيب أشخاصًا يسيرون خلفه، يتوقفون ويستمعون قبل أن يعودوا من حيث جاؤوا، من الشق أسفل الباب ميزت شكيب نعال أحذية الجنود وعرفت أنهما تحت حراستهم.

في اليوم الثالث، انفتح الباب. نظر ضابط جيش إليهما من اعلى، متكورتين على الأرض. استجمعتْ شكيب قوتها لتنهض، لكن بنفشه بالكاد تحركت.

- أيتها الحارسة، خانم بنفشه.

نفضتْ شكيب الغبار عن بنطالها وفردت ظهرها.

- إن جرمكما في حق ملكنا العزيز فادح وشائن، لقد حُكِم عليكما أنتما الاثنتان بالرجم ظهيرة الغد.

شهقتْ شكيب، اتسعت عيناها لا تصدق ما تسمعه.

- لكن سيدي، أنا...

- لم أطلب منكِ التحدث، لقد أخطأتِ بما يكفي، أليس كذلك؟

استدار بحدة وصفق الباب يغلقه خلفه، سمعته شكيب يأمر جنديًا بإغلاق القفل، صوت صلصلة السلسلة وانزلاق المفتاح، قبل أن يترك المرأتين مع قدرهما.

صدر عن بنفشه أنين صفير ما إن أُغلِق الباب، كانت تعرف، همستْ شكيب، صوتها مختنق، لا تصدق: سيقتلاننا! حتى أنا؟ أنا لم أفعل شيئًا!

توسَّدت بنفشه ذراعها، تحملق في الحائط أمامها، كانت

تعرف جيدًا ماذا سيفعلون بها، لماذا جلبته لنفسها؟

- هذا خطؤك! سيرجمونني بسببك!

جلستْ شكيب على ركبتيها بجوار بنفشه وأمسكت بكتفيها بقوة.

- بسببك!

اهتزت بنفشه بين يديها بلا مقاومة. قالتْ بهدوء، صوتها باك ومستسلم: يشهد الله، أنا آسفة لأنك هنا.

تراجعت شكيب وحدقت فيها.

- لماذا؟ كنت تعرفين ماذا سيفعلون بكِ، لماذا فعلتِ هذا؟ كيف جرُؤت على فعل هذا في قصر الملك؟

قالتْ مرة أخرى: لن تفهمي.

- لا، أنا لا أفهم كيف تفعلين شيئًا غبيًا هكذا!!

همستْ بنفشه: لن تفهمي ما دُمتِ لم تعرفي الحب.

أغمضتْ عينيها ورددت أبيات شعر لم تسمعها شكيب من قبل، عبارات حفظتها لأنها ظلت تتردد في ذهنها حتى بعد أن توقفت بنفشه عن الكلام، وعنت لها أشياء مختلفة في أوقات مختلفة.

قبلة نريدها مقابل حياتنا كلها

لمسة الروح للجسد

يتوسل البحر إلى اللؤلؤة لتتحرر من محارتها.

والزنبق، لينمو في البرية

عزيزي

أفتح نافذتي ليلاً وأسأل القمر أن يأتي

أضغط وجهي في وجهه، أدعه يتنفس فيّ.

مزقت الأشعار الكئيبة نياط قلبها، لم تكن تعرف شيئًا عن هذا النوع من الحب، أو شيئًا عن اللؤلؤ والقواقع كذلك ما عدا أن على أحدهم أن يتحرر من الآخر، هدأتا على نحو غير متوقع لمن في موقفهما، بنفشه لأنها عاشت حبها، وشكيب لأنها لم تعرفه قط.

مرت الساعات ببطء.

تحول النهار إلى ليل ثم عاد نهارًا ثانية، صباح أخير.

لعله قدري، لعلني سأعود إلى أسرتي أخيرًا لأرتاح من هذه الحياة المقيتة، وبما ليس لي شيء في هذا العالم.

تنقلت شكيب بعنف بين الغضب والذعر والاستسلام في تلك الساعات، تهمس لها بنفشه باعتذار من حين لآخر لكنها أغلب الوقت تدعو الله، تحمل رأسها بين يديها تائبة تردد لا إله إلا الله.

الله أكبر، تهمس بإيقاع. الله أكبر.

سمعتا حديثًا خلف الباب، لم تستطع شكيب تمييز ما يُقال لكنها سمعت كلمات قليلة متفرقة.

عاهرتان.. الرجم.. تستحقانه..

عاهرتان؟ أدركتْ شكيب أنها امرأة مرة أخرى، مذنبة مثل المرأة الأخرى المتكورة على مقربة أقدام قليلة منها.

ظلت دائمًا فتى وفتاة، ستُعدم كفتاة، فتاة فشلت في أن تكون فتى.

الرجم.. اليوم.. توقف..

توقف؟ ما الذي توقف؟

أصخت شكيب السمع.

الملك. العفو. هدية.

حين سمعتْ كلمة «هدية»، أدركتْ أن شيئًا سيحدث لها، ركّزت لتسمع بوضوح لكنها لم تميز شيئًا آخر.

انفتح الباب، ظهر الضابط نفسه، وجهه عابس.

- خانم بنفشه، استعدي.

قال وهو ينظر إلى شكيبه باشمئزاز: أنتِ، ستحضرين الرجم ثم ستُعاقبين على جرمك، بعد ذلك سيتم تزويجك، عليكِ أن تشكري الله لحصولك على عفو لا تستحقينه.

أظلمت الغرفة ثانية وعادت السلسلة والقفل إلى موضعهما، تسارعت دقات قلب شكيبه.

لن يرجموني! سيزوجونني؟ كيف حدث هذا؟

نظرتْ إليها بنفشه، رسمت زاويتا فمها ابتسامة واهنة.

«الله أكبر»، همستْ، أجيبتْ دعوة التائبة.

ارتعشتْ يدا شكيبه. أكان أمان الله؟ لا بد أنه تدخل! لكن لماذا سيريدها الآن بعد أن اتهموها بالخيانة؟ الآن وقد صارت لا تستحق أن تكون زوجته؟

كان الجميع يتحدثون عن نبل أمان الله، ربما رأى ما وراء الاتهامات، ربما في لقاءاتهما السريعة رأى فيها شيئًا ما، شيء ما عرف منه أنها أكثر من كونها امرأة/رجل، أكثر من كونها حارسة حريم، ألم يكن هذا ما قاله لصاحبه، أغا بران؟

سالتِ الدموع على خدي شكيبه، كل ما عليها الآن أن تنتظر، مرت الساعات مؤلمة، صار البقاء مع بنفشه في غرفة واحدة مؤلمًا، نظرت شكيبه إلى عينيها المزججتين وحزنها الطاغي، زحفتْ إليها وتكوّرت بجوارها. قالت بهمس: خانم بنفشه، أنا أدعو الله لكِ.

ركزت عينا بنفشه على شكيبه، بدتا مجوفتين لكنهما ممتنتان.

- أنا لا أفهم لماذا... لكنني أريد...

قالتْ بنفشه بهدوء: أنا راضية بقدري، هذا فعلي أنا.

حين جاؤوا لأخذ بنفشه كانت شكيبه تُمسك بيدها، جرها جنديان على قدميها وأمسك اثنان آخران بكتفي شكيبه، أبعدت شكيبه أصابعها حين قيدا معصمي بنفشه معًا وألبساها شادورًا أزرق، نظرت إليها بنفشه وبدأت تنوح نواحًا طويلاً بطيئًا أخذ يعلو وهما يقودانها في الأروقة.

انفجر أحد الجنديين: أغلقي فمك أيتها العاهرة!

ثم لطم وجه بنفشه بظهر يده بعد أن تأكد أنّ لا أحد يراقب، ما زالت محظية الملك مع أنها على وشك إعدامها.

ارتدّ رأس بنفشه للأمام، بدأت تصيح بصوت عالٍ: *الله أكبر. الله أكبر. الله أكـ...*

هزاها بعنف من كتفيها وحذراها مرة أخرى، واصلتْ تكبيراتها.

عبروا القصر، خرجوا من الباب الخلفي إلى الفناء حيث أعمت شمس الظهيرة المرأتين تقريبًا، نظرت شكيبه إلى الحريم ورأت النساء يقفن صفًا في الخارج، يغطين وجوههن بالطرح، حليمة كرسم ظلي، كتفاها تهتزان وهي تجهش بالبكاء، سكينة بينهن تمسك بذراع نبيلة.

هذه فعلتك، فكرت شكيبه ساخطة.

غفور، كريم، قاسم وطارق يقفن أمام النساء، يراقبن بكآبة المرأة التي تسير إلى حتفها، حتى من هذه المسافة، رأت شكيبه

طارق ترتجف، أبقت غفور نظرها بعيدًا، همستْ بشيء ما لكريم وهي تعاود النظر إلى المحظيات.

جبانة، لا يمكنك النظر إليَّ حتى.

- *الله أكبر. الله أكبر...*

وقف الجنود في كل مكان، كانت أراضي القصر هادئة، صمت غريب مع وجود كل هؤلاء، ترددت أصداء تكبيرات بنفشه في الحدائق، يجرّونها، أصابع قدميها تلامس الأرض.

وقفت نساء الحريم بعيدًا، سمعتْ شكيبه إحداهن تبكي، حاولت أخرى إسكاتها لكن البكاء استمر، ظنت شكيبه أنها نبيلة، هدر صوت: لا بكاء على من جلبوا لأنفسهم اللعنة!

التفتت شكيبه لترى مصدره، يقف أمامهم جنرال، من هذه المسافة لا يمكنها تحديد إن كان واحدًا ممن جاؤوا إلى زنزانتهما المرتجلة أم لا، يقف إلى جانبيه ستة جنود بظهور مستقيمة كقضبان حديدية.

كانت قد عبرتْ أراضي القصر مئات المرات لكنها لم ترها شاسعة بهذا الشكل من قبل. كانت تمتد أمامها بلا نهاية.

- *الله أكبر. الله أكبر. الله...*

أخذت تكبّر هي الأخرى، صوتها مسموع بالكاد، كان ريقها جافًا للغاية ويحرقها حين تتحدث.

فيما تقتربان منه، أومأ الجنرال برأسه للجنود فعبروا النوافير، نحو الطرف القصي من القصر، ساروا برصانة حتى وصلوا إلى فسحة حيثِ يقف فيها مجموعة من الجنود مستعدين في شبه دائرة، هوى قلب شكيبه، أمام الجنود كومتان منفصلتان من الحجارة، أغلبها بحجم قبضة اليد، تصل الكومتان إلى ارتفاع رُكب الجنود.

علت تكبيرات شكيبه، انسجمت مع تكبيرات بنفشه، تذوقت دموعها، ساروا إلى حافة القصر، سور عالٍ يخفي القصر عن الأنظار، خرج الملك حبيب الله من القصر ووقف إلى جانب الجنرال المسؤول عن تنفيذ حكم الإعدام، تبادل الرجلان همسات، أعينهما ثابتة على بنفشه.

أومأ الجنرال لشيء ما قاله الملك واقترب من المحكوم عليها التي وضعوها في منتصف شبه الدائرة، في هذا الركن من القصر توجد حفرة عميقة خلف صف من أشجار الفاكهة، مكان لم تذهب إليه من قبل، حدق الجنرال في بنفشه وهو يقف على مبعدة حوالي خمسة عشر قدمًا منها، سمعته شكيبه يقول.

- أخبريني خانم بنفشه، هل أنت مستعدة للبوح باسم الرجل الذي رحّبتِ به في مخدعك؟

نظرتْ بنفشه لأعلى وواجهتْ نظرته.

- *الله أكبر.*

- قد تنالين عفوًا إن أخبرتنا بمن هو على الأقل.

- *الله أكبر.*

تأفف الجنرال وعاود النظر إلى الملك، يهز رأسه، أومأ الملك، وجهه مزيج فائر من الغضب والإحباط.

- جيد جدًا! خانم بنفشه، لقد نظر في جرمك علماء الدين وطبقًا لقوانين بلدنا، حُكِم عليك بالرجم لجرمك المشين.

نظر إلى الحارسين وأشار إلى الحفرة، أطلقتْ بنفشه عويلاً وهم يحملونها من إبطيها ويرقدونها في الحفرة، تركل بقدميها، يتلوى شادورها الأزرق كسمكة ذهبية رفعها أحدهم من بركة القصر.

تقدّمت شكيبه خطوة نحوها فشعرت بيدين تقبضان على ذراعيها، نظرت بعيدًا إلى الملك حبيب الله، كان عاقدًا ذراعيه، إصبعه على فمه وهو يهمس بشيء ما، حين سمع صوت بنفشه هزّ رأسه ونظر لأسفل وسار بعيدًا، لن يبقى لمشاهدة تنفيذ الحكم.

أهال الجنود التراب في الحفرة حول بنفشه ليَدفنوها حتى صدرها، ظلت تتلوى وتلتفت لكنها كانت ترقد عميقًا في الأرض وذراعاها مضمومتان إلى جنبيها بلا فائدة، فيما يُهال التراب حولها، كانت حركتها تقل وصوتها يعلو، أغمضت شكيبه عينيها وسمعت العويل.

- *الله أكبر. الله أكبر. الله...*

فجأة دوّت صيحة حادة، فتحت شكيبه عينيها مذهولة، تشكل خط رفيع من الظلمة عند فتحة العينين في شادورها، ثلاث حجارة بالقرب منها.

لقد بدأ الأمر.

مال الجنود، التقطوا الحجارة من الأكوام أمامهم ورددوا شيئًا ما قبل رميها نحو بنفشه، القامة الزرقاء نصف المدفونة.

ليرحمك الله خانم بنفشه!

ارتجف جسدها مع كل حجر يضربها.. تناوب الجنود الأدوار.. يلتقطون.. يرمون.. ويعودون إلى خلفية شبه الدائرة.. مرت عشر دقائق.. مئات الأحجار.. وهن صوتها، سقطت إلى الأمام.. دزينة من البقع في شادورها، دوائر قاتمة تتسع نحو بعضها البعض، صار التراب حولها قاتمًا أيضًا، امتصت التربة الدم. مزق حجران القماش الأزرق، ظهر الجلد المجروح من الفتحتين.

استدارت شكيبه، لا يمكنها تحمل المزيد. رأت صف الشادورهات الزرقاء خلف صف من الجنود المراقبين، كانت بنفشه عبرة لنحو دزينة منهن ممن أُحضِرن ليشاهدن، مذعورات مثلهن مثل شكيبه، كانت العباءات الزرقاء قد استدارت جانبًا.

حجر تلو الآخر، صرخة تلو الأخرى حتى صمتت بنفشه وهمدت، رفع الجنرال يده، تم تنفيذ الحكم.

الفصل 47
شكيبه

بينما كانت شكيبه تتلقى عقوبتها، كان جسد بنفشه الخامد يومض في ذهنها مرارًا وتكرارًا. كان قد حُكِم عليها بالجَلد مئة جلدة، نفّذ أحد الجنود الحكم بدقة، الجنرال يقف يراقبه، أركعوها ووقفوا خلفها، معصماها مقيدان مثلما كانت بنفشه.

كان وجهها يتلوى ألمًا مع كل جلدة، لكنها لم تصدر صوتًا.

ظهرها يحترق، ساخن ومبلل، كان الجندي يدسُّ كتابًا تحت ذراعه، كما ينصُّ القانون، لتقليل قوة الضرب، عدوا الجلدات بصوت عالٍ وحين وصلوا للجلدة المئة، فكوا قيود معصميها وانهارت على جانبها من التعب، لم يقل الرجال شيئًا وغادروا الغرفة.

شرد ذهنها بعيدًا، شعرت بماء على شفتيها، أيادٍ تدهن زيتًا على ظهرها، كان قد مر يوم تقريبًا قبل أن تدرك شكيبه أن دكتورة بيهروين كانت تعتني بجراحها، طرقعتِ السيدة الإنجليزية بلسانها وهزت رأسها، مثلما يفعل الأفغان تقريبًا، تتمتم بشيء لم تفهمه شكيبه.

أغمضت شكيبه عينيها أمام الذعر لكنه ما زال هناك، الصور منقوشة على جفنيها من الداخل، فتحت عينيها مجددًا ونظرت إلى دكتورة بيهروين، كانت تعصر قطعة قماش مبللة، فحصت شكيبه بحرص، سألت: دارد؟

لكنتها البريطانية تلفظ الحروف بغلظة بحيث لم تدرك شكيبه ما قالته، كررت الطبيبة ما قالته مرتين أخريين لتفهم شكيبه أنها تسألها عن الألم.

هزت شكيبه رأسها، رفعت دكتورة بيهروين حاجبيها وعادت تنظر إلى دلو الماء.

نظرتْ شكيبه إلى الأسفل، كانت ترتدي بنطالاً خفيفًا يصل إلى كاحليها، طرحتها ملقاة على مقعد في ركن الغرفة، أدركت أنها في غرفة بنفشه في الحريم، كانت تسمع ثرثرة النساء عبر الجدران، تذكرتْ كيف توسلت إليهن بنفشه وركعت أمامهن، تطلب العفو والرحمة من مجموعة لم يفكرن سوى في النجاة بجلودهن.

انفتح الباب ونظرت حليمة من الخارج. سألتْ بهدوء، تنظر إلى دكتورة بيهروين: هل يمكنني الدخول؟

لا بد أن دكتورة بيهروين فهمتها، إذ أومأت وأشارت لها بالدخول.

- كيف حالك؟

- أفضل.

شعرت بحلقها كحقيبة رمال.

- يسعدني هذا...

جلست على ركبتيها إلى جانب شكيبه.

- كانت الأمور سيئة خلال الأيام القليلة الماضية، لم نمر بمثل هذا من قبل قط.

لم تجبها شكيبه بشيء، تنهدت حليمة بعمق ونظرت خطفًا إلى دكتورة بيهروين بعينين دامعتين.

- إن طارق في الخارج، تريد أن تراك لكنها مرتبكة للغاية
هل لها أن تدخل لدقائق قليلة فقط؟

أومأتْ شكيبه، تذكرتْ رؤيتها طارق حين أشاحت ببصرها
عن رجم بنفشه، كانت عيناها وفمها متسعين رعبًا، بركة صغيرة
من القيء عند قدميها.

وضعتْ حليمة يدها برقة على جبين شكيبه قبل أن تنهض
وتسير إلى الخارج بهدوء، تمنت شكيبه أن تعود، أن تمسد
شعرها وتمسك بيدها كما قد تفعل الأم، لكن بدلاً من ذلك
اندفعت طارق إلى الداخل وهوت إلى جانب شكيبه، رعشة يدها
ترعش صوتها معها.

- آه، ليرحمك الله! هل أنتِ بخير؟ هل جُرحت بشدة؟ ماذا
فعلوا بكِ؟

- عاقبوني.

- كيف؟

- مئة جلدة.

مسحتْ طارق جسد شكيبه بعينيها، حاجباها منعقدان
بقلق.

- هذا فظيع! فظيع للغاية! شكيب! هل قالوا لماذا يعاقبونك؟

- لأنني لم أقم بعملي كحارسة.

- آه، ليغفر لنا الله! كنا جميعًا مذنبات مثلك!

همست، كأنها تخشى أن يسمعها القصر.

- لكنني أنا فقط من كنتِ في نوبة الحراسة تلك الليلة،
أكدَت لهم غفور ذلك.

- إنها ... لم أتخيل قط أنها قد تفعل هذا ... أقصد، أعرف أنها

في نفسها فقط لكنني لم أتوقع منها أن تفعل شيئًا كهذا...
- هذا ما يفعله الناس، إنها لا تختلف عن أي شخص آخر.
خطر لشكيبه فجأة أن بنفشه كانت مختلفة، كان الجنرال
عرض عليها العفو مقابل بوحها باسم عشيقها، لا بد أنها
انت تعرف أنه يكذب، حتى إمكانية العفو لم تزعزع عزمها، لم
كر اسم الرجل قط، لماذا فعلت هذا؟ لماذا حمت أغا بران؟
- لقد قالت إنهم يريدون التحدث معكِ فقط، قالت إنها لم
تعرف أنهم سيعاقبونك.
تذكرتْ شكيبه كيف تجنبت غفور النظر إليها تلك الليلة
ويوم الرجم.
- بماذا أخبروكِ؟ لقد جلبت بنفشه العار على القصر لكنني
لم أفكر قط... أنا فقط لا أصدق أن هذا حدث لها! ظننت أن
الأمر مختلف هنا في كابول، في قصر الملك!
- لا رجل يتسامح مع مثل هذا الجرم. كان الملك سيشعر
بالعار لو كانت العقوبة أقل من تلك.
- وماذا سيحدث لنا نحن الحارسات؟
- لا أعرف.
- ماذا عنكِ؟ هل سيعيدونكِ إلى عائلتك؟
تذكرتْ شكيبه أنهم لم يرجموها لسبب، سيزوجونها! تخيلت
وجه أمان الله. هل يمكن أن يحدث هذا؟ هل أنقذها من الإعدام
لتظل على قيد الحياة كزوجته؟ أو كمحظية ربما؟ حتى وهي
متكورة على الأرض بظهرها الملتهب مدهونًا بالزيوت، كانت تتوق
للوجود في بيت جديد، في بيتها، مع طفل. أرادتْ أن تشعر
براحتين ضئيلتين على وجهها بحب صاف.

- لا، لا أعرف إلى أين سيرسلون بي.

قررتْ ألا تقول شيئًا عن الزواج حتى تعرف المزيد، لم تر...
في وصول الخبر إلى غفور، حتى لا تجد طريقة لإفساد الأمر

- آه، يا لها من فوضى فظيعة! أنا آسفة، شكيب، أنا آسفة
جدًا أنك تحملت هذا الخطأ، الحريم كله مرعوب، إنهن قلقات
من معاقبة أخريات، لمجرد العبرة أو ربما يظنون أن أخريات
مشتركات...

قررتْ شكيبه أن طارق ترهقها، فطلبت منها المغادرة ليمكنها
إغماض عينيها، بدت طارق محبطة لكنها أومأت برأسها
وخرجت، يبدو زيها ضخمًا وغريبًا، صارت رجلاً صغيرًا الآن
أكثر مما كانت في أي وقت مضى.

كانت على وشك السقوط في النوم حين اندفعت طارق إلى
الغرفة مرة أخرى. قالت بسرور: شكيب!

- أرجوكِ طارق، أريد فقط أن أنام لـ...

- أعرف، أنا آسفة لكن القصر أرسل برسول. طلبوا مني أن
أخبرك... أن أخبرك بالاستعداد خلال يومين.

رفعت شكيبه بصرها.

احمرّ وجه طارق بابتسامة عصبية.

- يقولون إنك ستتزوجين!

الفصل 48
رحيمة

كانت عطلة العيد، مرت خمسة أسابيع منذ الهجوم على
مرد، تلقت بدرية عدة خطابات من مكتب الإدارة العامة، إن لم
عد إلى واجباتها على الفور، سيجردونها من منصبها، قرر عبد
الخالق أخيرًا، سوف نعود إلى كابول بعد عطلة العيد.

أخبرتني جميلة عن الأمر كله.

- لقد اتفق مع شركة أجنبية، أتعرفين هؤلاء الأجانب الذين
مابلهم دائمًا، سيدفعون له مقابل توفير الأمن، لكن الأمر يتوقف
لى تصويت البرلمان ما إن كانت الشركة ستبني خط أنابيب في
إقليمنا أم لا، إن لم يُسمَح لها بالبناء، لن يكونوا في حاجة إلى
خدماته.

- لذلك وضع بدرية في البرلمان؟ ليجعلها تصوت لخط
الأنابيب؟

- نعم، ولتصوت لكل الأشخاص المناسبين في المناصب
الأخرى، والذين سيمنحونه ما يريد.

صار تصويت بدرية أكثر منطقية الآن، لا بد أن عبد الخالق
قد أخبرها أن تراقب إشارات صديقه، كانت تريدنا أن نعتقد
أنها مهمة بالفعل لكنها كانت مجرد دمية، ليست مثل صفية
وحميدة في شيء، لا عجب أنها ترتبك أمامهما.

كنت سعيدة لأننا سنعود، مع أنني كنت أعرف أنه سيكون

من الأصعب عليَّ أن أترك جنهجر، أعرف أنني سأفتقده كثيرا
هذه المرة، لكنني لم أجرؤ على اقتراح أن آخذه معي مجددًا.

ذهبنا -نحن الزوجات الأربع- إلى بيت بيبي كلالي المجاور
لنزورها في أول أيام العيد، بعد ذلك، عدنا إلى البيت وبدأنا
الاستعداد. لثلاثة أيام، ظل البيت يستقبل زائرًا تلو الآخر
قضيتُ ثلاثة أيام في المطبخ مع الموقد والطباخة، أجفف
الصحون، أملؤها بالمكسرات والزبيب وأصب أكواب الشاي، لم
يَدعُني أحد للجلوس مع أي من الضيوف كما دُعيتا بدريه
وجميلة، حتى شاهيناز كانت تخرج من حين لآخر وتثرثر مع
النساء اللاتي يأتين للزيارة.

وإن كان زوجي سيتزوج مرة أخرى، فلا داعي لأتوقع أن
تتحسن أحوالي، كنت أعرف أن عائلتي لن تقبل بعودتي، كانت
مسألة كرامة، لن يتسامح أعماميْ مع زوجة رفضها زوجها أبدًا.
امرأة مشينة، عادت إلى كنفهم.

كان من المحتمل أن يظل محتفظًا بكل زوجاته، لكن لم يكن
من مساحة في البيت لهذا، كنا جميعًا قلقين من تلك
الاحتمالات، وكانت بيبي كلالي وعبد الخالق كتومين للغاية بشأن
هذا الأمر.

- رحيمة! رحيمة جان، تعالي إلى هنا! انظري من جاء
ليراكِ!

جففتُ يدي بتنورتي وهرولت إلى غرفة الجلوس، آمل أن
أرى خالة شايما، سقط فكي لرؤيتي أختي الكبرى شهلا تقف
أمامي، يمسك بيدها ولد صغير، وتحمل رضيعًا آخر لا يزيد عن
أربعة أشهر.

ابتسمتْ شهلا بسرور لرؤيتي بينما وقفتُ أحدق فيها فقط،
..من وجهها وخصرها، تجاوزت سن المراهقة، بدت مبتهجة.
- رحيمة! أختي الغالية!
تركتْ يد ابنها وتقدمتْ خطوة نحوي، لم أصدق أنني أراها
،مد كل هذا الوقت، شعرتُ براحة شديدة وذراعاها تعتصرانني،
وبداها تلمس وجهي.
شعرتُ بدموعها على خدّيّ، تمتزج بدموعي، همستْ: إنه
امر رائع أن أراكِ، أخيرًا! سامحيني رحيمة، لأنني لم أكن معكِ
حين... حين حدث كل شيء.
كنتُ قد افتقدتها كثيرًا، لكنني افتقدتُها أكثر من أي وقت
اخر حين انتحرت بارفن، رؤيتها تتكأ ذاك الجرح، قالت وهي
،شير إلى الرضيعة على ذراعها: أردتُ أن أكون هنا، أردتُ أن
اتي، لكنني كنت قد ولدت هذه الصغيرة...
لمستُ وجه الفتاة الصغيرة، بشرتها ناعمة وملماء كبشرة
شهلا.
- أعرف، شهلا، كنت أتمنى أن تأتي أيضًا، كان الأمر... كان
الأمر مريعًا!
- ليغفر لها الله، أنا واثقة من هذا، بارفن المسكينة! لا
يمكنني تخيل ما مرت به!
وقفت بيبي كلالي في ركن الغرفة، تنظر إلينا باستياء وتبدو
منزعجة. نظرتُ حولي ورأيت ضيفات أخريات لم أحييهن.
تبادلتُ قبلات سريعة مع حماة شهلا ونسيباتها. جلستْ شهلا
على إحدى الوسادات، ابنها الصغير إلى جانبها وابنتها في
حجرها، جلستُ بجانبها، تلاحقني بيبي كلالي بنظراتها.

- آه، شهلا، انظري إلى طفليك، إنهما جميلان! أنا لديّ.
زعقتْ بيبي كلالي: رحيمة! ألا تظنين أنه من الأدب أن تقدمي للضيوف بعض الشاي قبل أن تبدئي بصبِّ ثرثرتك عليهن؟
احمرَّ وجهي خجلاً وغضبًا. لقد مرت على الأقل خمسة أعياد وكانت تلك أول مرة تستطيع فيها أختي زيارتي هنا، ام أكن قد رأيتها منذ زفافنا البائس، رأيتُ الدهشة على وجه شهلا حين رأتْ كيف تتحدث بيبي كلالي معي، تدخلتْ جميلة.
- سأتولى أنا هذا الأمر خالة جان، إن أخت رحمية العزيزة هنا وسيكون من الأفضل أن ندع الفتاتين تقضيان وقتًا معًا.
أحببتُ جميلة لتفهُّمها، نهضتْ وأحضرتْ أكواب الشاي ومررتْ طبق المكسرات والقراصية، كانت النساء يثرثرن بهدوء، وشهلا تمسك بيدي، عبس ابنها شعيب بخجل، فيما رفعت ابنتها الصغيرة ذراعيها لأعلى في هذا الاتجاه وذاك وعيناها مثبتتان على وجه أمها.
- شعيب، هل قلت سلام لخالتك جان؟
قال سريعًا ثم توارى خلف كتف أمه: سلام.
قالت شهلا مبتسمة: إنه خجول جدًا.
- أريدك أن تري ابني يا شهلا.
أسرعتُ إلى الرواق وناديتُ جهنجر، ظن النسوة في الغرفة أننا سخيفتان، الجميع لديهن أطفال، لم يفهمن لماذا نصنع هذه الضجة حول أطفالنا.
سمعتُ خطواته تأتي من غرفة جميلة، صار ابني يرتاح تمامًا في البقاء معها وأنا في كابول، حين لا يكون معي، كنت أعرف أين أجده تحديدًا.

- تعال باجم، تعال لترى خالتك جان.

أشرتُ إليه، أمسك يدي، يبدو فضوليًا، وتبعني إلى غرفة الجلوس.

- إنه رائع، *نام إي خودا* [ما شاء الله]!

قالت وهي تكرر اسم الله وتنفخ ثلاث مرات لإبعاد العين الحسود: وجهه كوجهك.

- أتظنين هذا حقًا؟

سررتُ لسماع هذا.

- بالطبع! وشعره كشعر مادر جان. انظري إلى تجعد الخصلات خلف رأسه.

جفلنا نحن الاثنتان لسيرة أمنا، حاولتُ أن أخفض صوتي: هل رأيتها؟

هزت شهلا رأسها، نظرتُ إلى قدميّ المغبرتين، كان هذا جرحًا غائرًا بالنسبة إلينا، ولم أرغب في إخبار أختي بكل ما سمعته عن تدهور حال مادر جان. بوجود كل هؤلاء النسوة، يبدو الأمر كخيانة. لكنني أردت البوح لها بمكنون قلبي، أردت أن اتحدث معها عن أختينا الصغيرتين اللتين تركتا للدفاع عن نفسيهما رغم وجود والديهما في البيت، أردتها أن تخبرني أنها ستتحدث مع مادر جان، حتى ولو لم تستطع خالة شايما، لكنني لم أقل شيئًا.

- وابنتك الصغيرة، إنها جميلة! ما اسمها؟

وضعتُ يدي أمام يدها، التفّت أصابعها الطويلة الرشيقة حول أصابعي وضغطتها.

أخفضتْ شهلا صوتها ونظرت لترى إن كانت إحداهن تسمعنا، وقالت بهدوء: سمَّيتها بارفن.

عـاودت النظر إلـى الرضـيـمـة ولاحظت عـينيّـهـا اللو...
وشفتيها الورديتين الممتلئتين، غص حلقي، ابتسمتْ شهلا بأسى
- بارفن؟
- نعم، أرادت حمـاتي أن تسـمـيـهـا ريمة في الحـقـيـقـة، لكن
سألتها إن كان بإمكاني تسميتها فوافقتْ.
حدقتُ في وجه ابنة أختي. كلما أطلت النظر رأيت شبهها
ببارفن، ثم فكرتُ في حماتي، وافقتْ على اسم جهنجر فقط لأن
زوجي وافق عليه، لا بد أنه أُعـجِب به كـثـيـرًا وإلا كـانت غـيـرته
بالتأكيد.
- لا أصدق أنها وافقت.
- أعـرف، كـان الأمـر صـعـبًـا لأنهـا خـافت أن يجلب الحظ
السيئ، أتعـرفين أن تسـمي طفلة على اسم عـرجاء، الحـمـد لله
أنني سمَّيتها قبل ما حدث... أعني إن كانت قد ولدت بعد ما
حـدث، لم أكن لأستطيع إقناع أحد، كـان الاسم سيـحـمل ظلالاً
كثيرة للغاية.
نظرتْ شهلا إلى وجه ابنتها بأسى.
- ثم بعد كل ما حدث، بدأ الجميع يدعونها ريمة، أنا نفسي
لم أسـتطع ترديد اسـمـهـا فـتـرة طويلة أيضًـا، لذلك فضلنا أن
نناديهـا ريمة. لكننا الآن، حين أكـون أنا وهي وحـدنا، أناديهـا
بارفن، يجعلني هذا أشعـر أفضل. مضحك، أليس كذلك؟ نحن
جميعًا نسمع الاسم نفسه، وفي حين يجدونه ظلامًا، أراه نورًا.
أعرفَ ما تعنيه تمامًا.
لو كان الضيوف أناسًا آخرين، لكنت قد عـدت إلى المطبخ
منذ وقت طويل. لكنها كانت أختي وقد أردت أن أقضي معها

اماول وقت ممكن، أعادتْ جميلة ملء أكواب الشاي، مرَّرَت طبقًا
.. الكعك وأدارت حديثًا صغيرًا، كانت تُبقي عينيها على بيبي
لالي وحين يبدو أنها تهم بقول شيء ما لي، كانت جميلة تسأل
..إلاَّ أو تقول شيئًا لتشتيتها، حين التقتْ أعيننا شكرتها بصمت،
ابتسمتْ، قلتُ مسرورة: شهلا... تبدين بحال رائعة!

وكنت أعني ما قلته، بدتْ أختي أكثر نضجًا لكنها فيما عدا
هذا لم تتغير، وبدتْ راضية، حتى أنني رأيتها تتواصل بالنظر مع
إحدى نسيباتها مرة أو اثنتين وتبتسم، بصدق كانت حماتها امرأة
تتحدث بهدوء، لا تشبه بيبي كلالي بمزاجها المتقد في شيء، لا
.. أنها في الستين من عمرها، تبدو خصلات شعرها الرمادي
.. تحت طرحتها، تستمع إلى جميلة تتحدث عن مرض أمنا
اهتمام صادق. همستُ حين انشغل من في الغرفة بمحادثات:

- نا يا شهلا، أكل شيء بخير؟ هل أنتِ سعيدة؟

- أفتقدك كثيرًا، رحيمة! أفتقد الجميع، أرجو أن أرى رحيلة وستارة، أريد أن أرى كم كبرتا، وماذا تفعلان، لكنني سعيدة.

ابتسمتُ، صدّقتها.

- ماذا عنكِ؟

شد جهنجر كُم شعيب، يدعوه ليلعب معه في الردهة، رفع شعيب كتفيه وتبعه.

- أنا؟

شعرتُ بنظرة بيبي كلالي تتصبّ على رأسي من الخلف، اومأتُ، كانت أختي تعرفني جيدًا، تجهّم وجهها. قالت بطريقة اخبرتني أنها تعني العكس: جيد، يسعدني سماع هذا.

- أنا أذهب إلى كابول الآن. هل سمعتِ بهذا؟
- سمعتُ شيئًا ما لكن...
أخبرتها عن مقعد بدرية في الجرجا وكيف أعمل مـ
مساعدة لها، أخبرتها كيف كانت كابول مختلفة، تمامًا كما
قصص الخالة شايما، كنت فخورة حين رأيت انبهارها.
فقط لو كان بإمكاني إيقاف الزمن، لكنت جلست بجـ
أختي، فيما يلعب طفلانا معًا، صورة مجسَّدة للبراءة، تذ
إحدانا أزر الأخرى في حدادنا على أختنا، وعلى من كانت
ذات مرة، وأختينا اللتين تركناهما وحدهما.
- ما زلتِ ترين خالة شايما، أليس كذلك؟
أومأت برأسي.
- إنها تزورني ما أمكنها، الأمر يزداد صعوبة عليها لكن
أفتقدها بشدة حين لا تأتي.
سألت شهلا: أما زالت تحكي لكِ قصص بيبي شكيبه؟
بدأت تتمايل حين لاحظتْ عينيّ ابنتها تغمضان، تمامًا مثلما
أفعل مع جهنجر، أمر مذهل كيف ترث الفتيات غريزة الأمومة
سريعًا.
- بلى، أحب هذه القصص جدًا، تجعلني أفكر في..
تجعلني أفكر في الأوقات الماضية.
تنهدتْ شهلا، كانت تفتقد تلك الأوقات كما أفتقدها.
- أعرف يا رحيمة جان، لكن الزمن يتغير، الطيور تحلق
بعيدًا، الواحد تلو الآخر.

الفصل 49
شكيبه

لم تعرف شكيبه أكثر من ذلك، سيتم النكاح خلال يومين، انتشر الخبر في الحريم الكئيب سريعًا، وجاءت عدة نساء معًا ليحضّرن العروس الجديدة.

- من الرجل؟ كم أنتِ محظوظة! لقد عفا عنكِ ملكنا العزيز ليزوجك! إنه شرف كبير!

كانت تلك أصوات الأقلية، سمعتِ الهمسات من حولها غاضبة وغير مصدقة. قالت بعضهن إنها كانت متواطئة مع بنفشه وأنه كان ينبغي رجمها معها.

أترين كيف ترتاح في غرفة بنفشه؟ كأنها كانت غرفتها طوال الوقت! أراهن أنها ساعدتها في إخفاء عشيقها، أنا متأكدة من هذا، سمعت خطواتها في منتصف الليل ذات مرة وعرفت، عرفت أن شيئًا ما يحدث!

لا بد أنهم سيزوجونها لرجل أعمى، من غيره يتحمل النظر إلى هذا الوجه!

سرعان ما انقلبن عليها! سرعان ما نسين كيف كانت تحمل أطفالهن، وتجلب الماء الساخن لتحميمهم، حتى إنها دلّكت ظهورهن حين طلبن منها ذلك. ظلت طوال ذاك الوقت شكيبه إي هليم بالنسبة إليهن، يغمزن لبعضهن البعض وهي تضع أمامهن أطباق الهليم الساخن للإفطار.

شكيبه إي هليم تضع طبقها الخاص!

ربما يجب عليها سكب طبق على النصف الآخر من وجهها.

أقسم أنه اللون المناسب لبشرتها اليوم! لا بد أن الطباخ عبقري!

لكن كان من بينهن القليل، حليمة وبنازير تحديدًا، تشفقان عليها وتعرفان أنها في حاجة إلى المساعدة لإعدادها للنكاح. سألت حليمة وهي تضع الزيت على شعر شكيبه القصير الملبد: من الرجل؟

- لا أعرف يا خانم حليمة، لم يقل لي أحد شيئًا.

خمّنت بنازير: ربما كان أحد خدم القصر، ربما ستعملين هناك الآن؟ هل ستحبين هذا؟

قالت، بصوت مكتوم: ظني هذا.

ليس هذا ما تريده بالمرة، لكنها لم تستطع إفشاء سرها لأحد، كان أمان الله من تتمناه، وليس خادمًا في القصر!

- حسنًا، من الغريب قليلاً أنهم لم يخبروك بشيء.

بدتْ حليمة متفائلة وإنما بتحفُّظ، كتب على شكيبه سوء الحظ في كل شيء بحيث صار من الصعب تخيل أن يجلب لها حتى الزواج أي سلام، قالت حليمة بهدوء: أتعرفين، تأتي أشياء كثيرة مع الزواج، لقد رأيتِ هذا الحريم وتعرفين ما يحدث بين الرجل والمرأة، سيتوقع منكِ زوجك القيام بواجباتك الزوجية، وعليكِ ألا تخيبي ظنه.

شعرتْ بمعدتها تهوي، لم تفكر كثيرًا فيما سيحدث بينها وبين زوجها، فكرت في الأنين والغمغمات التي تأتي من غرف الملك، فكرت فيما أخبرتها به محبوبة وشعرتْ بشيء ما بين فخذيها ينقبض بقلق. واصلتْ حليمة: الأمر مؤلم في المرة الأولى.

رددت بنازير: مؤلم جدًا!

- لكنه يزداد سهولة كل مرة بعد ذلك، وربما أنعم الله عليك بطفل.

ابتسمت بنازير ونظرت إلى ابنتها مزكان التي ترقد نائمة بالقرب منها.

- لقد قلت إن نساء عائلتك جميعهن يلدن صبيانًا، إن فعلت هذا، ستجعلين زوجك رجلاً سعيدًا. خاصة إن كان طفلك ابنه الأول.

سألت بنازير: أتظنين حقًا أنها ستكون زوجة أولى؟

قالت حليمة وهي تنظر إلى شكيبه وتفكر في الأيام القليلة الماضية في القصر: كل شيء ممكن.

في وقت لاحق من تلك الظهيرة، أثارت الأجواء في الحريم موجة أخبار أخرى. جاءت نبيلة تركض إلى غرفة المسبح. كانت شكيبه تسمعها من الباب.

- هل سمعتن الخبر؟ سوف يعقد خطبته! أميرنا العزيز أمان الله سيعقد خطبته! لقد اختار عروسه أخيرًا!

لم يربط أحد سواها القصتين معًا، لا أحد سوى شكيبه التي أغمضت عينيها ودعت الله بقلب يرتعش.

كما وعدوها، جاء جندي إلى الحريم بعدما أخبرتها طارق بيومين، كانت غفور تقف في الخارج ودخلتْ إلى الحريم لتنادي شكيبه، لم تكونا قد تحدثتا منذ تلك الليلة السوداء، نادتها بشكل غير رسمي: شكيبه! لقد أرسل القصر في طلبك.

كانت شكيبه قد قضت الليلة الماضية في غرفة بنفشه، تتساءل عن الغد، كان ظهرها ما زال ملتهبًا، فنامت على جانبها،

حملقت في الباب وتخيلت أغا بران يدخل ليأخذ محظية الله،
سرًا، لماذا لم تعلن بنفسه عن اسم حبيبها؟

وقفتْ ببطء وسوّت تنورتها، تحاول ألا توقظ طارق، تخبله
أمان الله في بذلته العسكرية، بنطاله الأنيق وقبعته تستقر على
رأسه، نظرتْ إلى ملابسها وشعرت بإحراج، أخذتْ طرحتها
وربطت طرفيها تحت ذقنها، استيقظتْ طارق، تمطّت ونهضت
تقف على قدميها، وضعت ذراعيها حول عنق شكيبه وعانقتها
بقوة، اندهشتْ شكيبه بشدة، كانت عينا طارق دامعتين.

- هل حان الوقت بالفعل؟ أتمنى لكِ كل الخير، أختي العزيزة!
ليبارك الله خطواتك القادمة ويمنحك طول العمر والسعادة، ولا
تنسي الدعاء لي أحيانًا أيضًا. تمني لي حظًا جيدًا!

- سأدعو أن تحظي بحظ أفضل.

والقصر في انتظارها، لم يكن من وقت لتجد حليمة أو
بنازير لتودّعهما. تجاوزتْ شكيبه غفور وهي تسير إلى الباب
الأمامي، بدتْ مرتبكة، عيناها تتحركان بين شكيبه والجندي
المنتظر في الخارج.

- كيف حالك، شكيبه جان؟ أرجو أن تكوني أفضل الآن،
سمعت أن عقوبتك كانت شديدة.

- لقد سُلِّمت لهم، كانت التهمة قد التصقت بي بالفعل، ماذا
كانوا سيفعلون غير هذا؟

- لا بد أنهم افترضوا...

تحدثتْ شكيبه ببرود: لقد افترضوا ما أُخبروا به.

- أنا لم... بغض النظر، مبروك.

- ولك أيضًا.

- لي أيضًا؟
- بالطبع. المرء لا ينجو من النيران كل يوم.
- انتظري لحظة! أنا لم...
شيء ما في شكيبه جعلها تستدير وتنظر إلى غفور في عينيها، كانت قد تعبت من إمساك لسانها، كانت شكيبه تحدق فيها مباشرة، عيناها تضيقهما الكراهية، قالت شكيبه بهدوء: يوجد شيء لا تعرفينه عني يا غفور، ألا تتساءلين لماذا تخلصت مني عائلتي؟ لقد تخلصوا مني لأنني أحمل لعنة، لعنة تجعل من حولي يُسرعون إلى قبورهم قبل أوانهم. والآن، تحت هذه السماء الصافية والشيطان شهيد علينا، أنا ألعنك لتعاني مئات أضعاف ما عانيت لقاء كل جلدة تحملتها. تذكري كلماتي، أيتها الأفعى ستنالين جزاءك.
تشنجت كتفا غفور بالغضب لكن وجهها شحب، انفتح فمها قليلاً لكنها لم تتفوه بشيء، استدارت شكيبه راضية عن نفسها وسارت نحو الجندي.
اقتيدت شكيبه إلى غرفة صغيرة في الجناح الشرقي للقصر، كان الرجلان اللذان استجوباها منذ أيام قليلة يجلسان، نظر الرجل القصير إلى الرجل الطويل، يتوقع منه بدء الحديث.
هل سيأتي أمان الله إلى هنا؟ هل سأقابله اليوم؟ هل نكاحنا اليوم حقًا؟
قالت بهدوء ورأسها مطرق: سلام.
كانت تعدل ملابسها وطرحتها، تريد أن يبدو كل شيء كما ينبغي، أشارا إليها أن تجلس على مقعد قبالتهما، يتحدث أحدهما فيما يومئ الآخر موافقة ويردد بعض كلماته.

- أنتِ فتاة محظوظة.
- محظوظة للغاية.
لم ترفع شكيبه بصرها.
- لقد تلقيت عفوًا لا تستحقينه، عليك أن تكوني ممتنه للغاية.
- ممتنة للغاية.
- لقد وافق أحدهم على أن يتخذك زوجة، لقب لا يتوقع أحد أن تناليه، لكنها فرصة لك للتوبة، لتعيشي حياة كريمة وتقومي بواجباتك كما ينص عليها القرآن الكريم، هل تظنين أن بإمكانك هذا؟
- لقد تربيت على حب القرآن الكريم، سيدي. ولا أريد شيئًا أكثر من أن أعيش حياة كريمة.
رفع حاجبه، ربما كان يتوقع ردًا وقحًا.
- جيد جدًا إذن، كما قد تتوقعين، إن ملكنا العزيز حبيب الله لا يريد أن تقع عينه عليك بعد المأساة التي وقعت في قصره، لكنه أصدر العفو عنك وقرر منحك لزوج.
تسارعت دقات قلبها؛ إذ لم يذكرا بعد اسم الرجل، انتظرت مع كل كلمة يرددها، متحفزة لسماع ذاك الاسم، ذاك الاسم الحلو، أمان الله!
- إن زوجك المستقبلي في الغرفة المجاورة مع الملا، يوقع عقد الزواج.
انفتحَ الباب وظهر رجل ثالث، أومأ للرجلين الموجودين اللذين التفتا إلى شكيبه.
- لقد وافق، بعد أن أكد على نواياه بوضوح ثلاث مرات،

حان دورك الآن، سنكون نحن وكيلاك، هل توافقين على الزواج من أغا بران؟

أومأت برأسها قبل أن تسمع الاسم، ظلت تومئ حتى بعد أن سمعت الاسم ولثوانٍ قليلة بعد ذلك، قبل أن يستوعب ذهنها الأمر.

- أغا برا...؟

- الإجابة بسيطة، نعم أو لا. هل توافقين على الزواج من أغا بران؟ وعليَّ أن أضيف أنك ستكونين حمقاء أكثر مما نعرفه عنكِ بالفعل إن فكرت في أي إجابة غير نعم.

لم تستطع النطق بشيء، كانا يحدقان إليها منتظرين إجابتها فيما يدور رأسها.

ماذا يحدث؟ لماذا يريدني أغا بران؟ أغا بران؟ حبيب بنفشه السري؟ هذا غير معقول بالمرة.

شعرتْ بوجهها يرتعش، قال الرجل بصوت أعلى نافد الصبر: نعم أم لا؟

- هل أنتِ غبية؟ فقط قولي نعم لنرسل الرد إلى الملا لإنهاء عقد النكاح! ربما علينا أن نرد نيابة عنها فقط، لستُ في حال تسمح لي بالانتظار.

- حسنًا، إنها توافق إذن، لم تقل لا، سأخبر الملا.

نهض الرجل القصير وخرج من الغرفة.

ماذا عن أمان الله؟ من سيتزوج إذن؟ كيف فكرت أن...؟

تذكرت المحادثة التي سمعتها في الحديقة، انقبض حلقها غضبًا، ربما كانت حمقاء بالفعل كما يقول الجميع.

أحضرتِ إليها ورقة، وأمسكت بالقلم الذي ناولوها إياه،

مغموس بالحبر بالفعل، وكتبت اسمها على السطر، كانت دائخة
لكنها واعية بما يكفي لتعرف أن ليس بإمكانها فعل شيء آخر،
لقد رأت كيف يتخلص القصر من الناس.

قادوها إلى الرواق حيث أخبروها أن عليها ارتداء الشادور.
فعلتْ كما قيل لها وظهر أغا بران من غرفة قريبة. نظر نحوها.
وجهه أكثر كآبة مما تتذكره، عيناه ثقيلتان قاتمتان وحزينتان.

أومأ إليها وسار في الرواق نحو الباب.. تبعته.. تسمع
تنهدات الارتياح من مستشاريّ الملك الطويل والقصير من خلفها،
كانت تغادر القصر مع أغا بران، تم عقد نكاحها، عقد شرعي
وملزم، تزوجت شكيبه بأغا بران.

الفصل 50
رحيمة

جعلتني رؤية شهلا أفتقدها وبارفن أكثر. فيما تقطع السيارة الطريق المتربة إلى كابول، فكرتُ في أخواتي، بدا أن شهلا تلقى معاملة جيدة، بدت حماتها أكثر عطفًا ورفقًا من بيبي كلالي، الليلة الماضية مدت بيبي كلالي عصاها إلى ظهري وأنا أكنس الرواق، نغزتها في ركبتيّ حتى سقطتُ على جانبي، لم يروقها طريقة تكوري كما قالت، كانت مشينة.

تململتُ في جلستي، لاحظت أن حزام الأمان يضغط على بقعة تؤلمني أسفل عظمة كتفي، تنهدتُ بعمق، تظاهرت بدرية أنها لم تلاحظ وشكرتُ لها هذا، ليس لدي أي نية لأبكي على كتفها.

لكنني ظللت أفكر في شيء ما منذ مغادرة شهلا، شيء ما كان قد تسلل إلى ذهني منذ أن غادرنا أنا وأختي بيت أبينا، اختارت شهلا أن تسمي ابنتها بارفن، كنت أحب بارفن من كل قلبي لكنه بلا شك أمر جريء ومدعاة لسوء الحظ أن تسمي طفلة تيمنًا بفتاة عرجاء، تساءلت إن كان بإمكاني تسمية طفلتي بارفن أو شايما. تمنيت ألا تعرف خالتي أبدًا، شعرت بالخجل قليلاً للتفكير في الأمر لكنني ما كنت لأطلق على ابنتي أيًّا من هذين الاسمين.

كدت ألقى حتفي في ولادة جهنجر، دعوت الله ألا أحمل ثانيةً ولمرة واحدة استجاب الله لدعوتي، لكنني الآن وقد استعاد

جسدي عافيته ونسي ذهني ذكرى ولادته، بدأت أرغب في طفل
آخر، لم أكن أعرف لماذا لم أحمل طفلاً ثانيًا لكنني كنت أعرف
أن الله لديه خطة لي، ربما الشهر القادم، وبقدر ما كنت حمقاء
وغير منطقية دعوت الله أن أنجب فتاة.

ماذا سأسميها؟ رئيسة.. أمي.. بالطبع لا، كنت أقل خجلاً
في الاعتراف بذلك، يمكنني تخيل نظرتها الغاضبة، عيناها
حمراوان من الدخان فيما تراقبها رحيلة وستارة بعجز. لا، ليس
اسم أمي أبدًا، لكنني لم أستطع التفكير في أمي دون أن
أفتقدها، أفتقد عناقها لي يوم نكاحنا.

زمرد؟ ربما، لكن الأرجح لا، لا يحبها الكثيرون، ناهيك عن
محاولة قتلها، إن حاولوا مرة، فالأرجح أنهم سيحاولون مرة
أخرى وقد ينجحون، سيكون حينها اسم عضوة برلمان شهيدة..
لا، فكرت.. لن يفلح هذا.

حميدة؟ أو صفية؟ في الغالب.. أحبهما كليهما، حميدة أكثر
قليلاً لأنها ظلت تلحّ على بدرية أن تريني المزيد من البرلمان، وأن
نفعل المزيد في الخارج.

شكيبه.. هذا هو.. هذا هو الاسم الذي قد أختاره، اسم
جدة جدتي، المرأة التي عاشت الحياة المزدوجة التي عشتها،
سارت في ملابس الرجال، عملت عمل الرجال ودافعت عن
نفسها. هذا هو الاسم الذي أريده لابنتي، لو رزقت بابنة.. لو.

قالت بدرية بحدة: أنا لن أعمل جليسة أطفال لكِ بسبب
حادث زمرد، الأفضل أن تنتبهي لنفسك.

بدأت شوارع كابول المزدحمة تظهر أمامنا، التفتُّ ونظرتُ
إليها، لا أعرف ماذا تقصد.

قلت بحيادية: هذا يناسبني، لم أظن من قبل أن عليك رعايتي.

لكنني كنت قد تجاوزت نقطة إمساك لساني، اتسعتْ عينا بدرية.

- ماذا!؟ أيتها الصغيرة الوقحة...

عاجزة عن إيجاد الكلمات المناسبة، لطمت وجهي بظهر يدها. دمعت عيناي وآلمني أنفي، رجوت ألا ينزف على ثوبي المغسول حديثًا.

- لا تتجرئي على التحدث معي هكذا، أيتها التافهة. فقط تذكري أنك هنا بسببي ويمكنني أن أغير رأيي في أي وقت.

عضضت لساني ونظرت خارج النافذة القاتمة.

عدنا إلى غرفتنا في الفندق، ما زالت الشقة التي اشتراها عبد الخالق في حاجة إلى الكثير من العمل قبل انتقالنا إليها، طلب من حارسه وسائقه إيجاد بعض العمال المحليين لتغيير الأرضية وتغطية النوافذ، لا يريد أن يلمح الناس أو الجيران زوجتيه.

بدأت بدرية تُخرج ملابسها من حقيبتها وتعلقها في الدولاب.

رأيتُ شيئًا أذهلني، في غرفتنا تلفازا لم يكن هنا خلال إقامتنا الأخيرة ولم تذكر بدرية شيئًا عنه قط، شغلته ورأيت بدرية تراقبني، مهتمة للغاية.

سمعنا طرقًا على الباب، نظرتُ إلى بدرية.

- لا تقفي هكذا كالحمقاء، اذهبي لتري من هناك!

كان الرجل الذي رأيناه في الأسفل ونحن نسجل دخولنا، يقف خلفه سائقنا، ذراعاه منعقدتان.

- معذرة خانم، عذرًا للإزعاج لكن يبدو أننا نسينا شيئًا واحدًا. هل لي أن أدخل من فضلك؟

عاد ينظر إلى معروف الذي أومأ برأسه.

تنحّيتُ بعيدًا عن الباب، استدرتُ جانبًا وأبقيتُ طرحتي على وجهي، لا أريد أن يبلغ معروف زوجي بأي شيء عن سلوكي، دخل الرجل غرفتنا، أطفأ التلفاز ونزع قابسه، لف ذراعيه حوله وحمله وخرج من الباب، وأنا أشاهده بقلب كسير. كنت قد شاهدت ثلاثين ثانية فقط من امرأة تغني وهي تجلس على العشب في حقل، كانت المرايا الصغيرة في زيها الأفغاني التقليدي تعكس الشمس.

انغلق الباب، كان لدى عبد الخالق تلفاز في البيت، صندوق كبير يحتفظ به في غرفته الخاصة، متصل بهوائي وُضع على السطح، لم يكن مسموحًا لنا بمشاهدته، أمسك بي ذات مرة هناك، وأنا أنظر إليه وألمس أزراره بأصابعي، أتحدى نفسي لأشغله، لم أكن أتوقع وجود زوجي في المنزل، اندفع إلى الغرفة وأمسك بي من عنقي بقوة أعجزتني عن التنفس.

- ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ إن أمسكتُ بك تشاهدين التلفاز سأقتلع عينيكِ من محجريهما!

شرحتْ لي خالة شايما رد فعله هذا حين سألتها إن كان لديها تلفاز في بيتها.

- زوجك عيوبه كثيرة لكنه ليس غبيًا، يعرف ماذا يفعل، لا يريدك أن تعرفي بما يحدث في أنحاء البلاد، ماذا تفعل النساء الأخريات، محطات التلفاز هذه لديها الآن برامج كثيرة للغاية مغنيات ومذيعات أخبار. حتى الرجال الذين يناصرون حقوق

المرأة، أتتخيلين ذلك؟ الآن، هل تتخيلين كيف سيكون شعورك إن رأيت تلك النساء كل يوم؟ إنه يريد أن تظلي عمياء.

كان مدير الفندق قد نسي نقل التلفاز قبل وصولنا، أغضبني إدراك مدى ضيق قيودنا، حتى ونحن على هذه المسافة من عبد الخالق، شعرت أنني كالمدفونة في حفرة، أغوص فيها شيئًا فشيئًا كل يوم، حتى لن يعود بإمكاني رؤية ضوء النهار.

على الأقل كانت العودة إلى جلسات الجرجا تسعدني، وكنت ممتنة لرؤية حميدة وصفية مرة أخرى، حيّتانا بالأحضان وسألتا عن الأطفال، لاحظت رغمًا عني بسعادة أنهما تعاملانني بود أكثر مما تعاملان به بدرية، سررت لأنهما يحبانني.

كان الهجوم على زمرد قد أخاف بدرية، كما أخاف الكثير من العضوات الأخريات، أخبرتني حميدة أن نائبتين قد قررتا ألا تعودا ثانية خشية أن تتعرضا لخطر مثلها، لقد أصيبت بشدة حسبما قالت حميدة. تفشت عدوى ما في جروحها وتم نقلها إلى المستشفى، لم يكن من المتوقع نجاتها.

افتتحت الجلسة بدعاء، جلستُ إلى جوار بدرية، رأسانا مطأطآن ويدانا مكورتان، قضيتُ اليوم أملأ لها الاستمارات وأقرأ لها الوثائق، نهرتني لقراءتي ببطء شديد لكنني لم أقل شيئًا، عدم الرد عليها أسهل، بعد الجلسة وخلال الاستراحات، كنت ألتصق بحميدة وصفية، كانتا كريمتين بما يكفي لئلا تسألاني عن سبب عدم بقائي مع بدرية، كان داخل البرلمان المكان الوحيد الذي لا يمكن لسائق زوجي وحارسه مراقبة تحركاتي، هنا، تُرخى القيود قليلاً.

بعد الجلسات، أرادتْ بدرية من معروف والحارس أن

يوصلاها إلى الفندق، إنها ليست مهتمة بحضور دروس مركز تدريب النساء لكنني مهتمة بالطبع، كان السائق والحارس مهتمين أكثر بحراسة زوجة عبد الخالق الأولى؛ لذلك وقفا يراقباني بلا مبالاة وأنا أركب سيارة حميدة، تركاني تحت حراسة حارسها وسائقها.

فتحنا باب مركز التدريب الذي كان خاليًا كالعادة حتى دخلنا، صاحت مس فرانكلين بسعادة: هاللو.

تساءلت كيف يمكنها أن تظل مبتهجة هكذا طوال الوقت.

ظللنا نذهب إلى هناك يوميًا، تُعلمنا مس فرانكلين أساسيات الإنجليزية يومًا، واستخدام الكمبيوتر في اليوم التالي، لنتعلم الإبحار في الإنترنت وطباعة الملاحظات. سعدت بعودتي تلميذة مرة أخرى وكنت أتوق إلى غرفة درس حقيقية غرفة مليئة بصبيان من سني يمكنني التعلم معهم والمزاح معهم ولعب الكرة معهم.

كانت مس فرانكلين فخورة بتقدمنا، قالت إنها أخبرت والديها عنا وعن انبهارها بتفانينا ورغبتنا في العمل في الحكومة، سررتُ بإشادتها، مضى وقت طويل للغاية منذ أن سمعت أي إشادة بي.

حين انفتح الباب، بعد مرور نصف ساعة من بدء درسنا، كنا ننظر بفضول لنرى من.

دخلت امرأة رفيعة وطويلة في أربعينياتها ونظرت حولها بتساؤل، قالت مس فرانكلين: مرحبًا، تفضلي!

ترتدي المرأة سترة سوداء تصل لأسفل ركبتها على قميص وبنطال بلون أرجواني غامق. شعرها معقوص في ذيل أرنب

ومغطى بطرحة أرجوانية. أجابتِ المرأة: سلام! هل أنتِ مس فرانكلين؟

كان اسمها فخرية وقد وضعتْ مس فرانكلين في موقف لا تحسد عليه، تعمل فخرية في مأوى للنساء هنا في كابول وتريد ان تتعلم شيئًا في مركز الموارد، بدت مس فرانكلين مرتبكة قليلاً، إن تمويل مركز الموارد مخصص لعضوات البرلمان فقط، الدروس ليست متاحة للعامة لأن المركز نظريًا غير مؤهل لأكثر من عضوات الجرجا، مع أن القليل منهن فقط من يأتين.

زمّت مس فرانكلين شفتيها وأشارت لفخرية بالدخول والانضمام إلينا كما كنت سأفعل لو كنت مكانها. بطريقة ما، لم تكن فخرية امرأة يسهل خذلانها.

مع نهاية الدرس، سألت حميدة فخرية عن المأوى، لقد سمعت هي وصفية عن مأوى للنساء لكنهما لم ترياه من قبل، كنت مندهشة من وجود مثل هذا المكان.

- لقد قُتلت أختي بيد زوجها، فقررتُ أن عليَّ فعل شيء ما، ثم فكّرت في ذاك المأوى، تموله امرأة أفغانية تعيش في أمريكا، جمعتِ المال وأنفقت كل ما لديها على بناء هذا المكان للفتيات، وهي تسافر ذهابًا وإيابًا الآن، لكننا لدينا نقص في العاملين على رعاية المأوى.

سألتْ صفية برقة: وزوجك، ألا يمانع من قضائك الوقت هناك؟

- لا، إنه يدعمني حقًا، إنه رجل كريم، بعد ما حدث لأختي، كان يعرف أنني سأجن إن جلستُ فريسة حزني دون فعل شيء، لدينا خمسة أطفال ليشغلوني في البيت، لكنني أردت فعل هذا،

أردت أن يراني أطفالي وأنا أفعل شيئًا ما.

بدأت تخبرنا عن المأوى، عن الفتيات اللاتي يذهبن إل هناك، أخبرتنا عن فتاة تدعوها مرفري، في الخامسة عشرة م عمرها فقط كما قالت، جاءت إلى المأوى منذ أسبوعين بكدماتها وبؤسها، زوَّجها أهلها وهي في الثامنة من عمرها لرجل تجاو الستين، وعاشتْ في الريف. عرّضها زوجها لكافة ضرو العقاب، كان أنفها ملتويًا فقد كُسر مرتين، حين ضجر منها بدا يتجول بها في قرى أخرى، باعها لرجال آخرين ليضاجعوها حاولت الهرب مرة من قبل لكنه أمسك بها وقطع إحدى أذنيها ثم جرّها إلى البيت من الأخرى.

بعد ذلك بستة أشهر قررت مرفري أنها لن تظل على قيد الحياة إن بقت مع زوجها، وهذه المرة لو قتلها سيكون من الأفضل لها، فهربت.

جاءت إلى كابول وعثرت على مأوى النساء حيث تعيش الآن وتتعافى، ما زالت تستيقظ ليلاً وهي تصرخ.

دعتنا فخرية لزيارة المأوى، سيكون من الرائع إن استطاع البرلمان دعم مكان كهذا بتوفير بعض التعليم أو الوظائف للنساء اللاتي يعشن هناك ربما.

طرقعت حميدة وصفية بلسانيهما.

جلستُ بلا حراك، يبدو لي الكثير مما قالته مألوفًا.

أرأيتِ؟ لقد وجدتْ مرفري مهربًا، كان بإمكاني سماع خالة شايما تقول: لماذا لا تجدين أنتِ مهربكِ؟

الفصل 51
رحيمة

- اقرئي لي هذه.

فتحت بدرية جريدة كابول الأسبوعية التي وجدتها على الطاولة، كانت تشير إلى عمود ثم إلى آخر، أوقفتني عند خبر عن الجفاف في إقليم جنوبي ما.

- انسي هذا، من يريد معرفة هذا؟ أريد معرفة ماذا يحدث هنا، جربي هذا.

قالتْ تشير إلى عمود في الصفحة التالية، تنهدتُ وبدأتُ أقرأ عن افتتاح بنك جديد الشهر القادم حين قاطعني طرق على الباب.

- مكالمة هاتفية من البيت، اهبطا إلى الردهة للتحدث في الهاتف.

كان حسن، حارسنا. قالت ضجرة: الآن؟ كأن يومنا لم يكن طويلاً بما يكفي!

كنا قد تلقينا لتونا أطباق الطعام من مطبخ الفندق، أحببت طعام الفندق، ربما لأنني لا أشارك في إعداده أو في تنظيف الصحون بعده، ربما كانت رسومات الزهور الجميلة على الأطباق، كان ريقي يسيل لرائحة يخنة البطاطس المتبّلة بالكمون، قطعتُ قطعة خبز وبدرية تغادر الغرفة مستاءة، غمستها في اليخنة ورفعتها إلى شفتي، شعرت بالمرق شهيّاً على شفتي، لا داعي لنتناول نحن الاثنتان طعامنا باردًا، فكرت.

عادت بدرية بعد دقائق قليلة، أعلنتُ وهي تدخل: القهوة جيدة جدًا.

رفعتُ بصري ورأيت وجهها شاحبًا.

- أأنتِ... أأنتِ بخير؟

نظرت إليَّ، فمها مشدوه قليلاً، عيناها تبحثان.

- بدرية جان، ما الأمر؟ من كان المتحدث؟

غطت فمها بيدها، ثمة خطب ما.

- بدرية جان، أأنتِ بخير؟

فجأة، تحرك شيء ما فيها، فردت كتفيها وضمت شفتيها معًا بإحكام.

- لقد كان المتحدث عبد الخالق، الأمر بخصوص جهنجر.

هوت معدتي لسماع اسمه، قالت تنتقي كلماتها بحرص: إنه ليس بخير، إنه ليس بخير، يبدو أنه كان مريضًا بشدة منذ غادرنا.

- منذ غادرنا؟ لماذا لم يتصل من قبل؟

- لا أعرف. رحيمة جان. لا أعرف... لقد أمر معروف بالعودة بنا.

- أريد أن أعود الآن!

- سنعود، إن معروف يجهز السيارة.

أردتُ أن أكون هناك في الحال، أردت أن أرى ابني، حين مرض آخر مرة، قضى يومين بين ذراعيّ. كنت أدعو الله بكل ما أمكنني تذكره من دعوات، وأمسد الشعر المبلل على جبينه المكسو بالعرق، وأشاهد شفتيه الكرزيتين ترتعشان حتى بارحته الحمى. أعرف أنه لا بد بكى يريدني، وكرهت أنني لم أكن هناك.

جمعنا أمتعتنا خلال دقائق، تحركت بدرية بسرعة على نحو

، هش، بعد ذلك بأربعين دقيقة كانت سيارة عبد الخالق
الرياضية على الطريق تغادر كابول، تطلق نفيرها وهي تمر
بالمدرعات والجنود الأجانب، عيونهم الفضولية تغطيها النظارات
الشمسية، غمغم معروف بشيء ما لحسن الجالس بجواره.
كان في سلوك بدرية شيء غريب، كان جهنجر مثله مثل كل
اطفال البيت الآخرين قد أصيب بالمرض والحمى من قبل،
،طرتُ إليها، تشغل نفسها بطيّ الأوراق بعناية ووضعها في
حقيبتها، الأوراق التي لا يمكنها قراءتها.
- ماذا قال يا بدرية؟ هل يجب أخذه إلى الطبيب؟ هل أكل
شيئًا ما؟
- لا أعرف يا رحيمة جان، كان الاتصال ضعيفًا وأنت
،مرفين عبد الخالق، إنه لا يقول الكثير.
زحفت الساعات ببطء، حاولتُ النوم، على أمل أن أفتح
عيني لأجد نفسي في البيت، وجهنجر يُقبل نحوي عند البوابة،
سنعود بعد منتصف الليل، تمنيت أن تكون جميلة قد أعدت له
كوبًا من الأعشاب التي أعدتها له من قبل، تمنيت ألا يزعجه
الأطفال الآخرون.
في اللحظة التي كدت أغفو فيها، خطر لي أن شيئًا ما
غريب في كلام بدرية، شيئًا ما أكثر من مرض جنهجر.
طريقة نظرها إليَّ، ماذا كانت تلك النظرة؟
اهتمام؟ انزعاج؟ إرهاق؟
شفقة.
لا أعرف يا رحيمة جان.
لم تخاطبني بعطف من قبل قط.
جفّ ريقي، رُحت أدعو الله.

الفصل 52
شكيبه

لم تتحدث شكيبه وأغا بران وهما في طريقهما إلى بيته جلستْ شكيبه بجوار زوجها لكنها أبقت نظرها أمامها مباشرة. قاد أغا بران حصانه بخبرة في شوارع كابول المزدحمة، المحلات الصغيرة والمارة في كل مكان. نظر نحوها مرة واحدة فقط دون أن يُنبئ وجهه بشيء.

انعطف في شارع ضيق تصطف على جانبيه البيوت، بيوت قريبة من بعضها البعض لدرجة أن بإمكان طفل إلقاء تفاحة في فناء جاره، تذكرت شكيبه قريتها، كانت البيوت بعيدة عن بعضها البعض بفواصل من الحقول الشاسعة.

كان بيت أغا بران في منتصف الشارع، يميزه عن بقية البيوت باب أزرق فخم.

فجأة شعرت شكيبه بالرعب من فكرة البقاء خلف تلك الجدران مع هذا الرجل، للحظة فكرت في الركض بعيدًا، لتختفي في متاهة طرق كابول، لكنها تذكرتْ عزيز الله وهو يجرّها من أمام بيت مالك صاحب فعدلت عن ذلك.

فتح أغا بران الباب ودخل فتبعته، كان الفناء صغيرًا، أصغر من أفنية قريتها لكنه كان منسقًا وفيه زهور نضرة، وقفص طيور فيه ثلاثة من طيور الكناري الصغيرة، تبعت شكيبه زوجها إلى باب البيت.

رفعتِ امرأة، في عشرينياتها تقريبًا، بصرها عن شغل الإبرة .ن بدها، لم تبدُ مندهشة.

- جلناز، هذه شكيبه، أريها غرفتها من فضلك، ليس لديها ا..مة لذلك سيكون عليك منحها ثوبًا أو اثنين من ملابسك الآن.

نهضتْ جلناز ونظرت إلى القامة الزرقاء الواقفة أمامها، ..ار أغا بران مبتعدًا، لا يهمه كيف ستتعامل المرأتان معًا.

- يمكنك خلع الشادور الآن، تبدين سخيفة وأنتِ ترتدينه ،اخل البيت.

فهمتْ شكيبه من نبرة صوتها أنها زوجة أغا بران الأولى وانها ليست سعيدة لرؤيتها، خلعتِ الشادور لكنها أبقت نصف وجهها الأيمن نحو جلناز.

- سمعتُ أنهم ينادونك شكيبه *إي هليم*، دعيني أرى وجهك.

استدارتْ شكيبه، نظرت إلى جلناز في عينيها، وقفت كل منهما تدقق النظر في الأخرى، كانت جلناز جميلة لكنها لا تقترب من جمال بنفشه المذهل في شيء، كانت عيناها لوزيتين وحاجباها مقوسين بشكل جميل، بدا شعرها ناعمًا وثقيلاً، تتسدل خصلاته الجامحة على كتفيها، جفلتْ وقالتْ: فهمتُ، حسنًا، تعالي من هنا، سأريكِ غرفتك.

كان البيت مماثل تقريبًا لبيت بوبو شاهكل، خلف غرفة الجلوس مطبخ صغير، في الرواق الرئيس ثلاث غرف أخرى، لم ترها شكيبه، كانت غرفتها الأخيرة، مساحتها ثمانية أقدام في عشرة بلا نافذة. تستند على الجدار مرتبة سميكة ومصباح زيتي على مائدة مستديرة.

- سآتيكِ بملابس لاحقًا، الآن يمكنك البقاء هنا، لن نتناول العشاء

لفترة، لقد أعددت الطعام الليلة، يمكنك البدء في المساعدة غداً
- خانم جلناز، أنا...
- لا تناديني هكذا، لا يبدو مناسباً، ناديني باسمي ...
أنتِ زوجته الآن وسيكون غريباً لو سمعكِ أحد تقولين هذا.
- أنا آسفة.
- دعيني أحذرك، هذا بيتي، أنا أديره كما أحب، والأهم
ألا تتوقعي أن تغيري شيئاً، أنتِ هنا لأنه يريدك أن تكوني ه...
لكن هذا لا يعني أن تفعلي ما تريدين.
- ليست لدي النية...
- جيد، الأمر مفهوم إذن ولن أتوقع منك أية مشاكل. لم
طلبتُ منه أن يضعك في بيت منفصل لكن لا توجد إمكانية له
الآن، سيكون عليكِ البقاء هنا.
كانت جلناز أكبر سناً من شكيبه بقليل لكنها تتحدث بسلطة
متعالية أشعرت شكيبه بأن إحدى زوجات عمها توبخها. ليس
لديها سبب لتكون أكثر عطفاً، لكن شكيبه ظنت أن بإمكان جلنا
إلقاء بعض الضوء على موقفها.
- معذرة، لكن هل يمكنني أن أسأل سؤالاً واحداً، جلنار
جان؟ هل يمكنكِ أن تخبريني لماذا أنا هنا؟
- ماذا؟ ماذا تقصدين؟
- قلتِ إنه يريدني أن أكون هنا، لماذا يريدني أن أكون هنا؟
- ألا تعرفين؟
- لا.
هزت جلناز رأسها وخرجتْ من الغرفة، تركت شكيبه بأسئلة
أكثر من الإجابات.

سادتْ مرة أخرى تلك الليلة، لتعلن أن الطعام في المطبخ إن ... شكيبه أن تأكل، حملقتْ شكيبه فيها دون أن تجيب، ... رت أنها غريبة عن المكان بشكل مريع، وأنها الآن امرأة ... دًا، تشعر بثوبها ثقيلاً وفضفاضًا، كانت قد نسيت كيف ... طرحتها ثابتة على رأسها، تركت زي الحرس الرسمي في ... فة بنفشه لكنها أخذت معها حمالة الصدر، لم تكن تطيق ... لي ثدييها، حتى وحمالة الصدر تحتك بجروحها الحديثة.

تساءلتْ كيف ستسير الأمور هنا، بعيشها كزوجة ثانية ... حبيب بنفشه، الرجل الذي خان الملك بأسوأ الطرق، كيف ... ورطت في هذا الأمر المعقد؟

أصخت السمع مرتبكة لصوت خطوات أغا بران تقترب. ... ت تعرف من مراقبتها عادات الملك أن الرجال يأتون النساء ... في ساعات غريبة من النهار والليل. شعرت أنها ليست مستعدة الوجود معه خلف باب مغلق، غفتْ في وقت ما قبل طلوع الصبح.

- اسمعي، يجب أن تنهضي وتأكلي شيئًا، لا يهمني حقًا ما تفعلينه لكنني لن أتحمل ذنبك إن أصابك المرض بسبب الجوع، لا يبدو عليكِ أنك بصحة جيدة، في جميع الأحوال هاك ثوبًا أيضًا، هذا كل ما ستنالينه مني، يمكنك شراء قماش إن أردت ثوبًا آخر.

جلستْ شكيبه وفركت عينيها، شاهدت جلناز تضع طبقًا فيه خبز وزُبْد على الأرض مع كوب شاي سادة.

- وإن كنا سنعيش في بيت واحد فسوف نتقاسم العمل، لا تتوقعي أن تظلي هنا طوال اليوم بلا عمل.

- آسفة، لم أدرك أن الوقت...

لم تنتظر جلناز توضيحًا، خرجت قبل أن تنهي شكيبه جملتها.

ذاب الزَّبَد على لسان شكيبه، خرجتْ من غرفتها مترددة ووجدتِ الحمام. كان الوقت صيفًا وشعرت بتحسن تحت الماء البارد خاصة عندما لمس جروحها، تساءلتْ كيف تبدو الندوب على ظهرها لعنتْ غفور مرة أخرى لكنها لم تكن الوحيدة، لقد ساهم أغا بران وبنفشه في تلك الفوضى أيضًا، لقد دُهِسَت بين أقدام الفيلة.

لست محل ترحاب هنا، أنا زوجته، لكنني نصف فحسب. لا شيء فيّ تامّ. لماذا يفعل هذا؟

خرجتْ وبحثت عن جلناز لتساعدها، لم يكن هذا الجرء جديدًا عليها كما فعلتْ في بيت مرجان أو بيت بوبو شاهكل وجدتِ المطبخ خاليًا، توجد كومة من ثمار البطاطس النيئة على المنضدة، نظرتْ شكيبه حولها، بيت أغا بران جميل، الجدران ناعمة ومستوية، تكسو أرض غرفة الجلوس سجاجيد مغزولة يدويًا بفن، أريكة منجّدة بذراعين من الخشب المشغول وكذلك مقعد للجلوس لم تلحظهما في الأمس، على الجدران لوحات خطاطين، لفظ الجلالة مكتوب بمنحنيات وميول ونقاط.

عادتْ إلى المطبخ ونظرتْ حولها، توجد أكواب وأطباق في الخزانات والقدور والأواني أسفل المنضدة. وجدتْ سكينًا وجلست تقشر البطاطس، ارتاحت لانشغالها بعمل شيء وحين عادت جلناز من الفناء، تظاهرت أنها لم تلاحظ الزوجة الثانية في مطبخها وعادت إلى غرفتها.

ليس لديهما أطفال، أدركتْ شكيبه، هذا هو المختلف في هذا البيت، لا خطوات مسرعة ولا أصوات عالية ولا بكاء، يعيشان وحدهما وبعيدًا عن عائلة أغا بران.

سيكون من الصعب الاختفاء في بيت هادئ كهذا. لم توجه

لها جلناز كلامًا سوى أوامر بخصوص أعمال البيت، كانت تترك
كومة الملابس القذرة وتخبرها أن آصف -اسم أغا بران الأول-
يريد قمصانه جاهزة في الصباح، كانت جلناز وأغا بران يأكلان
معًا حين يعود إلى البيت فيما تشغل شكيبه نفسها بعمل ما في
البيت دون أن تقترب منهما، ولم يكونا يدعوانها، كانت تأخذ
طعامها إلى غرفتها أو تتناول لقيمات قليلة في المطبخ.

لا يوجه لها آصف سوى كلمات قليلة كل يوم، تحية صغيرة
في الغالب وهو يمر بها، تغمغم هي بشيء ما في المقابل. كان
مختلفًا مع جلناز، يثرثر معها عمَّن رآهم وعن أخبار كابول
المحلية، كانت جلناز تسمعه وتسأل أسئلة، حتى إنهما كانا أحيانًا
يضحكان معًا. تساءلتْ شكيبه كيف سار الأمر معهما حين
تزوجا، أكان يتجنبها مثلما يفعل معها الآن؟ هل سيقول لها أي
شيء أكثر من التحية في أي وقت؟

كان صمته غير مريح، لكنها تخشى أي حوار معه. ذاك اليوم
في القصر -حين تحدثتْ معه- بدا شخصًا رقيقًا ورجلاً نبيلاً،
لكن ما صارت تعرفه الآن يجعلها تشك في انطباعها الأول.

مرّت أربع ليالٍ قبل أن يأتي إلى غرفتها، كانت شكيبه قد
بدأت تعتقد أنه أحضرها للمساعدة في أعمال البيت فقط حين
سمعت بابها ينفتح، كان الوقت متأخرًا وقد بدأت عيناها
تنعسان. ميّزت ظله النحيل في الظلام.

وقف هناك لدقيقة يراقبها، أبقت شكيبه عينيها مغمضتين
تصنع النوم وتدعو الله أن يستدير عائدًا ويتركها، قلبها يدق
بضجة عالية لدرجة أنها ظنت أنه سيسمعها، دخل وأغلق الباب
خلفه، انحبست أنفاس شكيبه تقريبًا.

جلس بجوار مرتبتها على الأرض، ظهره لها ورأسه مطأطأ
قال بهدوء: لقد سارت الأمور بشكل كريه، أنا آسف لهذا.
ظلتْ صامتة.
- كانت امرأة جيدة، لا تستحق ما فعلوه بها، أنا لم ا
أن... لم أظن أن الأمر سيصل إلى هذا الحد. لكنهم ما ا
اكتشفوه لم يكن من سبيل لوقفه، كنت أحمق لتجاهلي ما ق
يحدث، ما قد حدث بالفعل...
همس، صوته كسير: لقد حذّرَتني وأنا تجاهلت الأمر
تجاهلت تحذيرها. مع ذلك أنقذتني، وإلا ما كنت لأجلس هنا
الآن، أعرف ذلك جيدًا.
استرسال ضمير مذنب، كان يعرف أن شكيبه تعرف م
علاقتهما، ربما يظن أن بنفشه أخبرتها بهويته أو أن شكيبه
عرفته حين أسقطها وهو يمر بها تلك الليلة. لم تعرف الذ
يعترف لها لكنها استمعت إليه باهتمام.
- جلناز ليست سعيدة، ستغدو الأمور صعبة فترة م
الوقت، لكنها ستتحسن.
لم تقل شيئًا، خرج آصف زوجها من غرفتها وأغلق الباب
خلفه.

الفصل 53
رحيمة

وصلنا إلى البيت في سواد الليل، لم أشعر بهذه الراحة ا رؤية تلك البوابة من قبل، أوقف معروف السيارة، ونظر إلى ،سن وتنهد. كانت بدرية قد تململت كثيرًا في جلستها خلال الساعة الأخيرة قبل وصولنا لحد ظننتها ستقفز من السيارة في ا،ة لحظة، لم أعن بالشادور، كانت السيارة قد توقفت بالكاد قبل ،ن اقفز منها وأفتح البوابة. أضواء البيت مفتوحة.

فتحتُ الباب لأجد جميلة تندفع نحوي، أخبرني وجهها بكل نسيء.

- جميلة!

- آه يا رحيمة جان! ليكن الله في عوننا يا عزيزتي، الأم الصغيرة!

ارتفع صوتها وهوى بقلبي معه.

- جميلة، أين ابني؟ أين جهنجر؟ أهو بخير؟

أمسكتُ بذراعيها ودفعتها جانبًا، وتوجهت إلى غرفتها. ظهرتْ شاهيناز تمسك بطرحتها أسفل ذقنها بقوة تنظر لأسفل وتتجنب نظرتي، توقفتُ حين رأيتها، كانت شفتاها ترتعشان.

- لماذا جميعكن في الخارج هنا؟ مَن مع ابني؟ أين هو؟

أسرعت جميلة وأمسكت بي قبل أن أركض إلى غرفتها، انضمت لها بدرية.

عانقتني جميلة بقوة وضغطت رأسي في صدرها.

- رحيمة جان، رحيمة جان، لقد استرد الله أمانته! لقد أخذ ولدك الصغير، فتاتي العزيزة، إنه عند الله في سلام الصغير الغالي!

تجمدتُ.. كان هذا ما قرأته في وجه بدرية. نظرتُ إليها الآن لكنها مثل شاهيناز نظرت بعينيها الدامعتين بعيدًا.

صدر عويل ما.. عن شخص ما، لا، لا، لا، لا. ثم اسم ابني. كان ذلك صوتي.

مستحيل.. هذا مستحيل.. نظرتُ حولي، ظننت أن جميع من حولي قد فقدوا صوابهم.

جاء عبد الخالق إلى الردهة، عيناه حمراوان، شفتاه مزمومتان. نظر لي وهز رأسه، رأيت كتفي زوجي يتهدلان، وقفتْ خلفه بيبي كلالي، تبكي في منديل.

صاحتْ: لماذا؟ لماذا تركتِ الطفل مريضًا؟ كان يجب أن تكوني هنا معه!

نظرتُ إلى زوجي في عينيه، أولى لحظاتنا الحميمية حقًا. بدا كأن لا أحد غيرنا هناك.

هذا حقيقي... هذا حقيقي، رحيمة، ما يقولونه عن جهنجر. ابننا، حقيقي! مات ولدنا الحبيب!

غطى عبد الخالق عينيه بيديه، ثم نظر لأعلى، أخذ نفسًا عميقًا وصاح على أحدهم ليجلب له طاقية الصلاة، كان صوته كسيرًا، جعل فؤادي والبيتِ يفرغان من الهواء.

الفصل 54
رحيمة

لست واثقة تمامًا مما حدث بعد ذلك، كان ثمة همس وعويل وسب ودعوات، جميعها معًا، ثم واحدًا تلو الآخر، تغبشت الأصوات والوجوه من حولي.

دعوني أرى ابني.. صرختُ.. أريد أن أرى جهنجر.

تناولي قليلاً من الماء، تبدين على وشك الإغماء.

قرّبت إحداهن كوب ماء من شفتيّ.

كان الأطفال الآخرون في غرفة الجلوس، يراقب الكبار منهم الصغار بكآبة ويحاولون إبقاءهم هادئين.

لم يشهد بيت عبد الخالق فجيعة كهذه من قبل، حتى أنا.. التي فقدت أبي وأمي وأخواتي ونفسي، حتى أنا لم أصدق أن الله قد يضيف هذا إلى مصائبي.

قادوني إلى غرفة جميلة، ابني الصغير.. بدا وجهه الصغير شاحبًا.. شفتاه رماديتان.. انهرتُ على ركبتيّ ووضعتُ رأسي على صدره الصغير، مسدت شعره الكستنائي، لمست خديه الممتلئين، تحدثت معه كأننا وحدنا في الغرفة، كأننا وحدنا في العالم، أردت أن أعتني به، لأعيد إلى جسده الصغير الحياة بأنفاسي، أنا أمه.. منحته الحياة ذات مرة، وحين يمرض أعتني به حتى يسترد عافيته، لماذا يختلف الأمر الآن؟

جفلتُ حين شعرت بيد عند مرفقي.

- اتركونا وحدنا! أريد أن أعتني بابني، إنه يصحو دائمًا حين أهمس له باسمه، سترونه يتثاءب، يفرك عينيه وينظر حوله بحيرة، سيخبرني أنه افتقدني وأنه لن يتركني أذهب ثانية.

كان ثمة تقاليد، قواعد ينبغي اتّباعها.

ثم صارت اليد يدين أو أربع ربما، حين بدا أنها كثيرة بما يكفي، صارت الأيدي أقوى منّي وانكمشتِ الغرفة أمامي، كنت في الرواق.. كنت على الأرض.. كنت خارج نفسي.. ذابت الأيدي بعيدًا عني.

كفاك، همسوا.. كرهتهم.

كانت َبيبي كلالي هناك، تندب بصوت أعلى من الجميع:

لماذا؟ يا رب، كان ولدًا رائعًا! صغيرًا جدًا، صغيرًا جدًا على الموت، وجهه، أرى وجهه أمامي كأنه ما زال هنا، لا أصدق. أنا فقط لا أصدق! مسكين يا بنيّ! لماذا حلت بك هذه المصيبة، ابني الذي لا يخاف إلا الله! أسد بين الرجال! ليتني عرفت قبل هذا! لكنت فعلت له المزيد! لكنت اعتنيت به بنفسي!

كرهتها.

كنت مغيبة.. مرت أيام.. أقيمت الشعائر.. رددوا جميع الأدعية الصحيحة.. جاء جميع الناس الخطأ لتقديم التعازي.. لاحظتُ القليل فقط، لاحظت غياب عائلتي فقط، لم يأتِ والديّ إلى عزاء حفيدهما، لم يحضر أبي ليحمل ابني ويواريه الثرى، إنه حدث جلل رغم كل شيء، لكن جهنجر لم يرهما من قبل على كل حال.

جاءت خالة شايما وشهلا، جلستا إلى جانبيّ وأنا أهتز إلى الأمام والخلف، عيناهما حمراوان ومتورمتان. سألت إحداهن

حالة شايما عن والديّ إن كانا سيأتيان.. عضت شهلا شفتها ونظرت في الأرض، سمعت زوجي يلعن أبي، كان مُهانًا، ليس فقط كصهر بل كقائد سابق أيضًا، كان أي قدر من الاحترام يدين به لحماه طبقًا للتقاليد قد انعدم الآن، ولم أهتم.

همست شهلا: آهٍ يا ربي، رحيمة جان، أنا لا أصدق هذا! لقد كان مفعمًا بالحياة!

أغمضت عيني.

بدت خالة شايما أكثر نحولاً عن آخر مرة رأيتها لكنني لم أستطِع التفكير في ذلك كثيرًا، هزت رأسها وأخبرتني أن الدواء قد قضى على والديّ، يصعب تحديد أي منهما في حال أسوأ من الآخر، طرقعت بلسانها بيأس وعصرت يدي الخدرة. قالت: إنهما بالكاد ينهضان ويسيران في البيت.

سألتها ببرود: أتذهبين إلى هناك كثيرًا؟

أومأت، كانت تقلق على رحيلة وستارة، سمعت في زيارتها الأخيرة لهما أقاويل عن زواج أختي الصغيرتين، أرادتْ أن تتأكد أنهما لن يتخليا عن الفتاتين في غيبوبتهما المستهترة.

جاء أعمامي وعماتي وحتى جدّيّ، قبلتُ يديهما، بكيا واعتذرا لزوجي وحماتي لغياب أبي وأمي الملحوظ، كانا محرجين أكثر من أي شيء آخر.

لم ترياه قط، أردت أن أصرخ، لم تعرفا كم كان رائعًا.

لم أتوقع الكثير من جديّ قط، لم يكن لهما شأن بأختيّ ولا بي منذ تزوجنا. كما يقولون، حين تتزوج الفتاة لا تنتمي إلى عائلتها التي ربّتها، خاصة حين تربيها العائلة نصف الوقت فقط. لكن مادر جان، كانت مختلفة تمامًا في وقت ما مضى. سألتُ

خالة شايما: هل حالتها بهذا السوء؟

أكّدت: إنها بهذا السوء يا دختار جان، أختاكِ رحيلة وستاره أرادتا أن تأتيا لرؤيتك حقًا. لكن جدتك لم ترَ مجيئهما مناسبًا من دون أمك، وبالطبع لم تسمح لهما بالمجيء معي، بكتْ رحيله حينها، أرادت أن تختبئ تحت شادور وتتسلل إلى هنا. ستارة، إنها متحفظة لكنها فتاة قوية. عليكما أن تكونا فخورتين للغاية بأختيكما.

كنت واثقة من أنها محقة، كانتا تحاولان البقاء في بيت بلا أم ولا أب، تُركتا وحدهما تمامًا مثلما تركت ابني وحده.

– كان عليَّ أن آخذه معي، خالة شايما. كان عليَّ أن آخذه معي إلى كابول، لم يكن سيمرض لو كان معي. وحتى لو كان قد مرض، كان سيمكنني أخذه إلى المستشفى، لديهم أفضل المستشفيات هناك، أطباء كثيرون، أطباء أجانب حتى.

– لم يكن زوجك ليسمح بذلك قط. إنه يبقي أبناءه في كنفه. عزيزتي، أنتِ تعرفين عما أتحدث.

– كان عليَّ أن أبقى معه إذن، لم يكن عليَّ الذهاب إلى كابول.

لم تقل خالة شايما شيئًا، تعرف كل منا أنها كانت فكرتها.

دُفِن ابني في مقابر العائلة، على مبعدة نصف كيلو متر من البيت، الأرض المقدسة بالنسبة إلى عائلة عبد الخالق.

كان زوجي هادئًا مختلفًا، عرفت أنه حزين، قال عبد الخالق لي حين عَاد الرجال من المقابر بعد الدفن: إنه مع أجداده الآن، إنهم يرعونه، كما يرعاه الله، إنه قضاء الله وقدرنا.

القدر.. أكان قدر جهنجر حقًا أن يموت صغيرًا هكذا؟ أكان

صدري ألا أراه يكبر ليصير أطول مني، ويذهب إلى المدرسة، ويساعد أباه في العمل؟

طلب عبد الخالق من جميلة أن ترعاني، رأيته يتنحى بها جانبًا ويقول لها كلمات قليلة، كانا يراقبانني.. بدرية أيضًا.. مع انها بعد أسبوع من دفن جهنجر سألت عبد الخالق بهدوء متى ستعود إلى كابول، لطمها بيده على وجهها بسرعة قبل أن تنهي جملتها.

أغمضتُ عيني وتمنيت أن يختفي الجميع، بمن فيهم أنا.

كان أصدقاء عبد الخالق وأقاربه يتجمعون كل جمعة في بيتنا لقراءة خاتمة، يقرأ كل شخص جزءًا من أجزاء القرآن الثلاثين، ثم يدعون بعد ختام القراءة أو خاتمة القرآن الكريم. كنت أسمعهم عبر الردهة وادعو معهم، على أمل أن تفيد الدعوات جهنجر، إذ لم تفدني أنا بشيء.

زارتني خالة شايما أكثر من المعتاد، حتى مع ازدياد مشقة الخروج عليها.. كانت قلقة.. كنتُ أفقد وزنًا، تتهدل ثيابي واسعة عليَّ، كنتُ حين أنظر في المرآة أرى شخصًا بالكاد أعرفه، عيناي غائرتان وحولهما هالتان سوداوان، رأيت جميلة وخالة شايما تتبادلان نظرات القلق.

تركني عبد الخالق وشأني أغلب الوقت، هو أيضًا لم يكن يتحدث كثيرًا، كان أصدقاؤه يُخفضون أصواتهم ويوجزون في القول، لم يكن زوجي زعيم الحرب رجلاً يعبر عن مشاعره، لكن حزنه كان واضحًا، كان مقتضبًا حتى مع بيبي كلالي.

شعرتُ برأسي فارغًا، غرفة مظلمة.. فرغ قلبي بنحو مؤلم.. افتقدت وجه ابني.. ابتسامته.. طريقة تشبث أصابعه الصغيرة

بي.. كان يجب أن يكون آمنًا، لقد تجاوز الرضاعة، تعلم السير الكلام.. كان قد بدأ يخبرني متى يكون جائعًا ومتى يكون سعيدًا.. جهنجر.. كان اسمه خِنجرًا.. كان اسمه بلسمًا.

مرت أربعة أسابيع قبل أن يسعني الاستفسار.

- جميلة جان.

توقفتْ جميلة فجأة، مندهشة لسماع صوتي.

- نعم؟

- ماذا حدث له؟

وقفتْ جامدة للحظة، تفكر في سؤالي، ثم جلستْ على وسادة بجواري في غرفة الجلوس، طوت قدميها أسفلها وسوت تنورتها، وضعت يدها على يدي.

- رحيمة جان، لقد مرض.. حدث كل شيء بسرعة شديدة.. بسرعة شديدة.

عاد ذهنها إلى ذاك اليوم.

- اتصل عبد الخالق ببدرية على الفور.

ألححتُ: أريد أن أعرف ماذا حدث له.

ربما كانت جميلة -من بعدي- هي من تحمل الجزء الأكبر من الذنب، لقد تركتُ ابني في رعايتها وعدتُ لأجده ميتًا، كانت تشعر بسوء شديد لهذا، لا تعرف ماذا يمكنها قوله وما ينبغي عليها السكوت عنه، أخبرتني بمقتطعات منفصلة، تصفّي الشوائب فيما تواصل كلامها.

في البَدء أصابته الحمى.. كان جسده ساخنًا.. من رأسه حتى أخمص قدميه.. ساخن جدًا، قالت جميلة: حاولتُ تهويته، تبريده بحمامات ماء باردة، كان مصابًا بالإسهال، بحثتُ في

برازه عن ديدان لكني لم أجد شيئًا، حين بدأ الشكوى من آلام بطنه، تحدثتُ مع عبد الخالق، حين رأى جسد جهنجر المرتعش استدعى بيبي كلالي على الفور، بدأتْ بيبي كلالي إعداد حساء مثقل بالثوم والأعشاب لتطهير أمعائه من الجراثيم، لكنه لم يتحسن بل ساءتْ حالته.

في اليوم الرابع ظهرتْ على بطنه بقع حمراء، حاولت جميلة مرة أخرى تبريده بوضع قماش مبلل على جبينه وجعله يرشف بعض الماء. حين توقف جهنجر عن البكاء والشكوى من آلام بطنه، ظننت أنه يتحسن أخيرًا. ظننت أنه في حاجة إلى الراحة بضعة أيام وأنه سيكون قد عاد إلى حالته الطبيعية حين نعود، تمامًا كما تركته.

بكينا معًا.. توقفتْ عن كلامها مرتين أو ثلاث، تستجمع نفسها ثم تنظر إليَّ، أومأتُ لها أن تواصل، كنت أريد أن أعرف.

في الظهيرة، أدركتْ جميلة أن جهنجر يهذي، لم يكن يجيب حين يناديه أحد باسمه لكنه كان يغمغم ويضرب شيئًا غير موجود.. نادته باسمه.. كانت عيناه مزججتين.. استدعتْ عبد الخالق مجددًا، كان قد عاد لتوه من سفرة بات فيها في الخارج مع حرسه، لم ترَ زوجنا يرتعش هكذا من قبل، قالت جميلة. ألقى نظرة واحدة على ابنه، ثم اندفع خارج الباب ونادى على سائقه وحرسه، عاد إلى الغرفة وحمل جهنجر بين ذراعيه وهو يصيح في جميلة لإحضار بعض الماء والخبز من أجل الطريق إلى المستشفى. قبل أن تدرك، كانت جميلة تقف عند البوابة الخارجية تراقب سحب الغبار التي أثارتها شاحنة عبد الخالق السوداء.

لم ترغب في مواصلة الكلام، وضعتُ يدي على يدها. بدت
معذّبة، تنهدتْ وواصلتْ، تحاول أن تخرج كلماتها في اندفاعة
واحدةٍ قصيرة.

عادوا في اليوم التالي، بوجوه حزينة ومتجهمة، هرعت
جميلة لمقابلتهم. نظر إليها عبد الخالق وهز رأسه. قالت: كان
يبكي، لم أره هكذا من قبل قط.. لم أظن أبدًا.. لم يسع الطبيب
فعل شيء له.. كان ضعيفًا للغاية وظنوا أن لديه عدوى سيئة
للغاية في معدته.. شيء فظيع.. شيء ما استولى على بطنه
فقط، جعل بطنه صلبة كالحجر تحت يد الطبيب.. ظل في
المستشفى حتى الصباح وأعطوه محلولاً لكنه لم يفلح. ظني أن...
ظني أنه *القدر*.

بكت.

– رحيمة جان، أنا آسفة.. لا أعرف كيف مرض سريعًا
هكذا! كان قد تحسّن قليلاً.. تركني أدلّك له بطنه.. ظننت أن
ذلك يريحه...

– لماذا لم يأخذه إلى الطبيب في وقت مبكر؟

كنت أعرف أنها تشعر بالسوء في تلك اللحظة، لم يهمني
ذلك كثيرًا، أردت أن أعرف إن كان بالإمكان فعل شيء، أردت أن
أعرف من الملوم.

– عبد الخالق؟ إنه... لقد أراد ذلك، قبل أن يسافر.

– لماذا لم يفعل إذن؟

هزت جميلة رأسها بحزن.

– رحيمة جان، ما حدث قد حدث الآن، لن تفيد الأسئلة في
شيء، الأفضل أن تتذكريه وتدعي له بالرحمة.

- لقد تعبت من الدعاء، اللعنة.. أريد أن أعرف، ماذا حدث يا جميلة؟

أصررت، كانت تخفي شيئًا ما.

- كان سيأخذه إلى المستشفى لكن... لكن بيبي كلالي اوقفته.

- ماذا؟ لأي سبب على الأرض فعلت هذا؟

- ظنت أن... ظنت أن بإمكانها معالجته بالأعشاب والحساء الذي أعدته له.

غاص قلبي.. كانت بيبي كلالي *ستقتله*.. كدتُ أضحك.. لم تقتل وصفاتها العلاجية تلك أي شخص من أي شيء.. لقد وقفت في طريق ابني إلى الطبيب.. لقد حاول زوجي، فكّرت.. رددت جميلة، كأنها تقرأ أفكاري: لقد حاول حقًا.

تجددت كراهيتي لبيبي كلالي، كانت هي من أخرت علاجه، ظلت تصيح وتجعجع عن غياب أمه التي ينبغي أن يقع عليها اللوم، عرفت الآن لماذا، كانت دائمًا ما تتفاخر بشأن موهبتها في العلاج، كانت تدّعي أن بإمكانها علاج أية علة بوصفاتها المنزلية القوية، وأنها قد فعلت ذلك بالفعل، كانت العائلة تسخر من هذا، كانت تريد أن تبدو صورتها جيدة، الجدة التي جاءت لعلاج حفيدها فيما تلهو أمه المخزية في كابول.

تبقّى سؤال واحد، السؤال الذي أخافه بشدة لأنه ليس له إجابة جيدة، لكنه كان يلاحقني.

- جميلة جان...

بدأتُ، تهدّج صوتي.

قالت برقة: نعم، *جانم*.

كنت عند حافة الهاوية.

- جميلة جان... هل بكى... هل بكى من أجلي؟

جميلة، الأم الرؤوم لستة أطفال، كانت قد ولدت طفلين آخرين استردهما الله قبل أن ترى وجهيهما. جذبتني بين ذراعيها وقبّلت جبيني، كانت تقرأ قلبي.

- عزيزتي *مادر اك*...

الأم الصغيرة همستْ، مع أنني لم أعد كذلك الآن.

- وأي طفل لا يبكي من أجل أمه؟ ما الذي قد يكون أكثر راحة من حضن الأم؟ أعتقد أنه في رقدته حينها كان يشعر بذراعيك حوله، جانم.

قلتُ باكية: لكنني لم أكن معه! لم أكن معه لأحمله، لأمسح دموعه، لأقبله قبلة الوداع! إنه مجرد رضيع صغير! لا بد أنه كان خائفًا!

- أعرف يا رحيمة جان، لكنه لم يكن وحده، لا أحد ليحل محلك، لكن على الأقل كان أبوه معه، حمله أبوه، وأنتِ تعرفين كم يحب عبد الخالق ابنه الصغير.

كان بعد ذلك بعدة أسابيع أن عادت تلك المحادثة عليَّ ببعض العزاء، الآن.. أحتفظ بكلماتها، أحتفظ بها حتى يهدأ قلبي بما يكفي لأفكر أن صغيري شعر بحضن، أن أباه قد احتضنه بحب في لحظاته الأخيرة. أنه لم يشعر بالوحدة التي أشعر بها الآن.

الفصل 55
شكيبه

كنستْ شكيبه أرضية غرفة الجلوس، نفضت التراب عن السجادة الكبيرة جزءًا تلو الآخر، كانت قد تنفست الصعداء بعد أن غادر آصف غرفتها، شاكرة لأنه لم يلمسها كزوجته، على الأقل حتى الآن. كان يشعر بالندم على ما فعله، وقد ميزت شكيبه شيئًا ما في صوته لم تقابله منذ وقت طويل مضى، بدا أن آصف *يهتم بشأن* بنفشه، ربما لم يكن انطباعها الأول عاريًا تمامًا من الصحة، ما زال أمامها الكثير لتعرفه عنه لكنه بدا أن لديه قلبًا.

قضتْ بقية الليلة تعيد كلماته في ذهنها وتحاول أن تفهم كيف صارت زوجته.

لم يسعه وقف الحكم عليها؛ لذلك أوقف الحكم عليَّ أنا، كيف اقترح هذا على الملك حبيب الله؟ هل تعرف جلناز كل هذا؟

تتساءل كيف وافق الملك، ولا زال لديها سؤال آخر، كيف عرف آصف بنفشه؟ كمحظية، كانت حركتها تقتصر على الحريم فقط، لا يبدو الأمر وكأنها قابلته في أثناء تجولها في أنحاء القصر، كانت بنفشه في الأصل حارسة حريم قبل أن تجذب نظر الملك ولا بد أنه رآها حينذاك.

وتركته يدخل؟ رحبتْ به؟

لن تفهمي، هذا كل ما قالته بنفشه لشكيبه، وكانت محقة.

سمعتْ شكيبه تغريد طيور الكناريا، ثلاثة طيور صفراء في قفص أبيض معلّق بفرع شجرة، تغرد أغلب الوقت في الصباح بفرح وبهجة، توقفتْ شكيبه لتنصت إليها لتفكّ شفرة تغريدها.

مر أسبوعان، كان ظهرها يشفى، صار جلدها يحكها ويحرقها أقل، هكذا تعرف أن جراحها تندمل. مع الأيام الجيدة تأتي الليالي الجيدة، تعلمت روتين البيت وعرفت كيف تستقر فيه بلا إزعاج، كانت تعرف من خبرتها أنها لا ينبغي أن تعدّ نفسها عنصرًا ثابتًا في بيت أي رجل حتى ولو كانت زوجته.

صار آصف يوجه لها المزيد من الكلام الآن، لكن حوارهما ما زال مقتضبًا ومؤدبًا، كان ينظر بعيدًا عن وجهها بعد تواصل سريع جدًا بالعين، راقبتْ جلناز تعاملهما من زاوية عينها وبدت راضية أن الزوجة الثانية لا تُضاهيها، بدأت تعدّها مدبرة منزل أكثر منها زوجة ثانية.

رأتْ شكيبه من النافذة أحد الطيور ينقر رأسيّ الطيرين الآخرين، حاولا الابتعاد عنه.. نقر.. نقر.. نقر.. حاولا الطيران إلى الجانب الآخر من القفص الذي لم تكفِ مساحته لخفقان أجنحتهما أكثر من مرة.. حبيسة.. ثلاثة طيور كناريا تغرد في حبسها.

حين عاد آصف إلى البيت تلك الليلة، أبقتْ شكيبه بابها مفتوحًا لتتسمع إلى محادثته مع جلناز.

- سيعقد الزفاف خلال ثلاثة أشهر، إن القصر يستعد لحدث تاريخي.

- أتساءل كم عدد المدعوين؟

- الكثير جدًا، وجميعهم من أهم العائلات في كابول، لعائلة

خطيبته مكانة مرموقة، وتتمتع بنفوذ قوي جدًا، لا يوجد من هي أفضل منها لأمان الله.

– ما اسمها؟ أنا أعرف خالتها عقيلة طرزي، كنت أراها في السوق من حين لآخر وهي صديقة ابنة عمي سهيلا، تتحدث عقيلة جان بود شديد عن ابنة أختها، تلقت تعليمها أثناء إقامتهم في سوريا، أتساءل أي نوع من الملكات ستكونه.

– إنه زواج القوة، أمان الله وثريا طرزي، مع أن حبيب الله لا يسره كثيرًا أن يأخذ ابنه ابنة أغا طرزي.

– لماذا؟

– لأن طرزي يكتب ما يفكر فيه، وما يفكر فيه طرزي ليس دائمًا ما يفكر فيه حبيب الله.

– المشكلة أن طرزي يرى أن حبيب الله لا يقوم بما ينبغي لبناء أفغانستان الحديثة، يرى أن علينا التطلع إلى أوروبا والتعلم منهم.

– لكننا مختلفون، نحن بلد مسلم، لماذا نتعلم منهم؟

– لأنهم يتقدمون ونحن لا، لقد شيد حبيب الله بعض الطرق لكنه لم يقم بأكثر من هذا، يريد طرزي العلم والتعليم وليس التعليم الديني فحسب، لكن أمان الله كله آذان صاغية لأفكار طرزي.

– لكنه ليس الملك.

– سيصير الملك، لا أظن أن أحدًا من أشقائه قد يسبقه، لقد ظل يُعدّ لذلك منذ كان صغيرًا، سيكون ملكًا أفضل بكثير من والده، الذي يقضي أيامه في صيد السمان واستعراض خيله في أرجاء الريف.

تتهدت جلناز، زوجها يحتقر الملك وكانت تخشى أن يصير كرهه هذا موضوعًا للنميمة في النهاية، وإن حدث ذلك فلا أحد يتوقع الرحمة، وقد خاطر بوضعهما بما يكفي بالفعل، لم يكن قد تحدث عن الأمر وهي ليست واثقة من شكوكها، سمعت أشياء من آخرين فقط، رجم إحدى محظيات الملك.. لم تكن لتسأله عنها.. لم ترغب في معرفة المزيد.

رأى آصف عيني زوجته تشردان بعيدًا، كان يعرف أنه سبب قلقها.

– على كل حال، أنا مشغول بعملي. لم يعد لديَّ الوقت لمشورة أمان الله بعد الآن.

هذه طريقته في الوعد بأن يبقى بعيدًا عن القصر.

نظرتْ جلناز إلى الباب، تخيلت الرواق والمرأة المذعورة المختفية في الغرفة البعيدة، ضرّتها. تساءلت إن كانت خطة زوجها ستنجح أم أنه قد أضاف إلى البيت زوجة عاقرًا أخرى.

استمعتْ شكيبه لكل كلمة باهتمام، سيتزوج أمان الله بابنة أغا طرزي، خمنت هذا حين سمعت بخبر تزويجها، أدهشتها سذاجتها.

لماذا سينظر إليّ؟ أنا لا أحد، ليس لديَّ أب أو أم أو لقب عائلة، أنا نصف امرأة بنصف وجه، كم كنت غبية لأفكر في أي شيء آخر!

انتظرتْ شكيبه حتى غادر آصف وذهبت إلى المطبخ لتأتي بشيء ما تأكله، السبانخ والأرز اللذان أعدتهما من قبل باردان لكنها لم تهتم، أخذتْ قطعة خبز وعادت إلى غرفتها، تحركت بهدوء شديد فلم تسمعها جلناز من غرفة الجلوس.

في الليل، استيقظتْ شكيبه على حركة، آصف في غرفتي مجددًا، يقف أمام الباب المفتوح يفكر في العودة من حيث أتى، تسارعت دقات قلبها، دعت الله أن يكون هنا ليتحدث أكثر قليلاً فقط، لم تتحرك.

أغلق الباب فأغمضتْ شكيبه عينيها بقوة، ترجو أن يبتعد، جلس إلى جوارها، بظهره لها، لدقائق قليلة. شعرتْ بحضوره، كان جسدها متوترًا.

ماذا يريد؟

تنهد آصف واستدار إليها، همس: شكيبه، أنتِ زوجتي، لست ملزمة بأي شيء.

لم تجبه، كان صوته هشًا وخافتًا، لم يبدُ كنفسه.

قبضت يداها على بطانيتها بقوة، تعرف أنه لا ينبغي عليها المقاومة، إنها زوجته وهذا واجبها حتى وإن كان يرعبها، تسارعتْ أنفاسها.. استدار لها وأزاح البطانية عنها.. لم تستطع شكيبه إبقاء عينيها مغمضتين بعد هذا.. رأته، رأته ينظر إلى جلباب نومها القطني الأبيض الخفيف الذي استسلم بلا مقاومة.. فك حزام بنطاله ورفع طرف جلبابها أعلى خصرها.. انضغط ظهرها في المرتبة، تمنت أن تذوب في الأرض.. سرت موجة رعب في جسدها فأغمضت عينيها، جزت على أسنانها وباتت زوجة آصف.

الفصل 56
شكيبه

كان في ذلك راحة بشكل ما، صارت تعرف الآن ماذا تتوقع، كان يأتي إليها من حين لآخر ولأوقات قصيرة، يغادر حين ينهي همهمته ولهاثه ليجلس في غرفة الجلوس، أحيانًا يعود إلى جلناز، كانت شكيبه تتجنب جلناز في الصباح التالي دائمًا، تشعر بإحراج وبأنها أساءت إليها.

كانت استراحتها الوحيدة وقت دورتها الشهرية، حينها فقط تستطيع أن تهمس له في الظلام ووجهها يحمر خجلاً.

- سامحني، أنا مريضة.

يفهم ويغادر غرفتها فورًا، يبدو مرتاحًا، كانت ليلة أمس مختلفة، كانت دورتها الشهرية قد بدأت منذ يومين، قالت برقة وهي تضم فخذيها معًا: أنا... أنا مريضة.

لكنه لم يغادر، بل جلس بظهره لها مجددًا، وضع رأسه بين يديه.

- الأمور لا تسير جيدًا، لماذا ما زلت تمرضين؟ هل تكذبين؟

اندهشتْ شكيبه، كان صوته فظًا.

- لا. لن أكذب بشأن... بشأن شيء كهذا.

- وماذا عن كل كلامك؟ عن نساء عائلتك وولادتهن بنينًا؟ لقد ظللتِ هنا خمسة أشهر وما زلتِ تمرضين!

اكتشفتْ مجددًا كم كانت ساذجة، لهذا أخذها آصف من

القصر، لم تنجب له جلناز أطفالاً، لم يكن يريد شكيب... كان يريد أبناء.

- أنا... أنا... لم يكن كذبًا، لدي إخوة... أنا...

- هذه مزحة! كيف هذا؟ كانوا سيعدمونك، أتفهمين هذا؟ اتفهمين مما أنقذتك؟

كانت تعرف أكثر من أي شخص آخر مما نجتْ، كانت قريبة بما يكفي لترى تسرب الدم في شادور بنفشه وفي التراب، إنها تعرف جيدًا جدًّا مما أنقذها.

- أنا أفهم.

- أتفهمين؟ أتفهمين حقًّا؟ ماذا سيقول الناس؟ زوجتان من دون ابن واحد! أتعرفين ما يفعله هذا بي؟ كان غاضبًا، سمعته جلناز عبر الجدران الرفيعة، تقلبت على جانبها، تعرف أن شكيبه تتلقى وحدها غضبه منهما معًا.

- حارسة حريم! أكنت تحبين كونك رجلاً؟ ربما هذا هو الأمر! لقد أحببت كونك رجلاً كثيرًا جدًّا لحد أنك الآن ترفضين كونك امرأة! ما أنتِ؟ أنتِ لست رجلاً! ولست امرأة! أنت لا شيء! هل لديك أي شيء لتدافعي به عن نفسك؟ أين كل تفاخرك الآن؟

- أنا... أنا...

لم تعرف ماذا تقول.

- أنا أطعمك وأكسيك مقابل لا شيء! وهذا ما تفعلينه في المقابل؟! عليَّ أن ألقي بك في الشارع! عليَّ أن أعيدك إلى القصر ليفعلوا بكِ ما يشاؤون! أنتِ ووجهكِ اللعين! اللعنة عليكِ!

انتظرتْ أن يضربها لكنه لم يفعل، تكوّرت خائفة في ركن

على مرتبتها، اندفع آصف نحو الخارج وصفق الباب خلفه، بعد ثوان قليلة، سمعت صوت تهشم زجاج ثم صوت صفق البوابة المعدنية بقوة، غص حلقها، زوجها الغاضب محق.

لست رجلاً، ولست امرأة، أنا لا شيء.

بعد ذلك بدقائق قليلة تسللت جلناز بهدوء إلى غرفة شكيبه، أضاء نور القمر الفضي أرض الرواق عبر الباب المفتوح، حدقت فيه الزوجتان، ما زال غضب آصف يتردد صداه في البيت، تحدثتِ الزوجة الأولى أخيرًا.

- نحن متزوجان منذ سنة حتى الآن ولم أستطع أن أحمل بطفل له، سيدور رأسك إن سمعت بكمّ الأعشاب التي تناولتها بناء على تعليمات جدتي، صليت في المقام المحلي وتصدقت للفقراء، لا شيء.. تأتي دورتي شهرًا تلو الآخر مثلك، ظنّ أنكِ ستكونين مختلفة لكنني أشك الآن أن الله قد لعنه وآن أيًا كانت المرأة التي معه أو عدد النساء اللاتي يأويهن، فليس من نصيبه أن ينجب أبناء.

والآن.. الآن.. وقد صار يحمل ذنوبًا ثقيلة على كتفيه، ربما يكون قد أفسد قدره أكثر.

كانت تلك أول مرة تشير فيها جلناز إلى تورط آصف في فضيحة القصر، لم تكن شكيبه متأكدة من قدر ما تعرفه جلناز.

- لقد كنتِ حارسة في الحريم، أخبرني بهذا فقط، كنت تعيشين كرجل.. شعرك القصير.. طريقة سيرك.. طريقة إخفائك صدرك.. ظني أنكِ كنت راضية بذلك أكثر.. للأمانة، لن أمانع في تجربة الأمر بنفسي.. أتساءل كيف سأشعر لو استطعت السير بحرية في الشوارع، من دون ألف عين ناقدة. هل تفتقدين الأمر؟

كانت شكيبه -المرأة/الرجل- قد فكرت في هذا كثيرًا جدًا.

- كنت أشعر جيدًا بالفعل، لكن... بنطال أو تنورة، هذا لا يغير شيئًا في النهاية، حين حدث ما حدث، كنتُ عاجزة كأي امرأة...

قررتْ شكيبه ألا تذكر الجَلد.

- وأنا الآن هنا.

حدست جلناز ما تعنيه شكيبه.

- لا بد أن الأمر كان مريعًا، ما فعلوه بكِ.

شعرتْ شكيبه بظهرها يتشنج، ما يزال هناك ثلاثة جروح لم تندمل بعد تشعر بها كلما استحمت، تساءلتْ كم عدد جروحها التي لا تراها، تنهدتْ جلناز.

- كان غاضبًا جدًا، لم يقل الكثير لكن الزوجة تعرف زوجها، كان غاضبًا منذ البداية، ولم أفهم لماذا حتى أخبرتْني أخته عنها، أرادتْ أن تخبرني أنني لم أكن اختيار أخيها الأول.

عنها.. نظرتْ شكيبه إلى جلناز من زاوية عينها.. تعبيرها خالٍ.. كانت جلناز تتحدث عن بنفشه.

- كان يعرفها من قبل، كانت من عائلة فقيرة مكوّنة من ثلاث فتيات، يلعن أبوهن حظه، مجرد فتاة تعيش بالقرب من بيت عمه، لا أعرف كيف، لكنه رآها مرة أو مرتين.

- أراد أن يتزوجها لكن أباه رفض الفكرة، ليست من عائلة مناسبة، ليست من مستوى ابنه، لكنه أصرّ. ظل يحاول إقناع أباه حتى كاد ينجح حين أخذها أبوها إلى القصر ليتخلص من إحدى الفتيات اللاتي يطعمهن. كان غاضبًا، لكنها حين صارت بعيدة عن مناله خلف أسوار القصر ترك والده يختار عائلة أخرى وتزوجنا.

استمعتْ شكيبه باهتمام، لم تكن جلناز تتحدث إليها بشكل خاص.

- الرجال لا يحبون حرمانهم من شيء، حتى ولو بأمر من الملك، لن يقول ما حدث هناك بالضبط لكنني أعرف أن شيئًا ما حدث، أعرف أنه كان بالتأكيد أمرًا فظيعًا لأنه عاد إلى البيت بعينين حمراوين بشدة وبدا أنه سيبكي دمًا، وظل لأيام لا يأكل ولا ينام ولا يتحدث.

نظرت شكيبه بعيدًا، لم ترغب في توضيح شيء وتمنت ألا تسألها جلناز.

- ثم عاد إلى البيت ذات يوم كأنه قابل *الشيطان* لتوه، كانت عيناه قاتمتين وجادتين وجلس يحدق في الجدران، يتمتم بشيء ما عن التوبة، ويستغفر الله. ثم أعلن أنه سيأتي بزوجة ثانية لأنني لم أستطع إنجاب ابن له، لمْ يكن بوسعي قول شيء له في هذا، خاصة حين رأيت وجهه، كانت عائلته قد تحدثت معه في الأمر منذ شهور لكنه لم يبدُ متحمسًا، لكنني فكرت... حسنًا، حين قال إنه سيحضر إلى البيت زوجة ثانية، تساءلت إن كان مجنونًا بما يكفي ليحضرها إلى هنا لكنه أتى... بكِ.

أبقتْ شكيبه عينيها في الأرض.. رأسها يدور.. لم تخذله بنفشه.. كانت تحبه، لدرجة أنها ضحت بحياتها لحمايته، كيف لامرأة أن تحب رجلاً إلى هذا الحد؟

أنقذ آصف حياتها من أجل بنفشه، لهذا كانت شكيبه ممتنة.

الفصل 57
رحيمة

كنت فتاة صغيرة ثم لم أعد كذلك.

كنت باشابوش ثم لم أعد كذلك.

كنت ابنة ثم لم أعد كذلك.

كنت أمّاً ثم لم أعد كذلك.

ما أن يمكنني التعود، يتغير الحال. أنا أتغير. كان هذا التغيير الأخير الأسوأ.

- رحيمة جان، تذكري أن في الحياة أعاصير. تأتي لتقلب كل شيء رأسًا على عقب. مع ذلك يظل عليك معاودة النهوض لأن الإعصار التالي قد يضربك فجأة.

لم أتغير كثيرًا منذ أن فقدت ابني. صار عبد الخالق منعزلاً. أصبح حضور بيبي كلالي أقوى من أي وقت مضى، تحرص على أن تظل العائلة مرفوعة الرأس. كان علينا الالتزام بالحداد كما ينبغي وإلا تحدث عنا جيراننا. كانت تضيق عينيها وهي تحدق فيّ، تتأكد من لون ثيابي ومن تعبيرات وجهي.

حين يشرد ذهني، تمسك بي وتخبرني أن أكفّ عن الشرود. أن أعود إلى العمل. الا أتوقع أن أظل راقدة هناك إلى الأبد. ما زالت توجد أرضيات لمسحها، وملابس لغسلها، والأفضل لي أن أعود إلى الروتين المعتاد.

يجب منح الأم الثكلى أربعين يومًا للحداد، لا بد أن زوارنا

يفكرون في هذا. لكن بيبي كلالي، والدة أقوى رجل في الإقليم
كانت تعرف أن اهتمامهم يأتي من باب الخوف وليس التعاطف
لذلك لم تهتم بما يقولونه.

ظلت خالة شايما تستجمع قواها لتزورني. كلما غادرت
أتساءل إن كانت ستصل إلى بيتها سالمة. وأخشى ألا تعاود
زيارتي ثانية. كنت في حاجة إليها. كنت في بيت يعج بالناس
وأشعر بوحدة تامة. كان شيء ما في ذهني. شيء ما لم أرغب
في الاعتراف به لنفسي أو لجميلة. لا أعرف كيف أعبر عنه.

- خالة جان، أتعرفين ما يظنه أهل كابول عنّا؟

- عن ماذا تتحدثين رحيمة؟

- إن كابول مختلفة عن القرية. تمامًا كما فكرت بيبي
شكيبه. من المذهل عدد السيارات، والناس، واللافتات. يوجد
زحام شديد هناك.

بدتْ قلقة من أن أكون قد فقدتُ صوابي: ما علاقة هذا
بأي شيء؟

- أتساءل كيف ينظرون إلينا. لديهم هناك أبنية، بنوك،
سيارات أجرة، فنادق. أناس من جميع أنحاء العالم، شركات بناء
تعمل على مباني جديدة. صالونات تجميل ومطاعم.
مستشفيات.

- لقد رأيت أماكن كثيرة في سفرك أليس كذلك؟ يبدو أنك
لم تحكي لي عن بعض الأشياء!

ابتسمتْ بأسى.

- حقًا. والبرلمان... أحيانًا لا أصدق أن هذا العدد من
الأشخاص يجتمع في غرفة واحدة. ويتحدثون عن أشياء، حتى

..ص النساء. أحيانًا يتحدثون عن أشياء لا أحد في هذه القرية ..ر فيها طوال حياته.

- رحيمة جان، ماذا يدور في ذهنك؟ هل حدث شيء ما في كابول؟

- حدثت أشياء كثيرة في كابول. إنها مختلفة تمامًا عن هنا.

بدت خالة شايما مهتمة.. وهل هذا شيء جيد؟

نظرتُ إليها. أي شيء مختلف عن هنا سيكون جيد جدًا.

..لتُ وقلبي يثقله القلق: لكن يوجد شيء ما آخر.

- حقًا؟

أومأت برأسي.

- ما هو؟

نظرتُ بعيدًا، بدأتْ عيناي تدمعان.

- فهمتُ.

عرفتُ أنها فهمت. خالة شايما تعرفني أفضل من أي شخص آخر. تنهدتْ بعمق وهزت رأسها: حسنًا، هذا شيء ما للتفكير فيه إذن.

فكرت في الأمر كثيرًا. تفكير لم أهتم بالاعتراف به.

من اقترب من الموت لا يخاف خسارة شيء. يمكنه التفكير في أشياء، وقول أشياء وفعل أشياء لا يستطيعها الآخرون. كنت أنا وخالة شايما على هذه الحال. هي بسبب صحتها وبسببي، وأنا لأنني فقدت الرغبة في الاستيقاظ في الصباح. بدأت محادثتنا. بكلمات مسكوت عنها، بكلمات مشفرة، وبنظرات عليمة. كان من الصعب قول ما نفكر فيه نحن الاثنتان لكنه كان شيئًا ما لاكتشافه.

لأن الجميع، كما تقول خالة شايما دائمًا، في حاجة إلى مهرب.

الفصل 58
شكيبه

مر عامان طويلان قبل أن تستطيع شكيبه رد الجميل
لآصف أخيرًا. ظلت هي وجلناز في البيت معًا وتحملتا نوبا
غضبه، عندما سيطر عليه إحباطه. كان يثور عليهما ويعنفهما
ويهينهما. يقذف بالأشياء، حطّم زجاج النافذة مرتين، وكا
يغضب مجددًا حين يدفع مقابل إصلاحه.

وحّد القلق المرأتين. كانتا تتشاركان الزوج، واللوم، والعقوبة
كانتا تتشاحنان فيما بينهما أيضًا. كرهتْ شكيبه تكبر جلنا
وطبيخها الماسخ. وجدت جلناز شكيبه مملة وسطحية، الحديث
معها لا يفيد بشيء. لكنهما جعلتا الأمر يفلح. تضيف شكيبه
البهارات إلى الطعام حين تدير جلناز ظهرها وتتحدث الأخيرة
بما يكفي نيابة عن ضرتها المملة.

مرت شهور قليلة كهدنة متوترة حين بدأت بطن جلناز
تنتفخ. أخبرت شكيبه حين لاحظت أنها لم تحض منذ شهرين.
فكرتا في الحمل حين بدأت جلناز تتقيأ مرة كل عدة أيام. أكدت
شكيبه أن تلك هي علامات نمو الطفل، كما عرفت من الحريم.
لم تقولا شيئًا لآصف؛ إذ ليس من اللائق مناقشة هذه الأمور
الحساسة مع الرجال، لكن آصف حين لاحظ بروز بطنها، ابتسم
برضا، ودخل غرفة شكيبه بعد حلول الظلام بحماسة متجددة.

يعود إلى البيت ويتناول الطعام مع زوجتيه. صاروا يتناولون

الطعام معًا، ثلاثتهم، من حين لآخر. حرصتْ شكيبه على ألا تهمم إليهما كثيرًا، إذ قد ينظر إليها آصف الآن، بعد أن أصبحت جلناز حاملاً، باعتبارها خيبة أكبر من ذي قبل.

لكنه كان مشغولاً بتوقع ولادة الطفل. سكتت عائلته، خفتت مؤقتًا همساتهم السابقة عن ضرورة اتخاذه زوجة ثالثة. كانتا جلناز وشكيبه تعرفان أنه يفكر في الأمر بينه وبين نفسه لكنه فقط لا يسعه تحمل نفقات زواج آخر وفم آخر لإطعامه.

جاء رمضان وانقضى. أشرق وجه جلناز، المعفية من الصيام، بسرور وبطنها يتضخم، امتلأت وجنتاها وصار صوت تنفسها أعلى. كانت تلهث في سيرها من غرفة الجلوس إلى المطبخ. كانت شكيبه قد رأت حوامل كثيرات لكنها لم ترَ واحدة غير مرتاحة مثل جلناز. لم يصعب ملاحظة أنها كانت تلهث وتتنهد في وجود شكيبه فقط لتسمعها.

حين جاء المخاض، هرولت شكيبه مسافة أربعة مبان لاستدعاء القابلة. عضت جلناز على شفتيها وتلوت من الألم، تلاشتْ ابتسامتها المتكبرة الآن. جاء آصف إلى البيت وسمع توجيهات القابلة لجلناز من بين صراخها، فغادر مجددًا. مرت الساعات.

وُلد الطفل أخيرا، قبل أن يعود آصف إلى بيت صامت تمامًا. ابتسمتِ القابلة له بأدب وهنأته وهي تلف وشاحها حول كتفيها ثم سارت إلى البوابة الخارجية. أومأ آصف لها وتوجه إلى غرفة جلناز. تظاهرت شكيبه بأنها لم تسمعه يدخل وأبقت رأسها أعلى الموقد، تضيف الدقيق في زيت ساخن وتقلبهما فيما يتكثف القوام. *ليتي*، حساء الدقيق الساخن بالسكر والمكسرات، سيساعد رحم جلناز على التعافي ويدرّ لبنها. انتظرتْ شكيبه.

- بعد كل هذا؟ فتاة؟ كيف هذا؟

غمغمتْ جلناز بشيء ما لم تسمعه شكيبه. صاح: ألا توجد نهاية لعذابي؟

بدأتِ الطفلة تبكي.

فكرت شكيبه: *حتى المولودة تعرف أنها غير مرغوب فيها*. ذهب إلى غرفة الجلوس وصاح مناديًا شكيبه لتعدّ له شيئًا ليأكله.

- والأفضل أن يكون ساخنًا، لقد خاب أملي بما يكفي اليوم.

نام في غرفة الجلوس. تردد شخيره في الرواق. سارت شكيبه على أصابعها إلى غرفة جلناز. كانت ترقد على جانبها تحاول إرضاع ابنتها بشكل غريب. أجلستها شكيبه وأرتها كيف تضع الطفلة تحت ثديها الممتلئ. شفتان ورديتان صغيرتان تنفتحان وتنضمان معًا ببطء، انغلق فمها على حلمة جلناز.

لاحظتْ شكيبه نظرة الدهشة في عينيّ جلناز.

- كنت حارسة في بيت مليء بالنساء والأطفال. ساعدتُ في ولادات كثيرة.

- حسنًا، أنا لم أفعل. لو كانت أمي على قيد الحياة. لاختلف الأمر الآن.

تنهدتْ شكيبه. لو كانت أمي على قيد الحياة.

- ماذا ستسمينها؟

- شبنام.

ندى الصباح.

- اسم جميل. لقد أعددتُ لكِ *ليتي*. أنتي *زاشا* الآن. الطعام الدافئ سيفيد جسدك.

الطعام الدافئ والبارد ليس له علاقة بدرجة حرارة الطعام،

ل بخاصية غامضة أصيلة في الأطعمة. عين الجمل والتمر دافئان. الخل والبرتقال باردان. تترك آلام الولادة الجسد باردًا وفي حاجة إلى نظام غذائي من الأطعمة الدافئة.

تناولت جلناز الصحن بشهية. جعلتها ساعات الإجهاد شاحبة ومرهقة وعصبية. أخذت ترشف الحساء الساخن بالملعقة، توقفت مرة واحدة لتنظر إلى شكيبه بامتنان.

– أنا سعيدة لأنك هنا يا شكيبه.

تجمدت شكيبه. لم يكن من طبع جلناز قول شيء كهذا، ما جعل شكيبه ترتبك. حملتِ الطفلة بدلاً من الإجابة بشيء.

– ظننت أنني سألد ولدا. انتظرنا كثيرًا جدًا. وفي النهاية يعطيني الله بنتًا.

– آصف منزعج.

– يقول إنها غلطتي. لا يريد أن يحملها. كان منزعجًا جدًا.

– ستنجبين أطفالاً آخرين. لقد أنجبت واحدة. الباب مفتوح الآن. سيعطيك الله آخر.

– ربما. يريد أن يسميها بنفشه.

رفعت شكيبه بصرها مندهشة. كان وجه جلناز هادئًا.

– تخيلي هذا. أن أسمّي ابنتي بنفشه. إنه مجنون.

– ماذا قلتِ له؟

– أخبرته إنني لم أتشاجر معه من قبل، لكنني لن أدعو ابنتي بهذا الاسم تحت أي ظرف من الظروف.

– ثم؟

تلوّى وجه جلناز بالألم. وضعتْ شكيبه يدًا على كتفها بشكل عفوي ومالت نحوها.

- ما الأمر؟
- لقد حذّرتني من الآلام.
- ماذا؟
- إنه رحمي. قالت القابلة أن رحمي سيغضب ويظل يبحث عن الطفل الذي كان يحمله.
- أهو غاضب؟
- لا بد أنه كذلك. أشعر به ينقبض كقبضة يد آصف.
مرت الانقباضات خلال دقيقة وتذكرت جلناز محادثتهما.
- لم يكن سعيدًا. غضب وثار. قال إن بنفشه اسم جيد لفتاة، لكنني أظن أنه يعرف جيدًا أنه مخطئ.
فكرتْ شكيبه: *وإن وصل الخبر إلى القصر سيثير الشكوك حوله*. ابتسمتْ للتفكير في أنه لن يُصر على رأيه.
- سوف أحممها مرة أخرى، ما زال هناك دم في شعرها.
منحتها جلناز ابتسامة ضعيفة وأغمضت عينيها، ممتنة لقسط من الراحة.

مر عام شبنام الأول برعاية أمّين. تناوبتا جلناز وشكيبه تحميمها وإطعامها وهدهدتها لتنام. أمسكتْ شكيبه براس الطفلة لتكحّل جلناز عينيها، ثم مرة أخرى بعد ذلك بشهر لتحلق لها رأسها لينمو شعرها كثيفًا. قدّمت شكيبه الشاي والمكسرات حين جاءت عائلة آصف للزيارة، ذكّرت تلك الزيارات الزوجتين بكم هما محظوظتان لأنهما لا تعيشان في بيت عائلة بران. لم تحاول والدة آصف إخفاء اشمئزازها من شكيبه. كانت أول من اقترح على آصف اتخاذ زوجة ثانية بعد أن ثبت أن زوجته الأولى معيبة لكن تلك المخلوقة المشوهة برحم عقيم هي الأخرى لم تكن ما تتوقعه.

حملتْ حفيدتها لكنها ظلت تجوب بعينيها في غرفة الجلوس، تبحث في بيت ابنها عن دليل إهمال من زوجتيه. كان لديها موهبة دس الانتقاد في الإطراء.

– ظهر لون سجادكما أخيرًا، يبدو أن أحدًا أخذ وقته لتنفيضه، هه؟ كم مضى على هذا؟ كان عليَّ أن أغسل ثوبي حين عدت من هنا آخر مرة.

لم ترد شكيبه ولا جلناز على ملحوظتها. سيغذي هذا النيران فقط.

– جلناز جان، كان الكعك الذي أرسلته طيبًا! أمر رائع أنك بدأت صنع حلويات أخيرًا!

قالت جلناز، تتجاهل الملحوظة الجانبية الخاصة بها: إنه من صنع شكيبه جان، لا يمكنني تلقي المديح بسببه. هي من صنعت كعك زهور الماء وأرسلته إليك.

– آه، جيد. لقد تعجبت كيف بعد كل هذا الوقت بدأتِ تُحلين فم زوجك بشيء ما طيب. شكيبه جان، كان الكعك أفضل من الكعك الذي ترسله خانم فردوس كل عام لعائلتها وجيرانها.

قالت شكيبه بهدوء وهي تملأ كوب شاي حماتها: نوشي جان، خالة جان، تناولي واحدة أخرى.

– ربما سأفعل. كنتاي لا تقدمان هذه الأشياء كثيرًا.

هزت تنورتها، سقط سيل الفتات على السجاد المغسول حديثًا.

– من يدري، مادر جان، ربما لا يتسنى لنا نحن تذوقه كثيرًا.

قالت بريزة ضاحكة. أخت آصف الكبرى. غالبًا ما تصاحب امها في الزيارات، تترك أطفالها الأربعة في البيت لتنضم لأمها في دوائرها الاجتماعية.

ابتسمتْ والدة آصف لتعليق ابنتها. امتدت زاويتا شفتيها لأعلى وألقت الشعيرات الداكنة على شفتها العليا ظلاً. فتحت شكيبه إبريق الشاي ومع أنه كان ما زال ممتلئًا، عادت إلى المطبخ لتعيد ملأه.

تنفستا جلناز وشكيبه الصعداء حين غادرتا والدة آصف وأخته أخيرًا. جمعتْ شكيبه فتات الكعك من على السجادة وألقت بالقطع الكبيرة في قفص طيور الكناريا. التي صدحت وغردت ببهجة، راقبتْها شكيبه وهي ترفرف من أحد جانبي القفص إلى الآخر.

لدى اثنين منهما بقعتان خاليتان من الريش في رأسيهما حيث اعتاد ثالثهما العدواني نقرهما. مع ذلك، بدت الطيور راضية. راقبتْها شكيبه بحرص، تقدَّز نحوها بوصات قليلة من حين لآخر لتراها بشكل أفضل. أدخلت شكيبه أصابعها من بين أسلاك القفص لتلاعبها. تراجعت الطيور إلى الجانب الآخر من القفص على الفور، مذعورة من تجرُّؤ شكيبه على اقتحام بيتها.

سحبت شكيبه أصابعها وشاهدت ارتخاء أجنحة الطيور، خفتَ الخوف في صيحاتها القصيرة.

الفصل 59
شكيبه

لم تشك شكيبه في الأمر. مع أنها تعرف علاماته، لكن ذلك لم يخفف صدمتها من الحَمْل. مضغت قطعة زنجبيل خام وحاولت تجاهل الشعور بالغثيان.

سأصير أمًّا: سيكون لدي طفلي. هل هذا ممكن؟

كان ذلك يعني استراحة دائمة من حياتها السابقة. لن تطفو ثانية بين النوعين كالطائرة الورقية في الهواء. لن تربط صدرها مرة أخرى لتخفيه. لن تخدع أحدًا.

راقبتْ شابنم وهي تشد كم أمها تحاول الوقوف. تعلمت الحبو منذ شهر واحد تقريبًا وقد ملته بالفعل. كانت فتاة جميلة. خصلات شعرها المجعدة داكنة وكذلك أهدابها، وجهها مبتسم ممتلئ. خففت روعتها من خيبة أمل أبيها. لكنه كان يبتسم لها فقط حين يظن أنَّ لا أحد يراه. كان يدعها تحبو إلى حجره وتعبث بيدها في وجهه حتى يسمع صوت خطوات فيصيح: تعالي وخذي ابنتك! إنها تثير أعصابي!

تقول جلناز وهي تحمل الطفلة من حجر أبيها: شابنم، تعالي واتركي أباك لشأنه.

كانت شكيبه قد رأته يربت على خدها وعلى فمه ابتسامة هادئة وهو يراقبها تصفق براحتيها معًا بخرق. كان يضحك على طريقة انقلابها على ظهرها، ممسكة قدميها.

تنهدت جلناز: لكنه سيظل يزدريها دائمًا.
أوضحتْ لها شكيبه: هكذا الأمر مع الفتيات، الفتاة لم
ابنة والديها، الفتاة ابنة آخرين.
على جلناز أن تتحلى بالحكمة في هذه الأمور. قا
شكيبه.
حاولت إخفاء حملها عن جلناز، ظنت أنها قد تحسد ها
كانت تظل في الحمام حتى زوال نوبة الغثيان وإفراغ معدتها
تمامًا. تُحرك الأطشات ليخفي صوتها أي صوت آخر. كا
جلناز مشغولة تمامًا بشابنم فلم تقلق شكيبه كثيرًا.
لم يلحظ آصف الأمر أيضًا. بعد ولادة شابنم، بردّت
الأمل نيرانه لفترة. كان يفتح باب شكيبه أقل من المعتاد وكا
هي ممتنة للاستراحة. لم تكن تحب شيئًا من لهاثه وتعر
وكانت تكره حين يدير وجهها جانبًا، كأن عاهتها قد تفس
شهوته حتى في الظلام. لكنه بعد ثلاثة أشهر، تجدد عزمه
كانت تعلق أملها على دورتها الشهرية فقط لتنقذها من واجباتها
الزوجية.
بمعدتها المضطربة، ازداد نفورها من زيارات آصف. فجأ
شعرت برائحة جسده تقلب معدتها، حبست نفسها لأطول فتر
ممكنة، أخذت شهقات طويلة من حين لآخر ظنها زوجها بفعل
اللذة. توقف ونظر إليها مندهشًا. قال بابتسامة ماكرة: أنت
تستمتعين بهذا أليس كذلك؟ أم إنك تتظاهرين؟
لم يلحظ نمو بطنها إلا بعد تأخر دورتها لستة أشهر. نظر
إليها بفضول وهي تستند إلى الحائط لتستريح بعد العشاء. كانت
جلناز تعمل بالإبرة وشابنم نائمة بجوارها. حاولتْ شكيبه بحركة

..., جمع ثوبها أعلى بطنها البارز. الذي تركزت عينا آصف عليه. ربما يوجد أمل لهذا البيت رغم كل شيء، ما دُمنا لا نكرر .طاءنا.

احمرّ وجه شكيبه. زمّت جلناز شفتيها قليلاً لتلحظ شكيبه .. ط توتر وجهها. كانت قد واجهتْ شكيبه منذ شهرين، بعد أن ا .طت كيف تُبعِد قدمي شابنم بعيدًا عن بطنها.

حين أومأتْ شكيبه، ابتسمتْ جلناز، ولكن بتردد. تعرف ماذا .يعني الأمر لو أنجبت شكيبه الابن الذي يريده آصف.

أطلق آصف قهقهة عالية، صوت غريب في غرفة هواؤها .مل للغاية.

- سنرى ماذا ستفعل شكيبه.

همست جلناز لشكيبه وهي تنظف الأواني: إنه مختلف تمامًا .ما كانه منذ عامين. أتصدقين أنه اعتاد أن يأخذني لنتمشى .مًا في الأمسيات؟ نفس هذا الرجل! سممه العامان الماضيان. لا ا.عرف ماذا سيصبح إن تلقى بنتا أخرى. لا شيء يمكنك فعله الآن أليس كذلك؟

كانت شكيبه ترقد مستيقظة في الليل تفكر في السؤال .نفسه. تذكرت جميع وصفات محبوبة لكن الوقت كان قد تأخر. اخبرها أحد ما عن المفعول القوي لكبد الدجاج، تذكرت ذلك وأسرعت في اليوم التالي إلى السوق لشراء كل ما وجدته من كبد الدجاج. لم تكن تفوت فرصًا، تنظر في السقف وتكور يديها وتهمس بتضرع متجدد.

يا رب، يا رحـــيم، أتوسل إليك أن تهب آصف الابن الذي يريده، اللهم أرضِه لنعيش في سلام معه.

سواء كان السبب أكباد الدجاج أم دعواتها أم إراده الله
فحسب، أنجبت شكيبه ولدًا.
سار آصف برأس مرفوع، ارتسمتْ على وجهه ابتسامة
متعالية وهو يستقبل زيارات عائلته. بالكاد لاحظته شكيبه. كا
مفتونة بالأصابع العشرة، بالشفتين الورديتين الرائعتين والد
الضئيلة التي تبحث عن ثديها. تفقدته من رأسه حتى أخمص
قدمه، لم تجد شيئًا خاطئًا، لا شيء فيه معيب أو مشوه.
- سأسميه شاه. ابني، أمير بين الرجال! ورجل حقيقي
وليس كالجبان الذي ننحني له الآن!
قال آصف يختار الاسم. ميزت شكيبه الحقد في اختياره
كان يجز على فكيه حين يُذكر اسم حبيب الله بطريقة تجعل
شكيبه ترتجف. وقفتْ تقلّب *الليتي* وهي ترتعش. كانت جلناز قد
حاولت صنع بعضه لها لكنها ملأت البيت بدخان أسود بدلاً من
ذلك. علق سخام أسود بالسقف الذي كان أبيض من قبل.
لم ترضَ شكيبه باسم ابنها. كانت تأمل سرًا تسميته
إسماعيل، على اسم أبيها، لكنها عرفت أنها لن تنتصر في هذه
المعركة مثلما انتصرت جلناز؛ لذلك سُمّي الولد شاه، واحتفلوا
في يومه السابع لولادته بالصلاة وتوزيع الحلوى.
بمرور الأيام، ازداد رعب شكيبه. كان هناك الكثير من
التربيت على الظهر، تهاني قلبية بالأحضان، سلال من الحلوى
تُرسل إلى بيتهم. كانت قلقة من *الحسد*، أن يفسد حقدُ شخص
ما حسنَ حظهم. كانت حين ينام مليكها وادعًا، تشعل بذور
الحرمل وتحركها أعلاه لتحميه بقواها الخاصة.
لم يكن *الحسد* هو الخطر الوحيد. تذكرتْ شكيبه ما رأت

، كتورة بيهروين تفعله في القصر وغلت كل شيء يقترب من الرضيع. غلت ملابسه، وحتى العين الشريرة التي شبكتها بدبوس في بطانيته الصغيرة. كانت تمسح ثديها بغلظة قبل أن ترضعه. تضاعف خوفها حين عاد آصف إلى البيت يهز رأسه. سألتْ: ما الأمر؟ هل حدث شيء ما؟

كان آصف ودودًا معها تلك الأيام، يحادثها بينما زوجته الأولى تتسمّع بسخط من غرفتها عبر الرواق.

- إنه ذاك المرض اللعين مجددًا، انتشر في القرى. حتى في كابول.

سألتْ شكيبه، منزعجة فجأة: أي مرض؟ كان شاه قد أتم ثلاثة أسابيع فقط. احتضنته بحركة غريزية وهو ملفوف في بطانيته.

- الكوليرا. ربما لم تسمعي به قط. إنه مرض قوي. ليعين الله من يصيبه. سمعتُ أنه أصاب عشرين عائلة على الأقل في كابول. لا يستطيع الأطباء فعل شيء بشأنه.

تعرف شكيبه قوة ذاك المرض أفضل من أي شخص آخر. تخشّب ظهرها.

قالتْ بصوت يرتعش، يتملكها الذعر: يجب ألا ندع الولد يمرض.

- ألا تظنين أنني أعرف هذا؟ عليك أن تعتني به جيدًا فقط وأن تبقيه في الداخل. أنتِ أمه لذلك فالأمر يعود إليكِ في حفظه بعيدًا عن المرض!

عادت شكيبه بذهنها إلى القرية، تراقب إخوتها يلقون حتفهم وينزوون في ركن من بيتهم المتواضع. فكرت في أمها،

التي انفطر قلبها لموت أطفالها، غلت شكيبه الأشياء وغسلتها
ودعت الله بلا توقف.

يا رب لا تدع شيئًا يحدث لابني. إنه أجمل شيء حظيت به في حياتي. يا رب لا تأخذه مني!

حين انحسرت موجة الكوليرا، وجدت شكيبه الوقت لتفكر في أخطار جديدة. لم تكن تدع الطفل يقترب من المطبخ وكانت تبعده عن أي شيء مصنوع من الزجاج. كانت تحيطه بالوسادات ولا تبعد نظرها عنه أبدًا. كان واضحًا أنها لا تثق بجلناز لتراقبه. ماذا لو كسر رجله وصار أعرج؟ ماذا لو سقط عليه شيء وفقد إحدى عينيه؟ كان يمكنها أن تسمع الألقاب. الاستفزاز. طفل صغير حزين. كانت تريد الأفضل لابنها.

- أنتِ تعرفين، لقد اعتنيتُ بشابنم جيدًا ذاك العام الماضي. ظني أنني قادرة تمامًا على حمل رضيع! ما خطبك؟ ماذا تظنينني فاعلة؟ هل سألقي به من النافذة؟

- أنا فقط... أنا فقط قلقة. لا تنزعجي مني، أرجوكِ. الأمر فقط أنني لا أريد أن يحدث له شيء.

نظرتْ شكيبه بعيدًا لئلا ترى نظرة جلناز الغاضبة.

غير شاه كل نظام البيت، حتى نظام أخته الكبيرة غير الشقيقة. حين كانت شابنم تقترب من شكيبه، كانت جلناز تسرع إليها لتحملها بعيدًا، وإن رأتها تتناول شيئًا ما أعدته شكيبه كانت تمد يدها أمام فم الطفلة الحائرة وتجعلها تبصقه. لكنها كانت تفعل ذلك حين تراقبها شكيبه فقط.

استاءت شكيبه لرؤية شابنم تبتعد عنها. كانت تحب الفتاة الصغيرة بقدر ما تحب أطفال الآخرين. وشابنم التي كبرت مع

أمّين، لم تفهم لماذا عليها الآن أن تبتعد عن إحداهما. كانت تنظر إلى شاه بارتياب، كأنها تعرف أنه أزعج بيتها السعيد.

زاد آصف الموقف سوءًا. لم تعد جلناز تنضم إليهما على العشاء، تتذرع دائمًا بشيء ما بخصوص شابنم تريد أن تأكل أو تنام. بالكاد لاحظ آصف، الذي احتفل بفخر بمرور أربعين يومًا على ولادة ابنه، انسحاب زوجته الأولى إلى غرفتها لما يزيد عن أسبوع. زاد ما قاله آصف من سخطها على شكيبه فقط.

– لقد تأخر، لكنه كان يستحق الانتظار. انظري إلى ابني! انظري إلى عافية خديه! إنه أسد، ابني!

كانت جلناز تسمع من غرفتها، تعض على لسانها، وتشكر الله لأن ابنتها لا تعي حتى الآن انحياز أبيها.

– نام إي خودا. اللهم لا حسد.

كادت جلناز تضحك. الحسد لن يستطيع الاقتراب من شاه، بكل التمائم والدعوات والحرمل الذي تشعله شكيبه في البيت. خطر لها حينها أن شكيبه ربما تقلق منها هي. فكرتْ في الأمر قليلاً وأدركت معقوليته. لهذا تريد شكيبه إبعادها عن ابنها الغالي!

وهكذا بدأ انتقام جلناز. راحت تغدق شاه بالإطراء، دون أن تذكر اسم الله عمدًا.

لقد امتلأ خداه بشدة! وتعلم الانقلاب بسرعة! سيبدأ السير قبل أن تلاحظي يا شكيبه جان.

إنه يرضع جيدًا! سينمو ليكون أكبر وأقوى من أبيه! وانظري كيف ينتبه وعيناه تتسعان!

كانت شكيبه تفقد صوابها، تمسك الخشب، تشعل بذور

الحـرمل وتزيد صـلاتهـا. كـانت تحـاول الـرد على الإطرا،
بسرعة.

آه، إنه اليـوم فـقط، بالأمس بالكاد رضع شيـئًـا. لا أظن انه
ازداد وزنًا في الأسبوعين الأخيرين. أشعر به خفيفًا للغاية حتى
أحمله.

ألا ترين نحول سـاقيـه؟ ربما سـيصـيـر قصـيـرًا وبسـاقين
مقوستين، بتغذيته هذه.

تخمرت العداوة بينهما قبل أن تدرك شكيبه بمرور الوقت ما
كانت تفعله جلناز. قررتْ يائسة أن ترد لها الكرّة. كانتا تبقيان
في الفناء ليحظى الطفلان ببعض ضوء الشمس فيما تنشر
شكيبه الغسيل على الحبل. كانت جلناز تروي الزهور.

- انظري إلى شـابنم! إنهـا تسـيـر كـأنهـا ظلت تفعل ذلك
لسنوات! أراهن أنها تستطيع الركض عبـر كـابول كلها بهاتين
الساقين القويتين!

راقبتْ شكيبـه فم جلناز ينفتح قليـلاً وعيناها تتسـعان.
غمغمت بشيء ما غير مفهوم في المقابل.

صاحت شابنم، تشير إلى الطيور: كوو كوو! كوو كوو!

قـالت جلناز دون أن تلتـفت: نعم يا صـغيـرتي، الكوو كـوو
هناك.

- كوو كوو! كوو كوو!

التـفتت الأمّان ورأتا طيـرين صفـراوين فـقط يرفـرفـان في
القفص. سارت جلناز إلى القفص، رأسها يميل جانبًا.

- أين الآخر؟ كيف...

خفت صوتها وهي تقترب من القفص: آه لا!

قالت شكيبه وهي تقترب من القفص: ما الأمر؟
كانت عينا جلناز متسعتين.
- لقد مات.
رقد الطائر على أرض القفص ميتًا بينما يحتضن الاثنان الآخران أحدهما الآخر ويزقزقان بهدوء. صمتنا. لا تمر نذر الشؤم دون أن تُلاحظ.
نحن مثل أم آصف تمامًا، تنهدتْ شكيبه، كلماتنا خناجر.

الفصل 60
شكيبه

هدأت الأمور بين جلناز وشكيبه، الآن بعد أن صار آصف يكن وداً ما لزوجته الثانية المشوهة. دعت شكيبه الله أن يرزق جلناز طفلاً آخر، صبيّاً، لتتعادلا، لكن الشهور مرت ثم السنون دون أن تحمل جلناز. تعلمتا أن تتعاملا معًا بأدب وتراعيا شؤون البيت كما كان الحال حين جاءت شكيبه إلى البيت أول مرة: زوجتان ساخطتان على إحداهما الأخرى بصمت.

كان شاه وشابنم يعوضان عن العلاقة بين أميهما. حين أتم شاه عامه الأول، بدأ يلاحق أخته الكبرى نصف الشقيقة التي تقهقه وتراقبه بفضول الصغار. كانت شابنم أجمل من أمها حتى، تربط خصلات شعرها المجعدة في ذيل حصان خلف رأسها وخصلاته الأمامية تغطي جبينها. خداها ممتلئان ووردیان، لعينيها شكل اللوز ولون البندق. ورثت عن والديهما أفضل خصالهما، وكانت مبتهجة ابتهاجًا غير معتاد في البيت.

نما شاه، كما تنبأت جلناز لتغيظ أمه من قبل، وصار قويًا وأطول من معظم الصبية في سنه. كان شعره كستنائيّاً ذا تجعد خفيف للغاية، وابتسامته تذيب القلوب. كان الاثنان يشكلان زوجًا رائعًا من الأخوة، رغم التشاحن بين أميهما.

في فبراير 1919، كانت شابنم في الخامسة وشاه في الرابعة. كانت درجة الحرارة تقترب من الصفر. على بعد

مئات الأميال من كابول، قلب أحدهم البلد بأكمله رأسًا على عقب. كانتا جلناز وشكيبه مشغولتين في أعمال البيت حين لاحظتا الضجة والصخب في الشوارع. كان الناس يهتفون والأبواب تنصفق. أدخلت شكيبه الطفلين من الفناء إلى البيت، وفتحت البوابة. رأت الرجال يسيرون في الشارع مهرولين، وجوههم مذعورة ويلوحون بأذرعهم عاليًا وهم يهتفون.

- لا، إنه حقيقي! إن أخي في الجيش! ما زالوا لا يعرفون من هو!

- ماذا يحدث؟

- لا أعرف لكن الأفضل أن تعودي إلى البيت وتظلي هناك حتى نعرف.

أغلقتْ شكيبه البوابة واستندت عليها، سرت قشعريرة باردة من المعدن إلى عمودها الفقري. ماذا حدث؟

قابلتها جلناز عند الباب الداخلي. صاح طيرا الكناريا، اللذان يبقيان داخل البيت في الشتاء، بصوت عالٍ، تثيرهما حالة الهياج في الشارع.

- ما الأمر؟ ماذا يحدث؟

- لست متأكدة. فقط سمعت أحدهم يقول إنه من الأفضل البقاء في البيت. شيء ما يحدث.

- أين آصف؟

- الله أعلم.

بعد ذلك بأربع ساعات ظهر زوجهما. كانتا قد أقفلتا الأبواب وأغلقتا النوافذ، خائفتان من شيء لا تعرفانه. وجهه قلق

وجبينه متعرّق، حتى في البرد. قالت جلناز وهي تستقبله عند الباب: آصف! ما الأمر؟ ماذا يحدث؟

أعلن بصوت هادئ وأنفاس ثقيلة: إنه الملك. أحدهم قتل حبيب الله!

خلع قبعته ولفاحه. غطت جلناز فمها بيدها.. يا الله!

- المدينة في حالة رعب. كنت في وزارة الخارجية حين سمعتُ بالخبر. كان في رحلة صيد، كالمعتاد، وأُطلِق عليه النار. ظلوا يحاولون إبقاء الأمر سرّاً فترة، لكن الخبر تسرّب. لا يمكن إبقاء أمر كهذا سرّاً وقتًا طويلاً! ظننا أنها مجرد إشاعات، تعرفين سهولة انتشار الإشاعات في كابول، لكن يبدو أن الأمر حقيقي. الجيش في حالة تحفز وقد أرسلوا إلى أمان الله. والحمد لله أنه في كابول بالفعل.

قالت شكيبه لا تصدق: الشاه...

لم تستطع أن تتبع اسم ابنها بكلمة «مات» في العبارة نفسها.

- ألم تسمعي ما قلته لتوي؟ نعم، مات حبيب الله! اغتيل، ابن الحرام.

قطبت زوجتاه. بعيدًا عن شعور آصف نحوه، ليس من اللائق التحدث بالسوء عن الموتى.

- كيف حدث هذا؟ هل كان هنا؟ في القصر؟

- لا، كان في جلال آباد. لا بد أنه حدث منذ يومين على الأقل، إن كان قد وصلنا الآن. لا أصدق أن أحدًا قتله.

سألت جلناز: ماذا سيحدث الآن؟

وضعت شكيبه يدها على رأس ابنها. كان شاه قد دخل

الغرفة لتوه ونظر إلى أبيه باهتمام. لم تكن لديه فكرة عن معنى كلمة ميت لكنه أحس أن ثمة خطبًا ما.

- لا أعرف. ظني أن أمان الله سيخلفه. عليه هذا. لكن يستحيل الجزم بشيء. لو كان اغتياله انقلابا، فعلى من اغتاله أن يواجه الجيش. لقد أقسم الجيش على ولائه لأمان الله.

- يا الله، رحمتك بنا. قد يعود هذا بكارثة على كابول!

- سنجلس هادئين ونرى. فقط أبقيا الطفلين في الداخل والزما الصمت. هذا ليس وقت التكهن مع الجيران. كونا ذكيتين.

استدارتْ شكيبه بعيدًا لئلا يراها آصف تقلب عينيها. يصعب الاقتناع بوصايا الحكمة تلك من رجل انتهك حرمة حريم الملك وجلب على بنفشه الحكم بميتة فظيعة. أين كان ذكاؤه حينها؟

لكنهما فعلتا كما قال وعاد آصف قلقًا إلى مكتبه في وزارة الزراعة في الصباح. كانت الشوارع خالية والذعر يسود أرجاء العاصمة. خزّن آصف مؤونة من الطعام تحسبًا. ما زال الفاعل مجهولاً ولم يتخذ أحد أي تحرك نحو القصر، لكن الجيش كان على درجة عالية من اليقظة في جميع الأحوال.

لم يكن آصف قد رأى صديقه أمان الله منذ عام تقريبًا وعليه تدبير أمر لقائه بطريقة ما. كان يريد تقديم التعازي والتأكيد على ولائه للرجل الذي سيخلف حبيب الله في حكم أفغانستان. توقف عند القصر، أعصابه على حافة الانهيار.

كان أمان الله حزينًا وغاضبًا، كما أخبر آصف زوجتيه. كان عمّه، نصر الله، قد رافق الملك في رحلة الصيد. جاءتِ الأخبار من جلال أباد أن نصر الله أعلن خلافته للملك، ما أغضب أمان

الله. بدا أن شقيق أمان الله الأكبر، عناية الله، يؤيد عمه، وكذلك العديد من أبناء حبيب الله.

كان أمان الله، ابن زوجة الملك الرئيسة، يعرف أن أباه كان ليختاره هو لخلافته. وكقائد للجيش والخزانة، كان أمان الله في منصب يمكّنه من تولي مقاليد البلاد؛ لذلك أعلن نفسه الملك الجديد من موقعه في كابول.

استطاعتْ شكيبه تخيله، قلبه مثقل بالحزن، ووجهه النبيل متهدل وحزين. سوف يكون ملكًا عادلاً وحكيمًا، تعرف هذا. احمر وجهها خجلاً حين تذكرت كم كانت غبية منذ خمس سنوات، لتفكر أن رجلاً كهذا قد يريدها.

لا أشكو من شيء، مع ذلك. لقد تزوجت رجلاً ذا منصب محترم في وزارة الزراعة. إنه يطعمنا ويكسينا من أفضل الأماكن في كابول. ينفق على أطفاله ولا يضربني. ما الأهم من هذا لأطلبه من الله؟

عمل آصف بحرص ليتقرب من أمان الله، كان الملك الجديد يرحب بمشورة صديقه في تلك الأوقات العصيبة. كان يريد الثأر لأبيه ورأى عددًا من الأشخاص داخل دائرة الشكوك، بما في ذلك عمه نصر الله، الذي، كما قيل، لم يذرف دمعة واحدة على مقتل أخيه. أعلن أمان الله أنه سيجد القاتل وسيبدأ التغيير في أفغانستان. بدأ بالفعل الإصلاحات. منع العبودية، ووعد بزيادة مرتبات الجيش. أعلن أن أفغانستان ستستعيد علاقاتها الجيدة بالهند.

إنه ليس كأبيه. إنه رجل أفضل، فكرت شكيبه وهي تسمع *تلك الأخبار. ليكن الله معك، أيها الملك أمان الله.*

بحلول أبريل، كانت لجنة تحقيقات قد تحرت في مقتل حبيب الله. احتجز أمان الله عمه نصر الله وعشرات آخرين في زنازين القصر. وقف آصف في صف صديقه فيما يستعد القصر لسفك الدماء.

عين أمان الله الكثير من المستشارين في كابول ورحبت كابول نفسها بالتغيير القادم مع حاكمها الجديد. شعرت شكيبه وجلناز بالأمان أكثر حين بدا واضحًا أن جلوس أمان الله على العرش لن يثير مواجهات دامية. مرت كابول بالفترة الانتقالية بسلام، تتوق لرؤية ملكها الشاب الجسور يفي بوعوده. ابتسمتْ شكيبه وهي تعبث في شعر ابنها، تشعر أن أمان الله سيجعل أفغانستان أفضل لشاهها.

تجددت علاقتهم بالقصر، صارت عائلة بران تستضيف بعض مستشاري أمان الله الآخرين. تقدم جلناز للضيوف الشاي والمكسرات اللذين تعدهما شكيبه من مأمنها في المطبخ. كانتا تستمعان للمحادثات، تشعران بالامتياز لكونهما أول من يسمع بأخبار كابول السياسية. كانتا، بالمقارنة بالزوجات الأخريات في حيهما، على دراية أكبر بتلك الشؤون، وكانت جلناز، الزوجة الأكثر اجتماعية، تستمتع بالتفاخر بذلك في محادثاتها معهن. كانت تحرص على أن يعرف جيرانهم قوة علاقة بيتهم بالقصر. في مدينة ككابول، العلاقات هي كل شيء، لذلك لم تكن تستاء من العمل الإضافي الذي يأتي مع ضيوف آصف الكثيرين.

كانتا تتمنيان أن يتحدث الرجال بالمزيد عن ثريا زوجة أمان الله. كان ما سمعتاه بالفعل مذهلاً. إنها متعلمة وجميلة. ولدت في سوريا وتتحدث بلغات عديدة. كان أمان الله يأخذها معه في

كل مكان وكان يستشيرها. كانتا تريدان سماع المزيد عن ملكتهم الغامضة، لكن النقاش عادة ما يدور حول التحرك التالي لأمان الله؛ إذ كان قد قطع وعودًا بتغييرات كبيرة حين تولى منصبه كملك.

- لأي مدى سيستمع لما يقوله طرزي في ظنك؟

قال آصف: سوف يقوم بجميع الإصلاحات، إن سألتني عن رأيي! إنه يوافق حماه، ربما أكثر مما كان يوافق أباه نفسه - رحمه الله وأسكنه جناته-.

تبادلتا جلناز وشكيبة نظرة اندهاش. بدا أن آصف قد تعلّم أخيرًا التحدث باحترام عن حبيب الله، حين اقتضى الأمر.

- أنت مجنون مثل طرزي نفسه. هذه أفغانستان، وليست أوروبا. نحن لسنا مثل هؤلاء وليس علينا محاولة تقليدهم. دعونا نركز على بلدنا نفسه ونتوقف عن التطلع إلى الآخرين.

سأل شخص ما: وما الخطأ في أن نتعلم من الآخرين؟

- الأمر يتوقف على ما نتعلمه منهم.

- ماذا حدث مع أخيه عناية الله؟

- لقد أقسم هو وقليل من إخوانه الآخرين على الولاء لأمان الله. سوف يطلق سراحهم غدًا. لكن عمه سيبقى في السجن؛ إنه مشتبه فيه إلى حد بعيد، سيمكث في السجن في الوقت الراهن.

- الناس غاضبون بشأن هذا. يشعرون أنه ليس عدلاً.

- سينسون حين يرون ما يستطيعه ملكنا. سينسون اسم نصر الله سريعًا.

في مايو، قام أمان الله بما كان آصف قد اقترحه عليه منذ

سنوات حين كانت شكيب، الحارس، تستمع لمحادثتهما في الحدائق. استجمع قواه وأرسل الجيش إلى الهند الجنوبية. كان أمان الله قد فاض صبره بالهيمنة البريطانية وكان يتحرك بتوجيهات من حميه.

«يا مارج يا استقلال!» كان المتظاهرون يهتفون في الشوارع، إما الموت أو الحرية. استمعت جلناز وشكيبه بعصبية، تتمنيان ألا تنقلب الجموع على أي طرف.

كان أمان الله قد ورط البلاد في الحرب ضد الإنجليز للمرة الثالثة. ساد كابول التوتر. تحدث الجميع عن الحرب. كان الجيش صغيرًا لكنه قوي. استعد بيت آل بران. لو خسر الأفغان، بالطبع سيحدث تغيير في نظام الحكم وكان من المستحيل التنبؤ بما سينجم عن هذا.

أعلن آصف وهو يدخل البيت بعد ذلك بثلاثة أشهر: انتهتِ الحرب.

رددتْ شكيبه: انتهت؟

عادتها التي تصيب آصف بالجنون. انتبهتْ ما أن رددت السؤال لكنها تأخرت كثيرًا. ركض شاه إلى غرفة الجلوس ليحيي أباه.

- نعم، هذا ما قلته! دعيني أرى ابني! شاه، أخبار جيدة! لقد انتهتِ الحرب، نلنا استقلالنا عن إنجلترا!

الفصل 61
رحيمة

بعد أربعين يومًا من وفاة جنهجر، كان البيت ساكنًا. آخر أيام الحداد. ذكّرتنا بيبي كلالي: ستكتمل مدة الأربعين اليوم، قد يأتي أحد ليصلي معنا أو مع عبد الخالق. انتبهن لما تقلنه.

عضت شاهيناز على شفتها وذهبت لتحمّم أطفالها. احتفظتُ بمسافة بيني وبينها، والأهم من هذا، حرصتُ أن يظل أطفالها بعيدًا عني. كنت كأم ثكلى أثيرت أعصابها. ربما ظنتني ملعونة. أو خافت أن أحسدها لأن صغارها على قيد الحياة بينما ولدي مات.

أربعون يومًا. ما أمر الأربعين؟ ماذا يحدث بعد الأربعين؟ تساءلتُ. أسأشعر اليوم على نحو مختلف عن الأمس؟ أسأنسى ما حدث منذ أقل من شهرين؟

نحن الأفغان نميز الحياة والموت بفترة الأربعين يومًا، كأننا بحاجة إلى هذا القدر من الوقت لنتأكد من حدوث أي منهما. احتفلنا بأربعين ولادة جهنجر بعد أن غادر رحمي، لم نكن متأكدين من أنه سيظل معنا. والآن، نمر بأربعين وفاته. أربعون يومًا من الصلاة، وحدي، ومع الآخرين، وكل شيء بين هذا وذاك.

ذكّرتني بدرية: مر أربعون يومًا يا رحيمة.

أجبتها: وغدا سيكون الواحد والأربعين.

لا شيء سيتغير.

لكن شيئًا ما قد تغير بالفعل. لأربعين يومًا، ظل عبد الخالق في البيت، يجلس مع الرجال الكثيرين الذين جاؤوا لتقديم التعازي وقراءة القرآن معه. لم يكن ينظر إليَّ كثيرًا. لو كنا زوجين مختلفين لكنت اقتربت منه، لكنت سألته عن أنفاس ابننا الأخيرة، عمّا يشعر به الآن. كنت ممتنة له لأنه كان طيبًا مع ابننا في لحظاته الأخيرة ولا شيء آخر. الآن، أكثر من أي وقت مضى، لا أريد أن يكون له أي شأن بي.

في اليوم الواحد والأربعين، أطلق البيت تنهيدة راحة. لم تعد بدرية وأطفالها يتحدثون بهمس. انقضت الفترة اللازمة لاحترام ذكرى جهنجر.

استدعاني عبد الخالق تلك الليلة. ذهبتُ إليه بخطوات ثقيلة. كان يقف عند النافذة، ظهره لي. عرفتُ أن عليَّ إغلاق الباب خلفي، لكنني لم أفعل. تمنيتُ ألا يكون عليَّ البقاء. قال وما زال ظهره لي: أغلقي الباب.

كان صوته صارمًا، يخفي نبرة تحذير.

أطعته.

- اقتربي.

أردتُ أن أصرخ. أردتُ أن أركض بعيدًا عنه، عن الرائحة العالقة بلحيته، عن يديه الخشنتين، عن العجرفة في عينيه.

ألم أعانِ بما يكفي؟ أردتُ أن أصرخ.

استدار ونظر إليَّ، قرأ الامتعاض على وجهي. اقترب خطوة، صرت الآن في مرمى يده. تنهدتُ وأدرت رأسي بعيدًا، حدّقتُ في السقف.

هزتني لطمة على وجهي. ارتعشتْ ركبتاي.

- لا زوجة عندي تنظر إليَّ هكذا! كيف تجرئين؟

دمعتْ عيناي من الصفعة. كان ما يزال غاضبًا. قبض أصابعه على ذراعي بقوة شديدة لحد ظننت أن عظامي ستتكسر.

- لم أقصد... أنا آسفة، لم أقصد أن...

ألقى بي أرضًا. اصطدمتْ ركبتي اليمنى بالأرض أولاً.

- لا فائدة! ظللتِ بلا فائدة منذ مجيئك إلى هنا! خسارة. هدر لمالي ووقتي. انظري إليكِ! خطأ كبير مني أن أتزوجك. كان عليَّ أن أستمع لما قاله الآخرون لكنني أشفقتُ على أبيكِ. لقد توسّل إليّ، ذاك الفأر! جعلني أظن أن فتياته سيكنّ زوجات صالحات. انظري لما حدث! الواحدة أسوأ من الأخرى.

كانت نوبة غضب. لا شيء جديد ليقوله أو ليفعله، لكن حقده يتقد بحرارة جديدة. مد يده نحوي مرة أخرى فتراجعتُ نحو قائم السرير.

- باشابوش. كان يجب أن أفهم. ما زلتِ لا تعرفين كيف تكونين امرأة.

شعرتُ بسيل الدم عند شفتي وأدركتُ أنه كان عليَّ توقع هذا. حاولتُ تجنب ما رأيته قادمًا. اللكمة التي ستدمرني. حقيقة أم لا، لم أرد سماعه يقولها.

- وأنت أم أسوأ منكِ زوجة! كان ابني يستحق أمًّا أفضل منكِ! لكان الآن حيًا لو كان لديه أمٌّ أفضل منكِ!

أغمضتُ عيني، تدفق الألم. اللكمة الأسوأ. تكورتُ على الأرض أغطي رأسي بيديّ. زحفتُ إلى الأمام، كأنني أصلي تقريبًا. كان يتمتم بشيء ما، لم أسمعه لصوت بكائي.

- أتريدين أن تكوني صبيّاً؟ ربما هذا ما تريدينه! أهذا ما تريدينه؟

الألم في ضلوعي.

- عجزتْ أمي أن تجعل منكِ امرأة؛ لذلك ربما يجب أن نعيدك إلى ما كنتِه! أهذا ما تريدينه؟

لا أعرف من أين أتى بها. ربما من تحت وسادته. أو ربما من جيب سترته. في لمح البصر، قبض عبد الخالق على شعري ورفع رأسي عن الأرض. مِلتُ برأسي للأمام. شدّ شعري ثانية ورفع رأسي لأعلى. صرختْ فروة رأسي. حين رأيت خصلات الشعر على الأرض حولي، أدركت ماذا يفعل. حاولت التملص، توسلت إليه أن يتوقف، لكنه بالكاد سمعني. كان يحاول تمزيقي، تفكيك القطع التي كانت بالكاد ملتصقة معًا.

زاد شعري على الأرض. حاولتُ الزحف بعيدًا لكن قبضته كانت مُحكمة. ارتجفتُ وأنا أشعر بفروة رأسي تنتزع عن جمجمتي. توسلت إليه: أرجوك، أرجوك توقف! أنت لا تعرف!

كان قد بدأ يجز شعري بمطواة رأيته من قبل يدسّها في حزام خصره قبل أن يغادر هو وحرسه إلى اجتماعاته. كانت ثلمة واضطر إلى تقطيع شعري مرارًا وهو يمسك بها بقوة.

- طفل واحد! أنجبتِ طفلاً واحدًا فقط ولم تستطيعي رعايته حتى!

انقلبتْ معدتي.

طفل واحد. طفل واحد.

أردت أن أدعه ينهي بؤسي، أن أدعه يُنزل بي العقوبة التي أؤمن في قلبي بأنني أستحقها. تلك الأفكار القاتمة الداكنة التي

سكنت أيامي ولياليّ، تمنيت أن يمكنه إنهاء كل هذا. ربما
عليَّ استفزازه حتى، لولا...

كان عند حافة الفراش، تباطأتْ أنفاسه. لم يستطع إنهاء
عقابي التي بالطريقة التي كان ينويها.

رقدتُ بلا حراك، متكورة على جانبي عند قدم الفراش
انتظر الإشارة. قال لاهثًا: اخرجي، لا أحتمل رؤيتك.

زحفتُ إلى الباب، ثم استندت على مقعد لأنهض. سمعتُ
خطوات تبتعد بسرعة في الرواق حين خرجتُ. أمسكتُ بطني
المتألم بيد واستندت بالأخرى على الجدار وسرتُ ببطء.

طفل واحد.

في غرفتي، انتظرت. لم يؤلمني جسدي كما توقعت، ربما لأن
ذهني كان في مكان ما آخر. في الضوء الرفيع للصباح، انتظرتُ
بدء النزيف. كنت أعرف أنني سأنزف.

دموع جديدة لفقد جديد.

ربما كنت السبب في موت أحد أطفال عبد الخالق، لكنه
تسبب في موت طفل آخر لتوه.

الفصل 62
رحيمة

– أتريدين الذهاب أم لا؟

تنهدتُ وحدّقتُ في قدميّ. كانت ضلوعي تؤلمني لكن تدليكها يتطلب جهدًا كبيرًا.

– الأمر يعودُ إليكِ. يمكنني دائمًا إيجاد مساعدة أخرى إن لم تعودي راغبة في ذلك. أنا واثقة بأن مكتب الإدارة العامة سيساعدني. يستطيع شخص آخر فعل ما كنتِ تفعلينه.

تلك طريقتها الفعلية في إبداء الاهتمام.

– انظري، أنا لا أهتم في جميع الأحوال...

هذا ليس حقيقيًا وكلتانا تعرف هذا.

– أنا فقط أخبرك أن عليك اتخاذ قرارك بسرعة لأنني سأعود إلى كابول خلال ثلاثة أيام ولو كنتِ تريدين السفر معي علينا أن نخبر عبد الخالق.

تعودت بدرية على مساعدتي. معي يسهل عليها متابعة جلسات البرلمان. كنت أقرأ لها المذكرات. أملأ لها الاستمارات وأقدمها. تستمع عندما أقرأ عناوين الأخبار في الصحف لأعطيها بعض الخلفيات عن نقاشات الجرجا. معي شعرتْ أخيرًا أنها تشارك في العملية، أنها سيدة على إقليمنا ويجب أن يعجب بها الجميع لدورها الذي تلعبه في الحكومة. كأنها تخدم دائرتها حقًا.

كانت تتجاهل حقيقة أن رجلاً آخر هو من يقرر لها ..
التصويت إن كان عليها رفع المضرب الأحمر أم الأخضر. لا..
تصدق كذبة بدرية، النائبة البرلمانية، هذا كل ما يعنيها.

بقدر ما أردتها أن تخرس وتبتعد، كنت أعرف أن عليَّ اتخا..
القرار.

مهرب. عليَّ أن أجد مهربًا.

كنت قد زرتُ قبر جهنجر مرة واحدة فقط، بعد شهرين من
عودتي من كابول لأجده باردًا ورماديًا. سمح لي عبد الخال..
أخيرًا بالذهاب مع بيبي كلالي وسائقه. تقول الخرافات إ..
الموتى يرون الناس عراة، لذلك لم يكن ليسمح بذهاب زوجته إلى
المقابر. لا أصدق هذا، وحتى إن كان حقًا، لا يعنيني. أردت ا..
أرى أين دُفِن ابني. طلبت من جميلة أن تفتح الموضوع معه
وفعلت. عرفتُ أنني أستغل تعاطفها حين طلبت منها هذا لكنني
كنت يائسة. لم أعرف أي مزيج سحري من الكلمات أعدته
جميلة لكن زوجي وافق أخيرًا.

وقفنا أنا وحماتي عند شاهد قبر ابني. تردد عويلها في
الخلاء، الصراخ الحزين نفسه الذي أطلقته منذ شهرين. كنتُ
هادئة. لم يعد لدي دموع لأذرفها.

– يا صغيري الحلو البريء! لا أصدق أن هذا أجلك، أن هذا
قدرك. يا رب يا رحيم، إن حفيدي صغير للغاية لتأخذه منا!

وقفتُ هناك لا أصدق. كيف لتلك الرقعة من الأرض أن
تكون صغيري؟ كيف صارت هي كل ما تبقى من ابني الفضولي
الضاحك؟

لكنها كذلك. ظللت أفكر في هذا، وعويل بيبي كلالي يمزق

. اط قلبي. أردت أن أحفر الأرض، أن أدس يدي فيها وألمس يد
...، ان أشعر بأصابعه حول أصابعي مجددًا. أردت أن أتكور
.ه انبه، أدفئه وأهمس له أنه ليس وحده، وألا يخاف.

- ماذا سنفعل؟ لماذا حلَّ بنا هذا؟ آه، أرى وجهه المبتسم، إنه
,,قص أمام عينيّ ويمزق قلبي!

بدأتُ أبكي. بهدوء في البداية، ثم علا صوتي شيئًا فشيئًا
حتى لاحظته بيبي كلالي من خلال عويلها.

استدارتْ وحدجتني بنظرة جليدية.

- ألم أخبرك مئات المرات أن تنتبهي لتصرفاتك؟ هل
تحاولين فضحنا؟

كتمتُ بكائي، انقبض صدري وأنا أحاول كتم كل ما يجيش
فيه.

- هذا إثم! أنت بذلك تذنبين لمحاولتك لفت الانتباه. لا تؤدِّ
مشاهد هنا. إن هذا يعدّ إهانة للموتى والناس يراقبونك!

لم يكن أحد يراقب. كنا وحدنا تمامًا. وقف معروف في
الخلف، يستند إلى السيارة الرياضية وينتظر عودتنا إليها.
ابتلعت حزني ونظرت إلى السماء. حلقت ثلاثة طيور
رمادية/بنية ذات صدور حمراء أعلانا. رسمت دائرة ثلاث
مرات، تحلق لأسفل نحونا قبل أن تعاود الصعود إلى شجرة على
مبعدة حوالي أربعين قدمًا. كانت تغرد وتحرك رؤوسها بقصدية
شديدة لحد أن ظننتها تتحدث معي تقريبًا.

أخذت بيبي كلالي حفنة فتات من جيب ثوبها ونثرتها على قبر
جهنجر. ثم ألقت بحفنة أخرى على القبر إلى اليسار، وتجاوزت
قبرًا إلى اليمين ثم حفنة أخرى على القبر الذي يليه. تنهدتْ.

- شهر أغا جان، ليسكنك الله جناته إلى الأبد.

ميزتُ اسم جد عبد الخالق. كانت حكاياته، كمحارب عمله تتردد كثيرًا جدًا لحد أنني كنت أذكر نفسي أنني لم أره قط. الله قد توفي منذ عقد تقريبًا.

لاحظتِ الطيور الفتات وطارت مجددًا، حطت برشاقه وراحت تنقر هنا وهناك في الهبة الجديدة. نثرت بيبي كلالي ما تبقى من الفتات على القبور الأبعد. ما زالت تتجاهل القبر إلى يمين قبر جهنجر. قالت بحزن: كلوا، كلوا، كلوا وادعوا الله لحفيدي. ولحماي الغالي. ليرحمه الله ويبقيه بالقرب منه في سلام دائمًا.

راقبت. رفعت الطيور رؤوسها، التقطت الفتات وزقزقت شاكرة. بدت كأنها تدعو الله بالفعل، تحرك رؤوسها الصغيرة لأعلى وأسفل كأنها تصلي. منحني هذا بعض العزاء.

نظرتُ إلى شاهد القبر المجاور لقبر جد عبد الخالق. كانت هذه مدافن عائلة زوجي. تساءلتُ لماذا تجاهلتْ بيبي كلالي ذاك القبر.

سألتُ: من المدفون هنا؟

في العادة لا أبدأ أية محادثة مع حماتي لكنني في تلك اللحظة كنت أهرب من وحدتي. على الأقل جعلتِ الطيور تصلي من أجل ابني. كان جهنجر سيحب رؤية الطيور، مناقيرها الضئيلة. تخيلته يقلدها في سيرها الرقيق، أجنحتها الخفاقة وصدورها البارزة بفخر. أشارتْ بكراهية: هناك؟ هذه جدة عبد الخالق، زوجة شهر أغا. حماتي.

زمّت شفتيها معًا بقوة.

- لمْ تنثري البذور هناك.

حدقتْ بيبي كلالي في الأرض بغضب. ثم تحدثتْ بعد
تفكير قليل.

- لم نكن أنا وجدة عبد الخالق على وفاق دائمًا. كانت امرأة
كريهة، لم يكن أحد يحبها...

أوضحتْ دون أن تنظر إليَّ.

- كنت أحترمها وهي على قيد الحياة، لكنني ليس لدي وقت
لأصلي لروحها الآن.

كانت تلك أول مرة أسمع فيها بيبي كلالي تتحدث عن
حماتها. وكانت أول مرة أسمعها تتحدث بالسوء عن أي شخص
من عائلة زوجها. ذهلت من مدى كرهها لها. لم يكن من المفترض
أن أذهل.

- متى توفيت؟

- منذ عشر سنوات.

أشارت إلى معروف أننا جاهزتان للمغادرة. فتح الباب
الخلفي وعاد إلى المقدمة ليجلس خلف عجلة القيادة.

- كانت امرأة شريرة. كانت تخبر زوجي بأشياء فظيعة عني. لا
شيء منها حقيقي، يعلم الله، كانت تسممه من ناحيتي فقط.

أغمضتُ عيني وركعتُ عند قبر ابني ودعوت الله له مرة
أخرى، رددتُ الدعوات بسرعة شديدة أدغمتِ الكلمات العربية
في رأسي، خوفًا من أن يسحبوني إلى السيارة قبل أن أنتهي.
لكن بيبي كلالي توقفتْ، كأنها تنتظرني.

أخفضتُ رأسي وقبلتُ الأرض، صدحت الطيور بتعاطف
وهي تراقبني من مأمنها حيث حطّتْ بعيدًا.

همستُ، خداي باردان من التراب الفاصل بيني وبين ابني:

أنا آسفة يا جهنجر، أنا آسفة لأنني لم أعتنِ بك. ليرعاك الله دائمًا.

وقفتُ وأخذتُ نفسًا عميقًا، عيناي دامعتان. ركبنا السيارة وأدركت أن بيبي كلالي ما زالت تفكر، بشكل غير عاطفي، في حماتها. قالتْ أخيرًا: جعلتْ حياتي بائسة، فعلتُ كل شيء لتلك المرأة، طبخت ونظفت واعتنيت بابنها كما لم تفعل زوجة أخرى. كنت أطبخ للعائلة كلها، كلما جاءها ضيوف اشتهت طعامًا ما، لكنها لم يكن يعجبها شيء، كانت توجه لي الإساءات كلما أمكنها.

استمعتُ لما تقوله، لأرى جانبًا مختلفًا من حماتي. وشعرتُ، لأول مرة، أنني وهي لدينا قاسم مشترك. على سخرية هذا.

- ماذا حدث لها؟

كانت نبرتها ساخرة ومنزعجة: ماذا حدث لها؟ ما يحدث للجميع! ماتت. تعِبتْ ذات ليلة، طلبتْ مني أن أدلك قدميها ففعلتُ. دهنت لها قدميها الخشنتين ودلكتهما وقتًا طويلاً حتى آلمتني يداي. في اليوم التالي، جاءت لتتفقد الحساء الذي كنت أعده. كان شهر أغا جان، رحمه الله، قد دعا ثلاثين شخصًا إلى الغداء. وقفتْ هناك، تنظر من أعلى كتفي كسجّان يراقب مسجون، غمغمت أنني أستغرق وقتًا طويلاً أو شيئًا ما كهذا. لم تبد بخير مع ذلك. أتذكر ذاك اليوم كأنه كان الأمس. كان وجهها شاحبًا ومصفرًا وجبينها متعرقًا. وجدتُ الأمر غريبًا لأننا كنا في منتصف الشتاء. قبل أن أستطيع قول شيء، أمسكتْ بذراعي ومال عنقها جانبًا. سقطتُ على الأرض وأوقعت البصل الذي أنهيت تقشيره من أجل اليخنة.

راقبتها وهي تحكي. كانت تنظر خارج النافذة، تثير إطارات

..بارات سحب غبار تحجب الرؤية. بدت كأنها لا تتحدث معي،
لا نعيد عيش الذكرى فقط.

- كان عليَّ إحضار الجميع، إخبارهم جميعًا. يا له من يوم.
هل هكذا ماتت؛ غير راضية عما أفعله حتى آخر نفس. كان لها
قلب من حجر.

في ظروف أخرى ربما كنت أخبرت بيبي كلالي أنني أفهمها، وأنني أتعاطف معها. قالتْ: أنتِ لا تعرفين كم أنتِ محظوظة.

تذكرتُ فجأة أنني أجلس إلى جانبها.

كانت تلك زيارتي الوحيدة لقبر ابني. كنت أعرف أن عبد الخالق لا يوافق على ذهابي. وللحقيقة لم أكن متأكدة من أنني قوية بما يكفي لأعاود الزيارة مرة أخرى. لم يكن الأمر سهلاً. رقدت طوال تلك الليلة والليلة التالية أتساءل إن كان جهنجر يشعر بالاختناق في الأسفل. سمعتُ شاهيناز بكائي من خلال الجدران الرفيعة وزامت بغضب. لم أستطع إبعاد ذهني عن التفكير في ولدي الصغير.

حين جاءتْ بدرية إليَّ مرة أخرى لتسألني إن كنت أريد العودة إلى كابول أم لا، فكرت في الأمر وقررت ما رأيت أن خالة شايما سترضى عنه. حزمت حقيبتي، رأسي مثقل بالشعور بالذنب لأنني سأترك ابني مجددًا.

تذكرت المقابر، صفوف الشواهد، بسيطة ونقوشها بخط اليد. بعضها قديم وبعضها جديد. ظلتِ الطيور تراقبنا حتى غادرنا. رأيتها تفرد لأحدها الآخر ونحن نبتعد، ثم حلقت بعيدًا واحدًا تلو الآخر.

الفصل 63
رحيمة

لم يكن التركيز في العمل سهلاً تلك المرة. كنت أكتشف في منتصف خطاب برلماني ما أنني ليس لدي أدنى فكرة عما يتحدث عنه. تذكرت آخر مرة حممت فيها ابني. أو أطعمته *الحلفا*[1]، طعامه المفضل.

لاحظتْ بدرية شرودي لكن تعاطفها خفف استياءها. هي نفسها بالكاد تنتبه لما يحدث أغلب الوقت. تقضي أغلب وقت الجلسة في النظر إلى أوراق أمامها في حين يمكنني رؤيتها تراقب مَن في القاعة. بالنسبة إلى امرأة قضت القسم الأكبر من حياتها محتجزة بين جدران بيت زوجها، كانت كل جلسة عرضنا مسرحيّاً لها لتشاهده.

كانت أكثر تساهلاً معي عن ذي قبل، ما لم يعنِ سوى أنني قضيت وقتًا أطول مع حميدة وصفية ووقتًا أقل معها أو مع سائقنا وحارسنا. كانت حميدة وصفية رفيقتين معي. حين عادت بدرية إلى كابول من دوني، سألتا عني عدة مرات. ظلت بدرية تقدم أعذارًا واهية حتى أخبرتهم عن جهنجر أخيرًا.

كانت ذراعا صفية حولي باعثتين على الراحة بشكل لم أتوقعه. هزت حميدة رأسها وأخبرتني عن ابنها ذي الثلاثة أعوام

---

(1) أكلة شركسية تشبه السمبوسك. (المترجمة).

الذي فقدته إثر عدوى ما. لم يكن لديهما هي وزوجها نقودًا حينذاك ليدفعا ثمن الأدوية.

أرغمتُ نفسي على الابتسام وأومأت. أقدّر تعاطفهما لكنني لست راغبة في التحدث عما حدث. كان ثمة أمور كثيرة جدًا وكنت ما زلت أشعر بالذنب لتركي ابني الميت وحده مجددًا.

لم تكن الإصلاحات في الشقة التي اشتراها عبد الخالق قد انتهت بعد فظللنا نقيم في الفندق. كنت أطوف عبر أجزاء روتيني اليومي في حالة بؤس دائم، أتساءل من وقت لآخر لماذا أقوم بكل هذا. ظنيَ أنني كنت مدفوعة بخوفي من زوجي. كذلك لا اعرف ماذا أفعل غير هذا.

كانت بدرية تلقي بتلميحات من حين لآخر عن طموحات زوجنا الجديدة. بقدر ما كانت لا تريد التحدث معي، لم يكن احد غيري حولها وكانت تعرف أشياء لا يمكنها كتمانها. قالتْ: ينبغي ألا أقول شيئًا. أنا فقط من أعرف، بالطبع، لأنه يخبرني بكل شيء لأنني زوجته الأولى.

وضعت يدًا واحدة على صدرها وهي تتفاخر بأهميتها.

- اسمها ختول. إنها جميلة جداً، كما يقولون. وعبد الخالق يعرف اخاها منذ وقت طويل. أخوها رجل محترم. كان يحارب مع عبد الخالق لكنه الآن يدين له بمبلغ كبير. إن عبد الخالق يعطف عليه وعلى عائلته كثيرًا. حتى إنه أرسل إليهم طعامًا حين سمع أنهم ليس لديهم حتى الخبز.

- لكن ماذا سيحدث لـ... لبقيتنا؟

لا أريد أن تعرف بدرية أنني كنت أستمع إلى محادثتها مع بيبي كلالي.

- بقيتنا؟ لا شيء! لماذا قد يحدث أي شيء لبقيتنا؟
قالت وشغلت نفسها بتنظيف بقعة دهن على ثوبها.
- ألن تذهبي إلى ذاك الصف الدراسي السخيف.. صديقتيكِ؟
ما كانت لتقول أكثر من هذا، لا شيء عن نية زوجي الالتزام بالسنة النبوية. لا يعنيها كثيرًا أن تحذرني.
لم أفهم لماذا صار زوجي فجأة ملتزمًا فجأة بالسنّة. لم يكن من الرجال الذين يتركون القواعد تُملي عليهم قراراتهم. إن أراد أن يتخذ خمس زوجات، أو خمسًا وعشرين حتى، سيفعل.
يسوِّد الدخانُ الكثيف المنبعث من ملايين أنابيب العادم هواء كابول. سعلتْ بدرية بقوة. عليَّ أن أسألها، فقط لأنها ستذكر الأمر فيما بعد إن لم أسألها، إن كانت تريد الانضمام إلينا في ذهابنا إلى مركز الموارد. تلوح لي بيدها في كل مرة.
- أنا لن أضيع وقتي مع هاتين الفضوليتين.
بقي معروف وحارسنا معها لأنها الزوجة الأهم ولأنها تزعم دائمًا أنها تفكر في الذهاب لزيارة أقاربها في الجانب الآخر من المدينة. على حد علمي، لم تغادر غرفتها قط. لأنها تعرف.. تعرف أن ذلك قد يصل لعبد الخالق. غريزة بقاء بدرية قوية.
قضيتُ أمسياتي في مركز التدريب أعب دروس مس فرانكلين. كنت أتحسن في استخدام برامج الكمبيوتر. بغرض التمرين، كنت أكتب خطابات لأخواتي شهلا ورحيلة وستارة. خطابات لم أرسلها قط. كانت المرأة صاحبة المأوى تأتي من حين لآخر لتحكي قصص فتيات هربن من بيوتهن، بحثًا عن حياة

مديدة. يعتمد المأوى على تمويل من الولايات المتحدة وكانت محاولاتها استمالة حميدة وصفية واضحة، على أمل نيل بعض التمويل من البرلمان. أردتُ أن أخبرها أنها تُجهد نفسها بلا جدوى. حتى أنا، المساعدة الهامشية في البرلمان، يمكنني إخبارها أنه يستحيل جعل الجرجا يجمع أموالاً لإيواء نساء هربن من أزواجهن. في الحقيقة كنت قد سمعت عدة أشخاص يقولون إن تلك المؤسسات ليست سوى مواخير. لم أصدق هذا بالطبع، لكن الآخرين صدقوا.

تبقت أربعة أسابيع قبل أن تبدأ العطلة البرلمانية الشتوية. اربعة أسابيع لحضور الدروس في مركز التدريب، أربعة أسابيع من تربيت مس فرانكلين على ظهري بفخر، تبقت اربعة أسابيع مع حميدة وصفية، بدلاً من الطبخ والتنظيف.

تساءلتُ كيف حال خالة شايما. كانت تبدو أكثر ضعفًا مع كل زيارة. سبق بارفن وجهنجر المرأة التي وُلِدت بإعاقة. علمني موتهما أن كل شيء ممكن، أن الموت أقرب مما أتوقع. قالت لي خالة شايما قبل سفري إلى كابول: أنا امرأة عجوز، لقد فررت من عزرائيل أكثر من مرة لكنه سيأتي لقبض روحي قريبًا جدًا.

عارضتها: لا تقولي هذا يا خالة جان.

– كفاك! أردتُ أن أوجد هنا من أجلكن فقط أنتن الفتيات، لأخبركن الحقيقة. لا شيء آخر يهم كثيرًا. لكنني لا يمكنني التسلل من بين أصابعه إلى الأبد. الأمر مثل حكاية ذاك الرجل، هل أخبرتك بهذه الحكاية؟

– لا يا خالة جان. لقد حكيت لنا قصة بيبي شكيبه فقط.

– اه، وأرجو أن تكوني قد تعلمتِ شيئًا منها. أنتِ وريثتها،

– لقد سمعت كيف غضب. قال أشياء كثيرة. لا أعرف ماذا سيفعل بها لكنني ليس لدي خيار آخر. وهذا خطؤك أنت على كل حال، معروف. أنت من أخبرته بقضائها وقتًا طويلاً مع هاتين الدجّالتين. ألم تفكر في أنه سيغضب علينا لأننا لا نحرسها؟ ربما لم تفكر في هذا لأنك سائق لكنني أنا حارسهما. هل نسيت هذا؟

– ماذا كنت سأقول له؟ لقد اتصل عندما لم تكن موجودة. أراد أن يتحدث مع بدرية أيضًا. لو لم أخبره أنها ليست موجودة، كانت بدرية ستخبره. كان حينها سيقطع رأسي بالتأكيد لو ظن أنني أخفي عنه أي شيء.

– نعم، نعم. حسنًا. أتمنى أن يعرف أنها ذهبت دون أن نعرف. لا أريد أن أعود وأجده غاضبًا علينا نحن.

– نفِّذ أوامره فحسب. لقد تسللتْ دون أن تخبرنا وذهبتْ للتسكع مع تينك الضالتين. سيصدق. أنت تعرف أنه لا يقدرها كثيرًا على أي حال. لقد سمعت عن خططه. لم تعد تهمه كثيرًا. لم تعد تثيره كما كان في البداية. أتذكر ذاك اليوم حين رآها في السوق؟

أطلق حسن ضحكة عالية.

– بدا كأنه سيحملها من هناك مباشرة. ثم أرسل برسالة وقليل من المال إلى والديها!

– ألم يكن من الأسهل لو كان قد فعلها بتلك الطريقة. لا بد أن عائلتها بائسة. لا شيء، ناس نكرة ومع ذلك يتعاملون كأنهم سليلو الأسرة الملكية أو شيء كهذا.

– أنا أذكر وجهك حين جعلنا نتوقف ليستطيع مراقبتها... لقد ظننتها فتى حقًا، أيها الغبي!

قال معروف يدافع عن نفسه: أنت أيضًا ظننتها فتى! لقد بدت كفتى. كيف كنت سأعرف بحق الجحيم أن شيئًا ما مخفيّ تحت تلك الملابس؟

قال حسن ضاحكًا: لقد أعجبتك أكثر حينها على ما أظن، ما رأيك في قصّة شعرها الجديدة، هه؟ هل أثارتك؟

تراجعتُ للخلف ببطء ما استطعت وذهني يتسارع.

لقد سلّماني لزوجي. ارتعشتُ لطريقة تحدثهما عني.

تعثّرت أفكاري وتشابكت حتى أدركتُ أخيرًا ما سمعته لتوي. لستُ آمنة.

أدرتُ مقبض الباب، أراقب الرواق لأرى إن كانا قد لاحظا وجودي. لم يلحظا. دخلت الغرفة، أغلقتُ الباب خلفي وذهبتُ إلى التواليت مباشرة. لا يمكنني النظر إلى بدرية الآن، أعرف أنها لن تفيدني في شيء. بدت نائمة على كل حال.

كان زوجي رجلاً عنيفًا وكنت أعرف أنني لم أرَ عُشر ما يمكنه فعله. كان رجل حرب، وأسلحة، وسيطرة. يريد الاحترام والطاعة، وقد أخبره الحرس بالفعل أنني خارج السيطرة. لا بد أن غضبه جعله وحشًا.

تذكرت رغمًا عني أنه يريد الزواج بأخرى، وأن خمس زوجات أكثر مما يريد. أعرف ما يعنيه هذا بالنسبة إليّ.

فكرتُ في المرأة التي في المأوى. التي قطع زوجها أذنها بالسكين حين هربت منه. ليس لدي شك في أن عبد الخالق بهذا السوء. استندتُ على الحائط. قلبي يدق بخوف. عليَّ أن أفكر بسرعة.

سوف نعود إلى البيت خلال ثلاثة أيام.

الفصل 64
شكيبه

ركض شاه على الطريق المترية. كونه عليه أن يرافق أخته من المدرسة إلى البيت لا يعني ألا يمكنه سبقها إلى البيت. كان يلهث، استدار ورأى شابنم تغذ السير للحاق به. بدتْ محبطة.

– لماذا تستعجل هكذا دائمًا؟ ألا تعرف أن الركض ليس سهلاً بالتنورة؟ وأن مادر جان ستغضب إن رأتني أركض خلفك في الشارع!

– ليس خطئي أنني أسرع منكِ، كنت سأصل إلى البيت منذ وقت طويل إن لم يكن عليَّ انتظارك!

تكرَّر ذلك الجدال كل يوم. كانا يتشاكسان لكنهما يحبان أحدهما الآخر بشدة، لا يعيان بما بين أميهما. تعودت شابنم تجاهل يد أمها حين تشدها من الخلف لتظل جالسة مع شكيبه وهي تغسل الملابس، تسألها سؤالاً تلو الآخر عن كل شيء، من الخيل حتى صنع الخبز. وكان شاه، الذي لا يعرف حدودًا بفضل والده، يعشق تعذيب جلناز بشد خيط شغلها بالإبرة والركض بعيدًا به، كانت قهقهته تمحو غضبها منه لكرّه خيطها.

كان آصف يأمل في المزيد من الأطفال لكن جلناز وشكيبه بدتا كأنهما يتناوبان الدور في الدورة الشهرية، تتوقف واحدة لتبدأ الأخرى. تساءل إن كانت قد حلت عليه لعنة ما بسبب ذانك العامين. أو ربما فعلت المرأتان شيئا ما... لكنه سأم الغضب. لم

تيأس والدته مع ذلك، ظلت حتى قبل أسبوع من وفاتها تُذكّر ابنها بأن الله أحل للرجال الزواج بأكثر من اثنتين.

- وأين سأضع زوجة أخرى يا مادر جان؟ في بيتنا الصغير، لا يوجد مكان لامرأة أخرى، يشق عليَّ بما يكفي إطعام من لدي.

- تزوج وسوف يرزقك الله.

طمأنته أمه، عيناها نصف مغمضتين من التعب.

ظل يفكر في نصيحتها، على لا معقوليتها، في طريقه من وإلى وزارة الخارجية. كان قد تم نقله من وزارة الزراعة منذ عامين ليشغل منصبًا أعلى ويعمل مع وزير أعلى درجة بفضل علاقته بأمان الله.

حين جاء أغا خليل وزوجته، كان شاه مَن قابلهما عند الباب. كانت ركبتاه مغبرتين من محاولة تسلق الفرع الثاني من الشجرة في فنائهم، ما جعل الضيفين يبتسمان ويفكران في ابنهما الصغير الذي تركاه في البيت.

- مساء الخير، ولدي العزيز! هل أبوك في البيت؟ أريد أن أتحدث معه.

- نعم، إنه موجود. تفضلا! إن أمي تعدّ العشاء. لماذا لا تبقيان وتتناولان الطعام معنا؟

قال بابتسامة: يقلد أباه في كرم الضيافة. لم تستطع زوجة أغا خليل كتم ضحكتها.

قال أغا خليل وآصف يخرج إلى الفناء: أليس ذلك كرمًا منك! نحن لا نريد أن نزعجها، يا صديقي.

- أغا خليل، تسعدني رؤيتك جدًا!

- وأنا أيضًا، أغا بران. سامحني لمروري عليك في هذه الساعة

لكنني أردت أن آتي لك بهذه الأوراق لأنني لن أذهب إلى المكتب غدًا.

أشار آصف إلى باب البيت: تفضلا، تفضلا.

– إن ابنك مضيف كريم للغاية؛ فقد دعانا بالفعل لتناول العشاء، لكنني وزوجتي في طريقنا إلى البيت من زيارة بعض الأقارب. ولا نريد إزعاجكما.

أصرّ آصف على دعوتهما، وأسرعتْ شكيبه بوضع أكواب الشاي وأطباق القراصية. تعرفتْ شكيبه على زوجة أغا خليل، ماهنِاز، وجلستا في ركن من غرفة الجلوس فيما يدردش الرجال في الركن الآخر. أبقتْ شكيبه رأسها مائلاً جانبًا كما تفعل دائمًا حين تلتقي بشخص جديد.

قالت ماهنِاز: ابنك فتى رائع، نام إي خودا!

أحنت شكيبه رأسها وابتسمت لسماعها الود في صوت المرأة. كانت ماهنِاز ترتدي ثوبًا رماديًا داكنًا يصل إلى كاحليها بكمَّين واسعين وزرّين عند المعصمين. بدت أنيقة كأنها أحد ضيوف القصر. قالت شكيبه: ليعطيك الله العافية، شكرًا لك.

لا تريد إثارة *الحسد* بقول أي شيء آخر عن أميرها الصغير.

– هل لديكِ أقارب في كابول؟

– لا، لقد جئتُ من قرية صغيرة خارج كابول.

– وكذلك أنا. كانت هذه المدينة مفاجأة كبرى بالنسبة إليَّ! مختلفة تمامًا عن موطني.

كانت شابة، لا تزيد على أربعة وعشرين عامًا بوجه مشرق ومبتهج.

– أين كانت قريتك؟

– قرية تُدعى «قال البلبل». أشك أن تكوني قد سمعتِ عنها من قبل.

إنها الآن على أبواب السادسة والثلاثين، ولم تفكر في قريتها، المسماة كذلك لمئات البلابل المفردة التي تعيش هنالك، لسنوات. كانت ذكرى قريتها تجعلها تفكر في أختها. يومض وجه عقيلة المحتضر وشدوها المنسحب في ذهنها، مبهمان وملموسان في آن كما تكون الذكريات.

فغرت ماهناز فاها. وضعت يدها على شكيبه.

- «قال البلبل»؟ أأنت من هناك حقّاً؟ إنها قريتي!

شعرتْ شكيبه بالذعر فجأة. ليست نادمة على قطع صلتها بعائلتها بأدنى قدر. نظرتْ نحو آصف ورأت الرجلين منهمكين في حديثهما. لم يهتم بسؤالها عن عائلتها قط ولا يوجد داع ليعرف أي شيء الآن. قالت بهدوء: لقد غادرتها حين كنتُ صغيرة جدًا ولا أتذكر أحدًا...

- يا لها من صدفة! ما اسم عائلتك؟

- برداري.

- برداري؟ المزرعة الكائنة شمال تل الرعاة؟ آه يا ربي! كان عمي جار عائلة برداري. كنت أقضي هناك وقتًا طويلاً جدّاً، في بيت عمي، وأعرفهم جميعًا جيدًا. لم نكن نقطن بعيدًا عنهم نحن أيضًا. ما صلة قرابتك بخانم زرمينا أو خانم سامينا؟ كنت أنا وبناتهما نضفر شعور أحدنا الأخرى ونغني عند جدول المياه خلف أرض عمي.

- حقًا؟ إنهن زوجتا عمّي.

- آه يا ربي! إنهن بنات عمك إذن من كنت ألعب معهن وأنا فتاة! هل تراسلينهن كثيرًا؟ تستغرق خطاباتي لعائلتي وقتًا طويلاً جداً لتصلهم. هل تواجهك نفس المشكلة؟

قالت شكيبه بغموض: أنا.. لست على صلة بعائلتي الآن وا،ا
في كابول. مضى وقت طويل جدًا.
- حقًا؟ أنا أفهم. كنت هناك منذ عامين فقط، أتعرفين،
لحضور زفاف أخي. لم يتغير شيء في القرية. لكن هل عرفت..
شكيبه جان، هل تعرفين أخبار جدتك؟
رقّتْ عينا ماهناز وهدأ صوتها.
- جدتي؟ ما الأمر؟
عضّت ماهناز شفتها للحظة. هزّت رأسها وأمسكتْ بيدي
شكيبه.
- لقد توفيت بعد يومين فقط من زفاف أخي. كانت أيامًا
حزينة. أنا لم أعرفها بشكل شخصي لكنني سمعت أنها كانت
امرأة قوية. كانت القرية كلها تتعجب من عيشها طويلاً هكذا!
جفلتْ شكيبه. توقّع جزء منها أن تعيش جدتها إلى الأبد، منقوعة
في عصارة مراراتها. أدركتْ سريعًا أن ضيفتها تتوقع منها رد فعل ما.
غمغمتْ شكيبه: آه. لم أسمع بهذا. ليرحمها الله ويُدخلها جناته.
أخفضت رأسها.
- أنا آسفة جداً لأنني أنبئك بتلك الأخبار الحزينة، خاصة
في لقائنا الأول. كم أنا فظيعة!
قالتْ، تبذل جهدا لتبدو مؤدبة: عفوًا، رجاء. إن جدتي، كما
قلت، عاشتْ طويلاً جداً لأكثر مما يتوقع أحد. هذه هي الحياة،
والموت أجلنا كلنا.
- نعم، نعم، ليرحمها الله. لا بد أنها كانت طيبة للغاية لينعم
الله عليها بهذا العمر المديد.
فكرت شكيبه: *أنتِ لا تعرفينها*. تساءلتْ كيف تسأل عمّا أرادت

معرفته حقًا. قالت بتردد: ماهناز جان، هل تعرفين كيف حال الأرض؟ أرض أبي... كان لأبي أرض خصبة. ظللت دائمًا أتساءل...

- أي أرض كانت أرض أبيكِ؟

- كانت بجوار بيت جدتي، يفصلها عنه صف من الأشجار الطويلة...

- بالطبع! حسنًا...

بدا واضحًا أنها مرتبكة.

- مما سمعته كانت توجد بعض... بعض النزاعات على الأرض. حين كنت هناك، كان فريدون جان وزارمينه جان يعيشان هناك لكنهم كانوا على وشك تقسيمها.

استطاعت شكيبه فك شفرة ما كانت ماهناز تحاول قوله. لا بد أن أعمامها قد تشاجروا على الأرض. استطاعت تخيل كاكا فريدون يؤكد على حقه كأخ أكبر وخالة زارمينه المتعالية تدفع الآخرين جانبًا لتحصل على بيت لها وحدها. مزق الطمعُ العائلةَ والأرض.

- لكن محصولهم لم يكن جيدًا حين كنت هناك. لقد رأيت ابنتهما، ابنة عمك، في الزفاف، وأخبرتني أنهم يظنون أن لعنة ما حلت بالأرض.

ابتسمتْ شكيبه. وجدت ماهناز الأمر غريبًا. أدركتْ شكيبه ذلك لكنها لم يسعها فعل شيء. كان بإمكانها سماع صوت جدتها الشبيه بقوقأة الدجاج تخبر ابنيها أن شكيبه هي من أنزلت اللعنة على الأرض والمحصول.

لم تكن شكيبه مهتمة بسماع أي شيء آخر عن عائلتها. قالت: كيف كان الزفاف؟ مبروك لعائلتك.

استرخت ماهناز وابتسمت.

- كان رائعًا! رقص وموسيقى وطعام! كنا فرحين للغاية ولم أكن قد رأيت عائلتي منذ وقت طويل. قضيت وقتًا ممتعًا!

- أمر رائع! أتمنى للعروسين حياة سعيدة.

- لقد كادوا أن يلغوا الزفاف، حقًا.

- لماذا؟

- حسنًا، كانت عائلة العروس قد طلبت مبلغًا ماليًا ضخمًا مهرًا، لكن أبي قال إنه غير معقول، خاصة وقد ألغى الملك أمان الله تلك الممارسات. شعر والد العروس بالإساءة، لكنهما اتفقا على مبلغ أقل. ظني أنني أفهمه مع ذلك. لكن، لا نقود على الإطلاق؟ أعني أن العروس تستحق شيئًا ما، أليس كذلك؟ أنا أعرف أنني كنت أستحق!

ضحكتْ. ابتسمتْ شكيبه بمكر ونظرتْ بعيدًا.

- أنت على حق. تبدو قوانين أمان الله أجنبية للغاية في قرية كقريتنا. كابول مختلفة تمامًا. هل تتخيلين لو علم أهل «قال البلبل» بوجود المدارس الثانوية الإنجليزية والألمانية هنا؟

- معكِ حق تمامًا يا شكيبه جان! فتيات قليلات فقط من يذهبن إلى المدرسة في قريتنا. أتعرفين أن الملكة ثريا ستلقي خطابًا خلال يومين؟

- لا، لم أكن أعرف.

- آه، سيكون مذهلاً. لا أطيق الانتظار لسماع ما ستقوله. مع أنني قلقة عليها. لن يرحب الكثيرون بهذه التغييرات الكثيرة وبهذه السرعة. لماذا لا تأتين معي؟ يمكننا الذهاب لسماعها معًا!

فوجئت شكيبه. الملكة ثريا؟ تساءلت عنها كثيرًا، ابتهجت

لفكرة رؤية تلك المرأة الثورية بالفعل. لكن شكيبه لم تكن معتادة على حضور الأحداث العامة.

- آه، لا أستطيع... أعني، عليَّ أن أهتم بـ.....

- هيا، إنه يوم واحد فقط! سيكون رائعًا أن نحضر!

قالت ماهناز بسعادة ثم التفتت إلى الرجلين. كانا منهمكين تمامًا في حوارهما لحد أنهما لم يلمسا شايهما.

- عذرًا عزيزي أغا بران!

استدار آصف إليهما. بدا مذهولاً.

- نعم خانم؟

- هل يمكنني أن أسرق زوجتك غدًا؟

فكرتْ شكيبه: *أسرق زوجتك. أتساءل كيف يبدو هذا له.*

ذكرها الحديث عن أمان الله وثريا بالقصر. وببنفشه.

- تسرقين...

- نعم، أود بشدة أن أذهب لأستمع إلى الخطاب وكنت أبحث عن أحد ليأتي معي! لن نتأخر كثيرًا. يمكننا أن نأخذ الرائع شاه جان معنا أيضًا!

قال أغا خليل: سيكون خطابًا مهمًا. ليس لدي شك أن الشعب الأفغاني سينبهر بالملكة ثريا حين يعرفها جيدًا.

سأله آصف: هل ستذهب؟

راقبتْ شكيبه وهم يخططون لها قضاء تلك الظهيرة.

- بالتأكيد.

- حسنًا، إذن...

قالت ماهناز بسرور: رائع! أرجو ألا يزعجك هروبها قليلاً!

حاول آصف إخفاء انزعاجه.

الفصل 65
شكيبه

- قـالوا قـرابة الواحـدة. لن تتـأخـر لأكـثـر من هـذا. انظري فقط إلى هذا الزحام! كل هؤلاء الناس هنا لرؤية الملكة ثريا!

أمسكتْ شكيبه بيد شاه بقوة، تمسح بعينيها المنصة بحثًا عن أمان الله. تساءلت كيف يبدو الآن. لقد مرت سنوات منذ أن رأته آخر مرة.

غبية، قالت لنفسها. *انظري إلى هذا الزحام. كيف ظننت نفسك مناسبة لشيء كهذا، كيف ظننت أنك تستحقين الوقوف على هذه المنصة، والظهور أمام كل هؤلاء!*

عدّلت طرحتها ومالت على شاه تعطيه حفنة من المكسرات ليتسلى بها. لم تستطع هي تناول الكثير في الأسابيع القليلة الماضية وكانت تنفر حتى من رائحة اللوز المحمص، رائحة لم تلحظها من قبل حتى.

كان شاه الصغير مستمتعًا بالوجوه الكثيرة، بائع الخضروات بعربته الخشبية، والأطفال الذين يمسكون بأيدي أمهاتهم. لم يشكُ من وقفتهم لأكثر من ساعة، وكذلك لم يلحظ كم الأنظار التي حدّقت في أمه. أبقت شكيبه طرحتها مسدلة على نصف وجهها الأيسر وكانت تشيح ببصرها بعيدًا حين ترى نظرات فضولية. كان شاه في السابعة من عمره الآن وذكيّاً بما يكفي ليلاحظ النظرات والهمسات. لم تكن تريد أن تسبب لابنها أي حرج.

ظلت جلناز وشابنم في البيت. لم تكن جلناز سعيدة بدعوة زوجة أغا خليل شكيبه للخروج معها ولم تتحدث مع شكيبه سوى كلمات قليلة منذ أن عرفتها، لكنها عزّت نفسها بأن آصف سيسره أنها بقيت في البيت بدلاً من التجول بصفاقة مع الحشود في أنحاء كابول.

أحاط الجنود بالمنصة لإخلاء المساحة حولها ومنع الناس من الاقتراب منها. في صدر المسرح منصة صغيرة مغطاة بمخمل أزرق سماوي ذي شرابات ذهبية ومطرز عليه سيفين متقاطعين: نظرتْ شكيبه إلى الجنود وفكرت في البلاط والحرس والحريم. بدا أن مئات السنين قد مرت منذ أن كانت تتجول في أراضي القصر بشعر حليق وزي الرجال. نظرتْ إلى ابنها. سيغدو شابًا قريبًا، وتساءلت ماذا كان سيقول لو رآها ترتدي زي الجنود.

لن يفهم. الابنة فقط من ستفهم ما يعنيه تجاوز ذاك الحد، أن تشعر بحرية العيش مثل النوع الآخر. لمستْ بطنها بأصابعها بسرعة. نظرت إلى شاه وعرفت أن هذا الحمل مختلف. يمكنها الشعور بهذا.

غطتْ ماهناز عينيها من الشمس. سألتْ: هل رأيتِها من قبل؟

هزت شكيبه رأسها.

- تبدو كملكة. لا أعرف كيف أصفها بغير هذا. يجب أن تري ملابسها! من أوروبا رأسًا! أخبرني زوجي أن حتى الأطفال يرتدون ملابس أوروبية!

- زوجك يعمل معهم؟

- نعم، إنه يعمل خطاطًا للملك ويخدم كمستشار للملكة حين يكون الملك مسافرًا. سوف يسافر معهم قريبًا.

- إنه يسافر كثيرًا، أليس كذلك؟

أومأت ماهناز، بوجه حزين.

- هو كذلك بالفعل، لكنني على الأقل معي حماتي وبقية عائلته. وإلا كنت سأشعر بوحدة شديدة.

- كيف تم زواجك؟ إن عائلته من كابول، أليس كذلك؟

- نعم، إنهم كذلك. مر هو وعائلته بقريتنا في طريقهم إلى جلال آباد ذات عام. كانوا يمرون بقريتنا في أسفارهم ليقضوا ليلة أو اثنتين للاستراحة. في ذاك الوقت، تعرف أبوه وأبي ودبرا زواجنا. كنت قد رأيته مرة واحدة فقط، للحظة فقط. كان الأمر غير متوقع!

- وظللتِ في كابول منذ ذلك الحين؟

- أغلب الوقت...

ثم مالت على شكيبه تتحدث بهمس: لزوجي آراء مختلفة عن آراء، يمكنك القول كانوا موظفين حكوميين آخرين. مررنا بأوقات عصيبة حينها. أخذوا كل شيء منا. أثاثنا، بيتنا، مجوهراتنا. انتقلنا إلى الريف لعام ونصف حتى أخبرونا أن بإمكاننا العودة. كان الأطفال بائسين هناك. وكنا سعداء للغاية بالعودة!

- يبدو هذا مريعًا.

فكرت: *لكنكم كنتم سترون ما هو أسوأ*.

- لقد كان كذلك، لكن هكذا تجري الأمور. حين لا توافقين ذوي النفوذ، استعدي لخسارة كل شيء. أتمنى فقط ألا نمر بتلك

المحنة مرة أخرى أبدًا... من الصعب القول، مع ذلك، منذ متى يتسامح الرجال مع التغييرات الحادثة بسرعة اكتمال البدر.

أومأت شكيبه.

- ها هما!

أشارت ماهناز إلى أمان الله وثريا يتوجهان بحاشيتهما إلى المنصة. اصطف الجنود في تشريفة على كلا جانبيهما وسار حامل اللواء أمامهما. كانا يبتسمان ويلوحان لمن يعرفانهم في مجموعة كبار الشخصيات أمام المنصة مباشرة.

وقف رجل يرتدي بذلة أمام المنصة ليبدأ الحديث. قدم نفسه وتحدث عن رحلة الملك أمان الله التي قام بها مؤخرًا إلى أوروبا. إن أفغانستان في فترة إعادة ميلاد، أعلن، وسوف تنمو بقيادة ملك يتمتع بإرادة وبصيرة قويتين. واصل خطابه حتى لم يستطع أحد قادة الجيش الانتظار لأكثر من هذا وهمس له في أذنه بشيء ما جعله يقفز إلى العبارات الختامية فجأة. أعلن:

- ملكنا النبيل أمان الله!

ابتعد عن المنصة وهو يرفع ذراعه على نحو مسرحي ليرحب بقائد البلاد على المنصة.

- السلام عليكم وشكرًا لك! يسعدني أن آتي إلى هنا وأتحدث معكم!

ارتسم على فم شكيبه نصف ابتسامة. بدا أمان الله مهيبًا أكثر مما تتذكره حتى، سترته العسكرية الزيتونية مزدانة بالأوسمة والنجوم، حزام جلدي يلتف حول خصره. خلع قبعته ووضعها على المنصة أمامه. يقف شامخًا، انتشرت ثقته بنفسه بين الحشود سريعًا. نظرتْ شكيبه إلى الوجوه حولها، تركز

أعينهم على المنصة، تعبيرات وجوههم متشوقة.

نحن بين أيدٍ أمينة، بدا أنهم يفكرون.

حاولتْ أن تركز على خطابه لكنها شردت بذهنها. ركزت نظرها على أمان الله، تريده أن ينظر إليها وتتساءل إن كان سيتذكرها، حارسة الحريم ذات الوجه المشوه. تمنت أن تقع عيناه العطوفتان على وجهها مجددًا. شعرت بخفقان في معدتها ولم تندهش من أنه حتى أضأل الأرواح تتأثر بحضوره.

كانت ماهناز تنظر إليها من حين لآخر، تومئ برأسها موافقة. أدركتْ شكيبه أن الملك لا بد قال شيئًا ما يستحق الملاحظة. جذب شاه يدها فأخرجتْ حفنة زبيب من حقيبتها بذهن شارد. أكلها واحدة تلو الأخرى، ضجرا من الخطاب.

انضمت الملكة ثريا إلى أمان الله عندَ المنصة. كانت ترتدي طرحة شفافة، بلون أرجواني، يناسب تاييرها، سترة ضيقة بيروش يعكس أشعة الشمس، وتنورة ضيقة تصل إلى منتصف سمانتها. اختيار جزمتها تنم عن ذكاء، جزمة ماري جان سوداء بكعب متوسط.

هذه زوجته، المرأة التي قال إنها ذكية ومخلصة، وإرادتها قوية. بالفعل، تسير برأس مرفوع. بالطبع، ولمَ لا؟ إنها ملكة الحبيب أمان الله.

فجأة، نظرتِ الملكة ثريا إلى زوجها وخلعتْ حجابها! ففرت شكيبه فاها. نظرتْ إلى الملك أمان الله وذُهلت حين رأته يبتسم ويصفق. أمسكتْ ماهناز بساعد شكيبه وابتسمتْ. سرت موجات مزيج من الشهقات والتصفيق في الحشود.

قالتْ ماهناز بسرور: أليس ذلك رائعًا؟

- ماذا حدث للتو؟ لماذا فعلت هذا؟
- ألم تسمعي؟ لقد قال لتوه إن الشادور ليس فرضًا في الإسلام! الملكة خلعت حجابها!
- لكن... كيف أمكنها...
قالت وهي تلكز شكيبه بمرفقها: إنه يوم جديد في كابول! ألستِ سعيدة لأنني أحضرتك إلى هنا اليوم؟
واصل أمان الله ليقول كلمات قليلة أخرى وثريا إلى جانبه. أعلن أنها، زوجته، ستكون وزيرة التعليم وملكة الشعب الأفغاني. ثم ترك لها الكلمة. نظرتْ شكيبه إلى شاه قبل أن تعاود الانتباه إلى المنصة. كانت خطابات هذا اليوم أكثر إمتاعًا مما توقعتْ.
تحدثتِ الملكة ثريا بلباقة وثقة تناسبان شموخ زوجها. شعرتْ شكيبه بصغر شأنها وهي تستمع لخطابها عن أهمية الاستقلال.
«أتظنون أن تقدم أمتنا، في جميع الأحوال، يحتاج إلى الرجال فقط؟ على النساء أيضًا أن يشاركن ويلعبن دورهن كما فعلن في سنوات أمتنا الأولى، وفي فجر الإسلام. علينا أن نتعلم من مثل هؤلاء النسوة أن علينا جميعًا المساهمة في تقدم أمتنا وأن ذلك لن يتأتى من دون التسلح بالعلم؛ لذلك علينا جميعًا السعي نحو أكبر قدر ممكن من المعرفة، لنقدم خدماتنا للمجتمع على نهج نساء فجر الإسلام».
قالت ماهناز ضاحكة: تخيلي، فقط تخيلي، القدرة على التحدث إلى هذه الحشود. هذه امرأة مميزة. آه، قد يفقد أهل «قال البلبل» وعيهم إن رأوا شيئًا كهذا، أليس كذلك؟
فكرت شكيبه في أعمامها. لا شك أنهم كانوا ليلوحوا بأيديهم ويسيروا مبتعدين عن مثل هذا الحدث. امرأة؟! تُخبر

زوجاتهن أن يسعين نحو المعرفة؟

كان يومًا مبهجًا. وعت شكيبه على نحو مبهم أنه سيغير شيئًا ما، مع أنها لم تعرف ماذا.

فكرت: *إنها امرأة حكيمة، امرأة كهذه قد تعيد إليَّ أرض أبي. قد تخبر جدتي أن ترسلني إلى المدرسة بدلاً من العمل في الحقل.*

زمّت شكيبه شفتيها بعزم.

عرفتْ أن الملكة ثريا تتحدث عن تغييرات لن تؤثر عليها.

فكرتْ: *إن قصتي تنتهي هنا*، لديها الآن حياة أفضل مما تخيلتْ، لقد وجدت بطريقة ما مهربًا من قدر أسوأ بكثير.

لكن شيئًا ما فيها تحرك بالفعل، رأت بصيص الأمل، شعرت أن الأمور قد تتحسن على يد تلك المرأة التي اختارها أمان الله بدلاً منها. احمرّ وجهها خجلاً للتفكير في أن الأمر ما زال كذلك بالنسبة إليها، على سخفه.

تذكرت كيف ضُربت حين أخذت حجة الأرض إلى مالك صاحب. تذكرتْ بنفشه وهي تحتضر في مرمى الحِجارة.

عليك أحيانًا أن تتجاوز الحد، على ما أظن. عليك أحيانًا أن تنتهز الفرصة إن أردتْ شيئًا ما حقًا.

ستكون الأمور بخير بالنسبة إلى شاه. إنه فتى، ولأبيه علاقات جيدة جدًا سيحرص بواسطتها على إتاحة شتى الفرص له. شكرتِ الله لهذا.

ولينعمِ الله على بناتي، إن أنجبتهن، بالفرص لفعل ما يبدو أن الملكة ثريا تراه ممكنًا. ليمنحهن الله الشجاعة حين يخبرهن أحد أنهن قد تجاوزن الحد. وليحفظهن حين يسعين إلى حياة

أفضل، ويمنحهن الفرصة ليثبتن جدارتهن.

هذه الحياة صعبة. نفقد آباءنا، إخواننا، أمهاتنا، طيورنا المغردة وقِطعًا من أنفسنا. تجلد السياط ظهورًا بريئة، وينال المجرمون الشرف ويعم القبح كل شيء. سأكون حمقاء إن سألت الله أن يُبعد أطفالي عن كل هذا. سيكون ذلك كثيرًا جداً وقد يتحول إلى ما هو أسوأ بكثير بالفعل. لكنني أسأله أشياء صغيرة، حقولاً خصيبة، حبّ الأم، ابتسامة طفل، حياة أقل مَرارًا إن لم تكن حلوة.

الفصل 66
رحيمة

بذلتُ جهدًا مضنيًا لأحتفظ بتركيزي، برباطة جأشي. لا يجب أن يعرف أحد أنني سمعت ما سمعته. كذلك، لم أعرف ماذا أفعل وإلى من أذهب. في الحقيقة، لم أظن أن بإمكاني اللجوء إلى أحد.

جلستُ إلى جوار بدرية في جلسات اليوم التالي، أتجاهل النقاش عن تمويل مشروع لإنشاء الطرق، مع أن الجميع يعرف أن القرار يعود للرئيس. وأنه قد اتخذه بالفعل في ذهنه.

هذا المساء، ستعلمنا مس فرانكلين المزيد عن الإنترنت. قالت إنه بأهمية تعلم القراءة والكتابة. الإنترنت بوابتنا للخروج إلى العالم.

أنا في حاجة إلى بوابة.

فيما يدور حولي جدل عقيم، كان هناك جدل أهم يعصف في رأسي. هل أذهب مع حميدة وصفية إلى مركز التدريب، أم أبقى مع بدرية والحرس؟

تعرقت يداي وتخشبت كتفاي. أخشى انتهاء الجلسة، أعرف أنه سيكون عليَّ اتخاذ قراري حينذاك.

فكرتِ: *هل هذا مهم؟ إنه يظن بالفعل أنني تسللت من تحت أنظار الحرس. كيف للأمر أن يزداد سوءًا؟*

لكنني كنت خائفة. ربما سيصدقني، سيصدق أن بدرية

والحرس كانوا يعرفون، وأن بدرية قد قالت إنه لا بأس بذهابي.
إنني لم أفعل أي شيء غير لائق أو مشين في مركز التدريب.
مستحيل.

خرجنا. نظرت إلى ثلاثة جنود أجانب على الجانب الآخر من الشارع. كانوا يستندون على حائط، يتحدثون مع مجموعة من الصبية الصغار. كان جنهجر ليكون أحدهم، فكرتُ، لو كانوا سمحوا لي باصطحابه معي. تساءلت ماذا سيفعل الجنود لو لُذت بهم. إنهم هنا لمساعدتنا، أليس كذلك؟

كنا قد مررنا بنقطة الأمن لتونا حين نادتني حميدة. قفز قلبي. ماذا كانت خالة شايما ستقول لي؟

- ألن تأتي معنا؟ إن مس فرانكلين تنتظرنا!

نظرتُ إلى بدرية. رفعتْ حاجبيها، مندهشة من تفكيري في أنها قد تهتم إلى أين أذهب. سارتْ نحو السيارة الواقفة على بعد أمتار قليلة. رأيت معروفًا يغمغم بشيء ما لحسن، الذي أومأ برأسه وغمغم بشيء ما آخر.

أدركتُ أنني سأعاقَب في جميع الأحوال، توكلت على الله وقررت أن أذهب مع حميدة. ما كنت أعرف نتيجة قراري هذا.

- أنا ذاهبة إلى... أنا ذاهبة معهم. سيقلني سائقها قبل أن يعود بها. أوكِ؟

رفعتْ بدرية حاجبيها دون أن تعني بالالتفات لي. أعرف أنها لا تريد إعطائي ردًا رسميًا، ردًا قد يكون عليها تبريره أمام زوجها. ركبتِ السيارة وقادوا مبتعدين، ذابوا في شوارع كابول المزدحمة. شعرتُ براحة ورعب.

سرنا وحميدة تتحدث، وأنا أفكر في زوجي. لمرتين شعرت

أنني سأتقيأ في الشارع. لحقتْ بنا صفية على مبعدة شارعين من مبنى البرلمان. كان حارساهما يسيران خلفنا على مسافة أقدام قليلة بينما ظل السائقان مع السيارات. بزحام المرور ستستغرق القيادة إلى مركز التدريب وقتًا أطول. سألت صفية: رحيمة جان، ما الأمر؟ أنتِ هادئة بشكل مقلق اليوم. أكل شيء بخير؟

لم أخطط لإخبارهما، لكن قصتي تدفقت من فمي فحسب كالمياه التي تدفقت ذات مرة على الحجارة في نهر كابول، أخبرتهما عن زوجي، بيبي كلالي، جنهجر.

سرنا ببطء، لا نريد لفت انتباه الحرس خلفنا، لم تكن تلك قصة نتشاركها معهما.

أجبتُ عن أسئلتهما التالية قبل أن تطرحاها. أخبرتهما عن والديّ، وكيف تخلّيا عنا أنا وأخواتي ثم أحاطا نفسيهما بسحب الأفيون. أخبرتهما كيف هربت بارفن من جحيمها بحرق نفسها وأن ستارة، بعد زواج رحيلة الوشيك، ستنزوي في ركن من البيت، خائفة من قدرها الذي سيحدده لها أبونا. وخالة شايما، قريبتي الوحيدة التي ظلت تصلني طوال تلك السنين، التي يمتص عمودها الفقري المعوجّ الحياة منها شيئًا فشيئًا.

لكن ابني. كان هذا أسوأ ما حدث. قلت ذلك ثم لم أزد شيئًا. كان الجرح غائرًا للغاية ليُمَس. أسوأ من فقدان الأجنة.

فيما كنت أحاول التحكم في رعشة صوتي، أخبرتهما عن المحادثة التي سمعتها. عن رغبة زوجي في اتخاذ زوجة خامسة دون أن يتعارض ذلك مع السنة. لم يكن عليَّ إخبارهما بما كنت أخشى أن يفعله بي. كانتا تعرفان.

استمعتا من دون اندهاش، كنت فقط أؤكد لهما شكوكهما، بأنني كنت واحدة من تلك القصص. لكن قصتي لم تكن معروفة.

كنت كسيرة، لا أهتم بقدر ما أخبرتهما به أو ماذا تعتقدان أو حتى ماذا سيفعل عبد الخالق بي إن اكتشف. كنت قد استكفيتُ. ظللت أفكر في وجه خالة شايما المكفهر من خيبتها لما صارت إليه بنات أختها. ثم تذكرت بيبي شكيبه، المرأة الرجل التي امتدت خيوط قصتها لتُنسج في قصتي.

قالت حميدة: يا إلهي الرحيم، يا لها من فوضى عندكِ يا رحيمة جان! حتى أني لا أعرف ماذا أقول...

وقفنا خارج مركز التدريب. لوّحت لنا مس فرانكلين مرحبة بابتسامة. قالت حميدة بلا اقتناع: لا بد أن يوجد شيء ما.... لا بد أن توجد طريقة ما...

همستْ صفية بجدية شديدة: هيا ندخل، يمكننا التحدث عن هذا في الداخل. هيا يا سيداتي.

تركتُ صفية تقودني ويدها على ظهري، أفكر فيما قالته خالة شايما حين أخبرتها بقصة الفتاة التي هربت إلى المأوى، كيف عثر عليها زوجها وضربها وعاقبها على هروبها.

- الفتاة المسكينة. استجارت من الرمضاء بالنار.

الفصل 67
رحيمة

- لستُ بخير على الإطلاق.

أتمنى أن أبدو صادقة.

تأففت بدرية ووضعت يديها على خصرها بطريقة مسرحية.

- ما الأمر الآن؟ أتتوقعين مني أن أذهب إلى الجلسة وحدي؟ ومن في رأيك سيملأ الاستبيانات التي يجب تقديمها اليوم؟

- أنا آسفة، لكنها معدتي: لا بد أنه شيء ما أكلته ليلة أمس. إنها مضطربة بشدة.

ألف ذراعيّ حول وسطي وأميل إلى الأمام.

- لا أريد أن أتسبب في إزعاج لكِ بجلوسي إلى جانبك. أشعر أنني قد أركض في أي لحظة...

قالت وهي ترفع يديها في الهواء: آه، يكفي هذا بالفعل! لا أريد سماع المزيد. يا لك من مساعدة عديمة الفائدة! ثم التقطت حقيبة يدها وخرجت مسرعة. حين سمعتُ صوت خطواتها تبتعد، زحفت إلى الباب ووضعت أذني عليه.. سمعت كلام حسن ومعروف، يتردد صدى صوتيهما الثقيلين في الرواق.

- ألن تذهب؟

- لا، تقول إنها ليست بخير. ظني أن علينا أن نتركها هنا

فحسب. لن أبقى معها، إن كان هذا ما تفكران فيه. سيؤنبني المدير إن تغيبت عن جلسة أخرى.

قال معروف: آه. هذه الفتاة لا تجلب سوى المشاكل.

عرضَ حسن على مضض: لتذهبا أنتما وأنا سأبقى هنا معها، آخر شيء نريده الآن أن يعرف عبد الخالق أننا تركناها في الفندق وحدها.

- حسنًا.

سمعت صوت احتكاك معدن الكراسي بالأرضية. سيبقى في موقعه في آخر الرواق. شعرتُ بأنفاسي ثقيلة من التحفز. أخذتُ نفسًا عميقًا وعدتُ إلى الفراش، سحبتُ حقيبتي الرياضية السوداء من أسفله. بحثتُ في الملابس حتى وجدت ما أريده. شكرت الله أنني أحضرتها معي، حتى وإن لم أخطط لارتدائها. غيرت ملابسي بسرعة، شعرت بقشعريرة حماسة خفيفة. بحثت في حقيبة بدرية حتى وجدت المقص الذي تحتفظ به مع أدوات الخياطة. إلى الحمام، حيث نظرت إلى صورتي في المرآة وأنهيتُ ما كان زوجي قد بدأه. قص، قص، قص. جعلته غير متساوٍ على نحو سيئ لكنه أفضل مما فعله عبد الخالق.

انتعلتُ صندلي وفكرت في حقيبتي الرياضية لبرهة. قد يتعرف عليَّ أحد بسببها. قررتُ ألا آخذها وجلستُ حتى تهدأ أنفاسي.

استغرقني الأمر خمس دقائق من التنصت بانتباه شديد من خلف الباب لأتأكد أنّ لا أحد يقترب، خاصة حسن. لا صوت خطوه الثقيل ولا تنفسه الخشن. تخيلت أنه ربما خرج ليدخن. لمستْ أصابعي مقبض الباب وقبضتُ عليه ببطء. أدرته، ما

زلت أصيخ السمع جيدًا. نظرتُ من شق الباب، فتحته بزاوية أوسع قليلاً حين تأكدتُ أنّ لا أحد يراني، ثم أوسع قليلاً حين واتتني الشجاعة للسير في الرواق. رفعتُ عنقي لأرى كرسيه الذي يجلس عليه عادة.

رأيتُ ظهْره. أخذت نفسًا عميقًا واستدرتُ يمينًا، نحو السلم. أغلقت الباب خلفي بهدوء ما أمكنني. تحركتُ خطوة تلو الأخرى، مارة بالأربعة أبواب بيني وبين نهاية الرواق. أركز سمعي بشدة لأي صوت من حسن فتعثرت قدمي اليسرى في السجاد، احتفظت بتوازني بالاستناد على مقبض باب غرفة مجاورة.

حبستُ أنفاسي حين سمعت صوت تحرك الكرسي المعدني.

- هاي!

تجمدتُ، لا يزال ظهري ناحية حسن. كنت متأكدة أنه يرى ارتعاشي حتى من على تلك المسافة.

صاح حسن: انتبه لقدميك، أيها القذر!

أومأتُ وغمغمتُ بشيء ما بصوت أعمق من صوتي لكنه مسموع بالكاد.

- فتيان يركضون في الفندق...

سمعته يتمتم وأنا أواصل طريقي إلى السلم. أنتظر مع كل خطوة، اللحظة التي سيدرك فيها أن الفتى الذي رآه فتاة في الحقيقة، بملابس حشمت الجديدة، ما زالت حاشية البنطال لم تُخط بعد.

كنتُ ولم أعدْ. كنت رحيمة، ثم لم أعد.

سرتُ إلى الردهة، عيناي منخفضتان. لم يكن موظف الاستقبال هناك. تحركت بسرعة. فتحت الباب فداعبت الشمس

عـينيّ. رفـعت يدي وطرفت عـيني. حين لمس صندلي الطريق الترابية ومسحت بعيني الشارع لأتأكد أنني لا أعرف أحداً وأنَّ لا أحد يعرفني، رأيت عصفوراً، يمر بهدوء بين أفرعِ الشجر ويصدح بجدية مثل الطيور على قبر جهنجر. فكرتُ: *أُدعوا لي أنا الأخرى*.

سار رحيم في الشوارع، يبتعد عن الفندق وفي الاتجاه المعاكس لمبنى البرلمان. انتظرَ رحيم *الباشابوش* أن يُنادي أحد عليه، أن يعثروا عليه، ويجرّونه إلى بيت عبد الخالق ويُعاقبونه.

رحيم، يرتعش بشدة ويشعر بساقيه تخوران، يحتاج إلى مخبأ.

الفصل 68
رحيمة

نفير سيارات الأجرة. مرت بجانبي سيارة وأنا أحاول شق طريقي لأعبر الشارع من تقاطع طرق مزدحم. لعنت نفسي لاختياري العبور من تلك النقطة، من أمام الكثير من السيارات. شعرتُ بملايين العيون عليَّ، عيون قد تلاحظ شيئًا ما خطأ في هذا الفتى اليافع. ألم أبدُ مرعوبة، كأنني أهرب من شيء؟ ألم يلاحظوا أن صدري كبير كصدر فتاة؟

بذلت ما في وسعي للفّ صدري بطرحة لكن الأمر أصعب الآن مما كان عليه منذ سنوات قليلة. أكسبتني لي ولادة جهنجر ثنيّات يصعب إخفاؤها.

- هاي، باشا! انتبه لطريقك!

صاح السائق من نافذته، السيجارة بين أصابعه وهو يلوح لي بغضب.

لم أتوقف، لوحت له بيدي اعتذارًا، ممتنة بداخلي لعلمي الآن أن تنكري ناجح. كان من المضحك مدى سهولة ابتعادي عن طريقه، شعور بالارتياح حتى وأعصابي تشتعل.

يخبط صندلي الطريق الترابية، ساقاي حرتان في البنطال، القميص الواسع يخفي مؤخرتي.

كانت الساعة الحادية عشرة تقريبًا حين تركت الفندق. كأن ذلك منذ عام مضى، مع ذلك لم يمر أكثر من عشرين أو ثلاثين

دقيقة. اقترب أتوبيس، يتباطأ بالقرب من تجمع أشخاص، نفيره غريب. ربما كان هذا هو. بحثتُ عن لافتات، التفتُّ وخارت ركبتاي فجأة. سيارة رياضية سوداء تتباطأ وهي تقترب، على مسافة مبنى واحد.

شعرت أنني تحت الضوء حتى في الشارع المزدحم، أتساءل هل عثروا عليّ. إن لم يكن الأمر كذلك فالأفضل ألا أركض لئلا ألفت الأنظار.

أخفضَ سائق السيارة زجاج نافذته ببطء فندت عني أنَّة رعب خافتة.

لكنه كان وجهًا لا أعرفه. ليست سيارة عبد الخالق.

هدأ روعي بسرعة، توجهت إلى الزحام في انتظار الأتوبيس.

– أهذا هو الأتوبيس إلى وزير أكبر خان؟

لم يلتفت إليّ أحد. سألتُ مجددًا، بصوت أعلى. حاولت تقعيره، لأخفي نبرتي الأنثوية: أغا، هل هذا الأتوبيس يذهب إلى وزير أكبر خان؟

التفت إليّ أحدهم منزعجًا، يرتدي قميصًا بأزرار مغلقة وبنطالاً ويحمل حقيبة أوراق. قال: نعم، هوا أسرع إن كنت ستركب.

حاول هو ورجل آخر المرور وركوب الأتوبيس في الوقت نفسه، يتسابقان لإيجاد موطئ قدم في مساحة الوقوف.

لم يكن سهلاً لكنني تدبرت أنا أيضًا الصعود إلى الأتوبيس المزدحم. نظرتُ حولي، لا توجد امرأة واحدة بين الركاب. شعرت بوجهي يحمر لوجودي بين رجال كثيرين على هذا القرب. أبقيت

مرفقيّ قريبين من صدري أنكمش كلما دفعت حركة الأتوبيس بجسد نحو جسدي. مددتُ عنقي لأنظر من بين الصدور والأذرع. أتمنى أن أميز محطتي.

سيتوقف الأتوبيس في شارع تصطف على جانبيه المحلات. ابحثي عن صالون تجميل بين محل بيع أجهزة إلكترونية وبائع أطعمة. في العادة يقف هناك شحاذ بلحية طويلة ونصف ذراع.

كانت المسافة طويلة إلى وزير أكبر خان. سالت حبات العرق على عنقي. بدأت أعصابي تهدأ فيما تزداد المسافة بيني وبين الفندق، بيني وبين حرس عبد الخالق.

كان من المفترض أن أصل إلى هناك في الثانية عشرة. كنت قد خططت لمغادرة الفندق في وقت مبكر لكن بدرية استغرقت وقتها هذا الصباح، عرّضت الخطة كلها للمخطر.

وزير أكبر خان منطقة في شمال المدينة، ضاحية تضم العديد من السفارات والسكان الأجانب. الشوارع أوسع من الجزء الذي رأيته من كابول. تصطف على جانبيها بيوت من طابقين. حاولت ألا أبدو متوترة وتائهة كما شعرت.

تباطأ الأتوبيس. *صيدلية وزير أكبر خان*، قرأتُ لافتة على مبنى.

هذه هي، فكرت وشققت طريقي في زحام الأتوبيس لأهبط قبل أن يتحرك.

لا أعرف أحدًا ولم ألحظ أي نظرات متشككة. عدت أنتبه إلى المحلات، أبحث عن اللافتات المذكورة. أمام أحد المحلات صناديق منظّفات وأدوات منزلية. توجد جزارة. يوجد كل شيء ما عدا ما أبحث عنه.

انعطفتُ في أحد الشوارع لكنني لم أرَ سوى بيوت. بيوت جميلة تجعل بيت عبد الخالق يشعر بالعار. مبان جديدة بواجهات حديثة لم أجد الوقت لأدقق فيها. كانت الدقائق تمر وقد تفوتني الفرصة.

استجمعتُ شجاعتي لأسأل أحد المارة. تحدثتُ بصوت مقعر تحسبًا.

- أغا صاحب؟ أغا...

- الله يسهل لك يا ولد!

قال الرجل وواصل سيره.

بحثتُ عن أحد آخر لأسأله.

مرت امرأة. هممت بالاقتراب منها لكن لساني تجمد حين رأيت الولد الصغير، في الثالثة أو الرابعة ربما، يمسك بيدها بقوة. أشـ ـيارة في الشارع ورفع بصره ليرى إن كانت أمه قد لاحظتها. ومأتْ وقالت له شيئًا ما جعله يقهقه بسعادة.

جهنجر. فكرت، بصدر منقبض.

مرت المرأة قبل أن أستعيد نفسي. واصلتُ سيري في الشارع، أمسح دموعي. توقفتُ أمام نافذة عرض أحد المحلات، لمحت ساعة فتملكني الرعب.

الساعة الواحدة. تسارع نبضي. لو تأخرت سينهار كل شيء. سأكون قد خاطرت بكل شيء مقابل لا شيء.. ماذا سيحدث لي؟

تحركت عيناي عن الساعة إلى إعلان معلق على الواجهة.

زوروا صالون تجميل شكيبه، ساراي شهزادة. تجهيز عرائس وجميع أنواع المناسبات.

لا بد أنه هوا فكرتُ. شكيبه.

أغمضتُ عينيّ، جدد اسم المحل عزمي. كما لو كان يدًا امتدت لتأخذ بيدي. قرأت الإعلان مجددًا.

ساراي شهزدة. كنت متأكدة أنني رأيت لافتة باسم هذا الشارع فعدت أدراجي. انعطفت يسارًا مرتين وعدت إليه مجددًا. تمنحه الأشجار والممرات الجانبية الإسمنتية منظرًا نظيفًا وودودًا. وجدت صالون التجميل خلال دقائق، يقع بين محل الأجهزة الإلكترونية ومحل أمامه في الخارج كراتين فاكهة وخضروات.

صالون تجميل شكيبه.

كما قيل لي، نظرتُ أمامه على الجانب المقابل من الشارع ورأيت مقهى.

اتمنى ألا أكون قد تأخرت.

تقافزتُ بين السيارات المارة وعبرتُ الشارع ودققتُ النظر من زجاج المقهى. أمسكتُ بمقبض الباب بقوة. أخذتُ نفسًا عميقًا وتمنيت ألا أبدو لمن في الداخل مجنونة.

وجدتها على الفور، تبرز خصلات شعرها الناعمة من تحت طرحتها الرمادية الأرجوانية. كانت عيناها على الباب وبدت عصبية مثلي تمامًا. رفعت يدها لتغطي فمها المفتوح حين ميزتني، ثم وقفتْ.

تحركتُ بين الطاولات، أفغانيون يتحدثون بالإنجليزية، أجانب يحتسون شايًا أخضر بحب الهال.

همستِ حين وصلتُ إلى طاولتها: لقد نجحتِ!

- نعم، مس فرانكلين.

قلتُ وألقيتُ نفسي على الكرسي.

الفصل 69
رحيمة

مرت تسعة أيام قبل أن أرى صفية وحميدة. ظلتا بعيدتين خشية أن تقودا إليَّ شخصًا ما بطريقة ما. دمعتْ عينا حميدة حين رأتني. أطلقت صفية صيحة نصر، حيوية لم تتفاعل بها في الجلسات البرلمانية قط.

كنت أنا ومس فرانكلين قد توجهنا مباشرة من المقهى إلى مأوى للنساء كانت تعرفه. لم يكن المأوى الذي سمعنا عنه. بل مأوى آخر، أبعد بكثير عن مبنى البرلمان وعلى الحدود الغربية للعاصمة.

وجدته حزينًا ومريحًا في آن. سمعت هناك قصصًا جعلتني أنكمش، جراح لن تندمل أبدًا.

تعيش هناك امرأة مع أطفالها الثلاثة. حين علم أهل زوجها بوفاته، اتهموها بقتله. قررتْ وهي على وشك الزج بها في السجن المخاطرة بالهرب بدلاً من ترك بنتيها وابنها وحدهم.

امرأة أخرى هربت من زوج يده ثقيلة، كان يخونها مع أختها الصغرى. تسللتْ بهدوء ذات ليلة وهو نائم يشخّر إلى جانبها وسارت يومين وليلتين حتى وصلت إلى قسم شرطة.

وهناك تلك الفتاة، من سني تقريبًا، التي جعلتني قصتها أطلق تنهيدة راحة لأنني لم أكن وحدي. زوّجوها وهي في الثانية عشرة من عمرها لرجل عمره خمسة أضعاف عمرها. ألبستها عائلتها ثوبًا أبيض ذات يوم وأخذوها إلى حفل. في نهاية الحفل

غادروا من دونها. بعد ذلك بأربعة أعوام، هربت، تركت بيت أهل زوجها الذين عاملوها معاملة العبيد.

لم أكن مستعدة لمشاركة قصتي معهن. حتى هنا، في تلك الغرفة المفتوحة بسجادها الأفغاني ورائحة الكمون، كنت أشعر أنني في متناول يد زوجي. إن عرف أين يبحث، سيستغرقه الأمر يومًا واحدًا فقط ليصل إليَّ. جعلني هذا متوترة للغاية لدرجة أني بالكاد كنت آكل.

جاءت حميدة وصفية مرة واحدة. كنت أفتقدهما لكنني لم أتوقع منهما أكثر من هذا، أعرف أن الطريق طويلة وأنهما لديهما التزاماتهما الأسرية. زيارة مأوى قد يلفت الأنظار غير المناسبة ويُعرِّض الجميع للخطر. سأظل أفكر فيهما بحب وامتنان عميقين، سأتذكر دائمًا كيف وضعتا ومعهما مس فرانكلين خطة هروبي من قدري الذي كان في انتظاري لو كنت عدت إلى زوجي. لم تعن خطتنا بما سيحدث لبدرية مع ذلك. رأتاها حميدة وصفية مرة واحدة فقط في اليوم التالي لاختفائي. بدت حانقة ومرتابة، قالتا، لكنها فيما يبدو صدقت دهشتهما لسماع خبر اختفائي. كنت متأكدة أن عبد الخالق لن يسمح لها بالعودة إلى كابول مرة أخرى أبدًا، وكرهت أن أفكر فيما فعله بها حين عادت إلى البيت. مع أنها لم تكن ودودة معي، لكنني لا أحب أن يتعرض أحد لغضبه.

كان لدي الوقت في المأوى، وقت لأجلس أخيرًا وأتأمل في كل ما حدث. شعرت بخجل حين تذكرت محادثتي مع خالة شايما، انفجرتُ فيها قائلة إن تعليمي الذي ظلت تحثني عليه لم يفدني في شيء.

لم يكن هذا حقيقيًا، بل كانت معرفتي بالقراءة والكتابة ما جعلني أرافق بدرية في السفر إلى كابول. كانت قدرتي على الإمساك بالقلم لهدفٍ محدد ما أهّلني لمساعدتها وحبب إليَّ البقاء مع حميدة وصفية في مركز الموارد. كانت سنوات الدراسة القليلة ما مكنتني من قراءة إعلان صالون التجميل في نافذة العرض، لأجد الشارع حيث تنتظرني مس فرانكلين متوترة لتساعدني على الهرب.

أنا آسفة يا خالة جان. آسفة لأنني لم أشكرك قط على نضالك من أجلي، على كل ما علمتِيه، على كل قصصك، وعلى المخرج الذي منحتِيه.

كنت آسفة أيضًا لأنني لم أستطع إخبارها بأنني نجحت في الهروب وبأنني آمنة. أتمنى ألا تظن أن عبد الخالق قد قتلني. دعوت الله ألا تذهب لزيارتي في بيت عبد الخالق، أعرف أنه سيقابلها بغضب. أقنعتُ مس فرانكلين أخيرًا بأن نرسل إليها خطابا بالبريد.

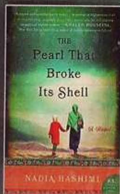
الخطاب، مرسل إلى خالة شايما، من ابنة عم لها من الدرجة الثانية ولا يَذكرُ شيئًا سوى رائحة الهواء الطلق، وصوت تغريد الطيور الرائع، والأمل في أن تتمكن الأسرة من الزيارة قريبًا.

لم أعرف، ولن أعرف أبدًا، أن خالة شايما قرأته بالفعل. أو أن أختها الكبرى، خالتي زبا، قد وجدته في يدها بعد يومين. لم تفهم خالة زبا شيئًا منه بالطبع، فهي لم تذهب إلى مدرسة ولم تتعلم الأبجدية حتى. كذلك فزعت بشدة حين وجدت أختها المعوقة باردة ومنقطعة النفس، فلم تشغل نفسها بالتفكير في

الخطاب كثيرًا على كل حال، لكنها بعد ذلك بأسبوعين، حين استعادت روتينها اليومي المعتاد وغردت الطيور بما يكفي على قبر خالة شايما، طلبتْ من زوجها أن يقرأ لها الخطاب، واحتارتْ أي ابنة عم هذه من تكتب لأختها المعوقة خطابًا عن أشياء تافهة مثل الطيور والهواء.

كان الخطاب مذيلاً بالتوقيع: بيبي شكيبه.

NADIA HASHIMI



تسرد هذه الرواية للكاتبة الأمريكية، ذات الأصول الأفغانية، "نادية هاشمي" تفاصيل قصة حزينة يجد العجز فيها نفسه في مواجهة القدر، وتمسك الأعراف فيها برقاب المصائر، وبين طيّاتها ينبعث عبق ثقافة شعب مزقته الحروب، وعاطفة رقيقة تكاد تردد الجبال الأفغانية صداها.

لقد كتبت نادية هاشمي:
"أولاً وقبل كل شيء، قصة عائلة رقيقة ورائعة. إن قصتها الجذابة، التي تعبر أجيالاً متعددة، هي صورة لأفغانستان في كل مجدها الغامض والمربك، ومرآة تعكس صراعات النساء الأفغانيات التي ما تزال مستمرة إلى اليوم".

خالد حسيني:
مؤلف كتاب "عداء الطائرة الورقية".

kalemat
www.kalemat.com